حيـــاة

مايلز كوبلاند

الضابط في المخابرات المركزية الأمريكية
ودوره في مصر وسوريا ولبنان وإيران



ترجمة : صادق عبد على الركابى

مكتبة مدبولى

مكتـــبة مدبـــولى

العنوان : ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ - فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤
البريد الإلكترونى :
WWW.madboulybooks.cominfo@madboul
ybooks. com

الكتاب : حياة مايلز كوبلاندالضابط فى المخابرات المركزية
التأليف : مايلز كوبلاند
الغلاف للفنان : محمود الهندى
رقم الإيداع : 2006/19570
الترقيم الدولى : 8-646-208-977
القطع : ١٧ × ٢٤ سم
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠٠٧ م

مطابع الشرطة للطباعة والنشر والتوزيع

ش المرور بالدراسة - القاهرة
تليفون ٥٩٠٣٠٣٠ - ٥٩٠٣٥٣٥

الآراء الواردة فى هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر
الكاتب، ولا تعبر بالضرورة عن رأى الناشر

حياة مايلز كوبلاند

الضابط في المخابرات المركزية

ودوره في مصر وسوريا ولبنان وإيران

تأليف

مايلز كوبلاند

ترجمـــة

صادق عبد علي الركابي

منتدى سور الأزبكية

www.books4all.net

الناشر

مكتبة مدبولي

2007

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

مقدمة المترجم

تعتبر الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية من أهم الفترات المؤثرة في التاريخ ، فقد شهدت هذه الفترة ظهور دول واختفاء أخرى وتوحيد دول وانقسام أخرى و بروز دول كقوى عظمى وانحطاط أخـرى وهـذه مـن جملـة النتـائج الدراماتيكية المثيرة للحرب العالمية الثانية. وبالنسبة إلى منطقتنا شـهدت هـذه الفترة أخطر الأحداث وأكثرها راديكالية ويكفي القول إنها شهدت ظهور إسـرائيل والحروب العربية الإسرائيلية والثورات والانقلابات على الأنظمة العربية السـائدة حينها و مشاريع الوحدة وانتعاش الشعور القومي لدى الشعب العربي ولاتزال هذه الأحداث ملقية بظلالها و مهيمنة على الأوضاع العربية والدولية حتى يومنا هذا ، وقد كتبت الكثير من البحوث والمذكرات والتحليلات لهذه الأحـداث كـل حسـب منطلقاته الفكرية ورؤيته السياسية و جذوره الاجتماعية والقومية إلا أنه لا يزال هناك الكثير الذي يمكن قوله والمزيد من الأسرار التي لم يكشف عنها أو كشـف جانب واحد منها.

يتناول هذا الكتاب تلك المرحلة الحرجة من تاريخ العالم والـوطن العربـي والشرق الأوسط وهو ليس بالدراسة التاريخية والتحليلية بل هو مذكرات شخص عاش هذه الفترة واشترك في صنع جزء من أحداثها ولديه الكثير مما لم يقله أحد في السابق. مؤلف الكتاب مايلز كوبلاند من مؤسسي وكالة المخابرات المركزيـة عمل مديرًا لمحطتها في دمشق وكان له دور في ثورة حسني الـزعيم بسـوريا وارتبط بعلاقات قوية مع بعض الشخصيات المصرية إبان حكم الـرئيس الراحـل عبد الناصر والتقى به العديد من المرات ويدعي بدور للمخابرات المركزيـة فـي

ثورة ١٩٥٢ بمصر ، كما كان له دور أيضا في العملية التـــي أطاحـــت بـــرئيس الوزراء الإيراني مصدق عام ١٩٥٣ والكثير من الأحداث التي شهدتها المنطقـــة خلال تلك الحقبة من الزمن . وهو كاتب بارع وعقلية استراتيجية ذكيـــة. ومـــن كتبه الشهيرة « لعبة الأمم » و « تحت العباءة والخنجر » وقد ترجما إلى العديـــد من لغات العالم وطبعت منهما ملايين النسخ. والكتاب الذي بين يديك هو ســـيرة حياة هذا الرجل وعلاقته ببعض الأحداث في منطقتنا، وقـــد أســـماه The Game Player.أي اللاعب. وارتأينا أن يكون عنوانه حياة مايلز كوبلاند طالما أنه يتحدث عن حياته.

في الآخر أتقدم بالشكر والعرفان إلى الدكتور عبدالهادي جبـــار العبـــودي صديق الطفولة وعنوان الوفاء، الذي أجد بابه دائما مفتوحًا أمامي عندما توصـــد بوجهي كل الأبواب، لأغرف من معين حكمته ما ينقصني. كما أشـــكر الصـــديق المخلص علي حسين حسن القره غولي (أبو ميسم)، لما بذله من جهود مضـــنية وصبر جميل وسهر لليالي في تنقيح هذا الكتاب والكتب الأخـــرى، فتحيـــة حـــب وتقدير له .

المترجم المحامي صادق عبد علي الركابي

بغداد ٢٠٠٥/١١/١٩

e-mail:Sadiqrikabi@yahoo.co.uk

مقدمة المؤلف

من خلال قراءة كتب المؤلفين توصلت إلى استنتاج يفيد أنــه مــن المعتــاد تضمين الكتاب صفحة أو صفحتين من الشكر يذكرون فيها أسماء الأشخاص الذين ساعدوهم في تصحيح الأخطاء وتقديم المعلومات التي سقطت ســهواً . حســناً ، لا أحد ساعدني في إضافة أي شيء لهذا الكتاب الــذي يتنــاول ســيرة حيــاتي المتناثرة .

والحقيقة أني عندما حاولت استذكارها انسقت بحماس في العمل ، وقبــل أن أقرأ ما كتبت ، كنت قد أنجزت حوالي ٧٠٠ أو ٨٠٠ صفحة مطبوعة تضم ربــع إلى نصف مليون كلمة .

كانت المخطوطة ممتعة إلا أن صديقي الناشر ميشيل الكوك قال إنها " ضخمة قليلاً " . وبمقصه الذي اعتاد أن يقص بــه مخطوطــات المــؤلفين المشاكســين وبمعونة يده الضاربة السيد بيترجيمس ، قصوا كتابي إلى نصف حجمه الأصلي . لهذا فإن الأسماء التي سأذكرها هنا هي ليست للأشــخاص الــذين قــدموا إلــيّ المساعدة في إنجاز هذا الكتاب بل للناس الذين قدموا إليّ المساعدة خلال حياتي . من بين هؤلاء ، هناك العديد الذي قدموا الي التشجيع والمساعدة التــي لا تقــدر بثمن . إن من أذكرهم هنا هم القــلة فقط الذين لدي معهــم حكايــة مســلية أو قصــة (كما أعتقد) ، وكانوا ضحايا لقسوة ناشري .

وهم : نائل وسهيل أسعد ، والسير ريتشارد بيومونت والسيرهارولد بيلــي أيكلبرغر، وبرسيلابوكلي وجين (كارتر) بورك ، وكــاي كــلارك ، وآن دايمونــد

(لهفي عليها!) ، وتومي و ثيلما (بيرنز) دورسي ، و نيكولاس اليـوت . كـولين غرافي ، كرستاين هيلمز ، وبان لوشري ، وبيتر لون ، وسينشيا مـاركوليس ، كاتي ماركوفيتس ، هيلين مورسين ، جون آوسوليفان ، دايفـد فيليـبس كابـل رايلي ، باتريك سبل ، ليلى (ماو) شتراوس ، جين روتيشارد بـاركر . اركـادي والين شفشينكو ، بروس ولويس شتارزنسكي و .. أخيراً هناك حوالي عشـرين اسماً ، إلا أنهم أصدقاء ، وأرى أنهم – لسبب أو آخر – سوف لن يشعروا بالغيظ لعدم ذكري لهم .

وبخصوص الآخرين ، لقد جعلني ميشيل احذف اسماء اشخاص ذكرتهم فـي المسودة الأصلية لأنني أرى انهم قد اضافوا نكهة محببة على قصتي ، قال إنـه مجرد حذف لأسماء . (مثالها القصة التي تدور حول قيامي مـرة بـدلق صـحن مقبلات البطاطا على رأس الرجل المحترم سام جينكانا في ماخور هارلم هو مجرد حذف اسم . ثم يظهر مشاور قانوني من مكان ما ، ويحذف بعض الحكايات التي أعتبرها ممتعة ، إلا أنه يعتقد أنها تعرضنا لدعوى التشهير. على سبيل المثـال، هناك إشارة لكيفية قيام أحد أصدقائي من المخابرات البريطانية sis بوضع ضابط مخابرات فرنسي في مأزق عندما كان على وشك إطلاق صافرة البدء في عمليـة صغيرة مشتركة نقوم بها نحن الثلاثة في ليبيا. إنني أفهم الموضوع بأن صديقي قد أدى خدمة عامة، إلا أن المحامي قال إن رجل المخابرات البريطانية قد لا يراها بهذه الصورة، كما أنه قد أنكر علنا الحدث وربما نسي تماما أننـي كنـت أقـف بجواره عندما سحب الزناد.

وهناك عدة حكايات أخرى في المسودة الاصلية ، وقد سردتها بأفضـل مـا يمكن من الكياسة إلا أن المحامي قد منعني حتى من الإشارة غير المباشرة لها . لا عجب فلا أحد سوف يكتب كتابا صادقا عن هذا الميدان الخاص مـن نشـاطي: فالكثير من الأقدام المؤثرة سترحل.

ولكن حسنا،ربما يكون ميشيل ومحاميه على حق، إلا أنهما لايحبذان نمطـا معيناً من الحذف كنت مصراً على القيام به. لقد ذكرت في جميع كتاباتي السـابقة في مكان معين من النصوص بأني لم أعرض المسودات على السلطات المختصة في الوكالات الحكومية البريطانية أو الأمريكية لإجازتها . مع ذلك فإني قد اتبعت ضوابط أمنية خاصه بي . لقد امتنعت بدافع وطني عن ذكر أي شيء أعتقد أنه قد يضر بالمصالح الخارجية للولايات المتحدة ، إلا أن هذا ليس كل شيء . قبـل أن أعطي إشارة المباشرة بالطبع لأي ناشر أرسل المخطوطات إلى اثنين أو ثلاثة من الأصدقاء الذين يحتلون مكانة مرموقة في الحكومتين البريطانية والأمريكية مـع بطاقه تقول : " مسودة نسخة مجانية ، أتمنى أن تعجبكم " . فـإذا لـم أتلـق أي جواب ، أفترض أنني أسير على أرضية سليمة ، ليس مـن الناحيـة القانونيـة فحسب ، بل من حيث الضمير ، لقد كنت لفترة طويلة مؤمناً بذلك الشعار القـديم الذي أصبح الآن سمجاً ومثيراً للسخرية : " مع بلادي، على حق أم على باطل " . عليَ أن أضيف أنه بعد إصداري ثلاثة كتب وحوالي عشريناو ثلاثين مقالـة فـي المجلات والصحف تمس قضايا اقتصادية وأمنية بالغة الحساسية ، استدعيت أربع مرات فقط ، ثلاث منها من قبل أعضاء كبار في الحكومة الأمريكية، مرة واحـدة من قبل عضو كبير في حكومة صاحبة الجلالة . قالوا لي خلال الدعوات بأدب جم ربما يكون من الأفضل لو لم أكشف هذا الموضوع أو تلك الحالة ، وكنت أذعـن لطلباتهم دون تردد إذ كان هذا أفضل . إلا أنه بالنسبة لهذا الكتاب كانت الاستجابة مختلفة إلى حد ما . فقد تلقيت رسالة من إحدى الشخصيات التـي أرسـلت لهـا نسخة من المخطوطة وكانت رسالة شخصية في نبرتها ، إلا أنه من الواضح أنها قد كتبت بناءً على أوامر من رؤسائه . لقد شكرني على تذكري إياه ، ثم اسـتمر يقـول إن الكتاب قد مس قضـايا ربما يكون هو لا يعلم بكل أولياتها ، إلا أننـي ربما لا أعرف درجة حساسيتها البالغة . قال ببراءة ، إن حكاياتي ربمـا تمكـن

الأعداء الألداء للولايات المتحدة من معرفة الحلقـات المفقـودة للأسـرار التـي يمتلكونها ويستخدمون معلوماتهم المكتملة هذه للإضرار جدياً بمصالح الولايـات المتحدة . وهكذا ذهبوا بعيداً . مع ذلك ، وحيثما كان ممكنـاً ، ومجـاراة لسـيئ الصيت فكتور مارشيتي ، عينت مواضع في الكتاب جرى حذف بعض تفاصيلها.

وبالمناسبة ، ورغم مواقفه السياسية المحيرة ، أثبت فكتور أنه صديق لطيف عندما كانت ترتفع مبيعات كتابه عن المخابرات المركزية بينما يعاني كتابي مـن الركود ، سافر على نفقته إلى لندن لمساعدتي في رفع مبيعات كتابي عن طريـق إجراء الحوارات معي في العديد من البرامج الإذاعية والتليفزيونية كما أنه وقـف إلى جانبي علناً عندما امتنعت وكالة المخابرات المركزية عن تقديم الدعم لي كما قدمته له . عندما زرتُ الدائرة القانونية في الوكالة لأعلمهم بالأسرار التي أنوي كشفها ، فبدلاً من إحالتي للمحكمة أخبروني أن عليّ الـذهاب وعمـل الدعايـة لنفسي. المعونة الوحيدة التي حصلت عليها هي من الجاسوس الشهير كيم فيلبي الذي ذهب إلى راديو موسكو لإبلاغ العالم أنه وجدني بعـد معرفـة لأكثـر مـن خمسين عاماً أنه ليس مثلي من هو أكثر نذالة وانعداماً للضمير.

الفصل الأوّل

الألباما أو (الستانتيبس) (stantibus)

كان من بين علماء النفس التابعين لوكالة المخابرات المركزية الذين قـابلوني بهدف تكليفي بمهمة خاصة هو الدكتور إغرتون بالاشي (Egerton Ballachi) مـن جامعة استانفورد الذي كان أحد أعضاء فريق الدكتور موراي من جامعة هـارفرد ومؤلف أحد روائع الكتب عن الحرب العالمية الثانية المسمى "تقييم الرجال" وكذلك الرائد وليم مورغن (William Morgan) وهو عالم نفساني من جامعـة يـال درس موضوع : " القدرة على احتمال الفشـل " لعمـلاء المخـابرات فـي المحطـات الاستخبارية الفاشلة ، والدكتورة مابل تيرنر (Mabel Turner) وهي امرأة طيبة في الستينيات من عمرها وقد سبق أن تم إسقاطها في الحرب الثانية خلف خطوط العدو مرات عديدة وقد حازت على الكثير من أنواط الشجاعة ، وكتبت دليلاً باسم "العقلية الإجرامية والعمل المخابراتي " وقد حازت على الشهرة لتعاطفها وتفهمها العـالي لعمل وكالة المخابرات المركزية المشكّلة حديثاً بحيث كان أي مرتكب لخطأ معـين يناقش معها خطأه قبل أن يعالجه الجهاز الأمني .

عندما بدأت جلسة التقييم ، كنا مجموعة من ثمانية أو تسعة رجال ومعنا سيدة شابة جدية المظهر قد عادت لتوها من بعثة اثارية في شرق أفريقيا. ولكن عنـدما حان وقت الاختبارات المكتوبة ، مدت إحدى السكرتيرات رأسها من الباب لتدعوني إلى الخروج لقضية خاصة . وفي غرفة خالية إلا من منضدة وقليل من الكراسي ، جلست وحدي أجيب عن الاختبارات صح أم خطأ ، والاختبار المتعدد ، واختبارات تداعي المعاني والأفكار وفي الآخر اختبار الشخصية والذكاء حيث ينظر الطالـب إلى سلسلة من بقع الحبر ذات الاشكال المتماثلة ويكتب ماذا توحي له . وكنت طيلة

الوقت أتعرض لنظرات ثاقبة من امرأتين جميلتين تبدو عليهما علامات الأستاذية ، وكانتا تحولان نظرهما مرة نحو كتفي بينما كنت أكتب ومرة يحدقان بي بإمعـــان لكشف أي تغيير قد يظهر على تعابير وجهي أثناء إجابتي على الأسئله التي يعرفان أنها خادعة .

اجتزت الاختبارات بسرعة ، وأعادوني إلى الغرفة الاصلية التـــي غادرهـــا المتقدمون الآخرون ، حيث جلست أمام ثلاثة من علماء الـــنفس . طلبـــت منـــي الدكتورة تيرنر أن أذكر دون لحظة تفكير ثلاثة من الاشخاص الذين أكرههم . لـــم يرد على خاطـــري أي شخص ولكن بعد ثوان قليلة من التفكير قلت لها ليس لدي ما أكرهه .

قالت لي : " هيـــا، قل ؟ ، من المؤكد ان لديك شخصاً تكرهه " ومرة أخـــرى لم يرد على خاطري أي اسم ، وقد حاولت ذلك جدياً . يقالُ في ذلك الوقت إن ويل روجرز قال : " لم ألتق أبداً بإنسان لم أحبه " ، لم أصل إلى هـــذا الحـــد إلا أننـــي أستطيع القول بتجرد أنني لم ألتق أبداً برجل أو امرأة وكرهتهما ، إلا أن فطرتـــي تحتم عليّ ألا أعترف بذلك . وما هو مهم هو أنني الآن أخضع لاختبـــار لغـــرض تكليفي بمهمة خاصةً وفي وكالة لا يعتبر فيها الحب المطلـــق للإنســـانية مصـــدراً أساسياً للنجاح .

قلت: " حسناً لا أمقت كثيرًا أدولف هتلر " . لم يولد هذا الجواب سوى ضحكة مكبوتة من قبلهن . انه كقول مريض بالإيدز :" حسنا، إنني بمرضي هـــذا أخفـــف وزني على الأقل " بعد ذلك سألني كل واحد من الأشخاص الثلاثة عدة أسئلة عـــن معتقداتي الدينية . قلت لنفسي :" حسناً . لقد عرفت الآن ماذا تقصد . أوضحت لها أن حبي للإنسانية أو بالأحرى عجزي البائس عن كره أي جزء منها لا يعود إلـــى شيء أكثر من مجرد نقص فطري ليس له أي أساس أخلاقي مهما كان . وقلت لها بابتسامة بريئة " إذا أردتني أن أخرس شخصاً معيناً ، سأكون مسروراً لفعل ذلـــك، ولكن لا تطلبي مني أن أكرهه . " كان هذا هو الجواب المثالي". لقد قادني إلى أول

خطواتي في العمل خارج الحدود، في دمشق بسوريا حيث يعتبر مثل هــذا المبــدأ أساسياً .

وهكذا واصلت الإجابة عن الأسئلة التي دفعتني لذكر هذه الاختبارات في هذا الفصل .

سألني الدكتور بالاتشي (Ballachi) :" هل يمكن أن تتذكر أول من أثروا فــي حياتك وقرروا ما أنت عليه الآن ؟ "

قلت له :" نعم ، إنهن الآنسات إدي (Eddy) و اركيبالد (Archibald) و كــالن (Callen) وواحدة أو اثنتان لم أعد أتذكر اسميهما ولكنهن جميعاً قد أثــرن بحيــاتي كثيراً . قلت لهم أنني ذكرت أول أساتذتي في المدرســة الثانويــة والــذين دقــت أسماؤهم بقوة في رأسي .

قال لي : " أليس هناك من مدرسين رجال ؟ هل لديكم مدرســات فقــط فــي الثانوية ؟ "

قلت : " أعتقد أن هناك القليل منهم إلا أنهم ضعاف ، ولا أتذكر أياً منهم."

قال : " وأي منهم النموذج الذي تحتذي به ؟ "

قلت : " أعتقد أن عليّ أن أقول إنها الآنسة فاليونغ اركيبالــد (Valleyoung Archibald) ، هل يمكن أن أنسى هذا الاسم ؟ إنها كانــت بحــدود ... " ، وقــد لاحظت عليهم اهتماما غريباً ولكن لأسباب غير واقعية وفجــأة أدركــت مــا دار بخلدهم . وقلت : " إن ما أعنيه هو أنها شخصية لطيفة ، وكنت أحــب ظرفهــا ، وطريقة تعاملها مع الناس وما شابه ذلك . ولكن نموذجي الذي أحتــذي بــه هــو دوغلاص فيربانكس (Douglas Fairbanks) ". كان ذلك هروباً سريعاً من الموقف .

تنفس الجميع الصعداء . تطلب الأمر من اساتذتي لإقرارهم تعييني أن أتمتع بذكورية شديدة، علمت لاحقاً أن العلماء الثلاثة قد كتبوا من بين أشياء أخرى فــي

ورقة تقييمي مباشرة بعد عبارة " ذو شخصية فاقدة للحـــس الأخلاقـــي . أننـــي : "شهواني شديد للجنس الآخر "، إلا أن اختبار تداعي المعاني والأفكار واختبار بقع الحبر قد أشار كما علمت بعد حوالي عام عندما سرقت ملفاتي الشخصية من دائرة السجلات المركزية ، إلى أن للنساء تأثيرًا كبيرًا على حياتي ، ولاشك أنهن كـــذلك حتى اليوم . إن ما هو صحيح بالنسبة لي هو لاشك صحيح بالنســـبة إلـــى جميـــع الذكور الذين نشأوا في الالباما في العشرينات و الثلاثينات . وقد كانت النسوة مـــن اللواتي يتصفن بالذكاء والجاذبية والتعليم الرفيع أو كما كنا نسميهن " بالسيدات " في أقصى الجنوب يقبلن العمل برواتب قليلة في وظائف التـــدريس ، بينمـــا لا يقبـــل أقرانهن من الرجال هذه الوظائف حتى في أسوأ فترات الركود الاقتصادي .

ولكن لماذا أدليت بمثل هذا الجواب الأحمق ؟ فقد كنت أعتقـــد أنـــه الجـــواب الصحيح وقد عرفت الآن السبب. فعندما دخلت لأول مّرة إلـــى دائـــرة الخـــدمات الاستراتيجية (oss) وبعدها مباشرة إلى وكالة المخابرات المركزية ، كنت متـــأثراً بشدة بتعليمهن الرفيع ، ليس بشهادات الدكتوراه التي يحملنها بـــل أيضـــا لكونهـــا ممنوحة من جامعات راقية مثل هارفارد ويال وباقي كليات جامعة Ivy . لقد كانت الآنسات إدي وأركيبالد وكالن وديفس وكيم وكروس وويلوفبي شخصـــيات رفيعـــة وأستاذات من الطراز الأول ويدركن جيداً أن العملية التي تجري داخل الصف هي التعليم وليس التدريس وأن عملهن هو تحقيق الفائدة لنا وتزويدنا بمعايير نســـتطيع بها الحكم على الأشياء . ودون أن يرف لي جفن أستطيع الآن القول أن "التعليم " ، الذي حصلت عليه مع الآخرين في مدرسة ارســـكن رامســـي (Erskine Ramsay) التقنية في برمنكهام والالباما يضاهي إلى حد كبيـــر مـــا حصـــل عليـــه موظفـــو المخابرات المركزية من خريجي هارفرد ويال وبرنستون، الذين عملت بإمرتهم أو عملوا بإمرتي بعد سنوات .

دعوني أقدم لكم مثالاً . كان أحد أسئلة الاختبار التي تم توجيهها إلينـــا هـــي استخدام باروميتر لتحديد ارتفاع مبنى امبايرستيت (Empire state) . وبينما أخـــذ

الآخرون يجرون عمليات حسابية مما تعلموه في دروس الرياضيات بجامعاتهم المختلفة ، أعطيت الجواب الذي قادني مباشرة إلى الغرفة التالية كمكافأة خاصة . "أتمنى أن أجد المهندس المعماري وأقدم له باروميتر جديدًا جميلاً مقابل إعلامي كم يبلغ ارتفاع بنايته" . وهذا هو ما كنت أفعله لو واجهتني مثل هذه المشكلة غير المتوقعة في الحياة العملية .

لقد أعجب بي كل من الأساتذة بالاتشي ومورغان وتيرنر (أي إج وبيل ومابيل) كما أعجبت بهم وأصبحوا فيما بعد أصدقاء حميمين لي . إن أثر كوني محاطاً برجال ونساء ذوي مؤهلات علمية عالية هو خليط من تقدير لتعليمهم الأكبر ودهشة كاملة لدأبهم على تحويل المشاكل البسيطة إلى قضايا معقدة وبعدها يصبحون عاجزين عن حلها ، مع ذلك يعرفون كيف يقدمون إيضاحات مقنعة حول أسباب كونها غير قابلة للحل . منذ بداية عملي مع وكالة المخابرات المركزية ، كان يحيطني أناس بهذا النمط من التفكير . لهذا من الطبيعي أنه عندما سئلت عن أول من أثر في تكوين شخصيتي ، كان أول جواب خطر لي قد جاء متأثرا بدراستي العلمية رغم أنه كان بعيداً عن تصورات طارحي الأسئلة .

والآن دعوني أوضح ، من هو أول من أثر فيّ ؟ هل هو والدي ؟ كلا لقد كان أكبر من والدتي بحوالي ثمانية عشر أو عشرين عاماً ، وبعمر أجداد رفاق طفولتي وليس آبائهم . وكل ما أتذكره هو أنه مؤمن بالتدريس أكثر منه بالتعليم ، وكنت أقاوم أي شيء يحاول أن يفرضه عليّ و كانت نتيجة ذلك أن هناك نقاط مظلمة في مساحة وعيي أحتاج حقاً لرؤيتها بوضوح ، ونفور حاد من أي شيء يقدم إلي على أنه عمل روتيني نظامي، وهو الشيء الذي كان يفترض أن أقوم به . هل هي والدتي ؟ نعم ، كانت طيبة ، ومحبة ، ولطيفة ، وظريفة ، وراوية مدهشة للحكايات، وتتمتع بقدرة على أن ترى الجانب المشرق لسوء طالعي والوجه المسلي لأي مصيبة إضافة إلى شفقتها على ضحايا هذه المصيبة .

لقد أصبت بالسل مدة سنتين قبل أن ألتحق بالمدرسة كما يفترض ، وعندما التحقت بها كنت متميزاً عن الأطفال الآخرين بنفس المرحلة كوني قد أمضيت سنتين في دراسة مركزة على الفراش ، أتعلم القراءة والكتابة والحساب مع عمتي الكبيرة التي كانت تعتبرني " تحديًا " لها . ثم بعد ذلك جاء دور وايتس تايلر الجار المثقف الذي درسني ماذا يجب أن أقرأ ، ثم أخي الأصغر ، هنتر ، الجار اللاعب الرياضي ، والذي درسني دون أن يقصد كيف أضمن الرياضة في أسلوب حياتي الناشئة . وكما تلاحظون ، عندما التحقت آخر الأمر في المدرسة سرعان ما اكتشفت أنه ليس من الخطيئة أن تكون ذكياً أو أن تكون ضعيف البنية . ولكن أن تكون ذكياً وضعيف البنية، فإن الأمر يعتبر بالنسبة للأطفال الآخرين هو كالأعلام الحمراء بالنسبة لثيران المصارعة. إن الحقيقة التي حتمت أن يستطيع أخي الأصغر مني بسنتين صدّي متى ما هاجمته، هي التي جعلت مني ما أنا عليه اليوم. ولعلمي أنني لن أتمكن من التفوق عليه بالقوة البدنية، التجأت إلى المكر. وقد تميزت به وأصبحت لا يدانيني أحد في ذلك. وعندما كنت في أواخر العقد الثاني، لم أكن أفوق أخي فقط بالحيلة ، بل أيضاً الأطفال الآخرين بحيث أني أستطيع أن أنال كل ما أريده منهم . لقد جعلتهم يصطفون في دور لشراء طوابع تذكارية مزيفة وبطاقات يانصيب لرحلات سرية ، وعقار مثير للجنس يؤثر على الفتيات الجميلات (وهن النوع الوحيد الذي نريد العقار له) واكتتاب في حديقة حيوانات تضم حيوانات الألباما يتم اصطيادها بالفخاخ في وقت ما غير محدد في المستقبل بواسطة فرقة كشافة الفتيان(*) (Boy scout). وعندما افتضح أمري في الآخر ، قال ناظر المدرسة السيد تي . سي . يونغ ، إن على ضحاياي أن يشكروني لأني قد علمتهم درساً لا يقدر بثمن في حياتهم المستقبلية عندما يدخلون في العالم الحقيقي . لقد كان نفسه أول مكتتب في تلك الحديقة وبذلك ذاق طعماً طازجاً للعالم الحقيقي أكثر مما دفع من أجله .

(*) هي منظمة من الشباب والفتيان هدفها تطوير شخصياتهم ومهاراتهم وتدريبهم على واجبات المواطن وحقوقه . (المترجم) .

إن هذا يعيد إلي طوفاناً من الذكريات القديمة ، منها ذكرى جاك هولباينـــدر ، نجم مسرحية الربيع . لقد صنع حدثاً مثيراً وذلك بحدوث انتصاب لديه يمكــن أن نشاهده من جميع الاتجاهات من شرفة المسرح أثناء تشابك يديه مع يـــدي ميبيــل ابرناتي وهما يغنيان في (دويتو) أغنية (آه ، أوعدني) . لم يكن الصغير المسكين كبيراً بما يكفي لفهم ما يحصل له ، رغم أنه يعلم أن مسك يدي ميبيل لـــه علاقــة بالموضوع ، وكانت غافلة عن الأمر حتى تطور الضحك المكبوت إلى قهقهات ثم إلى ضحك عالٍ وفي الآخر نظرت إلى أسفل نحو بنطال جاك، فصرخت وفــرّت من المسرح .

وهناك ولد مسكين آخر هو هيركي مكورمك الــذي تعشــش فـــي ملابســه البراغيث وعندما اكتشفنا ذلك لأول مرّة ، لم يعد أحد يقترب منه ، ولم يجلس بقربه في الصف وهو أكثر فتى على وجه الأرض تعاسة. وكان يستحم مرتين في اليــوم ويستخدم جميع المبيدات الحشرية وهو يعيش في ماونتن برووك ، أفضل حي فـــي المدينة ، إلا أن هذه البراغيث اللعينة ظلت ترافقه وأخيراً وعندما علمنا أن هـــذه البراغيث تلتصق بشدة في هيركي وغير ميالة إلى أي شخص كنا نمضي بعضاً من فترات استراحتنا ونحن نلتقط البراغيث منه . ولكن لا يمر وقت طويل من إبعادها عنه حتى تقفز عائدة ثانيةً نحوه ، متجاهلة باقي المجموعة . وقــد أصـــبح للمـــرة الأولى في حياته مركز الاهتمام . لقد تطور وحاز على ثقة المجتمع . وأعتقــد أن عليه أن يشكر تلك البراغيث لأنه أصبح في الآخر محامياً بارزاً .

ثم كان هناك الصغير الهزيل بيريكارد روسنيلوم (بو) وهو حالياً من أكبــر جراحي الدماغ في نيويورك ، كان يلثغ في حديثه . وقد طورّ في الآخر كالخطيب الإغريقي ديمو سثينس(*) أسلوبا خطابياً بارعاً إلـــى درجــة أن براعتــه تجعــل المؤتمرات الطبية مسحورة بحديثة أثناء تحدثه عن الأعصـــاب الثلاثيـــة الرخـــوة وأمراض الغدة النخامية ، ولكن عندما كان في عمر الثانية عشرة ، كـــان كلامـــه

(*) هو خطيب إغريقي عاش بين ٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م . (المترجم)

باعثاً على اليأس. إن المناسبة التي أشير إليها هي عندما دعي لإلقاء خطاب لينكولن صباح الخميس المعتاد في قاعة الاجتماعات حيث كانت المدرسة برمتها مجتمعة هناك.

ترنم قائلاً : " قبل ثبعة وثمانين عاماً .." ثم واصل خطابه بنبرة جدية حيث أخذ يتصاعد تدريجياً إلى ما يشبه الزعيق ، بينما أخذ الجمهور يضحك في كل مرة ينطق فيها بكلمه تحوي حرف (سين) واحدًا أو أكثر . وفي الآخر ، توقف عن الكلام ، وهو ينظر بتحدٍ نحو النظارة ، وتفوه بكلمات أصبحت خالدة الآن في برمنكهام وتبنتها في الآخر كتائب المخابرة التابعة لفرقة الحرس الوطني الحادية والثلاثين : فقد صرخ قبل أن يضرب المنصة : (you tan tith my ath evvy – body)(*)

هاج الجمهور ونهض كرجل واحد وهو يصفق . لقد أصبح (العزيز بو) كما يسمى الآن ، واحداً من الأبطال الأسطوريين لمدينتنا .

لا يكتمل استرجاع الذكريات هذا دون ذكر رجل رائع حقاً هو المدرس الوحيد الذي أتذكره والذي أستطيع القول أنه النموذج الذي يحتذى به لو لم أنبهر بسعة علم الناس المحيطين بي عندما كنت أخضع للاختبارات. إنه كوج كيلي أو "فريد" كما قَبل أن نناديه كذلك عندما أصبحنا أصدقاء في وقت لاحق في عام ١٩٤٤ ، على ما أعتقد ، كنت أتمشى في باريس في شارع الشانزلزيه ، ولا أرى سوى كوج كيلي يتقدم نحوي . كان مجرد نقيب ، مثلي ، في الوقت الذي يجب أن يكون فيه رجلاً بقدراته وحضوره ليس أقل من عقيد. حيينا بعضنا بحرارة . سألته ماذا يمكنني أن أناديه ، لا يبدو اسم " السيد كيلي " مناسباً لتبادل المزاح بين اثنين من ضباط الجيش وبنفس الرتبة ، فقال لي : نادني (فريد) . تناولنا الغداء معاً ، وأخبرني

(*) أصل الجملة هو you can kiss my ass ,every body ولكونه ألثغ فإنه يقلب السين ثاء والكاف تاء وهي عبارة سوقية تفيد الرفض وتعني بإمكانكم أيها الناس تقبيل مؤخرتي . (المترجم).

بقصة مدهشة أعيدها الآن لصالح أصدقائنا القدامى في برمنكهام الذين قد يقرأون هذا الكتاب شريطة ألا ينقلوها . ولكن أولاً عليّ أن أوضح قليلاً خلفية العلاقة الخاصة التي تربطني به.

في العام الدراسي ١٩٢٠ – ١٩٢١ اجتاحت مدرسة إرسكن رامسي الثانوية التقنية موجة من المقالب البريئة مثل تغيير الدرجات المثبتة على دفاتر الامتحانات بصورة غامضة أو نشر أخبار في لوحات النشرات المدرسية تشير إلى تفاصيل علاقات جنسية بين مدرس ومدرسة من الشباب ، ومذكرة بعنوان " نصيحة إلى المحروم من الحب " ترسل إلى هذا أو تلك حول كيف يمكن قبول أو رفض إشارات الحب ممن يلاحقونهم. كانت كل تلك المقالب بريئة إلا أنها مثيرة للاهتمام. إن مرتكب هذه الأفعال هو كما يسمي نفسه (أرسين لوبين) ، وهو اسم تمت استعارته من رواية فرنسية حول لص باريسي ماكر ، صوّره جون باريمور في أحد أول الأفلام السينمائية، ولكوني طالباً معروفاً بحسه بالمسؤولية المدنية ، اقترحت عليهم عدة طرق للقبض على هذا الوغد ، حتى إني ذهبت بعيداً و اقترحت تنظيم مجاميع حراسة لمراقبة القاعات حيث توجد فيها لوحات النشرات المسيئة . وفي الآخر زودت السيد كيلي بقائمة بفخاخ من شأنها إذا ما نصبت وأشرف عليها بشكل جيد أن تؤدي للقبض على الآثم .

قام السيد كيلي الذي كان يعرف هوية هذا الشخص منذ البداية وهو أنا ، بنصب الفخاخ بطريقة تؤمن وقوعي فيها ، وخطط للقبض عليّ أثناء توجيهي لحملة الدعاية التي تربطه بقصة حب رومانسية بالآنسة مون وهي مدرسة جغرافية جميلة لكنها بسيطة عرف عنها ولعها به. وقد قبض كيلي الشرطي البارع عليّ ، وأراد ناظر المدرسة "T.C" طردي ، إلا أن السيد كيلي قد استمتع باللعبة بحيث أنه أنقذني من أي سوء عدا قضاء بعض الأوقات بعد الظهر في عمل مدرسي إضافي في غرفة مدرسة للغة اللاتينية صغيرة ولذيذة ، تدعى بحق كيم (لعبة) ، وهو إجراء لا يمكن اعتباره عقاباً . وهكذا التقيت والسيد كيلي أو من الآن سيكون فريد

في باريس . لقد سمعت أنه مر بأوقات عصيبة رغم نزاهته ، ورغم أنه لا يمكـــن لأحد أن يلومه على طريقة إنفاقه لتخصيصات المدرسة ، وإفراطه في الإنفاق مـــن مخصصاته أو خداعه لزوجته مع أرمله ثرية ، فإن إدارة المدرسة لم تفهـــم كيـــف أمكنه توفير مثل هذا المنزل اللطيف في تلك المنطقة الجميلة وهو ينفق ما يعـــادل دخلين ، أحدهما على نفسه والآخر على زوجته. حسناً ، سأكشف السر الآن . قال لي فريد عند الغداء : " أريد أن أعترف بسر احتفظت به طيلة هذه السنين . هـــل سبق أن قرأت مجلة الظل (shadow) ؟ ومَنْ لم يقرأهـــا ؟ إنهـــا إحـــدى مجـــلات الأسرار الأكثر شعبية في أكشاك الصحف وهناك أيضاً سلسلة برامج إذاعية تستند عليها ، ويستمع لها أناس من مختلف الأعمار مدة ساعة كل ليلة أحد على الـــرغم من الواجبات المدرسية . إن كوج فريد كيلي ، مثالي الذي أحتذيـــه ، يعمـــل فـــي المجلة ويحصل على ثلاثة سنتات عن كل كلمة يكتبها ويكتب بمعـــدل (١٥٠٠٠) كلمه أسبوعياً . وهو يحصل على متوسط دخل بحـــوالي (٤٥٠) دولارًا أســـبوعياً ويعتبر أعلى ما يمكن أن يصل إليه راتب مدرس . هذا دون ذكر المكافـــآت عـــن البرامج الإذاعية وهو مبلغ كبير في تلك الأيام . وهكذا كنا روحين من معدن واحد طيلة الوقت ، نختلف في صيغ التعبير . كان يمتلك الخيال الخصب والجـــرأة فـــي الوصول إلى شيء يعتبره الآخرون المحيطون به بعيد المنال حتى إن مجرد التفكير به يعتبر وهماً زائفاً تافهاً ويكفي لجعلهم يرددون أسوأ عبارة في ســـنوات الركـــود تلك: " إنه رجل طيب ، إلا أنه لا يضع قدميه على الأرض " . وإذا ما حذفنا عبارة " إنه رجل طيب " من المؤكد أن الجزء الآخر هو ما يقوله زملائي عني .

الفصل الثاني

المدرسة ، وفرق الجاز والجيش الأمريكي

دعوني أوضح ما الذي حصلت عليه الآن من مدرسة رامسي الثانوية بجانب إتقان الجبر والهندسة الإقليدية ونظرية القوانين الرياضية والتأليف الفلسفي والمنطق الأخلاقي وما شابه ذلك ؟ ماذا حقاً ؟ كانت لدي هوايتان لا صفتان بعد أن تمكنت من أساليب لعب الورق (البوكر والبلاك جاك)، الأولى هي عين المراقبة التي أبقيتها مفتوحة على مخصصات زملائي ، والثانية تحمل تباشير وعد من نمط خاص لفتى حساس نشأ في سنوات الركود . إنها العزف على البوق . لقد أدمنت عليه ، منذ أن دفعني أبي لممارسة هذا الشيء اللعين ساعة واحدة كل صباح ، إلا أنني كنت موسيقياً بالفطرة ، إلى حد الوصول إلى أقصى كمال النغم ، ولا يتطلب الأمر جهداً كبيراً لعزف أول بوق في فرقة مدرسة رامسي الثانوية . وتتضح هذه الخاصية في شخصيتي والتي لم أكن أدركها حتى عرفت أن أحد أبنائي نابغة في الموسيقى . لقد كنت أتدرب ساعة في اليوم في المنزل أعزف أغنيه " يا وردتي الايرلندية البرية "على غير النغم الصحيح وذلك لإزعاج والدي ثم أمضي بعد ذلك ثلاث أو أربع ساعات بعد الظهيرة متخفيا في غرفة الموسيقى في المدرسة أمارس العزف بشغف.

كان التدريب السري وليس ساعة التدريب في المنزل هي التي أوصلتني إلى هذا المستوى. في بداية عام ١٩٣٢ ، كنت اعزف في محطة إذاعة واشنطن مع فرقة من السود يرأسها جي. هيثكلف جونز الذي أصبحت فرقته تدعى فيما بعد بفرقة ارسكن هاوكنز.

إن عدم كفاءتي الموسيقية هي لي كاللثغة بالنسبة لبو. كنـت أتـدرب ثـلاث ساعات في اليوم في برمنكهام، إلا أنني قد تخليت الآن عـن أي حجـة لحضـور الدروس، إذ أن هذا مضيعة للوقت، وبدأت أتمرن ست وثماني سـاعات يوميـا ، وهي طريقتي في قول (tith my ath)[1] إلى جيري وباقي أعضاء فرقة كافاليرز. لم اتبع تمارين أو مقاييس معينة . كنت أعزف مقاطع لحنية بأسلوب بوني بريكان وأخرى مستعارة من موسيقى art tatum .لم أتعلم عزف مقطوعة "رحلة الـدبور" كما يعزفها هاري جيمز، ولكن عندما كان جيري مع هاري بعد عدة سنوات فـي فرقة " بني كودمن" أخبره أن عليه أن يبطئ وأن يتقيد بنوتة القطعـة التـي كـان يؤديها صديقه القديم والحالي في برمنكهام، وهي النصيحة التي قالها لـي هـاري عندما دعاني للانضمام إلى فرقته عام ١٩٣٧.

أن تحوز إعجاب جيري يعتبر هدفا بحد ذاته، وبعد أن وصل القمة ، كان يشيد بي في أوساط عازفي فرق الجاز الكبيرة، وكانت نتيجة ذلك أن يعود الفضل إليـه في كل فرصة عمل لي مع الفرق الموسيقية الكبيرة في تلك الأيام بمـا فـي ذلـك عملي مع فرقة كلين ميلر في ١٩٤٠ . وقد أوصلني ذلك لما يمكن أن أسميه خطوة جبارة في مسيرة حياتي الصاعدة. وفي آخر ليلة للعمل ، دعا كلين أعضاء الفرقـة وأخبرهم عن فكرة عظيمة خطرت له. قال:"قد نعفى من العسكرية، لهذا يمكـن أن نستمر معا". كان عمره يسمح بإعفائه ، إلا أن باقي أعضاء الفرقة هم بعمر الشباب ويتمتعون بصحة جيدة ، وكانت فكرة قضاء فترة الحرب في عزف الجاز هي فكرة مغرية.

مر زمن طويل ونسيت تفاصيل ما حدث، ولكن بعد أسبوعين أمضيتهما فـي المنزل بألاباما، التحقت بصنف دروع الحرس الوطني، وحدة الفرسان المشـهورة بامتلاكها للبغال أكثر من الخيول. كنت أتمنى الانتهاء من التدريب الأساسي كـي

---

(١) هامش سابق ، (المترجم)

أنضم لفرقة ميلر عندما يحين الوقت. إلا أنه يبدو أن الوقت لم يحن إلا بعد سنتين، حيث كنت حينها مكلفا بواجب في أوروبا وأعيش عالما فريدا بالنسبة لي.

لقد كسبت من عزفي، الكثير من المال وحظيت باحترام وإعجاب زملائي. كنت أستمتع بعزفي للجاز أكثر من استمتاعي بأي مهنة أو هواية أخرى .إلا إنني أشعر أن عالم النوادي الليلية والمسارح لا يناسبني. كنت أحب الموسيقيين الآخرين واعتقد أنهم كذلك، إلا أنه لم يحصل أن دعاني أحدهم في غضون سبع أو ثماني سنوات لمشاهدة فيلم سينمائي، وهذا عكس ما يجري في الحياة العسكرية . كنت أسوأ جندي في العالم، إلا أن علاقتي بزملاء العمل كانت حميمة.وعندما نُسبت إلى دروع الحرس الوطني- الدائرة المالية- في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٤٠ شعرت أن هذا مستقري.

كان رئيس هذه الوحدة هو المقدم كودل وهو تاجر تأمين وسياسي متلون، التحق بالحرس لأنه يناسبه لممارسة عمله التجاري ، وقد جرت ترقيته إلى مقدم لتفوقه في العثور على المواهب المطلوبة في الجيش. وقد عين ابنه ذا الثمانية عشرة عاما رئيسا لعرفاء الوحدة وعين نائبا لابنه قاض طيب أراد رد جميله. وقد ارتكب معي خطأه الأكبر . ولانبهاره بمظهري الخادع من الغنى إذ كنت أنيقا وجئتهم بسيارة فخمة نوع باكارد، عينني عريف ركن وثالث رجل في آمرية الوحدة. ثم بعد ذلك جلب بوب كرايك وهو طبال في أحد أفضل الفرق الموسيقية المحلية و أظرف رجل التقيته ثم هوف باربر رفيق شراب قديم و جورج ألف سمث ابن قس كان يتمتع بالطيش الكافي لمنافستي على أجمل فتيات المدينة ثم جاء بسبعة أو ثمانية رجال آخرين كنت أشعر معهم بالراحة التامة . كان هذا هو المحيط الاجتماعي الذي عشت فيه في تلك المرحلة من حياتي .

أما فيما يخص العمل فقد كان رائعا فلا يحتاج المرء إلى عناء التفكير فيه . يمكنني أن أجلس هناك طيلة اليوم أراجع حسابات الرواتب و أقوم بذلك بسرعة

وبطريقة آليه، بينما يشرد ذهني مسافة ألف ميل. كان المقدم وابنه كالبغال، لكنني كنت أحبهما لأنهما لطيفان وقد ساهما في إضفاء جو المرح على حياتنا. كان علينا أن نتعامل أمامهما بجدية ولكن وراء ظهورهما ، كنا نناقش ونحلل سلوكهما علميًا بحيث إنني استفدت من ذلك بعد أربعين عاما في كتابة قصة فيلم سينمائي طلب مني ابني البكر كتابتها. كنت مصدر تعب لهما والسبب هو إني كأنشتاين ضليع بالرياضيات ولكن سيئ في الحساب(*). فأنا لا أرتكب الأخطاء في الجمع البسيط فحسب، بل لا أعرف أن أحول الأرقام العشرية إلى صحيحة. ومرة دفعت إلى ملازم راتبا قدره (١٣٠٠٠٠) دولار . كان ممتنا، إلا أنه كان نزيهًا ويسعى للحصول على ترقية ،لهذا أعاد الصك وكتب بالخطأ الحاصل إلى المقدم الذي علق أن الملازم قد استلم المبلغ الصحيح وهو ١٣٠ دولارًا. بعدها أوكلت إلى مهمة عدّ مستندات الصرف دون تحديد الأرقام الداخلة فيها.

عندما طرد زميلي إيان من مدرسة لأخرى قال مدير المدرسة " أعتقد أنه سيرتاح أكثر في مدرسة أكبر " . وهذا ما قاله لي المقدم كودل مقترحاً علي بلباقة بأنني سأكون مرتاحاً في وحدة عسكرية أقل شأناً ، ليس فيها أي شكل من أشكال الحساب تكون مثلاً سرية مشاة نظامية . ولكنني بقيت بفضل مكالمةٍ هاتفية . وعلى ذكر أنشتاين فإنني لست مجرد عازفٍ للجاز بل يظهر أنني فتى وسيم ويبدو أن هذا أصبح يمثل منعطفاً آخر في حياتي . قبل إرسالي في قطارات الجنود إلى معسكر بلاندنك في فلوريدا حيث أول تنسيب لنا إلى الفرقة (٣١) في الحرس الوطني ، احتشد مئات منا في الساحة وخضعنا لما يعرف بفحص التصنيف العام للجيش ، وهو نسخة عسكرية من اختبارات باينت سيمون لمعلومات الفرد تم تعديلها لتشمل قياس قدراته الطبيعية مع استبعاد العوامل الثقافية كتلك التي تشكل نقيصة في المجموعات العرقية محدودة الفرص بيننا. وبما أن الأسئلة كانت بمعظمها عبارة

(*) الرياضيات هو علم دراسة الأعداد أو الكميات أو الأشكال بينما الحساب هو فرع من الرياضيات يتناول أساليب العد كالجمع والطرح والضرب والقسمة . (المترجم)

عن اختبارات متعددة ، فإن أي فرد يتمتع بفطرة المقامر ، يستطيع أن يستبعد الخيارين الأبعد احتمالا ويراهن على أحد الخيارين المتبقيين ، وبذلك يزيد نسبة أرجحية الجواب الصحيح بدلا من اختياره من بين أربعة . لهذا عندما لا أتوصل للجواب الصحيح يمكنني أن أخمن ثم أنتقل للسؤال التالي . كانت النتيجة كما علمت فيما بعد حصولي على أفضل الدرجات التي تؤهلني لدخولي صنف متفوقي الذكاء .

في الوقت الذي علم فيه المقدم كودل بمستوى حمقي ، كان زملائي يرون أفضلية الاستفادة من قابليتي الذهنية العالية. لهذا حالما تحركت الفرقة إلى مستنقعات لويزيانا لأداء المناورات الربيعية في المطر والوحل، استدعيت إلى مكتب مساعد الآمر لإرسالي إلى معسكر ليفنك ستون في مونروفيا ، لإجراء المزيد من الاختبارات. وفي غرفة فيها جنديان فقط خضعت لاختبار آخر، وحققت نفس النتائج حوالي ١٦٠ درجة، بينما يعتقد أن متوسط ما يحصل عليه الجنود المسجلون في الجيش بشكل عام هو ١٠٠ درجة، والضباط ١١٠ (وهو الحد الأدنى لدخولهم كلية الضباط) والسود الريفيون ٨٥ . وقد حصلت على درجة ١٤٥ في الاختبار الأول ثم ١٦٠ في الثاني، وأي درجة فوق ١٤٠ يحققها المرء يعتبر من صنف الأذكياء.

وقد كانت كما علمت أعلى درجة تم تسجيلها في الجيش الأمريكي حتى أعلى من الرقم الذي سجله في وقت سابق ابن عمي دون سكوت (ويبدو أن الذكاء متوارث في العائلة) ، ويظهر أنه مشابه لتقديرات اختبارات الذكاء لالبرت انشتاين وجوهان ولفكانك فون كوتيه و يسوع المسيح كما قدرها جماعة من علماء النفس في جامعة ستانفورد بمن فيهم البروفيسور أكترن بالاشي الذي سبق أن ذكرته . لهذا قلت لنفسي : " إذن أنا أتمتع بذهن متفوق ، لهذا ماذا أفعل هنا تحت المطر ووسط الوحل مع هؤلاء الفلاحين ؟ "

وعودة إلى الوحدة المالية ، كتبت رسالة إلى أظرف رجل في العالم النائب جون سباركمن الذي أصبح فيما بعد عضوًا في مجلس الشيوخ ورئيس لجنة

العلاقات الخارجية فيه وكنت محط رعايته في السنوات اللاحقة. وقد حصلت على إجازة لعشرة أيام على أساس وفاة جدتي أو شيء من هذا القبيل وصعدت القطـــار إلى واشنطن. وعند علمه بالمستوى الذي حققته باختبارات الذكاء أرسلني إلى مكتب الجنرال دونوفان الذي أسس دائرة عرفت باسم دائرة منسق العمليـــات ، وتحولـــت فيما بعد إلى دائرة الخدمات الاستراتيجية الشهيرة ثم إلى دائرة المخـــابرات وقـــت الحرب (OSS) وعرفـــت فيمـــا بعـــد وقـــت الســـلم باســـم وكالـــة المخـــابرات المركزية(CIA).

لقد أحببنا أنا والجنرال دونوفان بعضنا منذ اللقاء الأول. وكما يقـــول جيلـــي كوبر مستشاره في السياسة البريطانية بأن الذين ينحدرون من طبقـــات اجتماعيـــة مختلفة ، يمكن أن يحبوا بعضهم بعضًا، ولكن قلما يحب بعضهم من ينحدرون من طبقات متشابهة. وصلت إلى مكتبه بعد الظهيرة، وفي غضـــون دقـــائق ،التقيتـــه وحكيت له عن المناورات في مستنقعات لويزيانا وعملي مع كودل. وقـــد ضـــحك كثيرا ودعاني للغداء. وهكذا تناولت شطائر مع الجعة في مكتب دونوفان في الوقت الذي لا يستطيع أي فرد بالعالم اللقاء به عدا الرئيس روزفلت . ودّعته مع وعد منه بالاتصال بي قريبا.

وهكذا عدت إلى الوحل أعدّ أكوام مستندات الصرف ، وتعرضـــت لضـــربة شمس ولدغات البعوض ونمت في كيس نوم مبلل وتحملت كافة أشكال المصـــاعب التي يمكن تصورها في مستنقع بارد وماطر في الليل وحار ورطب في النهـــار . وكما مطلوب من الجنود حتى في وقت المناورات، كنت أحلق لحيتي كل صباح إلا أن بدلتي كانت غير مهندمة عموماً ، وهذا له علاقة برد فعل المقدم كودل عنـــدما علم بأوامر سرية للتقصي عني لغرض تعييني في واشنطن . وبالقدر الذي كان يود فيه التخلص مني لم تكن هذه الأنباء سارة له . دعاني مساء قبل العشاء إلى خيمته، وعندما شاهدني كانت أول كلمة قالها : " إنك عار على الزي الذي ترتديه " .

هل أنا عار على هذا الزي ؟ حاولت أن أكتم ضحكي إلا أنني لـم أسـتطع . وبعد أن شاهدت أن المقدم لا يرى أي فكاهة في الموقف ، تجهمـت وحاولـت أن أكون جدياً ثم انفجرت في الضحك ثانية ثم تمالكت نفسي و انفجرت مـرة أخـرى واستسلمت للضحك و تكورت على الأرض وأخذت الدموع تجري على وجنتـي . بينما بقي المقدم كودل جالسا في مكانه أصبح أكثر جنونًا واحمرارًا. لقد انزعج لأن ذكاءه الذي حصل فيه على ١٠٠ درجة قد أوصله إلى حقيقة أن جدّتي لم تمت أبداً، وأنني قد انتهزت إجازتي لترتيب مكان مناسب لي وقد استخدمت نوعاً من التسلّق السياسي من النمط الذي تخصص في التأرجح عليه . وحالياً أضحك أمامه بمـلء فمي . قال لي: " عليك أن تصلي كل ليلة بأنك حصلت على هذا العمل ، مهما كان نوعه ، ومن الآن فصاعداً ، سوف لن يكون هذا المكان مريحاً لك . "

إن فكرته في إزعاجي هي ليست إعطائي المزيد من أكوام المستندات لعدّها ، وهذا لا يمكنني الاعتراض عليه ، بل هي بتجاهلي تماماً، وكانت فرصة طيبة لأنها منحتني الوقت للتسلل إلى مقر الكتيبة من لويزيانا وتحديد موقع فرقة الجاز التابعة للفرقة العسكرية والمشكّلة من موسيقيين من نيو أورليانز، وبعضـهم كـانوا مـن أصدقائي ، وآخرون قد تم سحبهم إلى موسيقى الجيش للعزف مع فرقة أوركسـترا كلين ميلر والتي لم تتشكل إلا بعد مرور سنة وسوف أوفر على قرائي عناء قراءة هذه التفاصيل (وعلى أية حال ليست لها أهمية خاصة) ، إلا أنه قد تم بسرعة اتخاذ الإجراءات لنقلي هناك في الوقت الذي تتم فيه تزكيتي الأمنية .

وهكذا عدت في آخر انتقال إلى فرقة جاز . وعندما علم المقدم كودل أن هـذا قد يعني تنزيلي من عريف إلى جندي شعر بالغبطة ، وشعر بها أكثر عندما علم أنه في حالة حصول معركة عسكرية حقيقية ، فإن العازفين سوف لن ينفخوا أبواقهم بل يقومون بسحب الجثث بعيداً عن ميدان المعركة. وقد قال لي أثناء توقيعـه علـى أوراق موافقته على النقل: "إنني واثق أنك ستكون ممتازا في أداء هذا العمل طالما لم يطلب منك أحد عدّ هذه الجثث".

لم تكن الأسابيع القليلة القادمة هي قمة مسيرتي العسكرية، إلا أن سحب الدمى المضرجة بالأصباغ الحمراء خارج الميدان المفترض للمعركة هـو لـيس عمـلا متعبا، خاصة أن هناك عزفًا عسكريًا لساعة واحدة كل صباح، وثلاث ساعات من التدريب على العزف عند المساء . وبعد ذلك ، وبينما كنت أفكر في مصيري فـي أحد الليالي الماطرة وأنا جالس مع هانك فريمان الذي انضم في الآخر إلـى فرقـة ميلر الموسيقية، سمعت صوتا قادما من الظلمة ينادي باسمي. لم أكن متأكدا منه في البداية، إلا أنه أخذ يعلو شيئًا فشيئًا حتى أصبح واضحا . وصل الصوت على مقربة من خيمتي الصغيرة وهو يقول:"أيها الجندي كوبلاند، هذه أوامر في غاية الســرية حتى أنى لا أستطيع أن اقرأها بنفسي."

كان نائب العريف يرتدي معطفا مطريا و يمسك مصباحا كهربائيا وقرأت هذه الأوامر. أنها تنص على أن علي أن أذهب إلى معسكر ليفنك ستون وأقبض مائتي دولار (تعادل اليوم حوالي ١٠٠٠ دولار)، وأقطع لنفسي تذكرة سفر مريحة إلـى واشنطن عن طريق برمنكهام حيث تم منحي إجازة إضافية مدة عشرة أيام، ووقتـا كافيا لشراء بعض الملابس المدنية. وفي اليوم الثاني وبعد توديعي للمعسكر من قبل ضابط إداري محترم، الذي تركت الأوامر السرية التي أحملها أثرا عميقا في نفسي، جلست في عربة الطعام في القطار الذاهب إلى برمنكهام أحتسي شراب (فيتزجيرالد المعتق) مع الصودا استعدادا لعشاء جميل وأنا أتطلع من النافذة بينما يشق القطـار طريقه عبر منطقة المناورات حيث كنت أرى غيمة من الجنود الـذين يفترشـون الأرض ليلا وتحت رذاذ المطر. هكذا عدت إلى فرقة كبرى ولكن هذه المرة لـيس إلى فرقة جاز.

الفصل الثالث

واشنطن في حالة حرب

وهكذا وصلت إلى واشنطن . سوف أتجاوز التفاصيل باستثناء أنه عندما وصلت إلى مقر الجنرال دونوفان الواقع على نهر يوتوماك بين جورج تاون وفوكي بوتم ، أرسلوني إلى دار إقامة أهلية في بانكروفت في كونكتيكت ، حيث يقع مكتب واشنطن لما يعرف بقسم شرطة الاستخبارات (CIP) و الذي أصبح بعد فترة قصيرة يعرف بقسم مكافحة التجسس (CIC). يبدو أن دائرة منسّق المعلومات التابعة لمكتب دونوفان في طور تحولها إلى دائرة الخدمات الاستراتيجية (OSS) وليس هناك حتى الآن مكان " للمخبرين ". قد أكد لي جيمي مورفي المعاون الرئيس لدونوفان أن كل شئ يسير بشكل حسن وأنني سأكون مرتاحا في العمل لفترة من الزمن مع العقيد كوردن شين مدير شرطة الاستخبارات وأنني سأنقل في الآخر إلى دائرة الخدمات الاستراتيجية إذا لم أقرر البقاء في شرطة الاستخبارات عندما يحين الوقت.

اتضح أن العقيد شين طراز ديناميكي ذو بنية جسمانية قوية من الرجال وأحد أوائل الأمريكيين الذين حازوا على أحزمة سوداء في الجودو والكاراتيه وصنع من نفسه جيمس بوند قبل ظهور الأخير –على الأقل في تصوره الخاص وفي القصص التي يرويها إن لم نقل في الحياة العملية – كان مدهشًا وشخصية واقعية من النمط الذي أود أن يكونه رئيسي في تلك المرحلة من حياتي . جاء الإحساس بواقعيته مهما كانت درجتها من قصص المغامرات و الجاسوسية في الأفلام والروايات باستثناء أنه لم يكن كوالتر متي . لقد درب نفسه جيدا وكان قادرا دون شك على

المعالجة بفاعلية لأي موقف يستحيل تصوره ويمكن أن يتخيله. وهو يمضي ساعات صحوه في وضع خطط تؤدي إلى نشوء مثل هذه المواقف .

وبكلمات أخرى يعطي العمل مع كوردن شين مجالا واسعا لفرد مثلي للتدريب الحر. وخصص لي شريك واحد لمساعدتي في أداء معظم التدريب. أنـــه فرانـــك كيرنز رفيقي وصديقي الحميم خلال العشرين سنة التالية، وفـــي الآخـــر أصـــبح المراسل الخارجي الشهير لمحطة (CBS) التليفزيونية. ولكونه يتمتع بموهبة جعلت أعماله لا تقدر بثمن. كان حيثما يوجه آلته الخاصة بالتصوير سواء في شارع خلفي في كراجي أو على ساحل بيروت، من المؤكد حصول شيء مثير أمام الكـــاميرا . يظهر الناس من كل مكان ويبدأون بالصياح على بعضهم ، وقد يتسلل بوب فيسكو أو أدولسون خلسة مرتدين نظارات سوداء أو قد يخطف أحد النشالين محفظة امرأة عجوز ويهرب وسط الجمع المضطرب. إلا أن هذا كان بعد بضع ســنوات مـــن رؤيتي الاولى له. عندما التقيته أول مرة ، كان عمـــره حـــوالي ســـبع أو ثمـــاني وعشرين سنة، وهو صورة طبق الأصل من صديقي عازف الجاز ســـتين كنـــتن باستثناء وجود دوائر تحت عينيه جاءت بفعل الليالي الطويلة من التعب والســـهر، وقد كنت أشترك معه كما مع ستين بميول معينة ستبدو أكثر وضوحا خلال الفصول القادمة من الكتاب.

يعني التدريب على يدى فرانك كيرنز تعلم جميع العبارات المألوفة الخاصـــة بكتابة التحقيقات. وسرعان ما تعلمت منه بصـــفته معلـــم كتابـــة التحقيقـــات دون إجرائها، وهي الموهبة التي امتلكتها بعد بضع سنوات عندما كتبت عرضا لكتب في صحيفة الواشنطن بوست، على أية حال كانت معظم هذه التحقيقات عبارة عن هراء الغاية منها شغلنا أكثر منه إنجاز شيء معين، لهذا أمضيت معظـــم فتـــرات بعـــد الظهيرة عندما لم نكن أنا وفرانك في ملعب كرة السلة أو في السينما فـــي ابتكـــار أساليب لتكييف خيالي مع خيال العقيد شين . وهذا يشبه إعادة معجون الأسنان إلى داخل الأنبوبة. كنا نذهب أنا وفرانك في كل وقت إلى مكتب شين لإبلاغه بـــبعض

العيوب المكتشفة في نظامنا الأمني ، كان يقول ما معناه "هـذا يـذكرني بـالمرة الأولى التي كنت فيها في طوكيو . كما ترون لقد أوكلوا الي مهمة كشف الصلات بين المخابرات اليابانية ..." وهكذا يأخذ في نسج حكاية هي مزيج من الحقيقة مـع شيء سبق أن قرأه في إحدى مجلات الإثارة في الليلة الماضية. ثم ندخل إلى مكتبه في المرة القادمة، ولكن ربما تكون هذه المرة شيئا مختلفا. قال فرانك : " إن عقيدنا المحبوب هو رجل يصعب مواجهته وتحديه بثبات و عزم ."

وأخيرا تم تحديد فيما يتوقع أن يكون من أكثر المهام حمقا وتفاهة وألما والتي قمت بها خلال الأسابيع الأولى من عملي مع شرطة الاستخبارات. ففـي إحـدى الليالي القارسة في منتصف كانون الثاني ، كان علي أنا وفرانك أن نمضي الوقـت من العاشرة مساء حتى السابعة من صباح اليوم التالي نلف في الحي الذي يقع فيـه مقر الصليب الأحمر الأمريكي وشوارع (E) و (D) بين المحـلات (١٧) و (١٨) في الشمال الغربي ، وفي المنطقة الواقعة جنوب بناية وزارة الخارجيـة لغـرض مراقبة الجواسيس أو المخربين (نسيت أيًا منهما) والذين يتوقع مهـاجمتهم لهـذا الموقع في أي لحظة . هل سيهاجم الجواسيس والمخربون الصليب الأحمر؟ ما هذا الخيال! كانت الساعات الأولى من تلك الليلة الموحشة القارسة العاصفة هي الوقت الوحيد الذي أتذكرة بحيث كنت غاضبا على البارون ميونيخ هازن، كما أخذ فرانك يسمي العقيد شين.

كانت المهمة في شكلها الأولي بسيطة، جرى وضعها دون شك لإبعادنا عـن المواقع الساخنة في جورج تاون لبضع ليال، إلا أنها انتهت بنتائج معقدة كرواية لين دايفنتن. قد يتطلب سردها مجالا أكبر مما تستحقه، خاصة أنها يمكن أن تؤخر سرد السيرة السريعة التي أقدمها، إلا أنها أوصلتني إلى استنتاج أصبح مسمار تثبيت في برنامج حياتي المقبلة! إذا أردت أن تكون لك السيطرة الأقوى على أيـار عـدوك لنيله، فعليك تقدير حجمه كما قد تزن اللاعب المقابل في لعبة البوكر، وأن تضـع نفسك محله، وتفكر مثله للحظة من الزمن، ثم تبدأ بالتخطيط والعمل كما قد يفعـل في الظروف العادية.

وبعد تمضية ليلة تجوال بدرجة حرارة تصل إلى الصفر، بحثا عـــن ضـــمان لأمن مقر الصليب الأحمر، وبعد مشادة مع شرطة ولاية كولومبيا ورشوة عريف ثم استغلال موضوع الرشوة لابتزازه لإعادة المال، أمضينا ساعتين فـــي بانكروفـــت نكتب تقريرا بعنوان(المضامين الأمنية للفساد في شرطة الولاية). عنـــدما وصـــل العقيد شين لمكتبه في الثامنة صباحا، اعترفنا له بأننا لم نمض نتجول طوال ليـــل واشنطن وهوائة المتجمد، إلا أننا وتطبيقا لتلك الممارسة التي يجب دائما التحـــدث عنها، اقتحمنا مبنى الصليب الأحمر ودققنا الملفات في محاولة لاكتشاف ما يمكـــن أن يبحث عنه الجواسيس الألمان.

لم يبد العقيدة شين أي انزعاج أو اندهاش، بل تمتم قائلا إننا سنكون حمقـــى أكثر مما يتصور لو أننا أمضينا الليل نرتجف بردا، إلا أنه سرعان ما أبدى اهتمامه بالمقترح الذي قدمناه إليه. قلت له:لقد كنا نعمل بغيـــر بـــدلاتنا الرســـمية ونضـــع معلوماتنا السرية تحت معاطفنا، دون أن تكون لنا أي فكرة حقيقية عما يبحث عنه الألمان. وعلاوة على ذلك،لا نعرف كيف سبحثون، إننا نقدم افتراضات ربما تكون غير مسموح بها. لدي إحساس داخلي أن ثلاثة أرباع الاحتياطيات التي نتخذها هي ليست ضرورية ، وربما يركز أي جاسوس ألماني في محيط المنطقة على الأمور التي لا نقوم بحراستها بشكل جيد . "

واصلت حديثي لأقترح عليه أن نقوم أنا وفرانك بلعبة نتقمص فيها شخصيات جواسيس ألمان لفترة من الزمن لنعرف ماذا يمكن أن نكتشف. يمكننا القيام بشيئين: أولاً : اكتشاف ماذا يمكن أن يقوم به الجواسيس الألمان للاقتراب من نقاط السيطرة العديدة ذات الأهمية التي أقمناها . وثانياً ماذا يمكن أن يحصلوا من خلال عملهـــم هذا . قال العقيد وهو متحمس للمقترح يمكننا أيضاً أن نتعلم ماذا يفعل الجواســـيس بمعلوماتهم بعد الحصول عليها ، إذ أن الاتصال بالمخابرات هو عمل يتطلب براعة أكبر من الحصول على المعلومات . هل سيرسلونها برسائل مكتوبة بالحبر السري . هل لديهم وسائل لاسلكية للبث يخفونها على أنها أجهزة بث للهواة؟ هـــل هنـــاك

شبكات من العملاء والفواصل والنقاط الميتة (أو الحية) لاستلام الرسائل؟ وهكذا . قال " إن لدينا عالماً واحداً من الأفكار العظيمة " وقد دار في خلدي أن هذه الفكـــرة ربما تكون قد خطرت له. أنها من طراز الأفكار التي تدور في ذهن المرء الـــذي يعيش في نفس النمط من عالم الخيال . ليس لدي الوسيلة لمعرفة ماذا حلّ بفكرتنـــا عندما رفعها كوردن شين إلى الجهات العليا للمصادقة عليها . وتشمل تلك دون شك مصادقة مؤسسة الجنرال دونوفان التي كانت تخـــوض بعزيمـــة كـــل المعـــارك البيروقراطية اللازمة لوضع جميع هذه المشاريع تحت مظلتها – ولكني لا ريـــب أعلم أنه عندما عادت الفكرة ، جرى تهميشها لتكون مجرد شكل من أشكال التدقيق الأمني . وكما أبلغنا أنا وفرانك في الآخر ، كان علينا أن نلعب أدوار عملاء ألمان يحملون زوراً صفة الصليب الأحمر ، وأن نرى أيًا من نقـــاط الســـيطرة الأمنيـــة العديدة التي نستطيع اجتيازها وأيًا منها لا يمكننا ذلك .

استعرضنا جميع الاحتمالات وأخيراً ركزنا على إحدى الوسائل الفاعلة . وهي أسلوب " تجنيد عميل وإدارته " والذي قادني بعد عشر سنوات إلى تـــأليف كتـــاب لتدريب منتسبي وكالة المخابرات المركزية . إن الأســـئلة التـــي يبحـــث ضـــابط المخابرات عن إجابات لها عن طريق التجسس هي :

– ما المعلومات التي يحتاجها رؤسائي لوضع خططهم للهجوم والدفاع، وما هذا الجزء من المعلومات الذي لا يمكن الحصول عليه إلا بالتجســـس بـــدلاً مـــن الوسائل الفنية أو المراقبة العلنية البسيطة ؟

– أين تقع (أي في أي مكان) هذه المعلومات ؟

– من هم الأشخاص الذي لهم حق الدخول إلى هذه الأماكن ؟

– أي من هؤلاء الأشخاص يشعرون بحاجة ماسة لأشياء يمكن تقديمها لهم أو يمكن جعلهم يشعرون بحاجة لهذه الأشياء ؟

– ما أفضل السبل للتقرب من هؤلاء وخلق الاحتياج عندهم ثم العرض عليهم لتحقيقها دون التعرض لخطر قيامهم بالإبلاغ عن هذا التقرب ؟

على أية حال ، أخفقت لعبتنا في القيام بدور جواسيس ألمـــان بعـــد تقـــديمنا لتقرير يشير إلى أن المخابرات الألمانية ربما تسعى لتنفيذ عمليات استخبارية إزاء بعض الأمريكيين المسموح لهم بالاطلاع على المعلومات السّرية إلا أنهم بطريقة أو أخرى عرضة لتهديدات بالابتزاز أو لعروض مغرية بالمكافآت .

لم يمض وقت طويل حتى طلبنا أنا وفرانك تعييننا خارج البلاد . وبعد ذلـــك وفي إحدى أمسيات صيف هندي عام ١٩٤٢ وأثناء دعوتنا إلى موقع بانكروفت بعد حضورنا لمباراة لكرة السلة ، علمنا أنه قد تم إغفال إدراج اسمينا ضمن مجموعـــة ضباط شرطة الاستخبارات الذين تقرر إرسالهم على عجل إلى أستراليا . لو كنا قد عدنا إلى الدائرة بواسطة سيارة أجرة (كما طلبت) بدلاً من الحافلة (كما أصر فرانك كونه كان يريد توفير بعض المال) ، لكانت حياتنا قد تغيرت . ولكن كلا ، فبعد أن فاتنا العمل في أستراليا ، تم تعييننا في لندن وصدرت الأوامر بالمغادرة يوم الاثنين القادم حيث جرى تطعيمنا ضد الأمراض المعدية في الجـــزر البريطانيـــة ، وتـــم تزويدنا بالمعدات الخاصة بالرحلات البحرية وإيجازنا بملاحظات أمنية وبعد أسبوع صعدنا على ظهر سفينة عسكرية متجهة إلى أوروبا .

وللتوثيق فقط ، أود أن أقول إن هناك اثني عشر فرداً منا باستثنائي يحملون شهادتين جامعيتين أو أكثر ويتحدثون لغة أو أكثر من اللغات الأوروبية ، بحيث إننا كنا أفضل كوادر المخابرات المضادة .(وعلى فكرة، تـــم تغييـــر اســـم شـــرطة الاستخبارات إلى المخابرات المضادة). عبرنا المحيط الأطلسي الشـــمالي البـــارد المتجمد على ظهر سفينة شقيقة الملكة ماري "إليزابيث"، لم نكن نعرف بأننا سوف ندعوها بالملكة إليزابيث الأولى لأننا لم نكن نعلم أن هناك الملكة إليزابيث الثانية . كان على ظهر السفينة بعض الضباط والجنود من فرقة المشاة الأمريكية الأولـــى وتشكيلة من القوات العسكرية مع حوالي خمسين ممرضة تم عزلهن عن الـــذكور،

وهم يمضون أيامهم و لياليهم في أجنحة تعتبر من الدرجة الأولى في الرحلات البحرية الاعتيادية وقت السلم . بالإضافة إلى" العملاء الخاصين " الاثني عشر الذين سبق ذكرهم، كانت مجموعتنا تضم ثلاثة من الضباط الذين يرتدون الزي العسكري وهم الرائد كيربي جيليت و النقيب موراي فوكنر (شقيق الأديب وليم دجون) و الملازم لاين ألن، وجميع هؤلاء من العملاء السابقين لمكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) الذين يكنون احتراما كبيرا لمرؤوسيهم ذوي التعليم العالي . كانوا يهتمون بنا كثيرا و يسعون لتقديم أفضل ما يكون لنا في سفينة جند مزدحمة رغم معارضة بائع أحذية سابق من ممفيس- تنيسي ، اللواء أرنولد جننكز ، الذي ترقى بالمناصب في الحرس الوطني و أصبح الآن آمرا على جميع هذه القوات أثناء إبحارنا عبر المحيط . كان هذا الجلف، ولأنه غير آمن على منصبه لا يثق بأي شيء لم يرد ذكره في الكراسات العسكرية ، كما كنا نحن . قال لنا مرة " إذا كان علي أن أنتهك التعليمات العسكرية أعلم أنكم ستكونون أول من يبلغ عني و أنا أتوقع ذلك ". لقد كان ضابطا جيدا ووطنيا صادقا وحي الضمير وذا مبدئية عالية ، ومستعدا لتقديم أقصى ما يمكن من اجل بلاده و بعبارة أخرى كان قذارة بنسبة مائة بالمائة.

كان محل إقامتنا في جزء من السفينة ، يبدو أنه في السابق مشفى وسجن وقياسا بالظروف السائدة في السفينة، لم يكن سيئا. إلا أنه حصل أمران أديا إلى تحسين وضعنا كما علمنا فيما بعد . اتضح أنه قبل أسبوع من إبحارنا، حضر الضابط البريطاني المسؤول عن السفينة و طاقمها التجاري المدعو القبطان هاوس بريلي حفلة شبه رسمية في نيويورك حيث التقى هناك بالعقيد المحبوب كوردن شين. أخبره الأخير بنبرة توحي بأنه يفشي معلومات سرية تتعلق بالمصالح الوطنية الحيوية ، بأننا في مهمة خاصة أن هاوس بريلي سيساهم في إعطاء العلاقات الإنكلو- أمريكية دفعة من التقدم إذا ما رأى (لابد أن العقيد قد غمز غمزة ماكرة

بطرف عينه اليسرى عندما وصل إلى هذه النقطة) أنه يجب التعامل معنـــا بـــذلك الأسلوب الخاص الذي تستحقه مهمتنا الكبيرة. استغرق الأمر من القبطان يـــومين للعثور علينا وعندما وجدنا ، أمر بتزويدنا بمشروب فاخر مع ورق لعب ومنضـــدة ومجموعة من المجلات الإباحية التي سبق أن جرت مصادرتها من بعـــض أفـــراد الطاقم . الشيء الآخر الذي عزز حسن حظنا المتواصل هو " حادث عرضي " وهو لا يأخذ أكثر من صفحة واحدة لشرحه للإغراض الرسمية إلا أنه بالنسبة لنا يعتبر "خطوة كبيرة إلى الإمام " كما ذكر ذلك الرائد كيربي جيليت آمر وحدتنا في وقـــت لاحق. يبدو أن طاقم مطبخ السفينة، و جميعهم مـــن المـــدنيين و مـــن الأعضـــاء المخلصين في اتحاد البحارة البريطاني، لا يطلبون فقط البقشيش من الجنود الواقفين في الدور على الطعام ، بل أنهم عند رفض الجنود ذلك ، اعتـــادوا علـــى رمـــي نفاياتهم والتي أكثرها من السوائل على ظهر السفينة حيث ينام جنود فرقة المشـــاة الأولى عليه ليلا . و في حوالي اليوم الثالث أكتشف المدعو جاك كوكلي وهو رأس عرفاء بالجيش النظامي وهو عبارة عن كتلة من العضلات، زعـــيم الفتنـــة أكبـــر أعضاء نقابة البحارة البريطانيين على ظهر السفينة. طلب رأس العرفاء منه تنظيف هذه الفوضى . قال له رئيس أعضاء النقابة :" نظفها بنفسك أيها الرفيـــق" اســـتدار كوكلي إلى جنود المشاة الواقفين بالقرب منه و أشار إلى أربعة منهم قائلا :" أنـــت وأنت وأنت وأنت ، ارموا هذا الوغد من فوق ظهر المركب ". ودون لحظة تردد، أمسكوا بساقيه وذراعيه، وأرجحوه عدة مرات لتهيئة أكبر قدر من قوة الدفع، ثـــم قذفوا به من فوق السفينة، نحو مياه الأطلسي الشمالي الباردة . ذهل أعضاء الطاقم الآخرون الذين كانوا ينظرون إلى ما يجري . وقبل أن يستعيدوا أي قدر من رباطة الجأش، سأل العريف كوكلي : " الآن من هو المسؤول هنا ؟ " لم ينطق أي فـــرد . لهذا أشار إلى أضخمهم، وهو المرشح المحتمل، وقال له: " أنت أيها الغلام الضخم،

إنك أنت المسؤول. والآن اطلب من هؤلاء السفلة العودة إلى عملهم ". لم تحصل أية مشكلة بعد ذلك.

وبدأوا بالتنظيف . جرى شيء من الهمهمة حول ماذا يمكن أن يتوقع الأمريكيون من الآن ولاحقا من تدهور في نوعية الطعام ، إلا أن كوكلي قد سمع ذلك وأمسك الرجل الذي كان يتمتم من ياقته وأخبره أنه إذا حصل أي ألم في معدة أي جندي أمريكي خلال الفترة المتبقية من الرحلة فإنه سيتم رميهم جميعا من ظهر السفينة. لم يكن هناك أدنى شك في ذهن أي من رجال الطاقم بأنه غير جدي في كلامه . لم يستغرق الحادث أكثر من دقائق.

لم نكن حاضرين خلال الحادث، وقد سمعنا عنه صباح اليوم التالي من القبطان هاوس بريلي الذي لم يرسل بطلب الرائد جيليت، بل جاء بنفسه للقائنا في مقر إقامتنا الخاص. كان رجلا لطيفا ، يتعامل بشيء من الثقة الممتزجة بشكل من الرقة المتوقعة من قبطان رحلات بحرية وقت السلم، لقد رأى بعض منا من الذين سبق أن قاموا برحلات حول العالم فيه ما تصوروه عن القباطنة الذين كانوا يعملون كثنائي في الأيام الجميلة السالفة في خطوط النقل البحرية الفرنسية قبل الحرب : من لاهاثر إلى نيويورك ، إذ قد يدير القبطان السفينة بينما يبقى الآخر مخمورا طيلة الرحلة و يختلط مع المسافرين و يتبادل القبطانان دوريهما في رحلة العودة.

بدأ القبطان هاوس – بريلي ملاحظاته بطريقة توحي بأنه يؤدي زيارة اجتماعية – وتحدث عن حبه لأمريكا و كم أنه مع آخرين مثله يشعرون بالسعادة لقرار الأمريكيين بالقدوم وتقديم المساعدة، و كيف أن لديه أقارب في ملووكي . وهكذا – ثم بعد ذلك دخل في الجد قال :" يبدو أن بعض شبابكم قد قذفوا رئيس طهاتي في البحر ". ثم واصل كلامه ليخبرنا بما يعرفه عما حدث مؤكدا لنا أنه يقول كل ما يعرفه.

من الواضح أنه قد ابتلع القذارة التي قدمها له العقيد شين خلال حفلة الكوكتيل، لهذا كان يعتقد أننا سنحقق بالحادث "كمحترفين" ، والله وحده يعلم كم هي رفيعة المستوى اتصالاتنا في واشنطن و لندن و أن بإمكاننا أن نخفي الحادث تحت البساط من أجل ضمان عدم حصول أي تدهور في العلاقات بين البلدين. وقد ناقش الموضوع مع بائع الأحذية السابق واتفق الطرفان على أن بإمكاننا معالجة الأمر بما هو مناسب.

وبعد مغادرة القبطان بدقائق وصل آمر القطعة العسكرية بائع الأحذية السابق وبشيء من الاحترام القريب من التذلل أثنى على طلب القبطان بأن نتولى التحقيق بالحادث ونرفع إليه تقريرا يتضمن تقييما نزيها للموضوع ويكون مناسبا أيضا لرفعه إلى رؤسائه . قال جيليت :"بسرور" حيث لاحظ أن هذا سيمثل مناسبة طيبة للحصول على المزيد من وسائل الراحة خلال الأسبوع المتبقي أو نحوه من رحلتنا.

أحال كيربي المهمة إلى هاري أمرمان، وهو رجل كبير ثابت الجنان يمكن الاعتماد عليه في التحقيق في الوقائع "بأسلوب كائن ذكي من كوكب آخر لا تحكمه العواطف ." كما قال فيما بعد الدكتور كيسنجر .أعلن هاري في الحال أنه لا يحتاج إلى أي مساعدة للقيام بالتحقيق إلا أنه يقدر المساعدة التي تقدم إليه مني و من فرانك في" انتهاز الفرص " التي تنبأ أنها ستكون نتيجة ثانية لجهوده. وكما هو متوقع، اتضح أن تحقيق هاري قد جاء بأكثر مما كان ينتظره رؤساؤنا. فقد تبين أن الضحية نفسه (أو السباح كما سمى أحد الموظفين عديمي الذوق في مكتب قائد الشرطة العسكرية هذا الملف) كان رجلاً هادئاً مهذباً عالي الشعور بالمسؤولية وأصبح رئيساً للنقابة لأنه لا أحد آخر يرغب في ذلك . وما استدر دموعي هي حقيقة أنه مثلي، كان لاعب قمار بارزًا مع عيب واحد فقط في شخصيته هو لجوؤه للسحب من أسفل رزمة ورق اللعب عندما يكون نصيبه من الورق سيئاً. وبالنسبة

لزملائه من العمال الآخرين من المدنيين وإلى بعض جنودنا وضباطنا ، فإن القصة مختلفة ، كيف أنهم استطاعوا في غضون أسبوعين من الرحلة تنظيم أعمال بيع وشراء في السوق السوداء ووضع ترتيبات لسرقة تجهيزات السفينة وإخفائها ثم عرضها للبيع عند الوصول إلى الميناء ، قد جعلنا ننظر إلى الموضوع بإعجاب (قال فرانك : " الآن عرفت أننا سنكسب هذه الحرب !) ، ولكن " الفرص التي سننتهزها " التي وفرتها هذه الأخطاء ، جعلت لعابنا يسيل . كما أنها قد أزاحت عن أذهاننا أي تصور بأن "هذا السافل قد نال ما يستحقه" ، خاصة منذ أن بدأنا ننظر إلى الجانب الذي فيه شكل من اللعب في القضية .

وبعد يوم أو نحو ذلك كتب هاري تقريراً بدأ بجملة تقول : " كان الموقع الذي سقط فيه الضحية في الماء هو منطقة شق فارادي عند الطرف الشمالي لسلسلة جبلية تحت الماء تعرف باسم سلسلة جبال شمال الأطلسي ذات عمق ميل واحد فقط. " ، وأنهى التقرير بإشارة عن بلايين الغالونات من المياه التي تغمر " المنطقة المحيطة " والتي أدت إلى وفاة البحار . كان التقرير عبارة عن تقييم واقعي معقول لما حصل وختمه بملاحظة رئيس ضباط السفينة بأنه سيعمل على إطلاع جميع طواقم المطابخ في الرحلات البحرية المستقبلية على الحادث وهو يعتقد أن الحادث كان " مثالا عظيما " وينبغي أخذ العبرة منه.

تلقينا درسا سيئا من طريقة استلام لجنة المراجعة للتقرير، فقد أبلغ هاري أنه: " تحقيق إلى حد ما." وكان يجلس وراء مكتب مكتظ بأكوام من القوانين العسكرية، قائد الشرطة العسكرية لفرقة المشاة الأولى ومعاون قائد الفرقة الذي يتولى مسؤولية الشؤون الإدارية للرحلة ، وأمين الصندوق الذي هو أيضا الضابط الحقوقي للسفينة واثنان أو ثلاثة لم يعرفهم هاري. بالنسبة إليهم يعتبر تفادي المسؤولية هو عنوان هذه اللعبة. لم يبدوا أي اهتمام بالمتوفي باستثناء أحد الضباط

الكبار الحاضرين قد سأل : " هل أشعرتم أسرته "، حيث أبلغ ثلاث مرات أنه ليست لدى الرجل أسرة . ثم قال أحدهم بعد ذلك :آمل ألا نقوم بتشويه ملف عريف ممتاز لا لشيء إلا لقتله مدنيًا إنكليزيًا " هذا ما دفع المجموعة إلى أن تتوجه بنظرها إلـــى هاري الذي قال :" سوف أبحث بالقضية كما أراها " وبعد أن شاهد نظـــرة عـــدم موافقة على وجوههم أستدرك قائلا :"بحدود معينة" .

بعد أن قدم هاري تقريره الشفوي ، أعرب كل ضابط عن رأيه بكيفية تناول هذه القضية ، وأعلن قائد الشرطة العسكرية استنتاجاته قائلا :"جاء الموت قضـــاء وقدرًا " مع إضافة جملة أو اثنتين لتنقل انطباعا بحصول شجار بين مجموعة مـــن المجندين وطاقم السفينة، وأن المتوفي " قد سقط من على ظهر السفينة في زحمـــة هذا الشجار. و بينما كان الضباط ينظرون إلى منكبيه، غيّر هاري تقريره مباشـــرة في مكان الاجتماع . كانت النتيجة النهائية متسقه مع النتائج التي توصل إليها قائـــد الشرطة العسكرية. والاثنان شيئا واحدا.

كان ما جاء به هاري إلينا و نحن نجلس متكاسلين في إحدى غرف الســـفينة هو عبارة عن صفحة مطبوعة هي غلاف تقريره الأصلي ذي العشر أو الاثنتـــي عشرة صفحة . لهذا و من أجل تأمين أكبر "فرص للاستغلال "، كما يفتـــرض أن نقوم بذلك أنا و فرانك أدخلنا شيئا من الخيال على القصة. إلا أننا كنـــا منهمكـــين بالعمل. في البداية تقربنا إلى العريف و شركائه الأربعة بإبلاغهم أن الأمور تسير بصورة سيئة نحوهم، ومن ثم أكدنا لهم بأننا سنقوم بتكييف الحادث بطريقة تجنبهم المسؤولية . ثم بعد ذلك فعلنا الشيء نفسه مع طاقم الطبخ البريطاني وأكدنا لهم بأننا سنحذف من تقريرنا معرفتنا بسرقاتهم وتهريبهم واحتيالهم على النسوة في الســـفينة "فقد قاموا بحادثة اغتصاب واحدة على الأقل، وإرهابهم لضباط الســـفينة بطـــرق مختلفة، وجرائم أخرى كشفها تحقيق هاري".

وباندفاع طائش ، قال فرانك : " أيها الشباب كنتم على حق في أملكم بالحصول على عوض مالي مقابل ما قدمتموه إلينا. وقد جمع الأشخاص الذين ارتكبوا هذا الفعل الشنيع، عن طيب خاطر مبلغاً من المال يريدون منكم أن تتقبلوه " ثم استدار نحوي و قال: "ادفع؟ " و كان علي تسليم كل ما أخذته من باقي الفريق بعدل و إنصاف خلال لعبة قمار قبل ليلة. لا أتذكر المبلغ الكلي، إلا أنه كان أكثر مما يأمل في الحصول عليه طاقم الطبخ بأقصى ما يحلمون، من الجنود المشاة . وبشكل عام، مرت العملية بهدوء وسلاسة . لقد نسيت ما تم اتخاذه من إجراء، إذا كان هناك ثمة شيء من ذلك بخصوص الرجل الذي جرى قذفه في المحيط، ولكن في نهاية الرحلة ، نسي الفقيد، وتلقى أقرب أقربائه، وهو أبن عم بعيد له، برقية تعزية عادية تبرق عند الحروب، وجرى حذف بعض التفاصيل بذريعة الاعتبارات الأمنية.

لا أستطيع أن أصف عظم تقدير طاقم المطبخ لحسن تصرفنا . فبينما أفلحت في ممارسة المزيد من الضغط على الأطراف المعنية ، كان فرانك بارعا في تحديد الثمن. ونتيجة وجود أهداف أخرى لنا، فقد جعلنا كل شيء يبدو معقولا. إن كل ما يجب على زعماء الفتنة فعله هو إعداد وجبات طعام خاصة لفريق المخابرات المضادة وجلبها إلى محل أقامتنا . وقد تناولنا خلال السبعة أيام من الرحلة أفضل مما تناولناه طيلة الفترة المتبقية من الحرب، باستثناء بعض الأشهر التي أمضيناها في فرنسا بعد اليوم الذي شهد ساعة الصفر.

كانت أمامنا فترة سبعة أيام نغادر بعدها. أثبتنا خلالها أن قيادة المخابرات المضادة في واشنطن دي سي، قد اتخذت القرار السليم في اختيار هؤلاء المخبرين المتميزين كأول فريق لها يذهب إلى بريطانيا. ورغم أن ذلك الجزء من السفينة الذي تقيم فيه الممرضات شديد القيود، إلا أن فرانك قد رتب الأمر لتهريب عدد

منهن إلى محلات إقامتنا، وفي الآخر تدخل إحداهن إلى قمرة في الشرفة المســـقفة، حيث يمضي الشريكان لياليهما معا طيلة الفترة المتبقية من الرحلة. و بالنسبة لــــي، كنت أنام نهارًا وأمضي الليل ألعب النرد وأقوم برهانات جانبية مع جنـــود فرقـــة المشاة الأولى الذين تقودهم الخرافات بدلا من القواعد الرياضية. كانت نتيجة ذلـــك أنني قد نزلت إلى بريطانيا وفي جعبتي (٢٠٠٠) دولار أمريكي.

لقد عبرت المحيط الأطلسي منذ الحرب حتى الآن العديد من المـــرات علـــى ظهر الباخرة (الملكة إليزابيث الثانية) وعلى أفضل الناقلات البحرية من الدرجـــة الأولى أو الممتازة، وأستطيع القول الآن إن رحلتي البحرية وقت الحرب مع رفاقي من المخابرات المركزية، هي أفضلها على الإطلاق. يمكن القيام بمثلها هذه الأيـــام لو كان ذلك ممكنًا إذا ما دفعت أجرة سفر من الدرجة الأولى .

أما بخصوص تقرير هاري، فقد كان هذا أفضل عمل قمنا به. وحالما تم ختم الظرف السري للغاية الذي يحتويه، قام هاري بإزالة الصفحة التـــي تبـــيض هـــذه الجرائم واستبدالها بأخرى أصلية بخط يده وفي أعلاها عبارة تقول: "دع الأمـــور تأخذ مجراها الصحيح، وليكن ما يكون" . هل أخذت مجراها الصحيح أم لا ؟ هـــذا ما لم نعرفه.

الفصل الرابع

لندن في حالة حرب

بعد قضاء شهر متعب في شلتنهام ونحن نقاوم العقداء والرواد الذين يسعون لاكتشاف هويتنا ولماذا يرتدي أول فريق للمخابرات المضادة في بريطانيا الملابس المدنية ويرسل في قطار خاص إلى لندن. لم تكن محطة بادنكتن، التي تعتبر الآن مدينتي المفضلة، تخلب اللب منذ الوهلة الأولى، كما أن هذا اليوم كان أحد أيام أيلول الباردة و الماطرة. ولكن كل شيء فيها يترك وقعا كبيرا في النفس كالروائح والأصوات و البنايات القديمة والحي الذي يعج بالفنادق المكتظة بالطلبة الفقراء ورائحة سمن الأغنام والسجاد المتعفن، إلا إنني عشقتها. وقد جرت الدموع من عيني وتملكني شعور بأنني ربما أكون عشت هنا يوما ما من حياتي الماضية.

بينما كان الآخرون يقضون هنا وهناك باكتئاب وهم ينتظرون من سيلتقونه، أخذت كيرنز وأحد رفاقنا، وهو جيمس ايكلبرغر، واستأجرت سيارة وانطلقت بهما إلى محل إقامة كبار الضباط في شارع ساوث اودلي. وهناك عرضت أوراقي، وأوضحت بطريقة سرية تليق بالموضوع، إلى أحد الملازمين الذين تركنا أثرا كبيرا في نفوسهم بأننا في" واجب خاص مطول"وربما نحتاج إلى محل إقامة يليق بمكانتنا قرب المؤسسات الدبلوماسية الآسيوية والأفريقية، مع ذلك نكون على مسافة قريبة من سفارتنا في ميدان كروسفنر الأول. ونتيجة تأثره بذلك، أشار إلينا في الحال إلى محل إقامة كامل التأثيث في ميدان اوفنغتن الذي يبعد حوالي مائة ياردة من محلات هارودز، الذي يملكه حالياً أحد شيوخ النفط العرب، إلا أنه كلفنا في ذلك الوقت (١٢٠) دولارًا شهرياً أي (٤٠) دولارًا لكل فرد . كان فيه كادر

بريطاني كفء يتكون من بستاني وخادمة ومدبّرة منزل كانت تقدم لنا الإفطار كل صباح وتهيئ حسب الطلب عشاء فاخراً لنا ولضيوفنا تصنعه من الأطعمة الطيبـة التي كان يمكن الحصول عليها من محلات هارودز وتزيد عليها حتى فـي زمـن الحرب بعض الأطايب التي يمكن اختلاسها من طعام الضباط الكبار فـي شـارع ساوث أودلي . ويعود الفضل في ذلك إلى ضابط التجهيز المرتشي الذي أقام فرانك معه علاقة منذ اليوم التالي لوصولنا إلى لندن.

لم يمر وقت طويل ، وفي إحدى أمسيات يوم أحد ، كنت أتمشى فـي جـادة شافتسبري (**Shaftsbury**) ، وسمعت عزف نغم سريع قادم من مسرح كامبرج يمثل خاتمة لحن (كونشرتو) راجمانينوف الذي أعرفه جيداً، ويبدو كما لو أنـه يتنـاوب على عزفه جهازا بيانو الأول تعزفه ميراهيس والآخر أرت تاتوم ، وقد عرفت من خلال اللافتات المعروضة على واجهة المسرح ، بأني كنت أسـتمع إلـى الطفلـة العبقرية مورا ليمياني .

هل هي حقاً مورا ليمياني ! ، ودون لحظة توقف لالتقاط الـنفس ، اتجهـت مباشرة إلى بوابة المسرح، وبينت إلى البواب أنني أزور لندن كمندوب عن فرقـة فلادلفيا السمفونية، ويفترض أن ألتقي الآنسة ليمياني ووكيلها وراء كواليس المسرح لمناقشة رحلتها المتوقعة إلى الولايات المتحدة. وبعد سماعه للهجتي الأمريكيـة ، سمح لي بالدخول دون استفسار.

ثم جاءت مورا. اتجهت مباشرة إليها عند مغادرتها المسـرح ونزولهـا إلـى الكواليس وسط هتاف الجمهور وقدمت نفسي . قالت ببساطة بأسلوب علمت فيمـا بعد أنه نموذجي بالنسبة لها : " نعم ، تعال مع الآخرين إلى كينغزوود بعد عزفـي للمقطوعة ثانية . " لا أتذكر جميع هؤلاء الآخرين ، إلا أنه كان من بينهم عازفـة بيانو أرجنتينية نحيفة تحولت فيما بعد إلى رجل ، وصديقها الضـعيف (إذا أردت

أن أستخدم الكلمة بمداها الواسع) الذي كان يعزف الفلوت ويعمل في مخزن موسيقي قريب، وطالب أو اثنان ، ثم زوجان بلجيكيان كانا جيران موراف كينغزوود وسوراي حيث سنذهب إليها بعد الكونشيرتو.

وأخيراً، كان هناك رجل نحيف أنيق في أواسط عمره أو أواخر الأربعينيات ويبدو أشبه بأيكور سترافنسكي ، ويضع نظارات سميكة ، ويدخن السجائر بغليون طويل وتبدو علية سيماء الشر والفساد . هل سبق أن قلت إنني لم أكره أي إنسان في حياتي ؟ حسناً إنه هذا الرجل المدعو كولن دفريس ، الذي تبين لي أنه حارس وصديق ورفيق مورا وكما اكتشفت بسرعة أنه عشيقها، وهو يمثل حالة شاذة على نحو خطير. وإذا أردت أن أختصر، أقول إن هناك تنافراً سريعاً في العلاقة فيما بيننا .

كانت مورا رائعة. سرعان ما بدأت تعاملني كما لو كنا أصدقاء منذ الطفولة، وقد انضم إلينا سبعة أو ثمانية من الآخرين. وتحدثنا دون انقطاع بالانكليزية والفرنسية(كانت هذه المجموعة التي انضممت إليها عالمية بكل معنى الكلمة) في سيارات الليموزين إلى محطة واترلو وبالقطار المتجه إلى كينغزوود واخيرا عند العشاء في منزل كولن الفخم حيث تعيش مورا وتحتفظ بجهازي بيانو. وفيما عدا كولن كان كل من في المجموعة رائعا وتناولنا عشاء كعشاء النزهات وتحدثنا لساعات امام موقد خشبي كبير ثم انتهت سهرتنا. وفي الصباح التالي، استيقظت على وجبة إفطار إنكليزية جميلة ثم قمت بنزهة في الغابات مع مورا وأمضيت ساعتين أستمع لتجربتها قبل أن أستقل القطار عائدًا إلى لندن. إذا لم يكن هناك أي شيء في علاقتي يبرر غيرة كولن، فمن المؤكد أنه لم يكن عندي رغبة في محاولة إثارة غيرته.

وفي يوم الثلاثاء التالي، دعيت مورا للغداء في دور سستر. ودعوتها للعشاء مساء السبت مع فرانك كيرنز و ممثلة شكسبيرية تدعى روزالين فيلر التي التقاها

بطريقة مشابهة للطريقة التي التقيت بها مورا. لم تأت مورا بمفردها بل كان معها كولن. وعند العشاء الذي تم هذه المرة في ميرابيل، كان كـــولن ممـــلا، واحتكـــر الحديث وحده، عارضا مهارته العالية في توجية الإهانات التـــي تبـــدو كالمـــديح، جميعها موجهة إلى الأمريكيين(الذين وجدهم موضع إثارة) ومعظمها موجـــه لـــي شخصيا. أصبح يشكل لي "مشكلة" كما أسميت ذلك في إيجـــاز كـــادر المخـــابرات المضادة، شيء يجب إبعاده عن طريقنا للوصول إلى هدف معين.

ولكن كيف؟ عودًا إلى ميدان اوفنغتون، جلست طويلاً أمام الموقد أناقش هـــذه المصـــاعب مع كيرنز وايكلبرغر. بعد دراستنا لعدة احتمالات سأل كيرنز : " لماذا لا تقتلوه؟" هكذا قال بالضبط. لا أتذكر تفاصيل الساعات العديـــدة مـــن التســـويغ والتبرير فيما عدا أن كيرنز كان يعزف على وتر حقيقة أننا نمر بحالة حرب وقـــد "نقتل نتيجة ذلك الكثير من البشر " وقال "ماذا يكون ؟ إنه مجرد إنكليزي بهلوان ؟ "

ماذا ؟ بهلوان ؟ لقد فعلت هذه الكلمة فعلها . من الواضح أن كـــولن دفريـــز بهلوان ، أغوى فتاة بريئة ، موسيقية عبقرية مثلي ، لتقع تحت براثنـــه الشـــريرة. كانت القصة كما عرفتها من مورا خلال نزهتها أن الحرب قد فاجأتها بينما كانـــت تقوم برحلة أوروبية، وعادت إلى إنكلترا مع والدتها وهّرة صغيره ودون منزل تقيم فيه. تقدم كولن، الذي كان صناعياً ثرياً وعازف هاو للبيانو، وعرض عليها الإقامة في منزله الجميل في كينغزوود وعرض أن يعزف بعض مقاطع الأوركسترا أثناء تمرينها على مقطوعة راجمانينوف. كان العرض مغرياً ولا يمكن رفضه خاصة أن كولن قد أوضح لها: " أنني كبير جداً ولا أصلح أن أكون حتى والداً لك ".

لهذا وخلال الأشهر التالية ، أمضينا أنا وفرانك وأيك معظم وقتنا نخطط بكل جدية لقتل مواطن بريطاني محترم ، وفعلنا ذلك بكل عناية وحرفية بحيث أنه قـــد أوكل إليّ معالجة بعض القضايا ذات الأهمية الوطنية عنـــد عملـــي مـــع وكالـــة

المخابرات المركزية. وفي الآخر، استقر رأينا على خطة محكمة يتم فيها ضـرب كولن بهراوة خلال شجار في حانة حقيرة ، يضربه شخص آخـر، علـى وفـق الاقتراح الملهم لآمرنا الرائد جيليت .

كل ذلك قبل أكثر من أربعين عاماً وقد غابت تفاصيله عن ذاكرتي ، إلا أنني أتذكر جيداً أنها كانت تبدو في ذلك الوقت مكيدة رائعة، وكما في أي خطة عسكرية سليمة، هناك إجراءات بديلة وترتيبات لدعم نجاح التنفيذ. وفي الوقت الذي أصبحنا فيه جاهزين للشروع في العمل، راجعنا الخطة واستشرنا كل خبير يمكن أن تكون خبرته ذات فائدة في الموضوع. على سبيل المثال يتطلب أحد جوانب الخطة طلب مساعدة الشرطة، لهذا توليت أنا الموضوع واتصلت بالعريف بلاك ثـم بـالمفتش كوفيني، وهما شرطيان من الفرع الخاص المسؤولان عـن إبعـاد أي أذى عـن وحدتنا. وأود هنا أن أقدم نصيحة صغيره لأي فرد منكم قد يفكر في قتل والدته أو زوجته أو حبيبته، لا تعتمد على أي مساعدة قد ترجوها من شرطة سكوتلانديارد. إنهم أفراد ميئوس منهم، فهم ليسوا لا يوافقون من حيث المبدأ علـى القتـل، بـل يضعون أمامك كل ما يمكن تصوره من عقبات بيروقراطية، وتعني الأخيرة فـي بريطانيا العظمى الشيء الكثير .

وبالنسبة لزملائنا الأمريكيين، فقد تلقينا الكثير من التعاطف والتشجيع ولكـن القليل من العون والمشورة ذات الفائدة العملية لنا . مع ذلك، وعندما تخلينـا فـي الآخر عن الأمر، لم يكن هناك فرد في ميدان كروسفنر في لندن دبليو ١ لم يعـرف أننا كنا نخطط لقتل مواطن بريطاني كبير، ولا أزال أتلقى في كـل عيـد مـيلاد بطاقات من أصدقائي القدامى من (مسرح العمليات الأوروبي - الجيش الأمريكي) الذين لا يزالون أحياء يخاطبونني فيها بالسيد والسيدة (القاتل كوبلاند) ويـذكرون في ملحقها ملاحظات ظريفة مثل : " هل قتلت أي إنكليزي مؤخراً ؟ "

(١) حيث يقع مقر السفارة الأمريكية (المترجم).

ما الذي حصل أخيرا ؟ لقد حصلت الكثير من التطورات خلال الفترة الفاصلة بين بدء وضع الخطة والوقت المقترح للتنفيذ ، وهي فترة شهور، بحيث أنـــي قــد نسيت تقريباً كل شيء عن مورا بل وحتى أنها قد تجد صعوبة في تذكري. وهكذا كانت نهاية القصة. وإذا ما كانت هناك أسباب لاستمراري بوضع الخطط والمكائد حتى وقت التخلي عن الفكرة، فإن هذا يعود إلى أنني كنت مفتتناً بالخطط الفعليــة نفسها. كما أنني لا يمكن أبداً أن أستمر في تنفيذ مؤامرة القتل. نعم ، ربمــا قتلــت العديد من الأشخاص منذ ذلك الحين، إلا أنني لم أقتل أبداً أي شخص تربطني معه روابط اجتماعية. وهذا يشكل فارقاً كبيراً .

اقتصرت مؤامرتنا بالقتل على الكتابة فقط. كانت تحفة رائعة ، وقد أعجب بها كيربي جيليت وآخرون صعوداً في سلسلة المراجع . وقد نظــر جميــع الأذكيــاء ومرهفــو الحس أو تظاهروا برؤية خطتي المكتوبة على أنها " عمــل قصصـــي مكتوب خصيصاً ليكون مثلاً للعمل المتكامل ". كما جرى وصفها في مذكرة وقعت عليها بهدف رفعها إلى ضابط الحركات في مسرح العمليات الأوروبي المعــروف بـــ(G-3) . كتب رئيس كيربي، العقيد كالفرت، ملاحظة له تقــول : " أتمنـــى أن تستفيد عملياً من مثل هذه المواهب." فسّر كيربي الملاحظة بأنها تنطبق على فرانك وعليّ ، لتعني أن عليه أن يضعنا في مواقع خالية مــن المشــاكل وتبعــدنا عــن الاحتكاك بعامة الناس. لهذا ، فبدلاً من أن يرسلنا للقبض على الجواسيس، عيننا في العمل بمجال الخروقات الأمنية ، الواقعية والخيالية .

شعرنا بالضجر ، وبسبب ذلك تملكنا الطيش . قبضنا على "جاسوس" ألماني ، سمعت صديقة فرانك "أو كما تصر هي على ذلك" ، والتي تعيش في الشقة المقابلة لشقة الألماني ، إرسال شفرة جهاز المورس "اللاسلكي" الخاص به . نقلنــاه فــي سيارة أجرة إلى مقر المخابرات المضادة في (٢٠) ميدان كروسفنر ، وكنا طــول الطريق نصّوب فوهات مسدساتنا الكبيرة عيار (٤٥ ملم) نحو الرجل المرعوب .

غادرت السيارة ، وكنا على وشك سوق أسيرنا إلى داخل المبنى عندما سمعنا صوت توقف سريع خلفنا لعجلة رسمية نوع ليموزين . خـــرج منهـــا أصــــدقاؤنا كوفيني وبلاك من شرطة سكوتلانديارد ورائد أمريكي يدعى روجر ساكسون يعمل معاوناً للعقيد كالفرت . قال المفتش كوفيني بصوت عالٍ " نحن سنتولى الموضوع " أيها السادة " . بينما لم يقل روجر شيئاً بل ظل واقفاً وتبدو على محياه نظرة خبيثة كما لو أنه أراد أن يقول : " لقد فعلتموها هذه المرة أيها الحمقى ". أخذ مني الأمر عدة أشهر لأعرف ماذا كان يقصد ولأفهم لماذا لم تلق خطوتنا الجريئة الثناء الذي نعتقد أنها تستحقه، إلا أن روجر كان يرى أننا قد وقعنا في ورطة حقيقية، وكـــان يستمتع بذلك. سوف أقول المزيد عن روجر ساكسون في مكان آخر .

قبل الدخول فعلياً إلى ميدان الحرب ، كانت لنا تجربة أخـــرى تعلمنـــا منهـــا الكثير. ونتيجة لرأي أحدهم الذي مفاده إما أن عمل البريطانيين مخيب للآمال فـــي القبض على الجواسيس أو أنهم يقبضون علـــيهم ولكـــن دون أن يبلغوننـــا. قـــرر رؤساؤنا أن علينا أن نقوم بجهود مستقلة لمعرفة أين نضع أقدامنا في ميدان عمـــل مكافحة التجسس. ولأننا ضيوف فلا يمكننا معالجة بعض القضايا الخاصة بل يمكننا على الأقل تحديد إن كانت القضية قد تعرض مجهودنا الحربي للخطر. وعودة إلى التفاصيل، قال العقيد كالفرت إن علينا أنا وفرانك أن نؤدي قليلاً من العمـــل فـــي الميدان ، ليس من أجل القبض على جاسوس معين بل لإدراك ما هو المطلوب .

قال إن القضية الأولى أمامنا هي : " ماذا يريد الألمان معرفتـــه حولنـــا فـــي مقرات مسرح العمليات الأوروبي والذي لا يمكنهم معرفته إلا بتسللهم عبر نقـــاط سيطرتنا الأمنية ؟ وبصفتنا مختصين في المخابرات المضادة، نفترض أن الألمـــان يعملون ما بوسعهم لمعرفة متى وأين سنوجه ضربتنا، وأن علينـــا تحديـــد نقـــاط الضعف في دفاعات مخابراتنا المضادة التي قد تركز عليها جهودهم الاستخبارية .

كانت لدى فرانك، بعد تعمقه في الموضوع ، فكرة رائعة مفادهـا أن نسـرق خزانة فولاذية من مكتب مدير مسرح العمليات. وكلما استغرقنا في التفكير فيهـا، نكتشف كم أنها فكرة جذابة . قررنا في مساء يوم جمعة العمل، أمضينا عطلة نهاية الأسبوع نخطط ، وفي صبيحة يوم الاثنين كنا عند بوابة ميدان كروسفنر ٢٠ مـع سيارة فان كبيرة ، تمت سرقتها من ساحة وقوف السيارات (إذ إن طلبها بأسـاليب صحيحة سوف لن يكون أمراً سليماً) ، ومعنا اثنان من عرفاء المخابرات المضادة في زي الشرطة العسكرية (وهذه البدلات مسروقة أيضاً) ، مع شخصين ضخمي الجثة وهما يجران خلفهما إحدى تلك العربات ذات الدولابين المستخدمة فـي نقـل الأثاث الكبيرة .

ودون حصول أي مشاكل وبينما كنا نرتدي ملابس مدنيـة ونحمـل إذونـات مزيفة بالدخول إلى البناية ، مررنا أمام الحراس من الباب الأمامي ، حيث حيونـا بحرارة ثم صعدنا إلى الطابق الرابع ، وعند الساعة الواحدة بالضبط وفـي وقـت الغداء ، دخلنا إلى الدائرة " الهدف" التي حددناها في وقت سابق ، وسـلمنا علـى السكرتيرة التي كانت تجلس وحدها في المكتب وسألناها : "يا آنستي ، هلا أخبرتينا عن أي من هذه الخزانات التي يريد العقيد آدامز نقلها إلى مبنى نورفولك؟" أخبرتنا بالمطلوب ، وحملنا الخزانة في عربة وصعدنا المصعد وعادت هي لقراءة مجلتها . " هل تتذكرون مراسل صحيفة الديلي إكسبرس الذي شق طريقة بسـهوله داخـل منطقة محظورة في مطار هيثرو بعد التفجير الإرهابي لطائرة بان أمريكـان فـي كانون الثاني ١٩٨٩؟ " لم تواجهنا أي مشاكل لغاية وصولنا إلى الباب الأمـامي . فتح الحرس الباب ، وأخذنا ننقل الخزانة إلى عجلة الفان ، عندما جاءنـا راكضـاً ملازم ثان يحمل شريط الشرطة العسكرية **MP** .

قال : " عفواً سيدي ، هل عندكم استمارة رقم ٥٢٠٠ لغرض إجـراء عمليـة النقل ؟ " قلنا : " نأسف أيها الملازم . إنها ليست عملية نقل اعتيادية . إن الجنرال ارنولد يريد هذه الخزانة في مكتبه في مبنى نورفولك في السـاعة الثانيـة ، والآن تعدت الساعة الواحدة ..." وهكذا دار الرد والرد المقابل . فمـرة نـدّعي برتبتنـا العسكرية ومرّة نتملقه ومرّة نطلق تهديدات اليه. ولكن كل ما حصلنا عليـه مـن الملازم هو الارتجاف خوفاً والقول : "نعم سيدي، أفهم تماماً ما تقول ، إلا أن لدي أوامر لا تجيز لي إخراج أي شيء من البناية دون تفـويض بواسـطة الاسـتمارة ٥٢٠٠ موقعة من قبل مكتب مدير الشرطة العسكرية".

أخرج فرانك دفتراً ودوّن اسمه الذي أتذكره جيداً لغاية هـذا اليـوم وهـو " البرت مولينز" كان خائفاً، إلا أنه بعد أن أعطانا اسمه ، لم يتزحزح عـن موقفـه دخلت أنا وفرانك إلى العجلة الفان وفررنا. بعد الغداء ، حملنا الخزانة وأعدناها إلى مكتب مدير مسرح العمليات ، ثم جلست أكتب تقريري عن الحادث وأبـديت فيـه ثنائي العالي على الشاب مولينز . ونتيجة لإدراكنا ما قد يولده هذا الأمر من نتائج جانبية ، رأينا أنه من الأفضل تسليم التقرير شخصياً باليد . حيث قدمنا أنفسنا إلـى قائد الشرطة العسكرية الذي كان العقيد براند ويقع مكتبه في الطابق الأول من مبنى ٢٠ ميدان كروسفنر. ولكونه رجل شرطة عسكرية مرموقًا ، أعرب عن تعاطفـه معنا بل وحتى إعجابه بعملنا في المخابرات المضادة .

وبعد أن وضعنا قليلاً من البهرجة على الموضوع لأجل الضحك، أخبرناه بما حصل . ابتسم في البداية ، وعندما شرحنا له كيف أن مولينز قد تمسـك بموقفـة، انفجر بالضحك. كان لا يزال يضحك عندما التقط سماعة الهاتف ليبلغ سكرتيرته : " ابعثي لي الملازم مولينز! " .فتح مولينز ، الذي كان يجلس في المكتب الخارجي بانتظار مقابلة العقيد لإبلاغه بروايته عن الحادث، حيث كان لا يعلم أننا سـبقناه،

وفتح الباب ليراني مع فرانك جالسين هناك. لم يلاحظ في البدء أننا كنا نبتسم ، لهذا اصفرّ لونه . بعد ذلك قال العقيد براند الذي كان يبتسم أيضاً :"تعال يا آل، أعتقـد أمامنا فرصة لكسب هذه الحرب طالما كانت حراسة " مسرح العمليات الأوروبي – الجيش الأمريكي– بيديك، تفضل اجلس".

ظهرت سيماء الارتياح على وجهه، ثم تحولت إلى شيء من الابتهاج عندما أخبره رئيسه بأننا طلبنا توجيه الشكر والتقدير إليه . ضحكنا جميعاً، ثم أعدنا القصة ثانية ، وإنني واثق من أن آل مولينز لا يزال إلى الآن يرويها لأحفاده. وطبيعيـــاً، كان النتاج النهائي تقريراً آخر ، إذ عليّ أن أكتبه بنفسي لأن زملائي لا يريدون أن تظهر أسماؤهم في تقرير "يبيّض صـــفحة العديـــد مـــن الحمقـــى " . ولمعرفتـــي بالأشخاص الذين تعتمد عليهم مصلحتي، لم يتضمن تقريري سوى الثناء علـــيهم . أرسل الن كالفرت التقرير الذي وصفه " بالدقيق" إلى الجنرال ايزنهاور موقعا باسم: "رفيقك في الميدان " .

الفصل الخامس

الاستعدادات الكبرى

في أواخر عام ١٩٤٢ وعندما كانت الوحدة العسكرية (٢١) تستعد للإنزال في شمال أفريقيا ، تم تنسيبي إلى وحدة عسكرية باعتباري الشخص الثاني بعد آمرها روجر ساكسون، وهو الشخص الذي ابتهج لرؤيتي مع فرانك كيرنز ونحن نقود جاسوساً في مدخل مبنى (٢٠) في ميدان كروسفنر. ولأنني كنت أعيش قصة حب رومانسية مجنونة مع سكرتيرة في السفارة الأمريكية في ذلك الوقت ، كنت أود البقاء في لندن معتقداً أن بإمكاني الاعتماد على روجر لإلغاء تنسيبي. إلا أنه خذلني، وقَبل تنسيبي دون نقاش، لهذا كان عليّ دفعه لاتخاذ إجراء معين . كانت حيلتي هي إشاعة نوع من المفاخرة، بطريقة تضمن وصولها إليه، ومفادها أن الأمر سوف لن يأخذ مني أكثر من شهر حتى أستلم منصبه. لم يكن يصدّق أن بإمكاني عمل ذلك، إلا أنه كان غير مطمئن لحد شعوره بالتهديد، لهذا اتخذ خطوات معينة . فقد أخبر ألن كالفرت، مبدياً قلقه الكبير حول صحتي وحالتي الذهنية، بقصة حبي مع السكرتيرة حيث قلل عمرها من ٢١عاما إلى ١٨ لتعزيز رأيه بأني مصاب بالانهيار واقترح منحي إجازة لمدة شهر. للعودة إلى الولايات المتحدة لاستعادة رشدي . ونتيجة قلقه الجدي إزائي ، وافق ألن ، إلا أنه وجد من الأنسب لي تنسيبي لمدة شهر في مركز التدريب الاستخباري في معسكر ريتشي في ماريلاند حيث يمكنني أن أحاضر وإن أتلقى إيجازا خاصاً عن العمل الاستخباري الخاص بغزونا القادم عبر القنال الإنكليزي لأوروبا .

لم يكن هذا التنسيب هو ما يدور في ذهن روجر ، لهذا عَدل رأيه وبذل جهوداً كبيرة لإقناع العقيد كالفرت بأنني لست على حافة الانهيار، وأن العلاج

الأنسب لقصة حب رومانسية في ملاهي لندن ، هو قضاء شهرين في جبال أسكتلندا في مدرسة مغاوير الحلفاء التي أعلنت مؤخراً حاجتها لانضمام عدد مـــن ضـــباط مراكز القيادة شريطة اجتيازهم لاختبار بدني .

لاقت حجة روجر القوية بافتقاري لقوة التحمل العسكرية قبولاً لدى العقيد، لذا وافق على الفور . ورغم عدم فهمي لهذا الأمر في ذلك الوقت، إلا أن روجر قـــد أسدى إلي فضلاً كبيرا ، فقد اتضح أن هذه الدورة هي إحدى أهم الأحداث المفيـــدة في حياتي . فقد رفعت لياقتي البدنية إلى ذروة لا تصدق وحسنت بشكل كبير مـــن مهاراتي كخبير لأني ابتكرت وسائل لتجنب أشق دروس هذه الدورة كما أنهـــا قـــد زودتني برؤية ثاقبة إلى عقلية رامبو وهذا ما أفادني كثيراً عندما التحقت بوكالـــة المخابرات المركزية بعد الحرب في وقت لاحق، وقد علمتني مبادئ الاســـتراتيجية الشخصية التي وجدتها منذ ذلك الوقت بأنها شيء أساسي .

عدت إلى لندن رجلاً آخر . كان أول عمل لي هو الانتقال من ميدان أوفنغتن وتركه لفرانك وايك ورائد آخر ترك مكتب التحقيقات الفيدرالي بعد "خـــلاف فـــي الرأي" مع مديره جَيْ .ادغار.هوفر والذي كان يمضي معظم ســـاعات اســـتراحته ينظف مسدساته ويتدرب على سحب أقسامها بسرعة أمام المـــرآة . وقـــد اســـتقر كيرنز، بعد أن تحول هو الآخر إلى شخصـــية مختلفـــة، فـــي وظيفتـــه كـــرئيس للمخابرات المضادة في لندن، وعمله الرئيس الإشراف على الوحدة الأمنيـــة التـــي تقوم بعمل أشبه بالخدمة السرية لصالح القائد العام .

في بداية عام ١٩٤٤ عاد أيك من حملة ناجحة في شمال أفريقيا ليصبح القائد الأعلى لقوات حملة الحلفاء ومسؤولاً عن "العملية الكبرى" وهي خطة غزو أوروبا المحتلة من النازيين ، وقد سعى فرانك بسرية بالغة لتدقيق موعد وصول القطـــار الخاص بالقائد الأعلى إلى محطة جبل برمروس في لندن حيث توقع أنـــه ســـيكون عند منتصف ليلة ١٥ كانون الثاني، وبعد قراءته لتقرير الحالة الجوية الذي يتنبـــأ

بحصول ضباب كثيف، نشر وحدته في المنطقة المحيطة نهار اليوم الذي يسبق الوصول وذلك لتجنيب فريق القيادة عيون المتطفلين، حسبما يعتقد ذلك .

وبسبب وظيفته، عقد صداقة مع كي سمرسباي ، سائقة ايزنهاور ومساعدته الشخصية واستمرت العلاقة إلى الوقت الذي كتب لها مذكراتها التي عنوانها "كان ايزنهاور رئيسي". (رفض الناشرون العنوان الأصلي للمذكرات "أربع سنوات تحت قيادة ايزنهاور" على أساس أنه غير لائق). ومن خلال كي، التقى كيرنز بفتاة إنكليزية فاتنة هي كوين والتي تزوجها فيما بعد .

كما أنني بعد ذلك بوقت قصير تزوجت. وبعد عودتي من دورة المغاوير، بدأت أرتدي الزي العسكري وأظهر كملازم أول بسيط وبذلك حرمت نفسي من الدخول إلى مطعم كبار ضباط الميدان في شارع جنوب أودلي. إلا أن زواجي قد غيّر الكثير من الأشياء. لم أعد أشعر بالحاجة لما سمّاه فرانك " الزينة الزخرفية " التي تعتبر جزءًا من سحر محققي المخابرات المضادة. أعتقد أن استقراري في حياة أكثر تنظيماً قد قاد إلى لقائي مع لورين أدي ، ابنه جراح الأعصاب الشهير في شارع هارلي ومن ثم أيضاً بداية قصة حب رومانسية قادتني إلى مذبح الكنيسة وليس فقط إلى الكثير من حفلات الخطوبة الزائفة . ثم تزوجنا وصورتنا مجلات الطبقة المخملية في كنيسة سنت ماري في شارع كريت بورتلاند وعشنا حياة عائلية مستقرة جميلة في منزل على جبل بريمروس شمال متنزه ريجينت. أصبحت "كوبلاند جديد"، لم ينظر رؤسائي في البدء إلى الأمر بجدية، ولكن العقيد كالفرت اتخذ فيما بعد قراراً لا أحبذه، فقد وضعني في عمل يستلزم الاستفادة من مؤهلاتي العقلية أكثر منه من ميلي إلى المغامرة. إنه في غرفة لعبة الحرب .

لقد تم تأسيس هذه الغرفة أو كما يسميها هواة الضحك "القيادة الألمانية العليا المروضة لبيتل سمث" كنوع من هدية عيد ميلاد مقدمة إلى الجنرال ايزنهاور عندما عاد من الجزائر في بداية كانون الثاني ١٩٤٤، ليبدأ استعداداته للعملية الكبرى. لم يولِ ايزنهاور اهتماماً كافياً بها (رغم أنني لم أكن أعرفها بشكل جيد في ذلك

الوقت، فهو قد قرأ حركة تنقلات القيادة الألمانية التي تم افتراضها نتيجة حل شفرة الإشارات اللاسلكية)، إلا أن الغرفة قد ساهمت بمنحي كتاب أو كتابَي شكر وتقدير وأول وسام استحقاق في الجيش. وقد أصدرت الغرفة تقريراً، لم يستطع مخططـو ايزنهاور إغفاله، رغم أنه ظل مهملاً لبعض الوقت. لقد أشار التقرير بطريقة مقنعة إلى احتمال تحول تركيز جهود الألمان عن استراتيجيتهم التي كنا نفهمها وأخـذوا يركزون على تطوير جيل جديد من الأسلحة في ميدان علم الصواريخ. رغم أنه لم تكن لدى منتسبي غرفة لعبة الحرب أي معرفة بتقدمنا في ميدان تطـوير القنبلـة الذرية – أو ربما بسبب عدم امتلاكهم مثل هذه الغرفة – كان تقريرهم يشتمل على تخمينات مثبطة. وبكل براءة، ذكروا أن لدى القيادة الألمانية العليا سـلاحاً ذريـاً تحتفظ به لاستخدامه عند الحاجة وأن هتلر لن يتردد في إصدار الأوامر باستخدامه إذا ما انقلبت الحرب ضده.

رغم أنني كنت أعلم بوجود مشروع منهاتن (كما كان يسمى برنامج أبحاث القنبلة الذرية)، وكنت أعلم بعلاقته بتطوير الأسلحة علميـاً، إلا أنني لا أمتلـك الرخصة الأمنية المطلوبة لمعرفة تفاصيله. دارت جميع النقاشات بين مبنـى (٢٠) ميدان كروسفنر ومبنى نورفولك حيث يقيم مخططو دائرة الخدمات الاسـتراتيجية دون علمي بها . إلا أن العلماء في لوس ألاموس في نيومكسيكو حيث مقـر إدارة مشروع منهاتن هم وحدهم الذين يعرفون كل شيء وقد وصل أحدهم وهو المقـدم بوريس باش إلى لندن في الوقت الناسب ليشترك في الزوبعة فـي الفنجـان التـي أثارها تقرير فريق غرفة لعبة الحرب .

وهكذا التقيت ببوريس باش وهو الرجل الذي فتح عيني على ما ستكون عليه الحرب، وبشكل خاص، على حقيقة أنه رغم تفوق الألمان العسكري، فإن القضـية هي ليست كيف نكسب الحرب بل ماذا نفعل عندما نكسبها. هـل سـتأتي القنبلـة الذرية؟ نعم ، كان مخططونا الاستراتيجيون قلقين بشأن احتمال أو إمكانية امـتلاك الألمان لها أو أنهم على وشك الحصول عليها، ولكن خلال فتـرة الأسـابيع التـي

أمضيتها مع العقيد باش، بدأ يتضح لي أن قلقنا هو ليس من إمكانية استخدام الألمان لها ولكن من احتمال أن يسبقنا الروس في الحصول على البحوث الألمانية بعدما تنتهي الحرب .

كانت بداية عملي مع العقيد باش هي حضوري اجتماعًا مع هيئة تسمى "لجنة الأولويات الاستخبارية المشتركة". حصل هذا الاجتماع في غرفة كبيرة بوزارة الحرب على مائدة مؤتمرات طويلة تتسع لثمانية عشر أو عشرين شخصاً. كان يجلس على جانب واحد أربعة أمريكيين هم : باش وأنا وممثل عن سفارتنا يرتدي نظارة ذات إطار سميك وبدله قطنية مخططة وضابط أنيق المظهر من دائرة الملحقية البحرية في السفارة. بينما شغل المقاعد الأخرى ممثلو الشركات البريطانية الكبرى وموظفون مدنيون كبار، لم يكن يرتدي أي منهم البدلة العسكرية، وهم من الأدميرالية ووزارات الحرب والتموين الخارجية . وجلست خلف الممثلين البريطانيين مجاميع من المساعدين والسكرتارية والمراسلين الذين يجري الجالسون على المائدة محادثات هامسة معهم من حين لآخر ينتج عن أثرها الكثير من أعمال الجري وتبادل وخلط الأوراق وذهاب وإياب .

ودون الدخول في التفاصيل، كان البريطانيون يعرفون بدقة سبب حضورهم، بينما لم نكن نعرف ذلك إلا عندما بدأت بكتابة تقريري إلى العقيد ألن كالفرت الذي كان رئيسي في ذلك الوقت حيث فهمت ما يجري وهو أن البريطانيين يفكرون بالأهداف التي تم غزوها في أوروبا في السنتين الماضيتين لتحقيق النصر، وهم يفترضون حتى في أحلك أوقاتهم أن الحلفاء سيكسبون الحرب. علاوة على ذلك، فإن الأهداف التي عينتها اللجان البريطانية المختلفة ليست أهدافاً عسكرية فقط بل ومدنية أو أنها مدنية فقط. لقد كانوا يعلمون منذ البدء أن البحوث الألمانية متقدمة على بحوث الولايات المتحدة وبريطانيا في مجال الصواريخ والمتفجرات والمحركات النفاثة والكيمياء وعلم المعادن والتصوير ومعظم المجالات الهندسية، إلا أن معرفتهم لهذه الحقائق لم تؤثر على قناعتهم الراسخة بأن الحرب ستنتهي

بالنصر لنا. إن ما نستطيع الحصول عليه من الإمكانيات العلمية الألمانية سيكون أثمن باب للتعويضات التي لا تتوافر أمامنا فرصة في الحصول عليها من العدو المهزوم عند انتهاء الحرب.

أدرك الآن أن ما علمته في ذلك الأسبوع من التحقيق، وربما كان معروفاً لمعظم ضباطنا الكبار، إلا أن هذا الأمر كان جديداً عليّ ، ومن المؤكد أن الورقة التي كتبتها هي الأولى التي تناولت الموضوع بشكل من أشكال النظرة التاريخية التي كانوا يريدونها. وقد علمت أنه قبل عدة أشهر وضعت القيادة العامة للأركان الملكية لجنة التطوير والبحوث الخاصة بالعدو خطة للسيطرة على المنشآت العلمية والصناعية الألمانية وكيّفتها مع خطة العملية الكبرى دون أن ينتبه مخططو العملية كثيراً إليها كما أخبرني عدد من الأصدقاء في دائرة الخدمات الاستراتيجية . كما أنها أقامت منشآت لتدريب محققين خاصين وعينت وحدات مغاوير تساعدهم في تعيين والقبض على العلماء الألمان البارزين بشكل مستقل عما تقوم به المخابرات المضادة وشرطة أمن الميدان البريطانية. وفي وقت لاحق، أخذ أصدقائي في دائرة الخدمات الستراتيجية وفي مختلف دوائر المخابرات البريطانية ، حيث يعملون مرةّ جنباً إلى جنب، ومرةّ كمتنافسين، ينظمون فرق إغارة خاصة ليسبقوا نظراءهم السوفيت في الوصول إلى المنشآت البحثية في ألمانيا والاستيلاء على كل محتوياتها التي كنا نريد منع وقوعها في أيدي السوفيت أو الاستفادة منها من قبلنا .

كتبت تقريري تحت إشراف النقيب دويل وبمساعدة كبيرة من نات صموائيل وهو محام دولي يعمل في مجال تدقيق تسجيل أرقام سيارات الجيب التابعة للمخابرات المضادة .

من المألوف بالنسبة لي أن أجني فوائد أمور لم أقم بها وغالباً ما كنت أفشل في الاستفادة في الأمور التي أقوم بها فعلاً . إلا أن الورقة التي سهل عليّ نات كتابتها هي المرة الأولى والوحيدة التي لم أستفد فيها من شيء لم أقم به، رغم أنها لم تكن موقعّة، إلا أن جميع الضباط الكبار في مسرح العمليات الأوروبي ممن

يتمتعون ببعد نظر قد قرأوها . الشيء الآخر الذي رأيته هو ظهورها في ملفات ايزنهاور الشخصية عندما كان البروفيسور وليم ايونغ يُعدّ لإصدار كتابه الرائع "ايزنهاور الرئيس".

لا يهم ذلك ، لقد علمتني التجربة الكثير من أجل تحقيق أهدافي وزودتني ببعض وجهات النظر الجديدة القيمة . أتذكر على وجه الخصوص إحدى القضايا ذات العلاقة التي ظهرت خلال محادثة على العشاء كنت أنا ونات نتناوله مع أحد الموظفين المدنيين البريطانيين الذين تعرفت عليهم خلال اجتماع لجنة الأولويات الاستخبارية المشتركة. فبعد تعاطي قليل من الكحول ، قال ما معناه : " عندما تفكر بموضوع الحرب، تدرك أن كل هذه الفوضى تشير إلى معنى محدد . هو أننا الآن على وشك خوض معركة مع أكثر جيوش العالم تدريباً وتنظيماً وتجهيزاً بصورة لم يعرفها العالم من قبل، ومع قادة مؤهلين يماثلون ايزنهاور ومونتغمري وباتون وباقي الضباط من الرتب التالية في المرتبة، مع ذلك نستطيع أن نفترض باطمئنان بأننا متجهون نحو كسب الحرب . أنتم تعلمون أن كل ما حصلنا عليه يتجه لصالحنا."

أمامنا بالطبع أدولف هتلر، إلا أن صديقنا البريطاني يفكر بكيفية وصول شخصية مثل هتلر إلى موقع من القوة الهائلة في بلد متحضر مثل ألمانيا . وتساءل: " وفي الآخر ، مَنْ سينتصر؟ عندما تنتهي هذه الحرب مَنْ الذي سيصعد إلى القمة؟ ليس من جانبنا فقط بل من الجانب الآخر ؟ ألق نظرة فاحصة عليهم واسأل نفسك : هل سيكونون أفضل مما كانوا قبل اندلاع الحرب. أم أسوأ ؟ هل الحرب بالنسبة لهم ربح صاف أم خسارة صافية ؟ " من المؤكد أن الحرب بالنسبة لي ولمعظم الأشخاص الموجودين في مراكز القيادة التابعة لنا كانت ربحاً صافياً، إلا أنني أشك أن يكون في ذهن ضيفنا البريطاني مثل هذا التصور البسيط . وأثناء عودتنا إلى المنزل ، قال نات إن الرجل يصوغ سيناريو فقط لما هو واضح وجلي . وقال : "سيكون هناك دائماً عازفون، إلا أنهم لا يستطيعون القيام بأي حركة ذات معنى

على خشبة المسرح حتى يزودهم شخص مـــا بالموســيقى ويجمــع الأوركســترا ويستأجر المبنى . لذا لديك صنفان من الناس هم الذين يصنعون الأشياء فـــي هــذا العالم".

كان السؤال المهم بالنسبة لي هو كيف أضع نفسي في المستقبل مع مــؤلفي الأوركسترا بدلاً من العازفين وكيف أستطيع أن أوفق بين ما تعلمته من الجنـــرال "لوتن" ، آمر مدرسة المغاوير مع ما تعلمته الآن من نات . وقبل كل شيء ، ليست الحرب العالمية الثانية قصة تاريخية مفردة ، ذات بداية ومتن وخاتمة خاصة بها ، بل هي جزء من عملية طويلة ترتبط فيها مقادير ضخمة من التعقيدات الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي تجعل الأمور التي تجري حالياً تبدو تافهة بالمقارنة بها . وإذا ما تركنا العمر جانباً ، فإن فهم هذه التعقيدات الذي جعل من إيزنهاور ضابطاً كبيراً ومنّي مجرد نقيب .

الفصل السادس

المخابرات المضادة

اختفى بوريس باش من الصورة قبل أشهر من ساعة الصفر، فذهب أولاً إلى لوس الأموس ثم عاد إلى لندن في مهمة سرّية لا تتطلب معونتي. لهذا عدت إلى العمل مع رؤسائي العقيد الن كالفرت والعقيد هاوارد ولسن اللذين لم يكلفاني إلا بمهام تتوافق مع مواهبي وإحساسي الفني. إنهما بأساليبهما المختلفة رجال عظماء وأنا مدين لهما بأكثر مما حصلا عليه مني، رغم أن عليّ أن أقول إنني قد عملت دون كلل لكليهما. لقد رسمت خططاً للعقيد كالفرت وكنت أجري " تحقيقات خاصة " من وقت لآخر، مثال ذلك : تلك التي تتطلب أساليب غير تقليدية، وأقدمها إلى العقيد ولسن .

بالنسبة إلى ألن كالفرت، تعتبر الحرب شيئاً أكثر من تسلية . فرغم أنه كان حي الضمير في أداء عمله، وكان متفوقاً في ذلك، إلا أنه ظل عقلاً وروحاً كما هو في الحياة المدنية، ثرياً نفطياً من أوكلاهوما . كان موقفه "متقلباً " : فهو قد يأخذ الحرب بجدية كافية عندما ينغمس فيها، إلا أن رغبته الأساسية هي في انتهاء الحرب (وهو يعتقد أسوة بباقي الضباط الكبار في مبنى ٢٠ / ميدان كروسفنر بأننا سنحقق نهاية مرضية لها)، ويكون قادراً على استئناف ممارسته لحياته العادية .

كان هوارد ولسن، وهو يشبه ألن كالفرت في سلوكه " المتقلب "، محامياً من منطقة كنك سبورت في تنيسي ويتمتع بجميع الصفات التي يقدرها الأمريكيون في الجنوب : وهي الوقار المشوب بحس من الفكاهة من طراز مارك توين، والانضباط العالي في سلوكه، مع تفهّم واقعي للأشخاص الذين قد يرغبون في العمل الاستخباري، وذهن مهيأ لإصدار الأحكام السليمة بدلاً من مجرد أفكار ذكية

– تاركاً الأخيرة لأشخاص مثلي ومثل فرانك كيرنز وجيم ايكلبرغر. وأثناء كتابتي لهذا الكتاب بعد أكثر من أربعين عاماً، لاشك أنه عاد الآن إلى كنك سبورت فـــي تنسي، ويعرف بصورة محببة باسم القاضي المحبوب ولسن، الـــذي كـــان يعثـــر بسهولة على دافعي التبرعات والفتيات اللواتي يشجعن على التبرع لصالح الوكالات الحكومية المحلية. في بواكير علاقتنا، انضم ولسن إلى المجموعة التي تمثل مثلـــي الأعلى والتي تضم ثيودور روزفلت والســـناتور ســـباركمن والجنـــرال دونوفـــان وآخرين. وعندما بدأ كيرنز وزوجته يقضون أوقاتاً طويلة مع مجموعـــة جيلســـي الراقية، حل ولسون محله كأقرب صديق لي، وقد تطورت تلك العلاقة بعد استلامه رسالة من زوجته التي عادت إلى تنسي، حيث انتقل إلى منزلنا في جبل بريمروز من أجل الرفقة والعشرة.

ومع هاوارد ، أخذت أفكر في ظاهرة حكومية، كانت جديدة بالنسبة لـــي فـــي ذلك الوقت، تعرف بـــ " تأسيس الإمبراطورية " . يوجد في كل مؤسســـة حديثـــة كبيرة ، سواء كانت صناعية أو عسكرية، مَنْ يقرر ما يجب عمله وهناك من ينفـــذ – أو بالأحرى، مَنْ يقدمون المشورة إلى الرئيس حول الأهداف والخطوط العامـــة التي يجب اتباعها للوصول إليها، ومن يؤدون العمل الفعلي. يعرف الصنف الأول باسم " أركان الحرب "، ومهمتهم هي وضع ما يسمى بـــ " السياسية " بينما يعرف الصنف الآخر باسم " القوات المقاتلة "، ويقومون بتنفيذ ما نطلق نحن الخبراء عليه اسم " العمليات ". يقوم ضباط الأركان بوضع الخطط، بينما يقوم ضـــباط القـــوات المقاتلة بتنفيذها. ومن الطبيعي القول، إنهم هم الذين سيعبرون على المعبر الخشبي في حالة الفشل. من البديهي لدى مسؤولي مراكز القيادة أن الصنف الأول يتمتـــع بالصلاحية دون المسؤولية (لا أحد يلومهم إذا ما فشلت الخطط التي يضعونها في حل أي مشكلة طالما أن خططهم مدروسة جيداً) بينما يكون الصنف الآخر علـــى العكس من ذلك. كان هاورد ولسن من القوات المقاتلة بينما كان ألن كالفرت أحـــد أعضاء هيئة أركان العقيد براين كونراد، ضابط الاستخبارات. فـــي حـــين كانـــت

العلاقات داخل مجموعة المخابرات المضادة من النمط الذي لا تثار فيه قضايا الصلاحية والمسؤولية عدا أنه إذا ما حاول أحد الأوغاد من مسؤولي المتابعة كروجر ساكسون، البحث عن موقف لاستغلاله، تثار مثل هذه الأمور .

إن مهمة مراكز القيادة المؤسساتية هي تحديد المشاكل ووضع الحلول لها وتحديد المسؤول عن كل منها. يتحدد سلوك البيروقراطي الطموح بفهم هذه الحقيقة. فإذا ما وضعت مسؤولية حل مشكلة معينة على عاتق عضو في المؤسسة يشعر أنه غير آمن في عمله – ومن لا يشعر بذلك في مؤسسة كبيرة ؟ فإن أول تفكير له هو ليس في حل المشكلة . كلا، إن هذا سيكون في المرتبة الثانية من تفكيره. السؤال الأول الذي سيدور في ذهنه هو " كيف أحوّل هذه التفاهة التي أبتكرها رئيسي لمجرد اشغالي إلى قضية ذات أهمية قصوى؟ – طالما أن الفرد سيحظى بشرف أعلى عند حل مشكلة كبيرة أكبر مما سيحظى به عند حلّه لمشكلة صغيرة .

وهكذا تستطيع أن تتصور نوع عملنا في المخابرات المضادة – لا يمكنك أن تتوقع أن يكشف الجواسيس الذين يعملون ضدك عن أنفسهم . ما عليك إلا أن تفكر باحتمالات تضخيم مشكلة معينة لا تستطيع حتى أن تراها! إن الوقائع يمكن قياسها أما الخيالات فلا حدود لها .

لم نر أي جاسوس (كان فرانك خلال هذه الفترة يجمع ملاحظات لتضمينها في كتاب سيكتبه بعد الحرب بعنوان " لم نلق القبض على أي جاسوس) ، إلا أن هذا لا يعني أنه لا يوجد أي منهم بل يعني أن البريطانيين الماكرين إما أنهم كانوا يعرفون كيف يتحاشون إثارة انتباهنا أو أنهم كانوا يعرفون شيئاً عن الجواسيس ولا يبلغونا به .

وفي أحد الأيام ناقشت ذلك مع هوارد ولسن ، وركزت على صمت السلطات الأمنية البريطانية وهي الفرع الخاص من شرطة سكوتلانديارد "لم نكن نعرف في ذلك الوقت أنه (MI5) "، وأشرت أنه إذا لم يتعاونوا في قضية بسيطة مثل قتل

شاب كان يقف بين ضابط أمريكي وصديقته ، فلا يمكننا أن نتوقع أن نحصل منهم على معونة كبيرة في التعامل مع قضية رئيسه كالجواسيس الألمان .

ثم بعد ذلك، خمّنت الحقيقة . لماذا كان الفرع الخاص من السـكوتلاند يـارد غاضباً – وروجر ساكسون مسروراً . عندما قمنا أنا وفرانك كيرنز بتمثيل الملهاة "إخوة ماركس" في مبنى ميدان كروزفنر مع " الجاسوس" الألماني الذي قادتنا إليـه صديقة فرانك ؟ إن الجواب الوحيد الذي يبدو معقولاً في ضوء رفـض أصـدقائنا البريطانيين التعاون معنا هو : لقد قاموا مؤخراً بالقبض على جميـع الجواسـيس الألمان في بريطانيا وهم لا يرغبون أن يتدخل الكثير مـن الهـواة فـي عملهـم باستخدام هؤلاء في إرسال معلومات مضللة إلى برلين. وسألت هوارد ولسن أليس هذا صحيحاً وهز رأسه قائلاً : نعم إنه كذلك ومن الأفضل لنـا حسـم المشـاكل الأمريكية الخالصة. وقبل كل شيء ، علينا أن نتذكر أننا ضيوف فـي بلـد لازال شعبه يقاتل في حرب منذ بضع سنوات ونتفهم أنه شديد الحساسية إزاء رعاة البقر الأمريكيين الذين يتدخلون بمجال عملهم دون أن يأخذوا الوقـت الكـافي للإلمـام بمهارات هذا الفن . وأضاف أن عادتي في محاولة النظر " واقعياً " إلى موضـوع كسب الحرب هي في الحقيقة غير واقعية ، موضـحاً أن المشـكلة " الأمريكيـة " الحقيقية هي ليست كيف نكسب الحرب بل كيف نديرها بصـفتنا " إمبراطوريـة " وهذا يمكن أن يفيدنا جميعاً . أنني ألوم نفسي لأنني لم أفهم هذه النقطـة قبـل أن يوضحها لي في هذا الوقت أبي الروحي.

هكذا إذن يجري بناء إمبراطورية . لقد انشغلت المخابرات المضادة في مسرح العمليات الأوروبي بقدر متواضع من هذا الجانب ، بل إلى حد طلب الموافقة على تعيين ضابطين وأحد عشر مجندًا من وكلاء المخابرات المضادة في كل فرقة . إلا إننا نظمنا العمل بعد ذلك بطريقة جدية . فقد جلس هوارد مع وكيله المعين حـديثاً وهو فتى لطيف يدعى كلاود كوزا وأخذ يرسل طلبات للمزيد مـن الجنـود مـن

معسكر ريتشي في ماريلاند حيث يتدرب الجنود والضباط على مختلف المهام الاستخبارية . وقد استقبلنا كل ما استطاعوا إرساله إلينا . ثم قمنا بتنسيبهم . وقد حصل أن اكتشف هوارد أو كلاود ، لم أعد أتذكر اسمه ، أن هناك عدة مئات من جنود المخابرات المضادة يخدمون في أيسلندا (وقد تجمدت أقدامهم كما قال هوارد) وسيكونون سعداء بنقلهم إلى بريطانيا الجميلة. وهكذا أرسلت إلى أماكن نائية سلسلة أخرى من الطلبات الملحة التي أدت إلى نقل منتسبي المخابرات المضادة من أيسلندا إلى بريطانيا بمجاميع من ثمانية إلى عشرين شخصاً، كنا نندهش ونتساءل ما الذي يفعله هؤلاء في أيسلندا في المقام الأول.

كنا نعرف ما الذي يمكن أن نتوقعه رسمياً من وحدات المخابرات المضادة حالما تبدأ الفرق التي تم إلحاقهم بها في القارة فعلياً بمقاتلة الألمان . كانت أوامرنا محددة بأن نقوم "بتأمين الأجواء" المحيطة بوحداتنا المقاتلة أثناء تقدمها شيئاً فشيئاً داخل أوروبا ونقوم باتخاذ الإجراءات الكفيلة لضمان عدم وجود جواسيس في أوساط السكان المدنيين ، الذين يمكن أن يرسلوا برقيات باللاسلكي إلى الألمان . ولكن في ضوء ما لاحظناه عن الحرب في هذه الأماكن النائية ، هل كانت هذه الأوامر مفيدة ؟

لم يكن المستقبل الذي خططت له لنفسي ولزملائي في المخابرات المضادة يستند كثيراً على مفاهيم مراكز القيادة حول ما يجب على الوحدات المسماة "المخابرات المضادة " وعلى وفق المهام المحدد لها ، أن تضيفه إلى المجهود الحربي ، الذي يستند على حقائق الموقف كما بات واضحاً لي خلال مسيرة عملي مع بوريس باش . وقد كانت أولاً : حالما تتسارع جيوش الحلفاء في دخول أوروبا، فسوف لن يكون هناك أي مخابرات ألمانية يمكننا مكافحتها . أن تسعين بالمائة من الجواسيس الفرنسيين والهولنديين والبلجيك والألمان الذين جندتهم الاستخبارات الألمانية لإسناد الجواسيس سينهارون ويلتحقون بالطرف المنتصر ، بينما سيكون العشرة بالمائة الذين لا يفعلون ذلك حمقى لا يستحقون أن نقلق أنفسنا بشأنهم . إذا

ما تعاملنا مع أوامرنا الحالية بجدية فإننا سنتحول في الآخر إلى مصلحة للاجئـين تتولى معالجة الكثير من المشاكل التي يمكن معالجتها بواسطة موظفي المعونـات الاجتماعية . لهذا ، علينا بأسرع ما يمكن بعد الإنزال على سواحل النورمندي ، أن نلقي على عاتق الشرطة العسكرية مسؤولية جمع – أو بالأحرى استقبال – لـيس فقط الجواسيس الحقيقيين الذين قد يسلمون أنفسهم بل أيضاً تجار السوق السـوداء والناجين البسطاء الذين قد يدعون أنهم جواسيس كي يمكـن نقلهـم إلـى مراكـز استجواب مريحة بدلاً من مخيمات الأسرى المروعة . يجب أن نحـتفظ لأنفسـنا بالأعمال التي تجاري المهارات التي وضعتنا في المقـام الأول فـي المخـابرات المضادة وهي " تأمين الأجواء".

ثانياً ، علينا أن نحدد طلبنا لما سيصـبح المهمـة الرئيسـة لمجمـل الجهـد الاستخباري ، وهي تعيين والقبض على الألمان المدنيين منهم والعسكريين الذين : (١) قد يكونون مفيدين لنا بعد الحرب مثال ذلك : الذين حققـوا التفـوق التقنـي الألماني ومنتسبو المخابرات الذين تجسسوا على السوفيت، أو (٢) الذين يعتبـرون نازيين متعصبين ويحاولون الفرار إلى أماكن أخرى في العالم حيث يتمكنون مـن إعادة تنشيط حركتهم. لم يكن أي من هذين الصنفين على قوائم " القبض التلقائي " الخاصة بالمخابرات المضادة ولم يكونوا ، كما أتذكر ، ضمن اهتمام أي عنصـر مخابراتي آخر .

ثالثاً وأخيراً هناك الحقيقة المجردة أن رؤساءنا الذين يتبوأون سلم قيادتنا، في هذا الوقت وهم كالفرت وولسن وآخرون ، كانوا يتوقون لانتهاء الحرب والعـودة إلى منازلهم لهذا فإنهم يتبعون أي وسيلة يمكن أن تجعل مـن عمـل المخـابرات المضادة عملاً روتينياً بسيطاً وتسهل حياتهم في الفترة المتبقية من الحرب . عندما ناقشت هذه الحقائق " مع العقيد كالفرت ، كان كله آذاناً صاغية . وقد نقلهـا إلـى ضابط استخبارات مسرح العمليات الأوروبي العقيد براين كونراد ، وبعـد عمـل أسبوع لهيئة أركان التخطيط في الاستخبارات صدرت أوامر جديدة إلينـا تكلـف

مفارز المخابرات المضادة بواجبات أمنية بسيطة فقط ، وتخولنا بتأسيس وحــدات خاصة للقيام بمهام " مختلفة " مثال ذلك القيام بعمل استخباري متوافق مــع أمــر تحويل ألمانيا الهتلرية إلى دولة " تعمل من أجل الديمقراطية " .

أشير هنا إلى أي من قرائي الذين يعتقدون أنني أحاول أن أنسب لنفسي الكثير من الأفضال (منتهكاً المبدأ الذي تعلمته من الجنرال لوتن خلال دورة المغــاوير) إلى عبارات الثناء الواردة مع وسام الاستحقاق الممنوح لي والتي تشير إلى أنه منحَ لي " لمساهمتي في التخطيط للمخابرات المضادة قبل الشروع بالعملية الكبــرى "، وإلى تاريخ الحرب العالمية الثانية الرسمي الذي يوضح بصورة لا لبس فيها مــاذا كان نوع هذا التخطيط . وما لم أحصل على وسام من أجله هــو مســاهمتي فــي تأسيس فريق " متنقل " تابع لنا ، وهو وحدة من أحد عشر عمــيلاً مختــاراً مــن المخابرات المضادة يعملون بأمرة هوارد ولسن مع أوامر غير محددة ذات طــابع عسكري عام ، بأن عليهم بصورة استثنائية ، معالجة أي شيء نقرر معالجته .

ومع تفويض هوارد الممنوح لي ، ذهبت بعيداً إلى حد تجنيد أفراد من عملاء المخابرات المضادة الذين أخذوا يتدفقون إلى بريطانيا من معسكر ريتشــي وهــو معسكر التدريب الاستخباري في ماريلاند . وقد كان لدينا بالطبع نات صــموائيل الذي عرفني برفيق من شيكاغو يدعى هنري راكو وهو شاعر معــروف وأســتاذ للفلسفة في جامعة نوتردام أصبح مؤخراً رئيساً لتحرير مجلة " شعر " الرصــينة . وكان هناك عدد من الأكاديميين الذين درسوا وتعلموا في الخارج ومراسل صحفي أو بمعنى ذلك من الذين لم تعفيهم شهاداتهم من قرعة الخدمة العسكرية وأمريكــي من أصل ألماني يتحدث اللغتين بطلاقة سيكون أبرز محققينا إذا ما برزت الحاجــة لذلك ، وقليل من المجاميع العرقية من غرب الوسط مثل أنتوني فايفادا وهو محلل سياسي أمريكي ليتواني يتحدث إضافة إلى اللغتين الفرنسية والألمانية جميع لغــات أوروبا الشرقية. وأضفت اثنين من مواطني تكساس، لانني وهوارد أحببنا منظرهما وهما تشارلي بوكر وهو شخصية جنوبية تشبه إحدى شخصــيات روايــة ووكــر

بيرسي ، وجون باريش وهو أستاذ مساعد للفرنسية في جامعة تكساس. ورغم أنهما قد تعلما فرنسيتهما من الكتب المدرسية، إلا أنهما يتحدثانها بطلاقة ويتمتعان بفطنة ابن البلد التي تُكمل ما لديّ . وكما قال هوارد ولسن " إنهما قد نشـــآ فـــي مـــدن صغيرة في الجنوب القديم ، لذا فإنهما يستطيعان تمييز الغث عندما يرونـــه . ثـــم أضاف هوارد، جولي نولن وهو كندي فرنسي أصبح فيما بعد خبيراً في الوحـــدة ، والنقيب دويل الذي جعل نات يصبغ سيارات الجيب العائدة إلى لندن . كان دويـــل مثالاً لنا جميعاً، لا يدخن ولا يحتسي الخمر ولا يلاحق الفتيات ومنذ ذلـــك الحـــين ولغاية ساعة الصفر – أو بالأحرى ساعة الصفر زائداً ثلاثين يوماً عندما غـــادرت وحدتنا إلى فرنسا – أمضينا وقتنا نتعرف على أحدنا الآخر ونوجز أنفسنا عماّ نعتقد أن نفعله عندما نصل في الآخر إلى القارة . وبالنسبة لي ، أمضيت وقت فراغـــي أجدد تعارفي بأصدقائي في دائرة الخدمات الاستراتيجية وهي المؤسسة التي كنـــت آمل أن أنضم أليها أخيراً .

خلال استطلاعي مبنى ٢٠ / ميدان كروسفنر ومبنى ٧٢ / شارع كروســـفنر ومراكز قيادة دائرة الخدمات الاستراتيجية ، علمت أن المؤسسة الأمنية البريطانية المعروفة ب(M15) قد ألقت القبض مؤخراً على جميع الجواسيس الألمان ليس فـــي بريطانيا وحدها ، بل أيضاً في أيسلندا وكرينلد وشفايتسبيرغن وجزيرة جان مايان ، حيث كانت مهمتهم إرسال أنباء الأحوال الجوية التي تعتبر حيوية للغارات الجويـــة لسلاح الجو الألماني على الأهداف البريطانية ، وبذلك أصبح فريـــق المخـــابرات المضادة في هذه الأماكن زائداً عن الحاجة . ولا عجب فقد شعر منتسبو المخابرات المضادة بما فيهم قائدهم ليس بفتور المهمة فحسب بل بالنفور . لهذا تمت إعـــادتهم إلى بريطانيا . وبعد أن قبضت المخابرات البريطانية على الجواســـيس ، جنـــدتهم وجعلتهم يرسلون معلومات وهمية إلى الاستخبارات العسكرية الألمانية مـــن أجـــل التضليل .

ولكن ما هو جدير بالأهمية أنني عندما حصلت على بطـــاقتي الأمنيـــة ذات الدرجة العليا والتي تسمح لحاملها بالاطلاع على تفاصيل العملية الكبرى علمت أن حوالي أربعين أو خمسين من الضباط الكبار كانوا يخططون لكل صغيرة وكبيـــرة للفترة المتبقية من الحرب وينفذون ألعاب حرب متقنة تأخذ في حسبانها عوامل لـــم تكن تخطر في بالي . وكلاعب مقامر بالبوكر قرأ كل ما كتب حتى ذلك الحين عن نظرية لعبة الحرب ، أستطيع القول إن لديهم خبرة فائقة . لقد التقيت بعدد كاف من الضباط الذين يعملون في تلك الألعاب ووجدت أنهم يدركون جيداً ما يفعلونه .

منتدى سور الأزبكية www.books4all.net

الفصل السابع

الطـريق إلى باريـس

ما هو الشيء المشترك بين هنري كيسنجر ، وولبـور افيلانـد ، وجـيْ.دي سالينغر ، ووليم ساروبان وجون كلينون وجيمس ايكلبرغر ومايلز كوبلاند؟ جميعهم يتمتعون بعقول جبارة ولكن جنودهم بائسون . كان لدينا مثل هؤلاء أيضاً ولكن ما أعتقده هو أننا قد جئنا إلى أوروبا بعد ساعة الصفر كعملاء للمخابرات المضـادة، ولدينا دور في الإسهام بسقوط هتلر، مساو لدور سبايك ميليكان كما ذكر ذلك فـي مذكراته عن الحرب بعد ثلاثين عاماً. ولست متأكداً من الآخرين، إلا أنني وكلينون وسايلنغر قد جئنا إلى أوروبا في نفس الموجة، وكما أتذكر في (٢) آب ١٩٤٤ .

وبعد قضاء ليلة جميلة مثيرة في أكياس النوم على لسان من ساحل النورمندي، حيث يهب نسيم صيفي منعش ، والنجوم ساطعة والسماء صـافية ، وأسـراب لا تنتهي من الطائرات المحلقة ، وأصوات وتوهج الإطلاق الكثيف على بعد مسـافة معينة – غادرنا برتل عسكري مؤلف من شاحنات وسيارات الجيب بهدف تأسـيس معسكر من مجموعة مهجورة من ثكنات الجيش الفرنسي في فالوني، الواقعة على بعد أميال قليلة من مدينة كان وحوالي مائة ميل من باريس. وهناك ، أخرجنا نرداً وورق لعب وربحت من المغفلين حوالي (٥٠٠) دولار، خلال الأيام القليلة التالية ، وخسرت أحياناً لمجرد القضاء على الضجر من اللعب بجدية .

وفي فترة تناول مشروبات بعد الظهر، وعندما عدنا أنا وهوارد ولسن وجون باريش إلى ثكناتنا، وجدنا جميع عملاء المخابرات المضادة الاثني عشر متجمعـين حول شاب غير حليق، سريع الكلام، يرتدي زياً ألمانياً حقيراً وقد أخذ كل انتباههم بما كان يرويه من قصة نعتبرها مغامرة شخصية حديثة .

وعندما شاهدنا، قفز أحدهم ليقول : " لقد حط فـي أحضـاننا أكبـر صـيد للمخابرات المضادة حتى الآن ". كان الرجل وكأنه ممثل كوميدي بديل فـي أحـد نوادي سوهو الليلية أكثر منه ضابطًا ألمانيًا، إلا أنه كان ملازماً في الاسـتخبارات الألمانية، ومشتركاً في محاولة اغتيال هتلر، وهرب من الاعتقال في سلسـلة مـن المغامرات المثيرة التي شد بها انتباه مجموعتي .

هل قلت " فترة تناول المشروبات"؟ نعم ، كان هذا هو الأسلوب الذي نتبعه في مركز القيادة . إنها أفضل مكان وأستطيع القول إن الأمسيات في وحدات المخابرات المضادة في أوروبا لا تضاهيها أية أمسيات للجيش العادي لقد جئنا بـــ(أوتـو ، رئيس طهاة مطعم ميرابيل ، ثم بعد ذلك أفضل طباخي مطعم مي فير ، وجـولي نولن ، وهو رفيقنا الكندي الفرنسي الوديع الذي أكمل مواهبه بالتعرف على مـدير مطعم كان مطعمه في مدينة كان قد تعرض للقصف ، إلا أنه يعـرف أيـن يجـد الخضراوات واللحم الطازج . وهكذا كان الملازم الألماني الثرثار ضيفنا في تلـك الليلة، جلسنا حول الوجبة الأولى من المأكولات والمشروبات تلتها وجبـة كـوب جاريت) التي تمثل الجزء الأساس من أرزاق الجيش ، رغم أنهـا معـززة بلحـم خنزير مملح وخمر ألمانية ولحم سيقان عجل وضأن جلبه السيد كيو ، معاون أوتو، من أحد الأسواق .

لم يكن الألماني واسمه هيرمان رديك ، " يتمتع بالسحر" كما قال جون باريش، إذا ما صورنا له فيلماً حالياً، فيمكن أن يلعب دوره شخصية ضعيفة لدستن هوفمان. ورغم انه قد تحدث بثقة تميز ممثل كوميدي بديل. إلا أنه كان معتدلاً بشكل لطيف. وإنكليزيته صحيحة إذ تعلمها خلال نشأته في منهاتن، حيث كان أبوه (كما قـال) مستخدماً لدى شركة شحن أمريكية – ألمانية . كان راوي قصص موهوبًا ويـدلي بمعلوماته بشكل حكايات كتلك التي أتصور أنها تروى حول موقد نار في مهرجان كشافة للفتيان ، ورغم أنه كان عندما يصل إلى تفاصـيل ذات أهميـة اسـتخبارية محتملة ، قد يتوقف، ثم يعطي التفاصيل بدقة متناهية. على سبيل المثال ، خـلال

روايته لحكاية مسؤول ألماني كبير وخلافاته مع زملائه الآخرين ونقاط ضعفه الشخصية وأسلوبه في لعب البوكر وهكذا- فإنه قد يتوقف ليعطي عمر الرجل ووضعه الاجتماعي وطوله ووزنه وحتى لون شعره وعينيه .

لم نستطع أن نكتشف الرجل . كنا أنا وهوارد ولسن نرى أن قصته متوافقة مع الوضع العام كما نفهمه في ذلك الوقت من حيث إنها قصة مختلقة وأمضينا اليوم التالي نحاول تشخيص أي هدف ميكيافيلي "سيئ" لعميل مزدوج وراء مجيئه إلينا . وعندما طالبناه أن يكون صادقاً، طلب هرمان مواجهته بنقيب المخابرات المضادة مارتن فيس الذي كان يعرف عنه أنه موسوعة متنقلة عن القيادة العليا للاستخبارات الألمانية .

ربما كانت هذه الإشارة إلى فيس هي التي دقت الناقوس في ذهن جون باريش . في اليوم التالي ، أبلغ باريش هوارد : " أن تعتقد أن هذا الرجل صادق، يعني أن عليك أن تصدق أن مارتي فيس كان دقيقاً للغاية في وصفه لكل أحوال القيادة الألمانية العليا ".

ودون أي تفكير قال: هل تقول إن هذا الوغد الصغير الذرب اللسان قد حصل على معلوماته من خبرته الشخصية أو قراءته لملفات مارتي ؟ "

كان الجواب واضحاً، وأكد مارتي بنفسه عندما وصل إلى معسكرنا متأخراً بعد ظهيرة ذلك اليوم نفسه .

قال لأسيرنا : " أهلاً هيرم " .

قال هيرم ، الذي لا يزال حزيناً إلا أنه أخذ يستعيد حيويته : " أهلاً ، مارتي".

" لقد كنت فتى سيئ السلوك يا هيرم " .

" أعرف ذلك يا مارتي " .

كان هذا كل شيء. ثم لاحظنا أن الجنديين اللذين وصلا مع مـــارتي بســـيارة الجيب هما من الشرطة العسكرية . استدار مارتي إليهما وقال : لا ضرورة للقيود – تستخدم القيود عادة للجنود الغائبين وسيأتي هيرم بهدوء . وهيرم هو هيرمـــان رومان وليس رديك وكان مترجماً بلغتين مع الفيلق السابع وقد عمل سابقاً بـــإمرة مارتي .

والآن لنأت إلى الدرس المستنبط . ما هو بالغ الأهمية في ذلك الوقت يمكن أن نجده في محتوى أجوبة هيرم على الأسئلة . ولغاية مجيئه إلى معســكرنا ، كـــان فريقنا تحت تأثير انطباع أننا نقاتل ألمانيا النازية . لقد تسربت إلى أذهانهم فكـــرة صد أية محاولات قد يقوم بها العدو المهزوم للانضمام إلينا في الحرب ضد " عدو مشترك " هو روسيا السوفيتية . يعود الفضل إلى عملي مع العقيد باش في لندن في أنه لم يتملكني مثل هذا الوهم ولكن عندما أتذكر ما مضى ، أدرك الآن أن ما سمعه زملائي من هرمان قد أعطاهم أول إشارة إلى أن رؤساءنا الكبار كانوا ينظـــرون إلى أبعد من ألمانيا النازية، إلى الروس، الذين تعلمنا أن نتحدث عنهم باعتزاز بأنهم " حلفاؤنا الحمر البواسل ". لقد تعلمنا من هيرم أشياء جديدة من مراكز القيادة وهي أن رؤساءنا في واشنطن ولندن يعتقدون أن هناك حركة حقيقية حتى إنهـــا ربمـــا تكون واسعة الانتشار مناهضة للنازية في قوات الدفاع الألمانية وقد تبرز إلى حيز الوجود بعد ما تنتهي الحرب.

الفصل الثامن

الدخـــول إلى باريـــس

بكثير من النفور ، أود التوقف هنا عند قصة كنت أتحدث عنها لسنين على موائد العشاء وهي أنني كنت أول أمريكي دخل باريس وقت تحريرها . لم أدع عملاً لم أقم به إلا إذا لم يكن هناك أي خطر لاحتمال اكتشافه. وفي هذه القصة هناك الكثير من مروجي الدعاية المضادة لكوبلاند في أوساط من يعرفون القصة الحقيقية. ربما يكون واحداً أو أكثر منهم من المليون من الأشخاص الذين سيقرأون هذا الكتاب وربما يكونون حقودين إلى حد أن يكتبوا رسالة إلى رئيس تحرير إحدى الصحف التي قد تقدم استعراضا مادحاً للكتاب .

وبالنسبة إلى التفاصيل، لا أعرف شخصياً كل تفاصيل القصة الحقيقية، لأنني كنت في ذلك الوقت لا أملك فكرة واضحة عما يدور حولي ، حيث كنت أتلقى الأمور كما هي ، ولا أكتب أية ملاحظات . وما أعرفه الآن قد جاء نتيجة تدقيقي للوثائق القديمة المكتوبة بعد وقت طويل من حصول الواقعة والحديث مع الأصدقاء القدامى مثل لاري كولينز الذي كتب مع دومينيك لابير ، الكتاب الرائع " هل باريس تحترق ؟". وبالنسبة إلى التوقيت ، كل ما أستطيع تأكيده هو أنني دخلت باريس قبل يوم من دخول بابا همنغواي الذي ، كما يتذكر قرائي من كبار السن ، ادعى في وقت ما إنه أول أمريكي وصل باريس في آب ١٩٤٤ – وهذا يعني أنه أول شخصية مشهورة لعبت دوراً بارزاً في تحريرها . كان يعرف جيداً أن مكتب الخدمات الاستراتيجية قد هيأ لإرسال مجاميع من العملاء قبل شهر من مغادرة الألمان.

لنبدأ من البداية . بعد يوم من إعادتنا هيرم إلى لندن لاستعادة روحه الممزقة ، وصل مقدم يدعى كروفر أدامز ، أحد أفراد أسرة بوسطن الشهيرة، إلى معسكرنا وهو يحمل ظرفاً مغلقاً بإحكام مع رسالة شخصية من رئيسه كوردن شين ويدعى الآن العميد شين ، وكان يخدم في مقر المخابرات المضادة في واشنطن . وقد أرسل سريعاً بطلبي قائلاً : " ينظر إليك الجنرال شين بتقدير عال ، ويرى أنك الشخصية الحاذقة التي يمكن أن تؤدي عملاً له هو عبارة عن مزيج من العمل الرسمي والعمل الشخصي ، ويمكن أن يمنحك الجزء الرسمي من العمل وساماً آخر " .

وما هو هذا " العمل البسيط ؟ " ، إنه يتلخص بنقل ظرف إلى فندق ماجستك في باريس في جادة فكتور هوغو على مبعدة من الشانزليزيه، وتسليمه إلى مقدم يدعى كورت شوماخر مساعد الجنرال دايترخ فون كولتيتز ، القائد الألماني لمنطقة باريس وضواحيها. أما الجزء " غير الرسمي " فهو تقديم طلب إلى فندق جورج الخامس وإجراء كل ما هو ضروري لضمان حجز هذا المكان إلى كوردن وباقي ضباط الاستخبارات الكبار الذين يأتون من واشنطن حالما تسقط باريس بأيدي الحلفاء . قال العقيد أدامز : " أنت تعرف هؤلاء العسكريين المختصين بالشؤون المدنية ، إذا لم نغلبهم ، فإنهم سيأخذون أماكننا وسنلجأ نحن العناصر المهمة في هذه الحرب إلى المبيت في النزل (البنسيونات) . إلا أن الألمان كانوا لا يزالون يحتلون جميع أنحاء المكان . لهذا ما هي الصلاة التي أؤديها لأدخل إلى باريس ؟ وهل ينبغي عليّ وأنا أرتدي الزي العسكري الأمريكي أن أتجه مباشرة إلى فندق ماجستك حيث المقر الإداري للجيش الألماني وأسال موظف الاستعلامات المهذب عن الطريق إلى مكتب القائد العام؟ قال كروفر أدامز : " حسناً ، سنجعل الأمر سهلاً . أنت لا تحتاج لمعرفة محتويات الظرف ، ولا تحتاج لمعرفة أن كورت شوماخر هو مسؤول استخبارات رفيع المستوى . أنت تحتاج لمعرفة أن الضباط الذي سيرافقك إلى باريس هو نقيب في الاستخبارات الألمانية نثق به وهو يعرف

كل الدروب . إنه هو بتمان والتر كلم وإنك ستلتقيه في شارترز حيث ستكون وحدة المخابرات المضادة قد التقت به . ومن تلك اللحظة ، ستكون كل الأمور سهلة" .

هكذا أتذكر الآن كيف جرت تلك المحادثة. وكأي فرد في سنوات عمره الأخيرة، لا أتذكر ما تناولته في إفطار ذلك الصباح، إلا أنني أتذكر محادثة جرت قبل أربعين عاما، خاصة تلك التي تشكل حدثا بارزا مثل هذا، وأتذكرها بوضوح تام . مع ذلك ، فعندما أعدت سرد القصة على كروفر بعد عدة سنوات ، وبعد أن أصبح صديقاً وأحياناً شريكاً تجارياً، أنكرها. وقال : " حسناً ، ربما أكون قد قلت شيئا كهذا إلا أنني كنت أمزح معك. كان كوردن يريد منك أن تجد هذا الشوماخر أينما كان حتى لو كان عليك أن تذهب مباشرة إلى فندق ماجستك. مع ذلك، دققت روايتي مع الزملاء القدامى، ووجدتهم يتذكرون القصة كما رويتها .

على أية حال، أعلم ما كنت قد فهمته في ذلك الوقت . وهكذا بعد أربع وعشرين ساعة وبعد تحريك الأرتال و اقتراب فوضى الحرب من ذروتها ، كنت أقف وسائقي شارلي هاشيت ، أمام فندق ريفي خرب يقع في غابة مجاورة لشارتريز . وهناك وجدت الملازم دان هنترمن دائرة الخدمات الاستراتيجية .

بدا دان مسروراً جداً لرؤيتي . قال : " كلما أسرعت بالتخلص من هذا الرجل، كان ذلك أفضل . إن لديه مجموعة مهمة من الوثائق الموقعة من الجنرال سيبرت ولدّي تعليمات من العقيد بروس بألا أكون زائد الفضول إزاءه ". كان الجنرال إدوين سيبرت ضابط استخبارات في وحدة الجيش الثاني عشر ، وهو رئيسنا جميعاً، بينما كان العقيد دايفد بروس رئيساً لدائرة الخدمات الاستراتيجية في أوروبا والذي التقيته عند عودتي إلى لندن . قال دان : " لم يكن يثق في ميولي " .

وفي داخل ما نحسبه حانة أو ملهى ، توقف الغناء وأخذ خليط من صغار الضباط من الخدمات الاستراتيجية ومن المقاومة الفرنسية يستمع بانتباه مشدود إلى ألماني وسيم أشقر يتحدث بمزيج من الفرنسية الباريسية وإنكليزية منهاتن . قال

شيئاً بالفرنسية : " يا إلهي ، أعتقد أن قصة التمساح الأمريكي قد وصلت الألمان". لقد كانت تنتشر حول محيط مراكز قيادة مسرح العمليات الأوروبي طيلـــة الشـــتاء الماضي .

قال : " سأقول لك . إنه ذكر التماسيح الأمريكية أثمن المخلوقات الحيـــة فـــي العالم . تضع أنثاه ألف بيضة سنوياً ، ثم يأتي ليأكل كل البيض عدا عشر أو اثنتي عشرة بيضة. لو لم يفعل ذلك ، لكنا جميعاً في أفواه هذه التماسيح ." ، فالألمـــاني الذي يفترض أن أدخل معه باريس ضحك بعمق على مزحته هو.

من السهل تكوين تصور عن هذا الرجل ، فهناك ندبة ظاهرة على وجهه بفعل مبارزة ، فقد آذى نفسه في مشاجرة مع شبان نازيين في حانة للخمور في ميونخ . إلا أن كليهما هو وهيرم عبارة عن نسخ من ممثلي هوليوود، وهما يتحدثان نفـــس العامية الأمريكية الخالية من أي لحن .

شاهدنا دان وأنا المشهد لبضع دقائق عبر الصالة. سأل دان : "ما رأيك؟" قلت : أود أن أرحل إلى مكان ما وأطلق صرخة عالية ، إلا أننا استعدنا رشدنا. "

رافقني دان إلى المائدة حيث كان النقيب والتر كليم يتحدث . لم ينتظر الألماني دان ليعرفنا ببعضنا حيث نظر إلي بابتسامه يفترض أنها ودية وقال: " أهلاً جـــاك أرمسترونك ممثل أمريكا كلها ! ". قلت : " سررت بلقائك أيضاً " .

"- وبالمثل، هل ستأخذ هذه المغامرة البسيطة على محمل الجد؟ أقصد، هـــل تتوقع مني حقاً أن أرافقك إلى باريس؟ " ولغاية هذا الوقت، كانت فكـــرة دخـــولي باريس بينما لا يزال الألمان فيها تشكل جزءًا كبيراً من أحلامي الخيالية، إلا أننـــي فجأة أخذت أبحث هذا الاحتمال جدياً . قلت له : " هذه هي الفكرة العامة . "

قال النقيب كليم الذي أصبح جاداً : " لهذا لابد أن أحداً ما مجنـــون فالمكـــان يغص بالألمان . أقصد أنني ألماني ، ولابد أن أعرف .

هل فهمت ما قصدته في قصة التمساح ؟

لم أفهم ولكن دان فهم . قال وهو يأخذني بذراعه ليقودني إلى الخارج: " مايلز ، أعتقد أن علينا أن نتبادل الحديث. "

على مائدة العشاء ، أعطاني موجزاً عن الموقف العام لدائرة الخدمات الاستراتيجية والمخابرات المضادة، وماذا أستنتج منه بعد وصول النقيب الألماني . قال إن قادتنا يعتبرون باريس حتى هذا الوقت مسؤولية في أعناقهم . فقد سأل الجنرال ايزنهاور مستشاريه التعبويين:" ماذا سنعمل في باريس بعد الاستيلاء عليها؟ وأجابوا أنه إذا أراد أن يتولى مسؤولية شعب جائع في أجمل وأكثر مدن العالم تأثراً سياسياً ، فإن عليه أن يهيئ إرسال أربعة آلاف طن من الأغذية والأدوية والوقود يومياً ، أي ثلاث مرات بقدر ما يمكن تجهيز الجيش الأمريكي في زحفه نحو الحدود الألمانية . إضافة إلى ذلك ، أن شن هجوم مباشر على باريس ، سيشغل عدة فرق في قتال شوارع طويل الأمد مما يؤدي إلى أن تتحول باريس إلى أكوام من الحجارة تشبه ما شاهدناه في مدن سانت لو وكان .

علاوة على ذلك، أن رأي كبار محللينا الاستخباريين هو أن الاستيلاء على باريس قبل أن يصبح الأمر ضرورياً من الناحية الاستراتيجية ، سيجعل الجنرال ديغول (الوجع في الشرج كما يدعوه دان)، قبل الأوان مسؤولاً عن البلاد. وهكذا، ستكون لدينا حكومة ديغولية تعتبر مشكلة معقدة على نحو فريد لما بعد الحرب . لم نكن قد وصلنا بعد إلى إدراك أن شكل الحكومة التي كان ديغول يريدها هي ما نريده بالضبط .

كان هذا هو نمط التفكير في وقت وصولي إلى كارترز . وقد سمع دان من مصادر موثوقة في مكان ما أن عليه أن يريح وحدته في كارترز لأنها من المحتمل أن تبقى هناك لمدة شهر آخر على الأقل . وإذعاناً لهذه الأنباء السيئة (فقد كان دان وهو المتسكع بالفطرة ، يتطلع إلى باريس بنفس الطريقة التي يتطلع بها الطفل إلى عيد الميلاد "الكريسماس ") ، أرسل فريقاً لجلب النبيذ الطيب وبعض المواد

الضرورية للطبخ وأنواع من المأكولات الأساسية اللازمة لمؤونة جماعته خـــلال الصيف .

إلا أنه وفجأة تغير كل ذلك، وكان دان يتساءل فيما إذا كانت لمهمتي ، مهمـــا تبين أن تكون، أية علاقة بالمخطط الجديد . وقد ألقى والتر كليم بعض الضوء على الموقف. ومن يتمتع بالفطنة يرى بوضوح أن هناك تغييراً في الموقف الألمـــاني . طالما أن القيادة الألمانية العليا تجد فرصة سانحة لإشـــغالنا فـــي حـــرب طويلـــة للاستيلاء على باريس فإنهم عزموا على الصمود بها وهم يشعرون بالسعادة لتولينا مسؤولية تدميرها في عمليات قتال الشوارع والتي تعتبر ضرورية . ولكنهم حالما رأوا أننا قررنا المضي نحوها وذلك من خلال الالتفاف عليها ، قرروا أو بالأحرى قرر هتلر أن يقوموا بتدميرها ليتركوا لنا حطاماً محترقاً .

ولكن علمنا فجأة أن البريطانيين الأنذال لم يقبضوا فقط " ويجنـــدوا " جميـــع الجواسيس الألمان في بريطانيا، بل إنهم جندوا أيضاً نسبة عالية من الاســـتخبارات الألمانية ليس في فرنسا فحسب، بل في مراكز قيادتها العليا . علاوة على ذلك، أنهم فعلوا ذلك بأسلوب المحترفين الحقيقيين ، على أساس فهم أن دوافـــع الجواســـيس متذبذبة وتعتمد على رؤيتهم حول من سيكسب الحرب في الآخر. لم يكونوا يثقون مطلقاً بمعلومات جواسيسهم قبل أن تأخذ الحرب اتجاهها لصالحنا، ولكـــن عنـــدما أخذنا نقترب أكثر من باريس، أصبح واضحاً للجميع – عـــدا المكـــابرين – أننـــا سنكسب الحرب .

أصبح واضحاً للقائد الألماني في باريس الجنرال فون كولتيتز، الـــذي تلقـــى أوامر مباشرة من أدولف هتلر، بأن تدمر باريس بمحرقـــة كبيـــرة مـــن النيـــران والمتفجرات. ولكنه وإدراكا منه بأنه سيسقط في نظر التاريخ بأكثر من الوغد هتلر نفسه، قرر ألا يفعل ذلك . وبعد أن لاحظ العملاء البريطانيون العديدون في هيئـــة أركانه وجميعهم من ضباط الاستخبارات الألمانية من الرتب العالميـــة، تـــردده ، اصطفوا خلفه وبدأوا يستخدمونه كرأس حربة لحركة عصـــيان لأوامـــر القيـــادة الألمانية العليا .

وفي صباح اليوم التالي ٢١ آب ١٩٤٤ ، صدرت الأوامر من مركز القيادة بأن نتحرك نحو رامبوليه التي تبعد خمساً وثلاثين ميلاً من باريس حيث سنلتقي بالمقدم كينيث داونز رئيس الخدمات الاستراتيجية في الجيش (١٢) وتشكيلة من وحدات الخدمات الاستراتيجية وستنهي عددا من مهامها في إحكام إغلاق المدينة من الناحية الاستخبارية . بينما تكون وحدة دان في الطريق لموعد لا يتجاوز الظهيرة .

بعد وصولنا واستعدادنا للتحرك ، كان لدينا أنا ووالتر وقتاً كافياً لتناول إفطار على مهل . كان والتر في ذلك الصباح رجلاً مختلفاً . فقد كان هادئاً ومتزناً ، ويرتدي زياً عسكرياً أنيقاً، دون أية شارات يمكن أن تدل على رتبة ضابط معين من أية دولة ، كان بالغ الجدية ورابط الجأش على النقيض من الليلة الماضية، رغم أنه لا يتسم بالودية . لماذا تصرف كسافل في الليلة الماضية ؟ قال : " إنني لم أنسجم مع أصدقائك ولم ينسجموا معي ، ومن المؤكد أنني سوف لن أجيب على أي من أسئلتهم " .

وخلال مسيرنا نحو رامبوليه ، لم يكن الحديث سهلاً بسبب الضوضاء التي يحدثها الرتل على الطريق الذي يضج بالدبابات والمدرعات وعجلات حمل المعدات الثقيلة . مع ذلك ناداني والتر بأن نستغل أول فرصة للتحدث بعيداً عن الآخرين . قال لي : " لا أعتقد أن الجنرال شين يريد منك المضي إلى باريس، تذكر، لابد أنه قد أختارك لأنه يعتقد أنك صاحب مبادرة. والآن قد تغير الموقف .

جاءت فرصة التحدث بعد ساعة، عندما توقف الرتل ليسمح بمرور وحدة من الفرقة الفرنسية الثانية . أوضح والتر أن ضابط الاستخبارات الألمانية الذي سألتقيه في باريس هو صديق قديم لكوردن شين ، حيث أمضى الاثنان أحد مواسم الصيف معاً أثناء لقاء والديهما في عاصمة إحدى دول الشرق الأقصى .

بعد فترة الزمن، انضم إلينا دان وأعطيته أيجازاً سريعاً ، حيث أكدت على والتر أنني من الآن فصاعداً سأطلع دان على كافة الأمور . كانت خلاصة الحديث التالي هو الاتفاق على ألا أبتعد كثيراً عما هو محدد إلي بالأوامر إذا لم أدخل

باريس، لأي سبب وعليّ بدلاً من ذلك ، أن أترك الأمر لوالتر لإيصـــال رســـالة كوردن شين إلى شوماخر. وبطريقه غير مألوفة حينذاك، عليّ أن أدخل بـــاريس " بأسرع ما يمكن "، بينما يترك والتر الرتل في منطقة سنت كلاود ويشق طريقه إلى بيت قريب آمن حيث يتوقع، وحسب خطط الطوارئ الســـابقة، أن يجـــد كـــورت شوماخر . في هذا الوقت سلمت والتر الظرف، الذي كان لا يزال مغلقاً، وبحضور دان كشاهد.

في مرحلة معينة من رحلتنا في سيارة الجيب من كارترز إلى رامبوليه، فقدنا الرتل وكان علينا أن نجري قليلاً من البحث للعثور على فندق كراند فينـــو حيـــث ستلتقي هناك وحدات الخدمات الاستراتيجية . وعندما عثرنا على الفندق ، كانـــت تجري فيه حفلة كوكتيل، ويتبادل المقدم كينيث داونز ، رئـــيس جميـــع وحـــدات الخدمات الاستراتيجية في الجيش الثاني عشر، الحكايات مع جوني أوكـــز (مـــن فريق صحيفة النيويورك تايمز) وبن ويلز (نجل وكيل وزارة الخارجيـــة ســـمنر ويلز) وفرانك هولكومب (رائد في قوة المارينز نشأ وتربى ، كدان هنتر ، فـــي باريس)، والعديد من نجوم الخدمات الاستراتيجية الآخرين الذين كنت أنظر إلـــيهم كحال طالب ثانوية مستجد مبهور بسحر الأعلى منه مرحلة. وكأحد أنصار دائـــرة الخدمات الاستراتيجية ، كنت متأثر جداً . لم يثر والتر ، الذي يقف بالقرب مني ، أي اهتمام، طالما يحتشد نساء ورجال يصعب وصفهم ويرتدون زياً غريباً ، وطالما كان قبل كل شيء يتحدث الإنكليزية كأي فرد منّا .

بدأ طعام العشاء ، الذي يختلف كثيراً عن الطعام الاعتيادي ، عنـــد الســـاعة التاسعة. وفي وسط المائدة حشر إرنست (بابا) همنغواي نفسه بطريقة مســـرحية ، تلاه جمع ضوضائي من الفرنسيين الذين نعتقد أنهـــم يمثلـــون رجـــال المقاومـــة الفرنسية، ثم رئيس الكل العقيد دايفد بروس رئيس دائرة الخدمات الاستراتيجية في أوروبا . كان شيئاً يحاكي الحياة في هوليوود ، حيث يتصرف بابا همنغواي بنفس الطريقة التي مثله بها جون هوستن في قصة مثلت عن هذا اللقاء بعد ثلاثين عاماً .

بدأ العقيد بروس بعيداً عنا في هذا الوقت كوننا قد وقفنا جميعاً وتركنا أماكننا نصف جائعين لتحية ضيوفنا المدهشين . إلا أنه لمحني في الآخر . وبنظرة من عينيه تبدو ودية إلا أنها خائفة ، دعاني جانباً ليسألني : " ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟ " عرفته بوالتر وأخبرته بعد ذلك بالظرف الذي عليّ أن أنقله إلى فندق ماجستك . وقد فوجئ بذلك ، ووقف هناك فاغر الفم ينتظر المزيد من التوضيح .

أبلغته أن التعليمات التي لديّ هي ألاّ أدع أي شخص يرى الظرف لحين إيصاله بأمان ليد الضابط الألماني المعني بذلك ، ولكنه إذا ما أصرّ ، فإني سأسترجعه من كليم وسأعطيه له . لم يشترك العقيد بروس ، وهو رجل يرى نفسه أنه آمن من الناحية الرسمية إضافة إلى الاجتماعية في منافسات مراكز القيادة . لذا فإنه ابتسم فقط وقال : " إنه قرارك أيها النقيب ، افعل ما يمليه عليك ضميرك . سوف لن أطلب منك مخالفة الأوامر " . كان هذا ما جرى ، إلا أنني تطوعت في القول أن هذه الأوامر قد جاءت من الجنرال شين . ابتسم العقيد شين ، بفرح ، وقال : " أمض في سبيلك يا بني . إنني واثق أن الأمور ستكون على ما يرام . إلا أنني أرى من الأفضل إخراجك من هنا قبل أن تنطلق هذه القافلة الغجرية في طريقها بعد غد ." ثم استدار ليصافح والتر وقال : " حظاً سعيداً لكما"، ومشى مبتعداً وهو يهز رأسه .

استمرت " الحفلة " ، حتى منتصف الليل ، وأود التوقف عند سلوك همنغواي – أو بالأحرى عند منظر ضباط الخدمات الاستراتيجية الكبار الذي كان يتأرجح بين استمتاعهم بالحفلة وانزعاجهم منها . كنت ولا أزال أحد المعجبين بهمنغواي ، وتؤكد جميع لقاءاتي معه في السنوات اللاحقة ، ولحين وفاته ، انطباعي الأول عنه بأنه وغد محبوب رغماً عنه ، كما وصفه مرةّ صديقنا المشترك كوردن كازكل . مع ذلك ، ينبغي أن ينصب الاهتمام هذه الليلة على والتر كليم، فقد كان علينا أن نضع خططاً للقائنا ثانية بعد سلوكنا لطرق مختلفة . وفجأة أدركت أنه رغم التبادل القصير للأسرار التي تدبرناها ونحن في طريقنا إلى هذا الملتقى ، أننا لم نول أي

اهتمام مطلقاً بما ينبغي أن يحصل بعد افتراقنا في منطقة سنت كلاود . وهكذا تركنا الجمع ، وجلسنا في الشرفة ، وكانت ضجة الضحك ورنين الأقداح وباقي ضوضاء الحفلة تصلنا عبر النوافذ المفتوحة ، مع أقداح الكونياك وفناجين القهوة، في جلسة عمل للتخطيط .

مع ذلك، لم يكن حديثنا قد وصل إلى مرحلة متقدمة عندما أنضم إلينا كين داونز ، الذي كان واجبه تنسيق دخول دائرة الخدمات الاستراتيجية إلى باريس . ويبدو ان ضابطاً فرنسياً ، وهو عميل للمخابرات البريطانية (MI6) ، قد جاء إلى فندق كراند فينور خلال العشاء بأخبار تفيد أن القائد الألماني لحامية باريس الجنرال فون كولتيتز (هاملت) قد قرر أن ينفذ أوامر هتلر بنسف باريس برمتها وأنه ، على النقيض من معلوماتنا السابقة، على وشك أن يباشر بذلك. أمر كين الضابط الفرنسي أن يعود بهذه الأخبار بسرعة إلى باريس لدعم أمر دخول أمريكي طارئ إلى باريس يقوده الجنرال برادلي قائد الجيش (١٢). قال كين : " نحتاج إلى جميع المعلومات التي يمكن الحصول عليها ، وربما بإمكانك أن تساعدنا " .

إن ما قاله كين داونز يشير إلى أنه لا يملك فكرة ، أو أن لديه فكرة بسيطة عن مهمتنا ، إلا أن هذا الأمر لا يهم قدر تعلق الأمر بنا ، لأنه عرض علينا رحلة إلى باريس قبل باقي وحدات الخدمات الاستراتيجية ومع ضابطها الذي سيرافق الفرنسي ، وهو الملازم جاك مونيكل وهو بنفس عمري ونفس ميولي وسبق أن التقيته عدة مرات على موائد القمار في لندن، والذي كنت سأختاره أكثر من أي شخص آخر من ضابط الخدمات الاستراتيجية، وأفضله ليدخل باريس بينما لا يزال الألمان فيها . مع ذلك ، لم يوافق والتر . فقد قال : " إن هذا الرجل أشبه برعاة البقر ". وقال بعد أن انضم كين إلى الحفلة : " أنت ستذهب معه ، وسألتزم باتفاقنا ، وتستطيع أن تنزلني في سنت كلاود . "

لا أتذكر ما حدث خلال الفترة الفاصلة بين ذلك الوقت واللحظة التي وجدت نفسي فيها مع سائق السيارة شارلي هاتشيت ، في رتل جاك ونحن نهدر في شارع

رو دي بالقرب من قلب باريس . كل ما أعرفه هو أنني لست أول أمريكي في باريس حتى لو أغفلنا المائة أو حوالي ذلك من عملاء الخدمات الاستراتيجية الذين ذهبوا قبل شهر لتمهيد الطريق ليوم التحرير المثير . إلا أنني أستطيع أن أدعي أنني بالإضافة إلى مونيكل وتشارلي هانتشيت كنا أول الأمريكيين الذين دخلوا باريس دون مبرر معقول . كانت مشورة والتر هي الاختباء في مكان ما لحين مشاهدة باقي الأمريكيين ، ثم الظهور وذلك بالرغم من وجودي هناك طيلة الوقت . لهذا ، وبينما اصطف جاك وسياراته الجيب الثلاث خلف الدبابات الفرنسية المتوجهة نحو طريق ريو دي ريفولي ، انعطفنا أنا وتشارلي في شارع فرعي ، وبينما كان القتال لا يزال يجري حول ساحة دي لا كونكرد ، شققنا طريقنا نحو فندق ريتز . وبينما كان جاك ينقض على فندق موريس ، حيث كان الجنرال فون كولتيتز ينتظر الفرصة المناسبة للاستسلام ، كنا أنا وتشارلي نحتسي الشمبانيا ونأكل الكافيار مع مدير الفندق المذعور . وبينما كنت نائماً لأتخلص من تأثير الكحول ، انضم كين داونز إلى جاك ، وأخذ الاثنان يقيمان مركزاً للقيادة أرسلنا من خلاله برقيات لاسلكية إلى الجنرال برادلي نخبره فيها كم جميل دخول المدينة دون الكثير من الضجيج ، والأهم من ذلك ، أنه حاول الانضمام إلى القوات الفرنسية التي هاجمت فندق موريس للقبض على القائد الألماني الجنرال فون كولتيتز وقبلت استسلامه .

إن كل ما تبقى من هذه الأيام الأربعة التاريخية المثيرة من صباح يوم الأربعاء ٢٣ / آب إلى يوم السبت ٢٦ منه ، هو في ذاكرتي عبارة عن سلسلة من الصور الصغيرة ، التي تبدو كل واحدة منها واضحة بذاتها ، إلا أن تقسيمها الزمني غير مرتب كحكايات في أحد أفلام فليني . كان بابا همنغواي ، الذي قضيت معه ليلة طويلة من استرجاع الذكريات بعد خمسة عشر عاماً أو حوالي ذلك ، مغرماً بقصص تجعله هو وعصبته المتنافرة من رجال حرب العصابات الفرنسيين الأحرار يسبقوننا أنا وزملائي ، إلا أن غروره قد خدعه . إن ما يسند روايتي عما حدث في الأيام الأولى لتحرير باريس هو أفراد الخدمات الاستراتيجية الذين دققتها

معهم وكذلك والتر كليم الذي هو الآن مصرفي متقاعد يعيش فـــي جبـــال الألـــب بالنمسا. مع ذلك، أيد والتر، بابا في إحدى القصص التي أخبرها للاري كـــولينز، وأخرى ضمنها في كتابه " هل باريس تحترق ؟ ".

يبدو أنه في يوم ٢٠ أو ٢١ آب – قبل يوم من وصولي أنـــا ودان ووالتـــر وموسيس إلى رامبوليه – أمضى همنغواي أمسية وليلة في فندق كرانـــد فينـــور ، وبذلك سبقنا ببضع ساعات . خلال هذه الفترة ، والتي قام بعـــدها هـــو وعصـــبته بالاستطلاع خارجاً لمواقع محتملة لا تزال الإمدادات الجوية للحلفاء ؛ خرج عـــدد من الضباط والجنود الألمان من أماكن اختبائهم في غابـــة مـــن أشـــجار البلـــوط ليستسلموا . خلع بابا سراويلهم ووضعهم في "مطبخ الشرطة " [(KP) كما يسميه الجنود الأمريكيون] ، ليقشروا البطاطا، والبصل والجزر والمواد الأخـــرى التـــي دخلت على مائدة الإنكليز والتي تمثل اللون الرئيس من العشاء الذي وصفته آنفاً .

لم يذكر والتر هذا في حينها ، إلا أنه الآن وبعد أربعين عاماً ، أخبرني أنـــه شعر بالارتباك لرؤيته زملائه السابقين يؤدون وهم عراة من وسطهم إلى الأسفل ، أعمالاً وضيعة في المطبخ ويرتدون من وسطهم إلى الأعلـــى ســـترات مكشكشـــة زودهم بها مدبر المطبخ في الفندق . وعندما أقحم همنغواي نفسه بشكل مســـرحي وسط مائدة العشاء ، وهو يؤدي تحيات صاخبة للجميع ، كان والتر يتوقع منـــه أن يقدم اثنين منهم ويؤلف مشهداً . ولم يكن بابا ، الذي يحب الأحـــداث الصـــغيرة ، أسمى من ذلك .

كذلك ذكّرني تشارلي هاتشيت بأن ممرضة من الخدمات الاستراتيجية تـــدعى كرينا بلملي كانت معنا عند الدخول إلى باريس وكانت ممسكة بأعضائه التناســـلية وتعصرها في كل مرة تسمع فيها إطلاقه . واستمر تشارلي يقول إن النقيب بلملـــي تزوجت من طبيب نفساني تابع للمخابرات المركزية ، ووقعت في حب فتاة من قسم الطباعة ، وتم صرفها من الخدمة أثناء الحملة الأمنية ضد المثليين والشـــيوعيين،

وانتقلت إلى باريس لتعيش هي وكاتبة الطابعة في مكان ما على الضـفة اليسـرى بنفس الطريقة التي عاشت بها غرترود شتين وأليس توكلاس .

لم تكن الفترة المتبقية من خدمتي في الحرب العالمية الثانية خالية من الأحداث الهامة ، ولكن هل هي مهمة من ناحية كتابة سيرتي الذاتية ؟ عند النظر إلى الفترة الماضية ، فأني أشك في أهمية الكثير من أحداثها إلا أنني أورد هنا موجزاً لما هو جدير بالذكر .

عثرت على محل إقامة مريح في فندق جورج الخامس إلـى كـوردن شـين وكادر الاستخبارات الذين جلبهم معه من واشنطن . وبعد إقامة صداقة مع جين – بول داسنفيل مدير فندق رتيز أقنعته بعد إلحاح للتنسيق مع صديقة وزميلـة مـدير فندق جورج الخامس لتهيئة طابق كامل " للمبعوثين الخاصين للبيت الأبيض " الذين يتوقع أن يصلوا في ٢٦ آب لحضور الدخول الرسمي للجنرال ديغول إلى باريس .

وفي يوم ٢٣ آب ، وبعد أن حجز بعض الغرف في فندق ريتز ، دخـل بابـا همنغواي وعصبته من المتوحشـين إلى الفندق ، وكما ذكر ذلك بابا ، فإنه قد طلب " ٥١ قدحاً كبيراً من مشروب المارتيني " . ثم دخلت بعد ذلـك قـوات الجنـرال لكلويك، ثم فرقة المشاة الرابعة الأمريكية وأخيراً وفـي ٢٧ آب ، دخـل موكـب النصر الخاص بالجنرال ديغول عبر شارع الشانزيليزيه وسـط الحشـود الفرحـة الصاخبة .

ولكوني " نموذجاً للأمريكي "، (كما يرانا الفرنسيون)، وأتحدث الفرنسـية، فسرعان ما أصبحت جزءاً من الطبقة الأنيقة من مجتمع باريس، والتي منها علـى سبيل المثال، دانيال داريو وفرانكو روسيه ، وبيير فرينيه وساكا كوري ومـوريس شافاليه .

انتهى يومي في جناح مريح في الطابق الثاني من فندق صغير على يمين فندق روند بوينت .

وفي ختام ما أسميه الآن " فترة باريس " ، هيأت نفســـي لتــرك المخــابرات المضادة والالتحاق بالخدمات الاستراتيجية استعداداً لعمل ما بعـــد الحـــرب الـــذي قررته. ولأغراض التوثيق ، عليّ أن أقول إن محل اهتمامي في تلك الفتـــرة هـــو العلماء الألمان وكادر المخابرات الذين سيكونون حالما تكون الحرب العالمية الثانية قد انتهت ونسيت ، ذوي قيمة إلينا في مواجهة أي أعداء جدد قد يظهرون من بـــين صفوفهم .

وبالنسبة إلى أصدقائي وقت الحرب ، لم يكن سوى واحد أو اثنين منهم سعداء بإلقاء تجربة الحرب خلف ظهورهم . و خلال المتبقي من حياتي ، كان فرانك وأيك يأتيان ويذهبان ، وعاد نات صموائيلز ليدخل قصة حياتي بعد سنوات كنائب لوزير الخارجية في عهد إدارة نكسون، بينما عاد أحبائي وأصحاب الفضـــل علـــيّ ألـــن كالفرت وهوارد ولسون " إلى جذورهم"، كما كتب لي ذلك هوارد بعد عدة سنوات.

الفصل التاسع

باريـــس والألـمـــان

بعد أسبوع تقريباً من استعراض موكب النصر بدأ كبار الضباط بالوصول إلى باريس. فقد وصل العقيد كالفرت هاينز وخلفه مباشرة الرائد روجر ساكسون، إلى فندق جورج الخامس، بينما أقام العقيد هوارد ولسن، الذي أصرّ على أن يكون مع مجموعة المخابرات المضادة، في فندق كوكس تور الذي عثرنا عليه في جادة فكتور هوغو قرب فندق ماجستك والذي سبق أن إنتقل إليه مسرح العمليات الأوروبي بعد أن أخلاه الألمان وتم تطهيره من قبلنا. كان معه عضو بارز جديد في المجموعة هو العقيد أورفل راب، الذي كان المشرف على النقيب دويل أثناء قيادته لمجموعة إعادة طلاء سيارات الجيب والتي تضم دويل نفسه وكلاود كوزا وفرانك كيرنز وجميع أفراد مفرزة المخابرات المضادة المكونة من أكثر من ثلاثين عميلاً وعميلاً خصوصياً وعشرة أو اثني عشر شخصاً آخر من قصيري الإقامة هناك. كان الفندق نظيفاً ومريحاً، وللرجال مطعمهم الخاص الذي يعمل فيه طباخون ونادلون من الدرجة الأولى، لهذا كانت الإقامة فيه ممتعه . كنت أتناول بعض الوجبات فيه بين فترة أخرى عندما أشعر بالحاجة للهرب من دنيا المجتمع الراقي التي تميز فندق روند بوينت، ويعود الفضل لجيم ايكلبرغر وهنري راغو في البقاء طوال الوقت هناك .

وحال وصوله، حيث لم يتمتع بجو العطلة المتمثل بتقبيل فتاة فرنسية مثلاً، بدأ هوارد ولسن بإصدار التعيينات . فقد كان على فرانك كيرنز أن يقود فريقاً يجري الأعمال التحقيقية التي قد تبرز الحاجة إليها داخل مجمع مراكز القيادة ، وعين مفارزاً من ثمانية أو عشرة عملاء يقومون بمسح أمني لكل الوحدات داخل منطقة

باريس، وعين جون باريش وأنا لتمثيل المخابرات المضادة في القسم التعاوني في دائرة الخدمات الاستراتيجية . وكان هذا القسم عبارة عن محل لتوزيع الأفراد حيث ينقل إليه أشخاص قامت المخابرات المضادة والخدمات الاستراتيجية بتوفيرهم ، وتطلبهم أكثر من مؤسسة . وفي هذا المكان تقرر الجهة التي يرسلون إليها . وهو يقع في مبنى أنيق قليل الأثاث .

وقد سبق أن وصل هناك الملازم دان هنتر وضابط فرنسي هو الآمر بوتلير حيث يقومون بفرز وتصنيف مجاميع الأسرى المحالين إليهم من قبل قوات فرنسا الحرة أو المحتجزين من قبل قوات الشرطة العسكرية للفيلق الخامس الذي يقوده الجنرال هوجز . قال دان إن الشيوعيين من قوات فرنسا الحرة كانوا يتهمون جميع أعدائهم السياسيين بأنهم متعاونون مع العدو المحتل (ألمانيا)، خاصة إذا كانوا أغنياء وكانت ممتلكاتهم الخاصة تستحق السلب .

كانت أوامر دان هي ضرورة اكتشاف الفرنسيين المؤيدين للنازية والذين تورطوا مع جماعة أو أخرى من المجاميع النازية المتزمتة في ألمانيا. لا أتذكر ذلك بالتفصيل إلا أنني أعتقد أن دان قد نجح في تشخيص عدد قليل منهم. على أية حال ، فقد عمل بجد وساعده في ذلك أربعة أو خمسة من عملاء الخدمات الاستراتيجية الأنذال الذين قام بزرعهم وسط الأسرى . إلا أنه عمل بجد أكبر في تدقيق الفرنسيين والفرنسيات الذين مروا عبر القسم التعاوني وقد يعتبرون مفيدين لعمله بعد الحرب . حتى أنه في ذلك الوقت وقبل فترة طويلة من علمه بأنه ستؤسس يوما ما وكالة مخابرات مركزية ، كان يخطط ليضع في باريس أفضل الموظفين الأمريكيين للعمل في أي مؤسسة استخبارية قد تخرج من رماد دائرة الخدمات الاستراتيجية بعد الحرب . فهو يحتاج إلى أصدقاء مهمين .

كان من بين أسرانا بعض المواطنين الفرنسيين البارزين . بعضهم كان قد تعاون مع الألمان، على الأقل، إلى مستوى الاختلاط معهم اجتماعياً أو عقد صفقات مربحة معهم. إلا أن معظمهم كانوا مواطنين أثرياء من جناح اليمين الذين تريد قوات فرنسا الحرّة تشويه سمعتهم ، أو إنها تريد نهب منازلهم . وكان دان يلقي كل

يوم نظرة على السجل لتشخيص الأسرى الذين قد يفيدونه بعد إطلاق سراحهم ، وحالما يشخص أحدهم ، فإنه قد يتمشى في الفناء ، ويتوقف بجانبه أو بجانبها ، ويظهر دهشته ثم يسأل : "عذراً ، ألست البارونه دي أكس ؟ " وهي قد تقول : " نعم ، أنا " ، ويقول دان : " لماذا، هذا شنيع. سأخرجك من هنا على الفور." كل ما عليه أن يفعله هو أن يكفل الشخص أمام الآمر لي بوتلير، ويتم كل شيء .

رغم أن دان يعتبر مسؤولاً عن الموقع يرافقه رائد واثنان من النقباء تحت أمرته بسبب خطأ إداري معين، إلا أنه كان لا يزال في ذلك الوقت ملازمًا ثانيًا فقط. كان يتمتع بقدرة سيطرة تامة على عمله تماثل سيطرة عقيد، من حيث الفهم التام لأسباب تنسيبه لهذا الموقع، ويعرف طبيعة عمل كل فرد تم تنسيبه إلى هذا المكان. ولأسباب متعددة، أصبح القسم التعاوني موضع اهتمام أشخاص مثل دان وأنا .

في أواخر تشرين الثاني ، وقبل أسبوعين من الهجوم الألماني المضاد في الاردين - المسمى معركة بلك(*) ، أرسلني العقيد كالفرت في مهمة خاصة إلى

(*) معركة بلك أو معركة الأردنيز (١٦ / ١٢ / ١٩٤٤ - ١٦ / ١ / ١٩٤٥) ، هي آخر هجوم ألماني على الجبهة الغربية خلال الحرب العالمية الثانية ، وهي محاولة فاشلة لدفع الحلفاء بعيداً عن الأراضي الألمانية . وتشير كلمة (Bulge) إلى الأسفين الذي حاول الألمان دقه وسط خطوط الحلفاء . فبعد إنزال النورمندي في حزيران ١٩٤٤ ، اندفع الحلفاء سريعاً عبر شمال فرنسا نحو بلجيكا خلال الصيف ، إلا أن اندفاعهم فقد زخمه في الخريف . وفي منتصف كانون الثاني فوجئ قائد قوات الحلفاء الجنرال دوايت دي أيزنهاور الذي تنتشر قواته على جبهة طولها ٦٠٠ ميل من بحر الشمال إلى سويسرا، بهجوم ألماني في منطقة الأردنيز الجبلية المغطاة بالغابات والواقعة في جنوب بلجيكا . وفي الوقت الذي لم تستطع فيه طائرات الحلفاء التحليق بسبب رداءة الطقس ، شن الجنرال كيردفون روندشتت قائد الجيوش المدرعة الخامسة والسادسة هجومين متوازيين بهدف استعادة ميناء انتويرب . تقدم الجيش الخامس الذي كان يقوده الجنرال هاسوفون ماشتوفل في يوم ٢٤ / ١٢ / ١٩٤٤ أربعة أميال على طول نهر ميوس وتجنب باستون التي ظلت طيلة الهجوم بيد الفرقة ١٠١ المحمولة جواً الأمريكية. كانت هذه أبعد نقطة في الهجوم الألماني الذي توقف عند عيد الميلاد بسبب مقاومة الحلفاء الشديدة ونقص التجهيزات بالنسبة للألمان . أنجد الجنرال =

مركز التدريب الاستخباري في معسكر ريتشي في ماريلاند، وبقيت هناك إلى مـــا قبل أعياد الميلاد بقليل. وعندما عدت إلى باريس، كانت معسكرات الأسرى التـــي تنتشر حول باريس تغص بهم، وقد تحول عدد من الضباط الألمان الـــذين يـــودون تجنب معاملة أسرى الحرب الاعتيادية ويعرفون بوجود القسم التعاوني، نحو البوابة الأمامية. أما الذين يتحدثون الألمانية فقط ، فقد حولهم دان إلى الشرطة العســكرية الذين يترددون على القسم التعاوني يومياً للبحث عن بغيتهم. أما الـــذين يتحـــدثون الإنكليزية أو الفرنسية، وكانوا يودون التحدث ، فقد أعطاهم دان أســـم " معتقلـــين خاصين"، وبذلك رفع أسماءهم من التقارير اليومية طيلة الوقـــت الـــذي تســـتغرقه معرفة معلوماتهم عن جانب المحور .

وبالمناسبة، فقد كان جميعهم يرتدون ملابس مدنية ، وهي حقيقة تشير بـــذاتها إلى أنهم كانوا يعرفون أكثر من الضباط الألمان الآخرين كيف يمكنهم الزوغان من الأسر الاعتيادي أو لديهم أسباب أخرى للتخفي أو كلاهما .

أولى المعلومات التي حصلنا عليها منهم ، حيث كـــان دان يســـتجوب وأنـــا أصغي، هي أنهم كانوا يعرفون أكثر منا كيف كانت تتجه نهاية الحرب . لم أكـــن أعرف أن ملتن شلمان ، الذي أصبح فيما بعد رائداً في المخابرات الكنديـــة ، قـــد تحدث مع أي منهم ، إلا أن ما قالوه لنا يتفق مع ما كتبه الناقد المسرحي والسينمائي بعد خمس سنوات في كتابه المميز " اندحار في الغرب " . كان منظـــر الضـــباط الألمان الذين تبعثروا على شكل مجاميع حتى بعد معركة بلـــك ، والتـــي أعطـــت الألمان بصيص نور من الأمل خلال أسابيع ظلمتهم ، يوحي للجميع بالاقتنـــاع أن

= جورج أس باتون قائد الجيش الثالث باستون فـــي ٢٦ / ١٢ / ١٩٤٤ ، وفـــي ٣ / ١ / ١٩٤٥ شن الجيش الأول الأمريكي هجوماً مضاداً . قام الألمان بانسحاب منظم خلال الفترة من ٨- ١٦ / ١ / ١٩٤٥ بعد أن استنفدوا معظم مواردهم في هذه المحاولة البائسة لاستعادة المبادرة في الجبهة الغربية. (المترجم)

أقوى جيش عرفه العالم وأفضلها تجهيزاً محكوم عليه بالفشل منذ البداية . وكما يقول الأطفال : " مطلقاً " ، سوف لن يكون بمقدوره هزيمة قوات مؤلفة من حيث العدة والعدد من جموعنا المدنية .

ونتيجة تنظيمنا وانضباطنا المتكامل ، لم يكن للضباط الألمان أي أمل في النصر . ومن بين الموجودين في قبضة القسم التعاوني هناك أقلية صغيرة منهم تدرك أن اللعبة قد انتهت . حيث أطاع الآخرون أوامر قيادتهم طاعة عمياء ودون مناقشه حتى عندما كان التملص من هذه الأوامر هو الشيء الوحيد المعقول الذي يجب سلوكه كما كتب ملتون شلمان . أن التفكير بكيف يمكن أن تتجه الحرب لو كانت لديهم روح المبادرة في الاستمرار بها دون هتلر ، هو تفكير مخيف . وقد قال لنا ضيوفنا إن هذا الأمر بعيد الاحتمال .

إذن ، كيف كانوا مختلفين ؟ في البدء ، كنا نفترض أنهم معادون للنازية وأنه لم يكن من بينهم أفراد من الاستخبارات الألمانية ، أو على الأقل أنه إذا كان الأخيرون من بينهم ، فإنهم سيحاولون إخفاء الحقيقة . لم يخفوا ولا جزءاً صغيراً منها . وكما أتذكر ، فإن حوالي ثلثهم كان من ضباط الاستخبارات الألمانية ولم يترددوا في قول ذلك . لم يكونوا يدركون احتمال أننا قد نعاملهم كمجرمي حرب لمجرد أنهم أعضاء في مؤسسة متهمة بارتكاب أسوأ الجرائم في التاريخ ، وأننا قد نعاملهم كفئة خاصة .

إن السمة المميزة للنظام العسكري الألماني والتي كانت موضع اهتمام خاص لضباط المخابرات الأمريكيين (بحيث أني كتبت تقريراً عنها إلى العقيد كالفرت)، هي أن كل ضابط تحدثنا إليه كان لا يعرف ما يجري في وحدات الضباط الآخرين. ما عرفناه من زميلنا في المخابرات المضادة سامي وينتروب الذي يتحدث لغتين وكان ملازماً ثانيًا إلا أنه لأغراض العمل حمل رتبة نائب عريف ، هو شيء يفوق حدود التصور . ذكر سامي ، الذي عمل كحرس وتظاهر أنه لا يتحدث سوى

الإنكليزية (وقد أبلغ أيضاً بأن يبدو أبله ، وهو أمر يشبه كما لو طلبت من دانيال داريو أن يبدو قبيحاً) ، إن ضيوفنا قد جلسوا لساعات بعد إطفاء الأنوار وهم يتبادلون الآراء ووجهات النظر ليعرفوا باندهاش ما كان يجري في الوحدات الأخرى .

لم يكن " معتقلونا الخاصون " ، هم مصدرنا الوحيد للمعلومات المفيدة . هناك أيضاً الأسرى العاديون ، الذين جمعت العديد منهم وحدات المخابرات المضادة أثناء تقدمها السريع ، والتي اكتشفت مع الوقت أن لهم أهمية خاصة ، ولكن لم تحدد بالضبط كيف . وكذلك ، كان هناك بعض السجناء الذين تدرك هذه الوحدات أهميتهم جيداً ولكنها تريد عزلهم عن الصيادين النازيين الذين أخذوا يمثلون مشكلة حقيقية . وفي الوقت الذي أصبح فيه النصر واضحاً في الأفق ، قررت وحدة الاستخبارات في مراكز القيادة العليا لقوات حملة الحلفاء تشكيل وحدة مخابرات مضادة خاصة للبحث في معسكرات الأسرى ومراجعة سجلات مسح المدن الكبيرة والصغيرة التي استولى علها الحلفاء بشكل نهائي من الألمان المتقهقرين وفرز " مجرمي الحرب المحتملين " . فقد بدأ شكل من أشكال قانون كريشام(*) يأخذ دوره في حيز التطبيق بعد اتباع خيط المقاومة الضئيلة ، وجدنا أن جمع مجرمي الحرب يوفر لنا أعلى درجات الثناء والتقدير بجهد أقل ، وعلى هذا جرى التركيز . لم يكن سوى القليل من ضباط وعملاء المخابرات من المدنيين ، الذين يودون إنجاز عملهم والعودة إلى بيوتهم . كانوا غير مؤيدين بالإجماع لدعوات مخططي مراكز القيادة لتكريس جزء من اهتمامهم على الأقل بالأسرى المهمين للمجموعة الاستخبارية .

(*) السير توماس كريشام ١٥١٩ – ١٥٧٩ ، يعتقد أنه وراء النظرية القائلة بأنه إذا كانت هناك عملتان قيد التداول ولهما نفس النفوذ والسيطرة، إلا أن قيمتهما الحقيقية غير متساوية ، فإن العملة ذات القيمة العالية سيتم احتكارها أو ادخارها أو تصديرها ، وبالنتيجة فإن العملة الرديئة ستطرد العملة الجيدة من التداول . (المترجم)

لقد أولوا شيئاً من اهتمامهم لأعمالنا الاستخبارية طالما أنهم يتلقون الأوامر كأي شخص آخر ، إلا أن قلوبهم لم تكن معنا .

اعتمدنا على وحدات المخابرات المضادة القليلة التي كان ضباطها مثل دان وأنا ، يودون تحقيق تقدم في العمل الاستخباري ، وفي ربيع ١٩٤٥ ، نظمنا استخدامنا لهذه الوحدات لتكون مخابرات مضادة داخل المخابرات المضادة ، وكما يقول الجنرال ادوين سيبرت ، ضابط الاستخبارات في قوة الفيلق الثاني عشر " ذنب يهز الكلب " ، إذ إنها تقوم بالعمل الذي يفترض من المخابرات المضادة أصلاً القيام به في مكافحة مخابرات العدو بينما يستمر " الكلب " في مطاردة مجرمي الحرب. رغم ذلك ، كان لتبريرهم شيئاً من الصحة ، حيث أنه لم يعد هناك أي مخابرات للعدو يمكن مكافحتها .

وفي الوقت الذي تصلنا فيه الكثير من المعلومات من مجاميعنا الكبيرة من الأسرى ومن الضباط الذين يجلبونهم ، كان دان أيضاً على اتصال اجتماعي ورسمي مع جوني أوكس وبين ويلز وفرانك هو لكومب وباقي أفراد الخدمات الاستراتيجية الآخرين الذين افتتحوا قسماً لهم بالتنسيق مع المخابرات الفرنسية (المكتب الثاني) . ومن خلال هؤلاء ، وكذلك المخلصون من أفراد المخابرات المضادة ، عرفنا أن الأسرى الأكثر أهمية لنا يندرجون ضمن أربع فئات:

الأولى – الشوارز كابيل **Schwarze kappelle** ، أو الضباط الألمان المشتركون بطريقة أو أخرى في نشاطات الادميرال كاناريس المضادة لهتلر ، خاصة محاولة اغتيال هتلر في ٢٠ تموز ١٩٤٤ . وقد أجرى ألن دلاس، المتمركز في سويسرا ، ما أسماه " اتصالا أساسياً " مع ما كان يسمى هناك بمنظمة المقاومة الألمانية، كنت و دلاس نعلم أن هناك مائة أو أكثر من الضباط الألمان الذين كانوا إما مختبئين أو أنهم غير مشخصين في معسكرات الأسرى .

الفئة الثانية ، ضباط المخابرات الألمانية ، وكان الكثير منهم مــن النــازيين المتخصصين في الشؤون السوفيتية . وقد علمت المخابرات البريطانيــة ببرنــامج التعاون الألماني - الأمريكي المناهض للسوفيت الذي وضعه الجنــرال المــدعو راينهارد كلن ، مدير وحدة التحليل الاستخباري التي تغطي الجبهة الشرقية . كنــا نريد القبض على كلن وجميع الضباط المشتركين في برنامجه (إذا كان يوجد فعلاً مثل هذا البرنامج) قبل أن يقبض عليه السوفيت .

الفئة الثالثة ، العلماء الألمان الذين حددتهم اللجان التي حضــر اجتماعاتهــا بوريس باش وأنا في لندن بكونهم مسؤولين عن التفوق التقني العلمــي المفتــرض للألمان . وكنا نريد أيضاً القبض على هؤلاء قبل أن يصل إليهم السوفيت . وأعتقد أن هؤلاء هم الذين وضعهم الجنرال كوردن شين تحت المجهر .

وأخيراً ، النازيون المتزمتون ، الذين كنا لا نبحث عنهم لأنهم مجرمو حرب بل لأنه يعرف بأنهم يتمتعون بقدرة على التملص من آثار الحرب والاستقرار فــي أســبانيا وايرلندا وأمريكا الجنوبية أو الشــرق الأوســط حيث يمكنهم أن يزرعوا " بيضة الوقواق " في البنى السياسية المحلية بهدف خلق حركة سرية نازية لتظهر في يوم ما وتسيطر على العالم . (كان بعض زملائنا في دوائر الاستخبارات فــي مراكز القيادة العليا ينظرون بجدية إلى الإشاعة المنتشرة بأن قصة انتحــار هتلــر مفبركة وأنه مع مارتن بورمان سكرتير الحزب النازي قد فرا إلى الأرجنتين.)

كان رينهارد كلن مخادعًا نازيًا قذرًا ، قال عنه ألن دلاس فيما بعد : " إنه ليس من نمط الرجال العاديين المسالمين . " لقد سمعنا عنه أول مرة عندما جــاء أحــد النقباء من قوة الفيلق الثاني عشر إلى القسم التعاوني لتسليم نوع من " البلاغــات " التي تطلب تزويدهم بأية معلومات قد تقود إلى مكانه أو القبض عليه . ويبــدو أن كلن قد احتكر سوق المعلومات عن السوفيت ، وكان رئيس النقيب المذكور ، العميد ادوين سبرت متلهفاً للعثور عليه. علينا بذل جهود حثيثة للحصول على كل ما طلبه

الجنرال سبرت. كان الجنرال يمثل قدوة لجميع الضباط الأمريكيين الذين يرون إمكانية تحقيق التقدم في العمل الاستخباري على المدى البعيد . ولكونه يعتبر من أكثر ضباط الاستخبارات البعيدي النظر ، فقد كان مكروهاً من قبل اليساريين في واشنطن الذين يستنكرون أي رأي يشير إلى أننا حالما ننتهي من الألمان سنوجه اهتمامنا إلى السوفيت . وعندما وصلت التقارير إلى واشنطن تشير إلى أن المعلومات الخاطئة هي السبب وراء التراجع الأمريكي في معركة البلك ، بدأ اليساريون في الكونغرس وفي الإدارة يضغطون على وزارة الدفاع لإجراء تحقيق يهدف في النهاية إلى إلقاء اللوم على سبرت شخصياً. وقد وقفنا جميعاً بجانبه، وأعربنا عن إجماع في دعمه من قبل وحدات الاستخبارات في كل فرقة وفيلق وجيش ، والتي استطاع ضباطها تقديم كم كبير من المعلومات التي تشير إلى هجوم ألماني وشيك ، إلا أن هذه المعلومات ظلت في سلال البريد في دوائر العمليات دون أن يقرأها أحد .

وبنفس الطريقة ، أهملت " بلاغات " الجنرال سبرت في طلب كلن، وعندما سلم هذا نفسه إلى مفرزة المخابرات المضادة في مسباخ، أعرض أمر المفرزة عنه. كان الآمر هو النقيب ماريون بورتر ، ضابطاً كفئًا جداً ، إلا أنه متماهل يعد الأيام حتى تنتهي الحرب ويلقيها خلفه، وليس لديه أي اهتمام " بالمصادر الاستخبارية " التي قد تكون ذات فائدة في أي نزاع مستقبلي . كما أنه أيضاً لم يحب شكل كلن ولا سلوكه ، وعندما قدمّ الأخير نفسه إليه على أنه ضابط ألماني رفيع مسؤول عن تنسيق العمليات الاستخبارية ضد الروس ، أجاب بورتر : " مسرور بلقائك ، سنرسلك إلى الروس ، وتستطيع إبلاغهم بما تعرفه عنهم ".

ولكون ماريون ليس غبياً ، ومن غير السليم إخفاء بعض الأمور ، لهذا اتصل بأحد زملائه السابقين في وحدة المخابرات المضادة في باريس وسأله : " من هذا الرجل كلن ، وماذا يريد ؟" وقد أوصل ضابط المخابرات المضادة خبر المكالمة إلى العقيد ولسن ، وفي الحال أرسل ولسن برقية مستعجلة إلى الجنرال سبرت في

كرونبرغ. وفي آخر الليل ، جاء اثنان من عناصر المخابرات المضـادة وأخرجـا كلن من معسكر الأسرى الذي وضعه فيه ماريون بورتر ، وفي الصباح التـالي ، خضع هو وأحد مساعديه – الذي لم أعد أتذكر اسمه – للاستجواب علـى مائـدة إفطار حامية من قبل اثنين من خبراء الشؤون السوفيتية من هيئة أركان الجنـرال سبرت . ومن خلال هذه السلسلة البسيطة من الأحداث ، أضفنا أسماءنا إلى القائمة الطويلة من الأشخاص الذين يدعون فضلاً مباشراً في العثور على النازي المراوغ الذي أصبح فيما بعد حجر الزاوية في العمل الاستخباري للمخابرات المركزية ضد الاتحاد السوفيتي .

كان جميعنا من المتواجدين في باريس ويتوقعون تقدم العمل الاستخباري بعد الحرب ، يتابعون هذه التطورات بدقة ، لأن سامي واينتروب ، الذي كان يتنصـت على ضيوفنا في الطابق العلوي من مبنى روثجايلد ، قد سمع مصـادفة إشـارات موجهة إلى كلن خلال المحادثة التي جرت مع الضيوف في الوقت المتـأخر مـن الليل ، وإن تكرار هذه الإشارات قد أقنعه وكذلك نحن بأن كلن قد يمثل مصدراً قيماً لمعلومات غزيرة عن السوفيت . وما هو جـدير بالأهميـة ، أن محتـوى هـذه الإشارات يفيد أن القائمين بها ينظرون إلى كلن على أنه المحور الذي يتجمع حوله الألمان كهؤلاء الذين يتصورون المستقبل في التعاون الألماني – الأمريكي .

وقد أوجز سامي ما سمعه مصادفة في تقرير كان كمعظم تقاريره منظماً بشكل جميل ومكتوباً بخط واضح ، وقد طلب دان من النقيب التابع لقوة الفيلق الثاني عشر الذي جلب "البلاغات" بخصوص كلن نقل التقرير إلى الجنرال سبرت . وبعد أيـام معدودة ، كان سامي في طريقه بواسطة سيارة جيب إلى كرونبرغ للاشتراك فـي التحقيق مع كلن ، ولم أره ثانية إلا بعد شهور عندما ركضت نحوه وهو يتمشى في أحد مباني المخابرات المركزية في واشنطن حيث كان يقوم بجولة لتقديم إيجاز عن استعداداته للعودة والعمل في ألمانيا .

الفئة الثالثة من الألمان الذين أمرت عناصر المخابرات المضادة " المخلصين " بالبحث عنهم والعثور عليهم هم الفئة الأكثر حساسية وأهمية وهم العلماء الألمان الذين يريد علماؤنا منهم معرفة التطورات التكنولوجية الألمانية ، خاصة في ميدان الصواريخ ، والذين يبحث عنهم السوفيت أيضاً. كان العمل الاستخباري الأمريكي برمته قد تعرض لاتهامات في تلك الفترة بأنه " يضع الفائدة قبل المبدأ " ، ووصلت نار هذه الاتهامات على مقربة مني عندما استدعي صديقي القديم موسس دكنر وهو رجل أسود من الالباما ويتحدث الكثير من اللغات ويحمل شهادة الدكتوراه ، إلى مكتب معاون آمر مسرح العمليات الأوروبي في فندق ماجستك ليبين أسباب استعانته بنازيين من جماعة الجنرال فون كولتيتز لمساعدة مجموعته الفرانكو - أمريكية في الإسراع بمحاولتهم إعادة العمل في المنشآت العامة في باريس .

سعى موسس لملاحقة " بوبي " بندر (أحد عملاء الاستخبارات الألمانية) وراؤول نوردلتك (القنصل العام السويدي في باريس) ، وهو تاجر سوق سوداء أخرج الكثير من رجال المقاومة الفرنسية من السجون الألمانية قبل أن تقتلهم المخابرات الألمانية وشخصيات أخرى لها علاقة بالنازيين ومدرجة في قوائمنا الخاصة تحت عنوان ((الفئات التي يلقى القبض عليها تلقائياً)) ، وقد ساعده هؤلاء في تحديد العلماء الألمان الذين كانوا يعملون مع العلماء الفرنسيين في العديد من المختبرات ومعامل التجارب في ضواحي باريس . كانت أوامره تقضي بمساعدة الديغوليين ، الذين كانوا مقاومين أشداء أفضل منهم مهندسين ، من أجل إعادة النظام في المدينة بأقل مساعدة ممكنة من مخبري المخابرات والاستخبارات الألمانية. كان متهماً بكونه متساهلاً مع الفرنسيين الذين يتمتعون بمؤهلات لا يمكن الاستغناء عنها ككهربائيين وسباكين ونجارين ولكن مسجل عنهم تعاونهم مع الألمان. لاشك أنه قد زود بعضهم، بمن فيهم بندر ونوردلتك و شقيقه، بمعلومات سرية، وكان عليهم الفرار إلى سويسرا. إلا أن معاون الجنرال لم يستطع إثبات ذلك (لم يكن رأيه مع إجراء مثل هذا التحقيق على أية حال)، إلا أنه عندما وجه الاتهام ، لم يؤكده موسس ولم يرفضه .

علمنا من خلال موسس وليس من خلال زملائنا في المخابرات المضادة بالعملية الكبيرة لمسرح العمليات التي تعرف باسم مختلف هو "عملية مشبك الورق" أو " مؤامرة مشبك الورق " ، حسب طرف النزاع الذي تقف إلى جانبه . في كل مركز قيادة يحتفظ بعدد هائل من ملفات أسرى الحرب ، سواء كان جيشاً أم فيلقاً أم فرقة ، قامت أقسام الاستخبارات فيها باختيار عريف موثوق وحلفته اليمين لمراعاة السرية ، وألقت عليه مهمة فحص هذه الملفات لتشخيص أسماء العلماء الذين قد يلقون أثناء التحقيق بعض الضوء على موضوع التفوق التكنولوجي الألماني الذي كان مركز اهتمامنا الشديد عندما كنا في لندن قبل يوم الصفر . كان عليه أن يشبك مشبك ورق على كل ملف من ملفات هؤلاء العلماء . وبعد يوم النصر في أوروبا ، بدأت فرق من عناصر المخابرات المضادة بمسح معسكرات الأسرى وإخراج العلماء المختارين ، أحياناً وسط احتجاجات آمري هذه المعسكرات الذين كانوا يعرفون أن معظمهم كانوا من النازيين ، ثم أخذهم إلى مواقع خاصة حيث يلقون معاملة الشخصيات المهمة .

كنت منشغلاً في هذه العملية ، خاصة عندما أعطيت لها أسبقية قصوى في عمل عناصر المخابرات المضادة " المخلصين " ، وكنت آمل أن يكون هذا هو العمل الذي يراه الجنرال شين مناسباً لي عندما وضعني على اتصال مع والتر كلم، الذي، وبالمناسبة، لم يحضر كما كنت أتوقع . ولكن النتيجة، أن ايكلبرغر وجيم كاردنر وآخرين من وحدة المخابرات المضادة في باريس والذين لا يزالون، ليبراليين جامعين ، لم يفعلوا شيئاً يذكر لصالح العملية ، بينما ذرف اليهود المتواجدون بيننا الدموع عندما سمعوا بها. وكمسيحي من المؤمنين بكتاب العهد الجديد و" مصاب بجنون الارتياب بالمقابل "، كما اعتاد فرانك كيرنز أن يقول عني عندما يشعر بالغضب لهدوء أعصابي الثابت في الأوقات الحرجة - (هذا دون ذكر عجزي الجسدي)، لم أكن أفهم أي هدف آخر عدا كسب الحرب وضمان عدم حصول حرب عالمية ثالثة. وبالتحديد، كنت أرى، أو بالأحرى، أشعر أنه ليس من المنطقي الانتقام من الألمان رغم جرائمهم المروعة .

ولكن فيما بعد ، وتحت إلحاح من صديقي ، الممثل المجنون سترلغ هايدن ، ألقيت نظرة على معسكر بوكن والد ، وما هو أكثر من ذلك، كان مع المجموعة التي فرضها علينا سترلغ ، سامي وينتروب وعنصر خاص من المخابرات المضادة يدعى ايرفنك اهارنسن . لقد صدمتني رؤية المعسكر ، كان تأثير ذلك عليّ أكبر بعشر مرات مما تتركه أفلام الإبادة (الهولوكوست) التي نشاهدها على التلفزيون. ولكن مشاهدة المعسكر برفقة سامي وأيرفنك تترك أثراً يبلغ من القوة مئات المرات مما نشاهده في الأفلام. إنني أتفق مع نات صمويلز، الذي كان يهودياً مثل سامي وايرفنك، من أن إذلالنا المتعمد للألمان بعد الحرب العالمية الأولى هو الذي أوصل هتلر للسلطة، إلا أنني لا أريد الاشتراك بأية عملية يمكن أن تسيء بقوة إلى نسبة عالية من أصدقائي المقربين.

بعد خمسة وأربعين عاماً ، وفي كتابه المسمى : " مؤامرة مشبك الورق " ، قال توم باور من هيئة الإذاعة البريطانية أنه لو كانت "المؤامرة " قد فشلت ، لما استطعنا أن نهبط إنساناً على القمر ، مع ذلك فإنه واصل القول بأنها عملية لا أخلاقية وهي نتاج " العجرفة الاستبدادية" من جانب المؤسسات العسكرية الأمريكية والبريطانية . وإذا كان هو ناقماً على العملية الآن ، فتصور فقط ما ظهرت عليه العملية قبل أكثر من أربعين عاماً ليس بالنسبة إلى اليهود فقط من فرق العمل في المخابرات المضادة والخدمات الاستراتيجية ولكن حتى بالنسبة إلى الليبراليين بين صفوفنا .

لا يمكن وصفي بالليبرالي ، حتى في شبابي ، إلا أنني أقر إلى حد ما وجهة النظر التي عبر عنها إي . أم. فورستر ، عندما فرّ صديقنا المشترك كيم فيلبي إلى موسكو : " إذا ما دعيت يوماً ما للاختيار بين أحد الأصدقاء وبلادي ، فآمل أن تكون لدي الشجاعة لاختيار صديقي. " وفي زمن عملية " مشبك الورق "، لم يكن هذا هو الخيار. على الأقل، لم أكن أقرها على وفق هذا الأسلوب ، لهذا أخبرت هوارد ولسن أنه إذا ما دعيت للاشتراك في العملية بأية طريقة فإني سأرفض .

ولنتحدث عن الفئة الرابعة وهم النازيون المتعصبون الذين يعرف أن لـــديهم الموارد الكافية للفرار إلى أسبانيا وايرلندا وأمريكا الجنوبية أو الشرق الأوســـط - الذين ندعوهم بـــ (طيور الوقواق) . كنت أعتقد أنه ربما تكون هذه الفئة هي التـــي اختارها كوردن شين لي ، إلا أنني ودون مناقشات أخرى مع والتر كلم ، لم أكـــن واثقاً من ذلك . وفي اليوم الذي تلا الاستسلام اليابـــاني فـــي ٢٥ / آب / ١٩٤٥ ، سمعت طرقاً على باب غرفتي في فندق (روند بوينت) كان والتر يقـــف هنـــاك ، وهو يرتدي بدله أنيقة . كان هنري ، الذي قام بفتح الباب ، يعتقد أنه أحد ضـــباط المخابرات البريطانية المملين، وتولى الأمر على عاتقه ليقول أنني غير موجـــود . إلا أن والتر مرّ من أمامه وجلس بتكلف على كرسي الطعام بينمـــا كنـــت أنهـــي استحمامي .

فزعت كثيراً لثقته المفرطة ، حيث يأتي ضابط ألماني بلباس مدني في وضح النهار إلى شقة ضابط أمريكي دون أي إجراء من إجراءات السريّة ، وقـــد غـــاب عني الكلام ولم أستطع الحديث . لم أعد أتذكر أي الأسئلة التي كنت أدّخرها مـــن الوقت الذي افترقنا فيه في سنت كلاود إلى الوقت الذي واجهت فيه وحـــدتنا فـــي باريس العمل في خطة " مشبك الورق". لهذا كان هو صاحب المبادرة . فبعـــد أن حيّاني بحرارة وسألني كيف يسير الاحتلال ويمزح مع هنـــري حـــول كيـــف أن أصدقاءنا الفرنسيين الجدد يحّبون أن يتظاهروا بأنه ليس بغيضاً عندما كان الألمان هم المحتلين، بعدها سلمني ظرفاً مكتوبًا عليه : " أعتقد أنه يقرر مســـتقبلك "، ثـــم غادر مبتعداً. لم نتبادل سوى القليل من الكلمات .

قال لي هنري ، الذي كان ينظر من الشباك ليشهد رحيله ، بينما كنـــت أفـــتح الظرف ، في وقت لاحق أنه قد صعد في المقعد الخلفي من سيارة نوع ســـتروين يقودها سائق وغادر بأسلوب دبلوماسي محايد بعد تسليم أوراق إلى وزير الخارجية الفرنسي . قال هنري : " لديك أصدقاء رائعون . "

عليّ أن أعترف أن محتويات هذا الظرف ، والتي كانت عبارة عن أسماء دون أية ملاحظات وصفية لستة وعشرين من الضباط الألمان من رتبة ملازم ثان إلـــى رتبة عقيد ليس من رتب قوات الدفاع الوطني بل للشرطة الخاصة التابعة للحـــزب النازي المسماة (ss) ، لم توح إلي بشيء حتى قمت بتدقيقها بعد ظهر يوم السبت في الملفات المركزية في فندق ماجستك. حتى عندما اكتشفت أنه لا يوجد اسم واحد من هذه الأسماء قد أدرج في فئة " المطلوبين " أو كان عاملاً ضمن خطة " مشـــبك الورق "، أو أسير حرب ، لم يتضح لي في الحال لماذا قام ضـــابط ألمـــاني حـــر التحرك في باريس في سيارة يسوقها سائق ويستطيع زيارة ضابط أمريكـــي فـــي وضح النهار ، بإعطائي مثل هذه القائمة . وقد استغرق مني الأمر بضع ســـاعات من التفكير لمعرفة مفتاح القضية .

إن من أدرك الحقيقة أخيراً قد يربت على كتفيه لذكائه . إلا أنه بالنسبة لـــي، عندما توضحت الحقيقة فكل ما كنت أستطيع قوله : " ووه، عظيم .. " . لقد قررت أن أبدأ التدريب على بوقي وأن أعود إلى فرق الجاز. إلا أن حـــب الاســـتطلاع ، الذي يأخذ إلى حد كبير معنى المغامرة ، قد أصبح يشكل لي فيما بعـــد هاجســـاً ، جعلني أقرر التوقف بعد حوالي سنة .

الفصل العاشر

العـــودة إلى واشـنطن

عندما أعود بنظري إلى الوراء ، أدرك أن حياتي قد بدأت تأخذ لهـا معنـى حقيقياً في أيلول ١٩٤٥ ، عندما التحقت بوحدة الخدمات الاستراتيجية وهي البقيـة الباقية من دائرة الخدمات الاستراتيجية التي أخذت تتحول بشكل تدريجي نحو مـا هو معروف بوكالة المخابرات المركزية . بعد قضاء شهر حار ورطب في الالباما ونوم ليلة وإفطار شهي في القطار السريع المتوجه نحو واشنطن ، وصـلت إلـى محطة الاتحاد حيث واجهني نسيم خريفي وسائق يرتدي زياً عسكرياً أخبرنـي أن الجنرال والسيدة لاوتن أحد زملائي السابقين في دورة المغاوير في اسكتلندا ، يودان أن أمكث معهما في مبنى وردمان بارك لحين أن أجد مكاناً خاصـاً بـي . لهـذا صعدت في المقعد الخلفي لسيارة كاديلاك حكومية لأقطع المدينة عبر شارع كـي ومتنزه روك كريك حيث كانت أوراق الأشجار قد بدأت تتحول إلى الألوان الأحمر والأصفر والبني ثم في الآخر وصلنا.

وهكذا ذهبت إلى المبنى في أعلى نقطة من واشنطن حيث أستطيع أن " ألقـي نظرة على المدينة " ، كما تحب السيدة لاوتن أن تقول ، وحيث يمثـل هـذا فـي واشنطن نظيره مبنى الكونوت في لندن، واحتسينا شايًا بعد الظهيرة في الصالة بينما كانت تعزف فرقة رباعية وترية مختارات من أوبـرات خفيفـة. كانـت السـيدة ايزنهاور تسكن هناك بينما كان أيك بعيداً منشغلاً بالحروب، وكذلك نائب الـرئيس ألين باركلي، ورئيس القضاة ايرل وارن (ولا تزال السيدة وارن تعـيش هنـاك)، وأخيراً جورج بوش وسبايرو اكنيو وبيرل ميستا "مضيفة الجميع" ، التي يقال إنها اعتادت على إغواء الضيوف لتناول العشاء وذلك بواسطة " تعليق قطع لحم الضأن

في الشباك". كانت شقة لاوتن الواقعة في الطابق السادس هي شقة السيدة ايزنهاور خلال الحرب، ثم تحولت إلى أسرة لاوتن ثم أسرة بوش (أولاً جورج وزوجته باربارا ثم بعد ذلك إلى أم جورج)، ثم نائب الرئيس أكنيو، وبعد سنين عديدة أمضيت فيها ثماني سنين رائعة. كانت السيدة ميستا تمتلك شقة بطابقين في الطابق الذي فوقنا مباشرة، وأقامت في هذه الشقة حفلاتها الشهيرة، وفي وقت لاحق أخذت أيضاً أقيم فيها حفلاتي الشهيرة .

كانت أسرة لاوتن تعد الأيام كي تعود إلى كارولاينا الجنوبية وإلى "الصواب " كما تقول السيدة لاوتن، إلا أنهما استطاعا توفير الوقت لبعض النشاطات الاجتماعية، وكان لديهما ضيوفاً على العشاء كل ليلة تقريباً إن لم يكونا نفساهما قد وجهت لهما الدعوة. كان ضيوفنا جميعاً من مستويات رفيعة من تلك الظاهرة المعروفة في واشنطن باسم " المؤسسة "، ومن أجل الشعور بالسعادة الخالصة لمساعدة صديق شاب في وضع قدمه على بداية السلّم ، أخذا يدعوان شخصيات دبلوماسية وعسكرية رفيعة المستوى مهتمة بأعداد المؤسسة الاستخبارية لفترة السلم. وقد تولى الجنرال بنفسه عملاً دون مستواه ليكون مستشاراً في دائرة الملحقين العسكريين، ورغم أنه لم يأخذ هذا العمل على محمل الجد (فهو عبارة عن مقابلة ضباط الميدان الكبار الذين يعرفون أي الشوكات تستخدم في الموائد الدبلوماسية ، كما تقول السيدة لاوتن)، إلا أن هذا العمل قد وفر له فرصة الاتصال بالمؤسسة الاستخبارية ومكنته من معرفة الشخصيات المهمة فيها وغير المهمة .

استغرق الأمر مني أسبوعين ضيفاً على أسرة لاوتن لمعرفة أن هناك قلّة فقط من أفراد المؤسسة الاستخبارية يتمتعون بتأثير حقيقي في تحديد شكلها المستقبلي . وقد خطر لي أنه إذا كان ضيوف لاوتن يمثلون دلالة على من يمتلك مثل هذا التأثير ، حينذاك أدركت أنني أمام خيارين إما أن أقوم برحلة بالغة المشقة أو ألا أقوم بأي رحلة مطلقاً . في تلك الأيام ، كنت شيئاً أكثر قليلاً من ذبابة على الحائط في المناسبات الاجتماعية في واشنطن، لا أفتح فمي إلا للسؤال الضروري، وكنت

كلي آذان صاغية. وفي إحدى حفلات أسرة لاوتن، وخلال مناقشة حامية حول من سيحصل على فرص العمل في تلك المؤسسات الأجنبية المتعددة، سألت : " لنفترض أننا تخلينا من فكرة الأجهزة الاستخبارية، ولم نتنازع مع أي جهة كانت، ماذا سيخسر بلدنا؟" لم أقصد أن ألقي ظلالاً من الشك على الحاجة لتأسيس مخابرات، بل كنت أستخدم فقط الحيلة القديمة لمهندس الإدارة التي يقصد من ورائها فرض نمط من التفكير الأساسي حول الأهداف التي نبغي من ورائها إنشاء مثل هذه المؤسسة . هل أننا حقاً نحتاج لها ، وإذا كان الجواب بنعم ، فما هي الأسباب ؟ ومن خلال معرفة الأجوبة يستطيع المؤسسون الاطمئنان إلى أنهم يستخدمون بشكل صحيح الوسائل المناسبة للغايات المرجوة.

تلقى معظم الضيوف سؤالي بأدب جم ، إلا أن أحدهم وهو الجنرال جون ماكرودر قد أخذه على محمل الجد . وقد دفعه هذا إلى الحديث عن لقاء تم بين مدير المخابرات الجديد الأدميرال سدني ساورز والرئيس ترومان . فعندما أخبر ساورز الرئيس أننا سنضمن بتأسيس وحدة استخبارية مركزية جديدة ، عدم حصول عملية بيرل هاربر أخرى ، أجاب الرئيس : " إما أنك لم تطلع حتى الآن على إيجازك السري أو أنك لم تعلم أن ذلك الجزء البسيط من الشيفرة المفتوحة قد أخبرنا كل شيء عن هجوم بيرل هاربر مسبقاً . إن ما كان يحتاجه الرئيس روزفلت معلومات تجيب على السؤال التالي : " ماذا سيفعل إزاءه ؟ " وقد حصل الرئيس على هذه المعلومات ، وقرر أن يسمح بحصول هجوم بيرل هاربر كأسلوب لأثارة الجماهير غير المكترثة . وواصل الجنرال ماكرودر حديثه قائلاً إنه قد أمضى الشهر المنصرم يناقش موضوع تأسيس المؤسسة الاستخبارية على أعلى المستويات وأنه لم يسمع كلمة واحدة تشير إلى أن حديث الرئيس ترومان قد وصل إلى واضعي الخطط . كان القادة في وزارة الخارجية والجيش والبحرية والقوة الجوية منشغلين بابتكار الأخطار التي تسوّغ الزيادات في ميزانياتهم الخاصة، وقد طورّوا قائمة جديدة من الأفكار التي تخدم هذا الغرض، كان أحدها : " منع حصول عملية

بيرل هاربر أخرى " وقال جواباً على سؤالي:" لم يسأل أي شخص، ماذا علينا نحن الأمريكيين أن نخشى في عالم ما بعد الحرب."

وعندما غادر الضيوف ، قال لاوتن إن جون ماكرودر ، وهو شخصية من الغرب من أسرة فرجينية عريقة ، كان نائباً للجنرال دونوفان في دائرة الخدمات الاستراتيجية وأنه يتولى رئاسة الوحدة التي التحقت بها مؤخراً . كان هذا هو السبب الذي دعاهم لتوجيه الدعوة إليه لتناول العشاء. كانوا يتوقعون أنه سوف لن يبقى طويلاً في عمله الجديد، وقال الجنرال لاوتن أنه من الأفضل مراقبة عملية نقله . وقد تعلمت شيئاً من ذلك ، " لا تستطيع أن تفهم ما يحدث في واشنطن دون أن تعرف كيف ينظر الرجال والنساء أصحاب التأثير إلى هذا الحدث." ففي واشنطن لا تحدث نتائج أي فعل من الفعل نفسه بل من كيفية تفسيره ، سواء تم ذلك بشكل صحيح أم خاطئ . إن أولئك الذين يصنعون القرارات المؤثرة في حياتنا لم يكونوا على ما هم عليه ، لو لم يكونوا قد تبنوا منذ بواكير أعمارهم عادة النظر إلى الأشياء بألوانها التي تناسب حياتهم بشكل أفضل . مع ذلك ، كنت عازماً على قبول دعوته – أثناء توديعنا لبعضنا ليلاً – لزيارته لوقت قصير في مكتبه .

وفي الوقت الذي كنت أمضي فيه أمسياتي بين التعلّم والتأثر بصنّاع القرار في واشنطن ، كنت أمضي أوقات النهار في مبان وقتية هي (أي وجي وكي وإل) ولغاية البركة العاكسة ونصب لنكولن وأنا أخضع لاختبارات نفسية (قد كتبت عنها مؤخراً) ، وفحوصات طبية وتدقيقات أمنية وتلبية بعض الأمور الشخصية كإيجاد شقة للسكن وشراء سيارة والاستفادة من مواهبي كخبير لتفادي الإجراءات العسكرية لاستقدام زوجتي لورين وابني مايلز الثالث من إنكلترا. وقد وصل الاثنان في اليوم الذي ودعت فيه أسرة لاوتن وانتقلنا إلى شقة عادية في منطقة (بارك فير فاكس) في الإسكندرية بولاية فرجينيا .

كان عملي الأول تحت إمرة سيدة رائعة في الثلاثينيات من عمرها تجيد الإنكليزية والألمانية وكانت تدير الفرع الألماني من المخابرات المضادة ووحدة

الخدمات الاستراتيجية المهتمة بقضايا مكافحة التجسس . وسوف أغني قرائي عــن قراءة تفاصيل هذه الفترة القصيرة من حياتي الأولى باستثناء القول بأني قد اخترت لأن أحد الأشخاص من المستويات العليا قد كتب في ملفي الشخصي بـــأني كنــت ألاحق الفنيين الألمان لصالح كوردن شين، وقد ثبتت الملاحظات المدونة بخصوص نجاحي في الحصول على قائمة " طيور الوقواق " (*) من سيئ الصيت والتر كليم ، تعييني في قسم ألمانيا بشكل دائم بحيث إن الأمر يتطلب مرسوماً من الكــونغرس ليتم نقلي إلى مكان آخر. وقد صدر مثل هذا المرسوم بعد مدة قصـــيرة ، وخـــلال السنتين التاليتين تنقلت من عمل إلى آخـــر ، بعـــد أن غيـــرت وحـــدة الخـــدمات الاستراتيجية ووكالة المخابرات المركزية اهتمامها من الألمان النازيين الفارين إلى ظهور الشيوعيين السوفيت. كان يتملكني طيلة هذا الوقت تفكير يشوبه القلق. لـــم تحدد التعليمات الموجهة إلى المحطات الميدانية بما يجب عمله بخصوص النازيين الفارين عندما يتم العثور عليهم. لا شك أن النازيين الذين أفلتوا منا سيمارســـون تأثيرات شريرة على القيادات السياسية المحلية ولكن سيمارس العملاء السوفيت في الأحزاب الشيوعية المحلية بشكل متزايد مثل هذا التأثير . ألا يمكن إذن على الأقل تصور إمكانية الاستفادة من الألمان ؟ إن مثل هذا التفكير هـــو تفكيـــر مخـــادع ، ولكنني عندما أسأل الآخرين المهتمين بالقضية الألمانية حول إمكانية ذلك ، فـــإنهم يصابون بالهلع ويصرون على أن ملاحقة أعدائنا السابقين هي غاية بحد ذاتها وأن السوفيت ليسوا أعداءنا حتى الآن .

على أية حال ، ولأسباب لا علاقة لها بأخلاقية الموضـــوع ، كنت في البداية لا أود الاشتراك فيه لهذا تحولت من قسم ألمانيا وفي السنة التالية تنقلت في عـــدة وظائف مختلفة . كانت الأولى هي العمل في دائرة صغيرة تحمـــل اســـم وحـــدة التخصيص وإعادة التأهيل التي تديرها كاتي ماركوفيتز وهي تشيكية متجنسة حديثاً لها " تعاطف من نوع خاص "، كما تقول، مع الذين يعملون في " المجاهل الواسعة

(*) طيور الوقواق رمز الألمان النازيين الفارين من ألمانيا بعد الحرب .(المترجم).

من التجسس العالمي "، وهو الميدان الأكثر وقعاً للكآبة في النفس . كانت واجباتنـا تتعلق باستقبال وتقديم الدعم لوكلائنا الأشداء العنيفين الذين أرسلوا إلـى الأمـاكن القصية من العالم من قبل الجنرال دونوفان . كان بعضهم قد تم نسيانه تماماً حتـى عثرنا عليهم في السجلات . كانوا بعيدين عن الحضارة حتى إنهم لم يكونوا يعرفون أن الحرب قد انتهت إلى ما بعد شهور من النصر في أوروبا وفي ألمانيا . لم يكن هذا عملاً بكل معنى الكلمة ، إلا أنه مثل فرصة ذهبية لي للحصـول علـى مـادة للحكايات يمكنني استخدامها فيما بعد في حفلات العشاء واستعراض الأحاديث .

وبعد العمل مع فريق كاتي ماركوفيتز ، التحقت بالتـدريب فـي المخـابرات المضادة ، حيث سنحت لي الفرصة هناك لممارسة " علم المنـاهج أو الطرائـق " بالمعنى الحرفي للكلمة ، وليس كما تستخدم غالباً كمرادف بلاغي لكلمة " منهج أو طريقة " . كان علينا أن نبتكر الطرق المناسبة لعمل الأشياء التي لم يجر عملها من قبل - مثل كيف تجند أشخاصاً ليتجسسوا على السـوفيت ، علـى افتـراض أن التجسس هو أفضل وسيلة للحصول على المعلومات المطلوبة . لقد اجتذب بحثـي عن الموضوع اهتمام جيم انكلتون الذي أصبح الخبيـر البـارز بكيفيـة تجسـس السوفيت علينا . بعد ذلك تم تنسيبي لمساعدة ضابط مخابرات عظيم ورجل أنيق هو بيردي سيلفا الذي أوكلت إليه مهمة رسم الهياكل التنظيمية للمخابرات المضادة في المؤسسة المخابراتية التي كانت تحت الإنشاء ، وأصبحت فيما بعد تسـمى وكالـة المخابرات المركزية . ولم يكن هذا أيضاً عملاً بكل معنى الكلمة رغم أنه قد عزز ادعائي بأني أحد الأعضاء المؤسسين للوكالة. (وبعد ذلك أصبحت أحد المستخدمين المائتين الذين ظهروا في القائمة الأولى للأعضاء العاملين فيها عنـدما أصـبحت الوكالة مؤسسة رسمية في تموز ١٩٤٧) .

بعد ذلك أمضيت شهراً جالساً عند قدمي هاري روزيزك الذي يحمل شـهادة الدكتوراه في فقه اللغة الألمانية من جامعة هارفارد والذي يشبه إيغور ستارفنسكي في شبابه ويتحدث كأيرون كوبلاند في شبابه أيضاً. لم يكن هاري كاتبـاً ومحلـلاً

ألمعياً. إلا أنه ظريف ومتحدث ساحر وهي مواهب منحته حزناً أكبر مما منحته من أفضال. ومرة في إحدى المحاضرات التدريبية الخاصة بظهور "المشكلة السوفيتية"، تظاهر لساعتين بكونه مؤيد ومدافع عن النظام السـوفيتي ، مجيبـاً علـى أسـئلة مستمعيه مثل : " ما رأيك بشأن انعدام حرية التعبير في الاتحاد السـوفيتي؟" كـان يدحض حجتنا، ويبين أن أسئلتنا لا تعدو عن كونها أفكاراً غبية وأن السوفيت هـم ليسوا أغبياء كما نتصور. كان همّه أن يفهم مستمعوه، وبألاّ نستخف بمعارضـينا. إلا أن أحد المستمعين على الأقل ذهب مباشرة إلى العقيد غلاوي الذي أستلم لتـوه منصب رئيس وحدتي المخابرات المضادة والمخابرات السرّية (S I) واشتكى إليه قائلاً إن هاري " يتحدث كشخص روسي".

من المؤكد أنه قد أيقظنا جميعاً . فقبل أن يتخذ الرئيس ترومان علنـاً موقفـاً مضاداً للتقدم السوفيتي في خطابه في ١٢ آذار ١٩٤٧ الذي حدد فيه "مبدأ ترومان"، لم تكن هناك أي إشارة إلى السوفيت في التوجيهات العسكرية والوثائق التنظيميـة التي تقود نشاطاتنا. وفي غضون أسبوع واحد من الخطاب، تدفقت علينـا موجـة عارمة من التوجيهات التي تطلب معلومات عن النوايا السوفيتية ولكنها ليست حول هل سيتحرك السوفيت كما هو، عن كيف وبأي طريقة سيتحركون. وفـي نيسـان ١٩٤٧ ، قدر البنتاغون أن السوفيت يستطيعون من الناحيـة العسـكرية الصـرفة الوصول إلى القنال الإنكليزي إذا ما أرادوا ، وقال الجنرال كلاي كبير مندوبينا في برلين إن لديه إحساسًا داخليًا أنهم على وشك التحرك . ورد البنتاغون بتوقع غزو سوفيتي لأوروبا الغربية ، وكان البيت الأبيض يـرى أن الحـرب مـع الاتحـاد السوفيتي باتت " وشيكة ".

مع ذلك، ومنذ يوم النصر في أوروبا، أحتفظ السوفيت بحشودهم كاملة بينمـا كنا نسرّح جنودنا بأسرع ما يمكن، إلا أننا كنا نرى كرجال مخابرات محترمين أن موقف ستالين هو موقف دفاعي صرف، فالأمر لا يبدو مفهوماً له لماذا لا تهـاجم الولايات المتحدة الاتحاد السوفيتي بينما هو ضعيف والولايات المتحدة قوية. وإذا ما

اعترفنا أن السوفيت قد يعتبرون الهجوم الكاسح هو أفضل وسيلة للدفاع، فإننا نقول إن قوتهم العسكرية لا تعني شيئاً طالما أنهم يشعرون أنهم قد قضموا مؤخراً لقمـــة أكبر مما يستطيعون مضغها. بالنسبة لنا، هناك مخطط واحد فقط قابل للتطبيق حتى بالنسبة إلى العقلية السوفيتية المريضة : فقد يعزز ستالين قبضته على الدول التابعة له ويقف متأهباً، على الأقل من الناحية العسكرية. وبدلاً من القلـــق مـــن احتمـــال حصول هجوم عسكري، علينا أن نهتم باعتقاد القادة السوفيت بأننا على شفا انهيار اقتصادي وأن الشيوعية مع قليل من الدعم السري ستكتسح الغرب بفترة قصيرة .

على أية حال، ومهما كانت الحجج المؤيدة والمعارضة في النقاش، نعتقد أننـــا نتجه نحو فهم الطبيعة الحقيقية للصراع السوفيتي – الأمريكي، ونحن نشعر أنه إذا أراد المحللون الاستخباريون العسكريون إحصاء الفرق ووضــــع الـــدبابيس علـــى الخرائط ، فإن هذا يمنحهم نفوذاً أكبر. أو على الأقل سيبعدهم عن العمل الميداني ، وفي هذا الوقت قال كبير محللينا شيرمان : كنت شيئاً أشبه بالآتي : (وأقتبس هنا من ملاحظاتي المدونة بخط سيئ) " إن التحليل هو التشخيص الحقيقي والمناســـب في كل هذه الفوضى والأمور المثيرة ". وهذا ما نحاول فعلـــه، المحافظـــة علـــى صوابنا بينما يفقده كل المحيطين بنا ، بمن في ذلك ، كما نعتقد في ذلـــك الوقـــت جورج كنان، سكرتيرنا الأول في سفارتنا بموسكو الذي كانت برقيته الشهيرة ذات الـــ(٦٠٠٠) كلمة حول النوايا السوفيتية (مقالة السيد (س) في صـــحيفة foreign affairs الشؤون الخارجية) يعوزها الموقف الحصيف الهادئ الذي نعتقد أننا نتمتع به . أن ما توصلنا إليه هو هذا التقييم التقريبي الآتي:

١ – ما من أسلوب يمكن فيه التوفيق بين أهدافنا وأهداف القادة السوفيت وأســـاليبنا وأساليبهم في تعزيز الأمن الوطني كما يفهمه كل طرف . ففي نهاية الحرب، كان القادة السوفيت ملتزمين بشدة بمنهج في العمل يعتمد على تحطيم النفـــوذ الرأسمالي الأمريكي في العالم بحيث أنهم لا يقدرون على التخلي عنه حتى إذا رغبوا في ذلك . فإذا نظرنا إلى المحيط السياسي الذي ســـاهم فـــي ظهـــور

واستمرار بقاء قوتهما، فإن التخلي عنه يعني الانتحار الشخصي الســريع. إن المسألة ليست أن السوفيت أناس ســيئون ونحن طيبون . لقد كانت الطريقــة التي تشكل فيها النزاع هي أن الالتزامات الثابتة لأحد الأطراف قد جعلته قــوة لا يمكن مقاومتها بينما جعل ثبات هذه الالتزامات من الطرف الآخــر شــيئاً جامداً .

٢ - لم يتخذ الســوفيت أية استعدادات جدية للاشــتباك معنا في حرب "ساخنة " - سواء كانت تقليدية أم نووية - حتى لو افترضنا أنهم لم يكونوا يمتلكــون القنبلة الذرية، إلا أنهم سيمتلكونها بعد مدة قصيرة . ولكونهم ليسوا واقعيــين فقط بل مصابين بجنون الارتياب، فإنهم يعلمون بامتلاكهم القدرة للسيطرة على الدول الدائرة في فلكهم والتي سيطروا عليها بشكل هش مؤخراً ، بل وحتــى بعد أن حصلوا على القنبلة الذرية، فإنهم سيظلون متخلفين عنا في معرفة كيف يمكن استخدامها بشكل فعال .

٣ - مع ذلك ، كان المحلل الاستخباري الوحيد الذي درس السوفيت بعمق وبتجرد (وكما يقول هاري : علينا أن نفهمهم أكثر مما نكرههم)، مقتنعاً أن الســوفيت يرون أنه لا مجال أمامهم لتجنب خوض نزاع حاسم معنا وأننا في نزاع متنامٍ ومتصاعد معهم سواء شئنا أم أبينا . كان لينين يفهم جيداً وكذلك ســتالين وأي شخص آخر يمكن أن يحل محله، أن النظام السوفيتي لا يمكنه أن يدوم ، حتى في الاتحاد السوفيتي نفسه ، ومن المؤكد كذلك في الكتلة الشيوعية برمتها وهو يعيش في نفس العالم مع النظام الرأسمالي النابض بالحياة. إذا ما كان الغــرب يترنح على حافة الانهيار، فيجب كما يعتقد ستالين دفعه من فوق هذه الحافــة. وبأية حال ليس أمام السوفيت سوى الانتصار علينا .

٤ - لهذا إذا ما عجز السوفيت عن الانتصار في" الحرب الساخنة "، فكيف يمكنهم دحرنا؟ لا يتم ذلك إلا من خلال ما أطلقت عليه الدعاية السوفيتية بعد الحــرب مباشرة (ولاقى ثناء أطراف من كتلتنا اسماهم لينين بــ" الحمقى المفيــدين")،

"المنافسة غير القتالية" . ولكن هنا، كما كنا نرى، هـي النقطـة الجوهريـة والخطر: فالسوفيت لا يمكنهم التفوق في المنافسة مع نظامنا الرأسمالي إذا ما جرت المنافسة وفق قواعدها المشروعة كما نفهمها . كان القـادة السـوفيت يعلمون ذلك جيداً . يمكن أن يفهم ضمناً اعترافا بهذه الحقيقة في ظـل حكـم لينين وستالين في " جميع الكتابات السوفيتية التي تتحدث عن موضوع بقـاء السوفيت في عالم رأسمالي – إمبريالي " .

٥ – لهذا فإن فكرة المنافسة لدى السوفيت تختلف جذرياً عن فكرتنا . إنها لا تعني صناعة منتجات أفضل أو بيعها بأسعار أرخص بأسواق يمكن دخولها بسهولة، إنها تعني جعل هذا الأمر مستحيلاً علينا . يمكن الاستنتاج من خـلال قـراءة جميع الأدبيات السوفيتية حول موضوع نزاع الشرق والغرب أن استراتيجيتهم تستند تماماً على الرفض (**Prepyastouat**) – وليس كسب الأصدقاء أو الأقاليم أو المواد الأولية لصالحهم بل رفض احتياجاتنا لهذه الضرورات .

٦ – دلالة على ذلك أنه مهما كان شكل النزاع الذي يخوضه السوفيت معنا، فإنهم يكيفون استراتيجيتهم وفق نقاط الضعف الأمريكية أكثر منها على نقاط القـوة السوفيتية . تظهر استراتيجيتهم على صعيد المسرح الدولي ، وكما نفهمهـا ، اهتماماً جدياً بحرب شاملة (رغم إنها مقدرة على أساس التهديد بها لتحقيـق "مكاسب قتالية نفسية")، وتحول التركيز نحو غطاء مـن الحـروب الإقليميـة المجنونة الشاملة، المقترن بقلاقل متنوعة في جميع أنحاء العالم التي لا تهدف إلى تحسين فرصهم في المنافسة بل لإضعاف فرصنا. إن الرفض هو ضرورة أساسية في الأممية اللينينية تحرمنا نحن"الرأسماليين المستغلين" مـن المـواد الأولية والأسواق وبنفس الوقت وكنتيجة ثانوية تبعد عن متناولنا تلك القواعـد العسكرية التي قد نحتاجها إذا وجدنا من الضـرورة اللجـوء إلـى " الخيـار العسكري " .

٧ – كان السوفيت يظنون في تلك الفترة (وقد تبين صواب ظنهم) بأننا سنكسب أو نخسر حروبنا داخل الولايات المتحدة نفسها وليس في ميدان القتال الفعلي. ولهذا السبب، كنا نتوقع أن ستراتيجيتهم سترتبط بوضع برنامج للتضليل (disinformation) يهدف لإزالة الشكوك التي قد تساورنا بخصوص نواياهم ومحو الثقة بيننا بمن يمتلك الجرأة لإطلاق صرخة التحذير .

وفي هذا الفصل لا يمكنني مقاومة إغراء وضع تحليل افتراضي للأحداث " لم تثبت صحته بعد " للأعوام ١٩٤٧ – ١٩٥٠. كانت المهمة الرئيسة لوكالة المخابرات الجديدة، كما كنا نراها، إن لم تكن مهمتها الوحيدة، هي اختيار هذه الفرضية. وهكذا ، فبينما كان المخططون والمؤسسون في المستويات الأعلى يضعون الخطط والقواعد للأقسام المختلفة من مجموعتنا الاستخبارية الجديدة، كنا على الصعيد العملي نرسّخ مفهوماً واضحاً لما يجب أن نعمله. أن مراجعة تقارير هيئة الأركان والتي جرت دراستها في ذلك الوقت والتي تدخل حالياً في نطاق قانون حرية المعلومات، تبين أن هذا المفهوم قد تم الاعتراف به ضمنياً إن لم يكن رسمياً.

وللأسف، لم تستطع وكالة المخابرات المركزية الاستمرار كما بدأت. ومرة أخرى أنتهز فرصة إدراكي المتأخر للأحداث، لأقول إن هناك مجموعة من الأمور قد جرت بشكل خاطئ.

أولاً، وكما قلت للتو، إن أي وكالة حكومية ترى حل أي مشكلة في ضوء الأدوات التي تمتلكها ، بينما كانت الوكالات العسكرية تنظر إلى السوفيت على أنهم أساساً مشكلة عسكرية . وطالما كانت الوزارات والوكالات ذات الميزانيات الأكبر هي التي تتمتع بالنفوذ الأعظم ، وحالما تركت ماكينتنا الاستخبارية أرض الميدان ، فإن تركيز جميع الأجهزة ، بما فيها وكالة المخابرات المركزية كان على إحصاء الفرق ووضع الدبابيس على الخرائط.

ثانياً ، لسنا منزهين من الغرض أكثر من الآخرين ، وكانت أدواتنا هي أدوات وكالة مخابرات سرية . فرغم أن وزارة الدفاع البنتاغون تمتلـــك ميزانيـــة أكبـــر وتتمتع بنفوذ أعظم من وكالة المخابرات المركزية ، فإن دائرة العمليات الخاصـــة (oss) والتي تشمل المخابرات المضادة والسرية تمتلك ميزانية أكبر ونفوذاً أعظـــم داخل المخابرات المركزية من أي قسم آخر فيها. لهذا وضعنا تركيزاً على استخدام وسائل سرية في الحصول على المعلومات أكبر مما يمكن أن تسوغه النتائج التـــي نحصل عليها . وفي غضون سنوات قليلة ، تعلمنا أن مراجعنا العليـــا لا تســـتطيع التحقق والاستخدام إلا لجزء بسيط من تقاريرنا الاستخبارية ، وفي الآخر لا تذهب إلى البيت الأبيض إلاّ ٥٪ أو أقل من معلوماتنا الاستخبارية التي نحصل عليها من مصادرنا السرية .

ولكن ثالثاً ، والأكثر أهمية هو الحقيقة المعترف بها من أنـــه حتـــى أفضـــل تقاريرنا ، بل أفضل تقارير المجموعة الاستخبارية ، لم تؤخذ على محمل الجد إلا إذا كانت من النمط الذي أطلق عليه شيرمان كنت « مادة مفزعـــة **scare stuff** » وتعني تقارير تحتوي على إنذار بالخطر بأسلوب تحذيري لا يستطيع البيت الأبيض إهمالها . لهذا فإذا كانت هذه التقارير من نوع « المادة المفزعة » ، فإن المراجـــع العليا تريدها ، وبعد مدة قصيرة كنا نحذر خلالها من الذئب ، حتى توقـــف البيـــت الأبيض عن إبداء أي اهتمام بنوع التقارير المرفوعة إلا بالقليل النادر .

الفصل الحادي عشر

وكالة المخابرات المركزية الجديدة والعالم

لم يكن خطاب الرئيس ترومان في ١٢ آذار ١٩٤٧ أو كما يسمى "مبدأ ترومان" تحفة أدبية بمعنى الكلمة كونه خليطًا من الآراء الشخصية لأعضاء لجنة معينة، لكنه يحتوي بالفعل على جملة تشير إلى أن هناك أحدًا ما في البيت الأبيض، وحتى ربما يكون الرئيس نفسه ، يرى وجهة نظرنا . والجملة كما يلي : " إنني أؤمن بأنه يجب أن تكون سياسة الولايات المتحدة دعم الشعوب الحرة التي تقاوم محاولات الضم والإلحاق التي تقوم بها أقليات مسلحة أو ضغوطات خارجية". هل الأقليات المسلحة أو الضغوطات الخارجية هي التي تقاوم التدخل السافر للقوات السوفيتية؟ هذه هي مخاوفنا بالضبط ، بحيث إننا أخذنا نشك برئيسنا اللاحق الجنرال فاندنبرغ بأن لسانه قد زل بكلمة أو كلمتين. من المؤكد أنه قرأ كلامنا المعقول ليس فقط الذي جاء بشكل مذكرة هاري روزايتسك بل الوارد أيضاً في أوراقنا التدريبية وإيجازاتنا . كنا نشعر بالسعادة ، فالأشهر العديدة التي قضيناها في إعادة تنظيم المؤسسة الاستخبارية لنستبعد عملياتنا ضد الحركة النازية المحتضرة ونركز على التهديد السوفيتي لم تذهب سدى.

مع ذلك لم يكن هذا التحول دون تكلفة ، خاصة لدى فرقة أوروبا الغربية التي كان معظم أفرادها المؤهلين هم من اللاجئين اليهود والألمان مثل هنري كيسنجر(*).

(*) هنري ألفريد كيسنجر : وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية من ١٩٧٣ – ١٩٧٧ ومستشار الأمن القومي لأربعة رؤساء أمريكيين - لعب دوراً خطيراً في السياسة الدولية خلال فترة الستينات والسبعينات فهو الذي قاد المفاوضات مع الفيتناميين الشماليين في ١٩٧٣ والتي قادت إلى إنهاء الحرب الفيتنامية ونال جائزة نوبل للسلام لجهوده هذه مناصفة مع =

وقد كان هؤلاء في كل من واشنطن والخارج يفهمون جيداً قسم المواطنـــة الـــذي التزموا به في " الإنكار والتخلي نهائياً عن أي ولاء لأي دولة أو ملـــك أو أميـــر أجنبي ... " لهذا كانوا مستاءين من فكرة أنهم " كشعب يهودي " يستحقون " وطنـــاً خاصاً بهم". وهذا يعني أنهم ليسوا أمريكيين أقحاحًا بل أمريكيون يهود وبهذا المعنى فإن وضعهم مشابه لما كانوا عليه في ألمانيا مما جعلهم صيداً سهلاً للنازيين.

إلا أن هذا لم يؤثر على قناعاتهم في قضية إنشاء دولة يهودية فـــي فلســـطين خاصة بعد سماعهم حجج الأمريكيين المعادين للسامية سوية مع الصهاينة عن إنشاء هذه الدولة كوسيلة لتحويل اتجاه اللاجئين اليهود الفارين من أوروبا من الهجرة إلى الولايات المتحدة. كانوا مدركين لهذا الوضع جيداً، بينما انحدر الجدل الدائر خارج المجموعة الاستخبارية إلى الدرك الأسفل حيث يقول السياسيون المعادون للســـامية سراً ما يعتقدونه لإقناع الناخب اليهودي واتهام دبلوماسيي وزارة الخارجية بمعاداة السامية وتأييد العرب .

= المفاوض الفيتنامي لي دوك ثو ثم قاد أول مفاوضات مع الاتحاد السوفيتي لتحديد الأسلحة الاستراتيجية (سالت) في ١٩٦٩ . وهو الذي سن النهج السياسي الأمريكي المؤيد للباكستان خلال الحرب الهندية الباكستانية في ١٩٧٢ . كما أنه صاحب المبادرة في الانفتـــاح علـــى الصين . وفي الحرب العربية الإسرائيلية في ١٩٧٣ ، قاد المفاوضات التي أدت إلـــى فـــك الاشتباك بين مصر وإسرائيل وبين سوريا وإسرائيل وساهم في إعادة العلاقات الدبلوماســـية المقطوعة منذ ١٩٦٧ بين مصر والولايات المتحدة وهـــو واضـــع دبلوماســـية الجـــولات المكوكية. وقد لعب دوراً مهماً في عقد اتفاقية السلام (كامب ديفيد) بين مصر وإســـرائيل . يعمل حالياً أستاذا للعلوم السياسية والاستراتيجية في جامعة هارفرد بالولايات المتحدة . مـــن مؤلفاته : الأسلحة الذرية والسياسة الخارجية ، وسنوات البيت الأبيض . (المترجم) .

(*) اللوبي بمعناه السياسي هو جماعة الضغط أو الجماعة التي تحاول التـــأثير علـــى أعضـــاء المجلس التشريعي لإصدار القوانين التي تتلاءم مع مصالحها . واللوبي اليهودي في الولايات المتحدة هو جماعة اليهود الأمريكيين الذين يمارسون التـــأثير علـــى أعضـــاء الكـــونغرس الأمريكي (مجلس الشيوخ والنواب) لإصدار التشريعات التي تتوافق مع مصـــالح اليهـــود وإسرائيل . (المترجم)

كنت أستمع لهذا الجدل منذ أربعين عاماً ، لم أكن أرغب فيه بذلك الوقت ولا حتى الآن. ولكنني أستطيع القول إنه خلال الأربعين عاماً هذه، التقيت بالعديد من أعضاء الكونغرس المعادين للسامية سراً ويتباهون علناً بتأييدهم لإسرائيل ، ولكنني لم ألتق حتى الآن دبلوماسياً أمريكياً معادياً للسامية أو مؤيداً للعرب ، بل وحتى في أواسط ما يسمون بالمستعربين كأولئك الذين أمضوا معظم حياتهم العملية في الشرق الأوسط ويتحدثون قليلاً من العربية . في ١٩٤٧ ، كان الموقف العام للدبلوماسيين العاملين هو أن علينا دعم تأسيس إسرائيل ولكن ألا نخدع أنفسنا بالاعتقاد أن لنا فوائد عملية في ذلك أما في البنتاغون ، فقد كان الأمر مختلفاً . فلكونها ترى أن التهديد السوفيتي هو عسكري بشكل رئيس ، ونتوقع أن تكون الحرب العالمية الثالثة حرب جيوش وبحرية وقوات جوية ، كان المخططون العسكريون والمحللون والاستخباريون يعتقدون أن إنشاء دولة إسرائيلية يمكن أن تشكل حليفاً محتملاً قوياً في الشرق الأوسط ، ويتوقعون – بشكل صحيح كما تبين ذلك – أن جيشها سيكون أحد أفضل الجيوش في العالم وربما أفضل من جيشنا .

مع ذلك ، كان هؤلاء الدبلوماسيون والمحللون والاستخباريون الذين يتوقعون أن تكون حرب المستقبل مزيجاً غير تقليدي وغير معلن من الحروب الإقليمية التي تتميز بحرب العصابات " والمقاتلين من أجل الحرية"، والإرهابيين وما شابه ذلك، يعتقدون أن إنشاء دولة يهودية سيشكل عبئاً ثقيلاً يصعب تحمله. إلا أن هذا لم يكن يعني أنهم كانوا يعارضون إنشاءها أو لدعمنا لها. كان همهم الوحيد هو تجاهل إدارة ترومان المتواصل للمشاكل ونظرتها غير السليمة للمشروع ووجهات نظر المسؤولين المنتخبين الذين يصوتون لسياسات يعرفون أنها تضر بالمصالح الأمريكية لا شيء إلا لأنهم يخشون " اللوبي اليهودي المتنفذ " .

ولكن ما هي وجهة نظري ؟ ولأكون صريحاً ، ليس لدي أي رأي. كنت في السنوات الأخيرة قد دعمت إقامة تعاون وثيق ومثمر مع الموساد الإسرائيلي – الذي يعتبر ثاني أفضل جهاز مخابراتي في العالم ، يلي فقط جهاز المخابرات السوفيتي

KGB وأفضل بكثير من قسم العمليات الخاصة التابع لوكالة المخابرات المركزيـة الأمريكية – إلا أنني قد تجنبت في عام ١٩٤٧ التورط في الجـدل الـذي كانـت الموساد جزءاً منه . لقد كنت أتعاطف بأساليب مختلفة مع كلا الطرفين بمـا أنـي أشعر أن حججهم ، صادقة وأصيلة. ولكن أسوة بمعظم زملائي المحترفين ، كنـت أرى أن الحقيقة المجردة لهذا الجدل هي وجود خلاف خطير حول الشؤون الدولية، وكنت أشعر بالأسى لتورط بعض السياسيين فيه من الذين تستهويهم الفرص التـي يوفرها هذا الجدل أكثر من موضوع الحق أو الباطل فيه .

وبعبارة أخرى ، لم أكن موافقاً أو غير موافق على مواقف الطرفين ، كنـت فقط لا أحبها . وأنا أؤمن بأن للكذب والسرقة والقتل والخداع مكاناً في الحـروب غير المعلنة بين الدول . بنفس الطريقة التي يأخذ فيها القتل حيزه فـي الحـروب المعلنة كتلك التي خضناها مؤخراً ، ولكن عندما يـدخل الموضـوع بالسياسـيات الداخلية ، فإنني مؤمن وجدانياً بالمبادئ الأخلاقية .

إنني أقول ذلك بهدف توضيح الأسباب التي دفعتني في عام ١٩٤٧ لأن أبـدأ فجأة الهرولة بين قاعات المباني (I , J , K) محاولاً تنسيبي للعمل في الخـارج . في الوهلة الأولى ، كنت أود أن أنأى بنفسي عن مشاعر الانزعاج التـي أخـذت تظهر إلى السـطح بين أصدقائي المخلصين . ولكن، علـى صـعيد الانتهازيـة "المحضة "، كنت أود الخروج من واشنطن حيث بدأ " الـنهج المحلـي للسياسـة الخارجية " وعلى نحو مفاجئ يفسد الوكالات الحكومية المهتمة " بالنهج الخـارجي لسياستنا الخارجية ". كان هناك جدلان حاميان، وغير عقلانيـين أحـدهما حـول فلسطين والآخر حول العلماء الألمان ومسؤولي المخابرات النازيين السابقين الذين قمنا بتهريبهم إلى البلاد من وراء أنظار محققي نورمبرغ . كنـت منشـغلاً بهـذا الميدان الأخير من النشاط ، إلا أنني متعب من الإصغاء إلـى النقاشـات المثيـرة حوله.

وهناك شيء آخر : هو أنني لم أكن أهرب من النزاع العربي – اليهـودي ، كما قال واحد أو اثنان من زملائي اليهود. وبعيداً عن ذكر نفوري منه، لم أكن أرى فيه نقطة الوميض المحتملة للحرب العالمية الثالثة. لقد كان محللو البنتاغون مقتنعين بنظرية أن العرب والدولة اليهودية الجديدة إن بدأوا بالقتال، سيدعم السوفيت العرب وستدعم الولايات المتحدة اليهود، وأن النزاع سيتفاقم في الآخر ليصل إلى حـرب عالمية. لم أكن أراه بهذه الطريقة . فبدلاً من ذلك، أن فهمي الخاص للسـتراتيجية السوفيتية الناشئة في ذلك الوقت والذي تولد من قراءتي للأبواب ذات العلاقة مـن الأعمال الكاملة للينين والتي ترجمت إلى الإنكليزية أو الفرنسية وأقنعتني أن ستالين سوف لن يحاول الاستيلاء على ما ترك من أوروبا الحـرة عـن طريـق الفـتح العسكري بل سيحاول حرمانها إلى حد ما من الوصول إلى المواد الخام في أفريقيا وبذلك يجعلها تعتمد على البدائل من الاتحاد السوفيتي.

وفيما يتعلق بتأييدهم للعرب إلى حد توريط أنفسهم في حرب عالمية، أعتقد أن الأمر بعيد عن استراتيجية السوفيت الظاهرة. قد يزود السـوفيت بعـض الـدول العربية بما تحتاجه لخوض معاركها – أو بالأحرى، لخلق أقصى قدر من المشاكل لجميع من له علاقة بالموضوع بما في ذلك العرب أنفسهم – إلا أنهم سـوف لـن يتقدموا أي خطوة للأمام نيابة عن مصالح عربية معينة. وينطبق نفس الأمر علـى أي مساعدة قد يقدمونها إلى مجاميع أفريقية متمردة ، ومع وضع أوروبا الغربيـة نصب أعينهم ، فإن هذه المجاميع تعتبر لدى السوفيت أهم بكثير من العرب .

كان هذا في ذلك الوقت مجرد نظرية مشوشة ، ولم أكن قد التقيت بعـد بـأي فرد آخر من دائرة العمليات الخاصة (oso) ومن يؤيدها، ولكن لجوئي إلى غريزتي كلاعب قمار، جعلني أغامر بوظيفتي الحالية في سبيلها.

لهذا، وبينما كنت أبحث عن عمل وراء المحيطات، بدأت بأفريقيـا. ولكـوني أتحدث الفرنسية ، عرضت عليّ عدة خيارات للعمل إمـا فـي ليوبولـد فايـل أو

كوناكري أو أبيدجان (*) ، وجميعها مواقع تكتنفها المصاعب ولا أحد يرغب بها . وبسبب تفكيري بأسرتي رفضتها جميعها. بعد ذلك تلقيت عرضين نالا استحساني وهما في ريودي جانيرو وستوكهولم، ولكن تفكيري بزوجتي لوراين، دفعني إلى رفضهما على أساس أن مواهبي، كما تفهمها هي، سوف تذهب سدىً في تلك الأماكن .

وبعد ذلك تم استعادتي إلى مكتب ستيف بنروس، وهو خبير قديم في شؤون الشرق الأوسط وقد استلم المنصب من جيمي مورفي كرئيس لدائرة العمليات الخاصة. أخبرني، بعد لأي، أنه يقدر لي " عملي الناجح مع النازيين الفارين ". ولكوني ضعيفاً وأقع ضحية سهلة أمام الثناء الذي لا أستحقه، فبدلاً من الرد بأمانة، احمررت بتواضع قائلاً :" ليس إلى هذا الحد يا سيدي" وأتفق أنني قد أبديت ميلاً نحو هذا النمط من العمل الاستخباري الذي قد يؤهلني لموقع معين في أوروبا وشعرت أنه من الواجب الوطني القبول إذا ما عرض عليّ.

إلا أن أوروبا سوف لن تكون ميدان عملي. وبينما يزداد قلقي أخبرني ستيف أن التقارير الأخيرة الواردة من صديقي القديم والتر كليم تشير إلى أن ما تبقى من أعضاء " الحركة النازية" يتجمعون الآن في أمريكا الجنوبية وفي الشرق الأوسط وأن التحرك النازي نحو الشرق الأوسط قد خلق عدداً من المشاكل المعقدة والتي تتطلب اهتمام ضابط مخابرات لابد أن يكون موضوعياً مع كل حالة .

(*) ليوبولد فايل : هو الاسم القديم لكنشاسا عاصمة زائير . أسسها هنري ستانلي في ١٨٨٧ ، وسميت على اسم الملك البلجيكي ليوبولد فايل الثاني وتقع على الجزء الجنوبي من نهر الكونغو.

كوناكري : هي عاصمة جمهورية غينيا وتقع على المحيط الأطلسي . أسسها الفرنسيون في ١٨٨٤ واشتق اسمها من اسم قرية للسكان المحليين .

أبيدجان : هي عاصمة ساحل العاج ، وتعتبر أكبر ميناء ومدينة فيها . كانت قرية صغيرة في ١٨٩٨ ثم مدينة في ١٩٠٣ ، وأصبحت عاصمة في ١٩٣٤ بدلاً من مدينة بنكر فايل . (المترجم)

كنت أعتقد ولغاية تاريخ تلك الحادثة أن الشرق الأوسط هو آخر منطقة يمكن أن أبحث عن عمل فيها. إلا أن ستيف قد أراني تقريراً أثار اهتمامي. كان مكتوباً من قبل الرائد نيكولاس أندرونو فيتش مساعد الملحق العسكري المنسب للعمل في القدس وهو قائم على مقابلة مع ناصر الدين النشاشيبي، وهو فلسطيني أصبح فيما بعد أحد أقرب أصدقائي - لقد طرح التقرير النقطة التالية:- أن القضايا التي تظهر في عالم السياسة أو في تجارب المرء الشخصية والتي تشبه الجذر التربيعي ناقص واحد، تكون مستعصية على الحل تماماً. عندما ينظر إليها بهذه الطريقة، فإنه يجب الاعتراف على الفور باستعصائها على الحل، وعلى المخططين الاستراتيجيين إسقاط جميع الافتراضات عن حلها وأن يحولوا اهتمامهم إلى كيفية تقليل العواقب العكسية للمشكلة المستعصية .

إن النزاع حول فلسطين هو من هذا النمط من القضايا.(١) ستظهر هناك دولة يهودية سواء شاء العرب أو البريطانيون أو أي فرد آخر، أم أبوا. (٢) ستقدم الحكومة الأمريكية إلى تلك الدولة ما تطلبه من دعم لتجعلها آمنة عسكرياً ونامية اقتصادياً.(٣) ما من وسيلة لوقف المعارضة العربية المتصاعدة سواء للدولة اليهودية أو لدعم الأمريكيين لها. لهذا يتحتم على الهيئات الدبلوماسية والاستخبارية لحكومة الولايات المتحدة أن تؤجل جميع المحاولات لإحلال السلام بين الطرفين وأن تركز على تطوير الدفاعات ضد المخاطر التي تهدد المصالح الأمريكية والتي من المؤكد حصولها .

ولناصر النشاشيبي تصور خاص به. وهو أن العرب الذين سيقاتلوننا، خاصة الفلسطينيين الذين من المؤكد أنهم سيطردون من ديارهم سوف لن يكونوا سيئين سواء على وفق معاييرهم الأخلاقية أو معايير الأمريكيين. لهذا لا نستطيع نحن الأمريكيين أن نلومهم لمقاومتهم لنا كما لو نتوقع أن يتوجه إلينا اللوم لمقاتلتنا أي طرف قد يخرجنا من بلادنا. لهذا فإننا بمقاتلتنا لهم (للعرب)، ليس لدينا أي أساس أخلاقي مشروع نقف عليه. علينا مواجهة الحقيقة هو أن الكثير مما نفعله للتكيف

مع الموقف سيكون " إما غير أخلاقي بذاته أو يعلل بطريقة لا أخلاقية." كما قـــال هو ذلك .

لم يكن ستيف بنروس، كونه قد تربى في لبنان على يـــدي أســـرة تبشـــيرية بروتستانية مشيخية، مرتاحاً لهذه النقطة أبداً. أتمنى أنني أستطيع قول نفس الأمر، إلا أنني أرى فيها تحديًا من نوع خاص إلى المؤسسة التي أنتمي إليها. ومنذ ذلـــك الحين، وكما سبق أن قلت، أنني مؤمن تماماً بالقول المأثور" مع بلادي، على حق أم على باطل "، بنفس الطريقة كما كنت أؤمن ولا أزال [مع أمي سواء كانت سكرانة أم صاحية]، استولى على اهتمامي إمكانية الانشغال بشكل من أعمـــال الاحتيـــال السرية مسوغاً ذلك بالمصلحة الوطنية. أن ما كان يجب أن يكون سرياً، بدا واضحاً لي عندما أرى البيت الأبيض ووزارة الخارجية منشغلين بكافة أشكال خطط السلام التي لم يفهمها أي من الدبلوماسيين المحترفين الذين يعملون بتمـــاس وثيـــق مـــع القضية.

يمكن للمحاولات الساذجة لدفع العرب لوقف مقاومتهم للدولة اليهودية أن تكون غطاء مناسباً للأعمال السرية التي قفزت إلى ذهني في الحال. إلا أن ستيف كـــان مقتنعاً وبدأت بالانصياع. مع ذلك، حصل حادثان في دائرة العمليات السرية، أحـــدثا تغييراً حاسماً.

الأول ، أن الضابط الذي تم تنسيبه للعمل في دمشق هو ضـــابط مـــن مشـــاة البحرية وقد حاز على أنواط عديدة لشجاعته ، قد فشل في اختبار جهـــاز كشـــف الكذب لأنه كان من بين كل الأمور الأخرى، لوطياً، ويتميز بسرعة الغضب. وعند تبريره لأي شخص يستمع إليه (حيث لا يعترف اللوطيون عادة بفشلهم على جهاز كشف الكذب)، كان يقول إنهم قد عاملوه " ككلب ثورن سميث الخبير بامتصـــاص البيض. " وأي شخص قرأ هذه القصة الرائجة قبل الحرب يتذكر أن كلـــب تـــوبر الذي يضرب به المثل قد امتص بيضة واحدة، ولم يمتص بيضة ثانية طيلة حياتـــه لأنه لم يستسغها. إلا أنه عرف بـــ " أنه الكلب الخبير بامتصاص البيض ". حســـناً

لقد لاط نقيب مشاة البحرية بطيار من سلاح الجو الملكي RAF، مرة واحدة فقط، ولم يستلذ بها (قال : كانت نوعاً من التجربة)، مع ذلك أخذ يعرف من الآن وطيلة المتبقي من حياته بأنه (الرفيق المأبون)، كما كان يقول. لم يكن يعتقد أن هذا عدل، وعندما أخبرني كل ذلك أثناء لحاقي به وهو يمشي غاضباً بخطى واسعة نحو قاعة مبنى (L) وهو في طريقه نحو تقديم شكوى إلى عضو الكونغرس الذي يمثله. ورغم ذلك، تم طرده، وترك موقع دمشق المهم لينتزعه آخرون .

الأمر الثاني الذي حدث هو تحطم طائرة في جبال أثيوبيا ، حيث قتل فيها دان دانيت مدير محطة دائرة الخدمات الاستراتيجية – وحدة الخدمات الاستراتيجية ssu – oss في بيروت. كانت الطائرة تحمل معدات اتصالات حساسة، لهذا يتوجب علينا إرسال فريق يتكون من ضباط أقوياء البنية ويكونون إما من النوع المغامر المستعد للمخاطرة بالقيام بمهمة داخل منطقة قفر تعج بقطاع الطرق أكثر من أي منطقة أخرى في العالم، أو أنهم حمقى إلى حد لا يستطيعون فيه تصور ماذا يمكن أن تنطوي عليه هذه الرحلة. ولكوني أتمتع بكلا المؤهلين، فقد كنت تواقاً للقيام بهذه الرحلة، لهذا قدمت طلباً إلى نيك نيكلسون، وهو أمريكي من أصل عربي كان يرأس فرقة الشرق الأدنى وأفريقيا. مع ذلك ، كنت متأخراً يوماً في ذهابي إليه ، إلا أن نيك انتهز فرصة زيارتي ليعرض عليّ العمل في دمشق. قلت له : سأفكر بالموضوع .

إلا أنه قد جاء برفقته فيما بعد أركيبالد روزفلت، حفيد إحدى الشخصيات الرئيسة في قائمة مثلي العليا وهو تيودور روزفلت. كان أركي، وهو صورة طبق الأصل من جده، منتظراً في البناية (L) لإجراء مقابلة لتعيينه في بيروت، وهو الموقع الذي يجعله منسقاً لجميع العمليات الاستخبارية السرية في الدول العربية من المغرب إلى العراق. لقد أدى لتوه اختبار الخدمة الخارجية، حيث سئل عن اللغات التي يجيدها ؟ فقال : العربية والفارسية والكردية والروسية والأرمنية والأوردية والتركية والعديد من اللهجات التركية . وعندما سئل " ألاّ تتحدث الفرنسية أو الأسبانية أو الألمانية ؟ " فقد ذهل وقال : "يا إلهي، وهل تعدها لغات؟"

إن الخـــدمة الخارجية التي لا يعتبر فيها التحدث بهـــذه اللغات شـــيئاً أساسياً لا تصلح لأركي، لهذا خرج على الفور من وزارة الخارجية واتجه نحو البناية (L) وقدم طلباً بالعمل ذاكراً ليس فقط كونه يتحدث بعض اللغات الشرقية بل إنـــه عـــاد لتوه من عمله السابق كمساعد للملحق العسكري في العراق ثم في إيران وقد أمضى حوالي الشهر في أذربيجان مراقباً السوفيت وهم يحاولون تـــدجين هـــذه المنطقـــة المضطربة .

عيّنه نيك فوراً، ثم دعاني ليجدد عرضه لي. لم أقبل قي الحال، إلا أنني وافقت علي دعوة اركي على العشاء لمناقشة الاحتمالات المطروحة. كانت دعوة ناجحـــة جداً. ليس فقط أن علاقتي بأركي قد توطدت أكثر رغم أننا نعرف بعضنا منذ سنين عدة، إلا أن لوراين وأركي قد حازا على إعجاب أحدهما الآخر لفهمهما الشخصي للشرق الأوسط، فقد كانت لوراين تهتم بآثاره بينما كان أركي يهتم بلغاته وثقافاته. والأهم، أن أركي قد اتفق مع آرائي حول الاستراتيجية السوفيتية مضـــيفاً: بينمـــا السوفيت يعتقدون بأن أفريقيا تخدم أهدافهم كساحة سرية للقتال فعلينـــا إدراك بـــأن آسيا الوسطى هي التي تخدم أهدافنا.

اتصلت بنيك نيكلسون في صباح اليوم التالي، وحزت على الوظيفة . بعد ذلك وجدت ركناً هادئاً في غرفة القراءة بالقسم لأمضي النهار في مطالعة جميع المواد التاريخية التي يمكن أن تكون لها علاقة بعملي الجديد. كانت هناك بعض المفاجآت التي تنتظرني. فخلال الساعة الأولى من قراءتي علمت أن دمشـــق بلـــدة جميلـــة ومناخها مريح وساحر جداً. ولكونها واحة كبيرة على الحافة بـــين جبـــال لبنـــان والصحراء السورية، فأن مناخها يشبه إلى حد ما مناخ فوينكس باريزونا، ولها نظام صرف صحي مقام حول نهر بردى، قد جعلها " نظيفة كأي مدينة في كولـــورادو". وتشير فقرات من عدة مجلات للجغرافية الوطنية إلى أنها تشبه مدينـــة متوسـطة الحجم من كولورادو، وتظهر صور المنازل في الحي المأهول بالدبلوماسيين، أنها تشبه إلى حد بعيد قصور الأثرياء في كاليفورنيا الجنوبية.

وهكذا وفي صباح جميل من شهر أيلول ١٩٤٧، أرسلت لوراين إلى الالباما حيث يمكن أن يستخرج لها قاض فيدرالي وصديق قديم للأسرة الجنسية الأمريكية في غضون أسابيع بدلاً من السنتين المعتادتين، وأخذنا أنا وأركي الطائرة إلى بيروت عن طريق نيوفوندلاند ، وإنكلترا ومالطا. تحدثنا كثيراً، وبدأت أكون فكرة عن أركي الذي كان يكتنفه الغموض بالنسبة إلى الأصدقاء في قسم الشرق الأدنى. إنه مزيج غريب:- فهو أرستقراطي غير متكبر، ومثقف ذكي وداهية واقعي وذو خيال عظيم، وأستاذ واسع الذهن لا تفوته أية حيلة وغير محدث النعمة ويتلقى المسيئين بصدر رحب. ويبدو أنه يحب كل الناس، ومن المؤكد أن الجميع يحبونه، حيث بقي على هذا الحال حتى اليوم بعد أربعين عاماً . وبالمناسبة، يبدو أنه يقدرني لمعرفته أنني قد أتعلم العربية بأشهر بينما قد يستغرق الأمر من الدبلوماسيين الاعتياديين الذين يدرسون في مدرسة تشارلي فيرغسون للغات في بيروت عدة سنوات، إذا ما استطاعوا فعلاً تعلمها. (وكما اتضح فيما بعد، فقد كان مصيباً، فبعد قضاء سنة واحدة في دمشق وبمعونة الرجل الثاني في محطة وكالة المخابرات المركزية، كتبت أول قاموس للعامية العربية، وهذا ما جعلني كما قال أستاذي بكل فخر أن أكون " دانتي اللغة العربية").

أمضيت ليلة واحدة في بيروت مع أركي وعدد من أعضاء المفوضية الأمريكية الظرفاء، بعدها توجهت إلى دمشق بسيارة المفوضية. كان أعضاء المفوضية رائعين. وقد استقبلوني بكرم لم أكن أتوقعه .

في غضون أيام قليلة تعلمت درسين حول الأجهزة الدبلوماسية البريطانية والأمريكية وأود إبلاغهما لأي رجل أو امرأة ممن قد يحاول اختيار عمله، الدرس الأول هو أن حياة الدبلوماسي او حياة أسرته ، هي أكثر متعة من الحياة التي تكتنفها المصاعب مثلاً، في لندن أو واشنطن أو باريس .

ففي دمشق، تعيش أسرتي المكونة من أربعة أفراد في بيت من سبع غرف تتميز باستثناء، أنابيب المياه، بكونها مترفة كأي غرف في منازل بلغرافيا أو منازل

الضيافة في واشنطن . لدينا أربعة خدم - طباخ وسائق ومدبرة منــزل ومربيــة أطفال - ويمكن لزوجتي أن تناقش في لقاءات السيدات علــى قهــوة الصــباح ، " مشكلة الخدم " مع الكثير من زوجات موظفي الخدمة الخارجية اللواتي لم يــرين أبداً في حياتهن السابقة خادماً محلياً، واللواتي عند عمل أزواجهن داخل البلاد قــد يمضين أيامهن يغسلن الصحون ويكنسن الأرض ويغسلن مهاد أطفالهن. قد يخطر في ذهن المرء أن الدبلوماسي الشاب يميل إلى نسيان أن الاعتبار والاحترام الــذي يتمتع به يعود إلى سحره الشخصي أكثر مما يعــود إلــى وظيفتــه فــي الجهــاز الدبلوماسي الأمريكي أو البريطاني .

الدرس الثاني الذي تعلمته هو أن نسبة عالية من الــذين يلتحقــون بالجهــاز الدبلوماسي على أمل أن يتم إرسالهم إلى لندن وباريس وروما وريودي جانيرو أو استكهولم سيشعرون بالملل وعدم الاطمئنان من الناحية الاجتماعية والغرابــة فــي التقيد بالمراسيم البروتوكولية كأولئك الذين يحب بول ثيروس ولورنس دوريــل أن يكتب عنهم، إلا أنك قلما ترى أمثال هؤلاء الناس في هذه المراكز الدبلوماسية فــي الخطوط الأمامية للأحداث. أن معظم الدبلوماسيين الذين يلتقيهم المرء، لنقل، فــي كوناكري أو عدن أو دبي أو دمشق هم إما شباب مــن الرجــال أو النســاء ذوي المستقبل الواعد، الذين تم انتقاؤهم بعناية من قبل قادة هذه الأجهزة أو أنهم ضــباط قد طلبوا هذه الوظائف بأنفسهم لأنهم مولعون جدياً بالمشاكل والتحديات المنتشــرة على صعيد المسرح الدولي. وعلى أية حال، فإن زملائي في مفوضيات دمشق هم من الطراز الأول سواء كدبلوماسيين أو كأشخاص وأقل ما يمكن أن يقال هو أنني أحبهم. ومن الطبيعي أنني كرجل مخابرات متدرب، كن أحتفظ بملفات عــنهم ، إلا أنني أستطيع القول دون خشية من تكذيب أي من رؤسائي في ذلــك الوقــت فــي واشنطن أن ملفاتهم لا تحتوي على ذرة واحدة من المعلومات التي يمكن أن تمثــل نقطة ضعف على أي منهم إذا ما برزت الحاجة " لإقامة تعاون " معه ، كمــا قــد يقول نيك . نعم هناك شيء بسيط واحد هو أن هناك عميلاً كنت أديــره بصــورة

مشتركة مع المكتب الثاني السوري قد صور موظف (أو موظفة) الشيفرة في المفوضية الأمريكية وهو يرقص خداً على خد في حانة رقص مع موظف (أو موظفة) الشيفرة في المفوضية البريطانية ، إلا أنه لأسباب خارج نطاق هذا الكتاب، قررت ألا أثير قضية من هذا النوع .

أود أن أخبركم عن صديق من نوع خاص من بين المستخدمين المحليين إنه يوسف دبّوس ، وإذا ما غفر لي قرائي هذه اللمسة من الخفة في هذا الحديث الجدي، فإن ترجمة اسمه تشير إلى أنه (الرجل الدبوس). كان يوسف، كما دعاه القائم بالأعمال الذي خلف أج الن سميث، جلفاً من كل الجوانب. إلا أنه ورغم إدراكه لعيوبه، فإنه شديد الطمع للمال. لهذا كان يهتم كثيراً بإجراء جرد لممتلكاته وخسائره ويضع خططاً لمستقبله.

كان شكله ووجهه أشبه بأجاص الافوكاته وله سن ذهب يظهر عندما يبتسم وهو ماكر منحط. لم تمر على عالم التجارة السوري أية حيلة ابتكرها ماكر معين مثل حيلة يوسف.

استنتج يوسف أنه لا يملك شيئاً خاصاً يمكن به أن يدخل عالم التجارة الذي تكثر فيه الشكوك، لكنه أخيراً اكتشف الحل . سيكون شريفاً !! لم يتوصل أحد في مجتمع التجارة السوري ، حيث التصرفات المشبوهة هي السائدة، إلى مثل هذا الاكتشاف كوسيلة لتحقيق النجاح التجاري. لهذا أقترض يوسف مائة دولار من أحد البنوك، ثم أعادها في وقتها. ثم اقترض خمسمائة دولار ثم ألف دولار وفي كل مرة يعيدها في الوقت المحدد وفي نفس الوقت يلمح إلى المصرفي عن كيف أنه قد تكبد خسارة شخصية كبرى من أجل إعادة المال في وقته. بعد ذلك وعد وعوداً غريبة لأصدقائه، ووفى بها.

أصبح سلوكه موضع حديث دمشق. وأخذ يعرف في أوساط أصدقائه السوريين بالأمين. وفي أوساط الأمريكيين والبريطانيين "بالنزيه". وسرعان ما بدأت الشركات

الأوروبية التي تبحث لها عن مندوبي مبيعات بالقدوم إليه، واثقة أن مـا ينقصـه كمندوب مبيعات يمكن تعويضه بإجراءات عمولة منصفة. (يقول الساخرون مـن بيننا : إنهم يعتقدون أنهم يستطيعون خداعه). كان رجال الأعمال الذين يؤسسـون شركات جديدة يحبون أن ينضم إليهم لأنهم لا يعرفون أن وجود اسمه فـي أوراق الشركة سيولد انطباعا إيجابيا في نفوس المستثمرين. وتحاول البنوك إقراضه بعض المال بمعدلات واطئة من الفائدة. وجرت دعوته لإلقاء محاضرات فـي المدرسـة الأمريكية التي تديرها البعثات المشيخية البروتستانتية، حول مواضيع مثل " الأمانة هي أفضل نهج " و " أن الله يأمل منا الصدق ".

ودون جهد، تقدم في عالم الأعمال (قال لي مرة إنني لست أحمق، بل مغفل)، وانتهى به المطاف في جنوب فرنسا حيث يعيش على ريع عملـه الوحيـد غيـر الشريف، " وهو آخر عمل يتذكرني به أولاد الزنا "، كما قال لي مرة ذلك بعد عدة سنوات ونحن نحتسي الشمبانيا معاً على يخت الخاشقجي. لقد سحب جميع أموالـه من مصرف انترا في بيروت واقترض كل ما يمكن للمصرف إقراضه له، بعد ذلك ساهم في نشر إشاعات أدت إلى إفلاس البنك. (وقد سمعت فيما بعد من بول باركر نائب رئيس بنك أمريكا الذي دعاه هذا البنك لترتيب أزمته، أن يوسف قد تلقى أجراً كبيراً عن مشورته في توضيح كيف قام بذلك).

كانت أولى خطوات يوسف في الصعود هي حصوله على عمل في المفوضية الأمريكية مع الضابط الإداري حيث عرض استخدام نزاهته المعروفة لمصـلحتنا. وقد ساهم في إيجاد وشراء العقار الذي تقيم فيه الآن السفارة الأمريكية في دمشق، ساعد المفوضية في جميع صفقاتها التجارية والقانونية مع الحكومة السورية ورجال الأعمال السوريين وساهم حضوره في تعزيز الثقة بين "الطرفين ولم يسبب أبداً أي خسارة لنا. كان، كما يحب أن يقول عن نفسه، نافذة للتفاهم " ، يمكن لنا من خلالها نحن الشباب الأمريكيين غير المتكلفين ولأفراد أقدم حضارات العالم أن نرى بعضنا الآخر ونتفاهم معاً .

كان زملائي في المفوضية الأمريكية بدمشق في ١٩٤٧ يرون أن هذه النافذة"مشوشة " قليلاً. من الممتع قراءة الحضارة السورية القديمة في كتب التاريخ بالجامعات، إلا أنهم قد جاءوا إلى الشرق الأوسط بقناعة مفادها أن الناس في أي مكان في العالم هم كالأمريكيين، يشتركون جميعاً دون وعي منهم بالأخلاقيات البروتستانتية حتى لو لم يعرفوها. لقد علمتني وكالة المخابرات المركزية شيئاً مختلفاً، مع ذلك كان رؤسائي في واشنطن يرون أنه قبل أن تضع الحكومة الأمريكية سياسة إيجابية للتعامل مع الحكومة السورية، فإنه يجب تعليم الشعب السوري الديمقراطية على الطراز الأمريكي، وكنت أرى الفرصة أمامي لأكون هذا المعلم – خاصة مع يوسف ليساعدني. إلا أنه عليّ أولاً أن أعالج ما وصل إلى واشنطن من آراء غريبة عن روح الشعب السوري .

تكشف نظرة سريعة إلى ملفات المفوضية حول العلاقة السورية الأمريكية أن المراسلات قد جاءت من وحدة وزارة الخارجية التي كان عملها تعزيز فكرة أن شعوب الأماكن النائية من العالم تدرك أفضلية الحرية الأمريكية على الاستعباد الشيوعي. يبدو أن وزير الخارجية وكبار مستشاريه يرون أن الولايات المتحدة في صراع شامل تقريباً مع البلدان العربية، في الوقت الذي يعتقدون أن هذا يعود بشكل كبير إلى قياداتها السيئة والمضللة وليست قيادتنا. إنهم يؤمنون بالنظرية التي تقول إن العرب إذا ما كانت قيادتهم متنورة وفعالة أكثر، فإنهم سيكونون حلفاءنا الطبيعيين. أن لدى العرب أكثر من سبب ليخشوا السوفيت ولا سبب يدعوهم للخشية منا، ومن المناقض للطبيعة بالنسبة إليهم أن لا يرحبوا بعروضنا لحمايتهم . إن شركاتنا النفطية ستجعل منهم أثرياء. سيكونون المستفيدين الرئيسيين من أي " تسوية سلمية للقضية الفلسطينية "، والتي لا يمكن لأحد غيرنا إقامتها. إن رفض قادتهم الاقتناع بوجهة النظر هذه يعتبر لدى قادتنا مبرراً وسبباً وجيهاً للإطاحة بهم، أو بالأحرى تمكين شعوبهم من الإطاحة بهم. ونحن نعتقد أنه إذا كانت هناك أي قيادة وطنية في العالم يمكن أن تستفيد من تدخلنا في شؤونها، فإنها القيادة العربية .

أوضحت كل ذلك إلى يوسف، وقد سر بذلك . وشعر بالنشوة عندما أخبرته أن وزارة الخارجية قد أبلغتنا بأن نضع " خطة رائدة " نستطيع من خلالهـا إحـداث تغيير كبير في بلد عربي معين، وإذا ما وجدنا أنه بالإمكان فعـل ذلـك، عنـدها سنجرب الأمر في البلدان الأخرى. كان العراق هـو أول تجربـة مغريـة لأنـه ولأسباب عمليه يعتبر دولة بوليسية حكومة غير شعبية.إلا أنه بلد لا يستطيع فيه أي فريق عمل سياسي مجرب، إذا ما تركنا جانباً فريقاً حديث التكوين، أن يعمل دون قبول ومعرفة البريطانيين. إن العربية السعودية غير جاهزة للديمقراطية. بينما تـم إسقاط لبنان والأردن ومصر لأسباب أخرى.

قلت ليوسف: "حسناً، ستكون سوريا". نكس رأسه بوقار، دون أن يسـتطيع أن يخفي سروره." إنها متعافية اقتصاديًا وسكانها لم تدجنهم سنوات الإخضاع التركي والفرنسي وظروف الانتخابات الديمقراطية فيها مثالية. من المؤكد أن الانتخابـات التي تجري بنزاهة ستسفر عن فوز قادة متعاونين وأذكيـاء. "وبـالطبع سـيرافق" الانتخابات التي تجري "بنزاهة " عمل منسق من المفوضية يهدف إلى ضمان ليس النزاهة فقط بل قد تظهر كما نريد. سأوفر على قرائي قراءة التفاصيل ، إلا أننـي أقول إن الانتخابات بوصفها وسيلة لتأسيس محطة للمخابرات المركزية الوليدة في سوريا، فأنها كانت شيئاً مثيراً للسرور. وكما أتضح فيما بعد، لم تكن الانتخابـات من الطراز الذي كان في بال واشنطن. ففي حمص، كان التصويت نموذجاً لما هو مناسب، ولكن لا لسبب إلا لأن ملاك الأراضي قد أوضحوا لمستأجريهم أن عليهم إهمال "الهراء الشيوعي والإمبريالي"، الذي ترفعه الملصقات المنتشرة في ميـادين المدينة وأن عليهم التصويت حسب التعليمات. بينما كان السوريون فـي المنـاطق الأخرى من الذين تربوا على الاعتقاد بأن الحكومة هي شـيء بغـيض فرضـه الأجانب، يرون في أول انتخابات " حرة " بأنها مناسبة لممارسة مـيلهم الفطـري للفساد والفوضى. جرت هناك معارك بالبنادق وبالأيدي قتل وجرح منها عدد مـن الناس بينما يرى الناخب البسيط في هذه الانتخابات فرصة جديدة للحصـول علـى

ثمن مناسب لصوته أو لرفع أحد أقاربه إلى دوائر الحكومة حيث يستطيع من خلالها توزيع الهبات السخية على أسرته .

على أية حال، شهدت نشاطات المفوضية الأمريكية في سوريا في أواخر الخمسينات ولادة نشاط وكالة المخابرات المركزية في كتابة التقارير والتدخل في الشؤون الداخلية لدول ذات سيادة. " لم تصل هذه النشاطات إلى درجة البراعة التي تتدخل فيها تلك الدول في شؤوننا الداخلية، إلا أن تقارير المخابرات المركزية متوافرة أمام أنظار أي رئيس يريد أن يخرج عن نطاق الشؤون الداخلية ليقرأها .

منتدى سور الأزبكية www.books4all.net

الفصل الثاني عشر

التجـــربة الســـورية

خلال الرحلة من واشنطن إلى بيروت ، زودني أركي بنبذة عن ستيف ميد الذي سيلعب خلال الأربعين سنة القادمة دوراً مهماً في حياتنا. كان أركي قد التقى ستيف عندما كان الأول مساعداً للملحق العسكري في طهران وكان ستيف يرتدي زي رجل قبيلة كردي في مهمة لصالح دائرة الخدمات الاستراتيجية . وفيما بعد ، وجد أركي نفسه مع ستيف وبعض رجال قبيلة الكاشكاي وهم يطاردون عبر صحراء دشت لوط فريقاً من مجرمي شرطة الحزب النازي أخذوا عدداً من المبشرين الأمريكيين رهائن ويحاولون الوصول بسلام إلى بوشيرا. جرى تعيين ستيف في بيروت مساعدا للملحق العسكري على أساس أن الملحق العسكري هناك يجب أن يكون ضابطاً كبيراً على وشك التقاعد، إلا أن مساعده لابد أن يكون ضابطاً جدياً في العمل يستطيع أداء المهام الخطيرة المتعددة التي تظهر بين فترة وأخرى في هذا الموقع. وكما يشير ملف ستيف، فقد كان جدياً بما يناسب رجلاً مهذباً من فرجينيا إلا أنه قليل الذكاء، وقد أختاره صديقنا الجنرال لاوتن لهذا المنصب.

قال أركي إن نيك قد زوده "بتعليمات صريحة" بأن يبعدنا أنا وستيف عن بعضنا على أساس أنه إذا ما التقينا ستكون هناك مشكلة، والمشكلة ستتفاقم وتصبح أكبر، وقال : "إن نيك يدرك ذلك جيداً. فعندما قال إنه يريدك أن تأخذ الأمور ببساطة في الستة أشهر الأولى من عملك، كان يقصد، ليس من الأسلم أن تشعل الدنيا فوراً."

لأركي أسبابه الخاصة في حصر التعامل مع ستيف لنفسه فقط . فبقصـــد مـــدّ قنوات مع الاتحاد السوفيتي، كان يعتقد أن ستيف يمكن أن يكون مفيداً في العمل مع مجاميع اللاجئين السياسيين، طالما أنه مثل أركي نفسه، يتحدث معظم لغاتهم. لـــم أكن أعتقد ذلك، إلا أن رأيي هو مجاراة نيك وأركي، إذا مـــا اتضـــح أن ســـتيف يتطابق مع الوصف الذي أبلغني به أركي، حينذاك يمكن أن أحتاجـــه فـــي بعـــض العمليات التي أعمل على تنفيذها .

لكن عند وصولي دمشق ، وجدت الكثير من الأمور التي أثارت اهتمـــامي ، لنبدأ برجل المخابرات البريطانية MI6 ، وهو شخصية محترفة محنكة ، اســـتقبلني بعدد من الخطط (كانت إحداها هي وضع لاقطات في السفارة السوفيتية الجديدة) وهذه الخطة ستمزج المال الأمريكي بالذكاء البريطاني. كان السفير السوفيتي دانيال سولود يقيم في بيروت إلا أنه زائر دائم لدمشق، وهو دبلوماسي من الطراز الأول عمل في السابق في المخابرات السوفيتية ويناظر على أفضل وجه خيرة ســـفرائنا مثل جورج ودسورث في بغداد وجيفرسن كـــافيري فـــي القـــاهرة. أمـــا ضـــابط المخابرات السوفيتية النظامي فهو أيغور فيدورنكو وهو جورجي وسيم زارني مرة أو اثنتين بعد وصولي ليبلغني بابتسامة سلافية عريضة بأنه "ستكون لدينا الكثير من التسلية"، طالباً مني ألا أنظر لعملي بجدية كافية وألا أضيع الوقت في الكثير مـــن الخطط الفاشلة كمحاولة زرع اللاقطات بسفارته. (لقد نبهني نيك لذلك، فقد أخبرني: "أنه سيستطلعك حتى قبل أن يفعل الآخرون في مفوضيتك " .

وهكذا أخذت في تلك الفترة أختلط مع الدبلوماسيين الحقيقيين ونخبة المجتمـــع في دمشق ، وفي الوقت الذي أحكم فيه غطائي ، التقيت وتحدثت مـــع الجواســـيس والمجموعات السياسية محاولاً في نفس الفترة تأسيس ما كلفت به . وبقيت بعيـــداً عن ستيف ميد محاولاً بشق الأنفس تجنبه في كل مرة يأتي بها عبر الجبل لزيـــارة أصدقائه في الجيش السوري. ولكن في المجتمع الدبلوماسي والمخابراتي في دائرة بيروت – دمشق، قد تتقطع السبل لأبدأ بالتقصي عن ستيف في كل الأماكن حيث قد

تثير أي محاولة مقصودة من أي منا لتجنب الآخر فضول الآخرين. لهذا وبعد شهر أو شهرين من التردد، إقترب مني ستيف خلال حفلة للمفوضية في بيروت وقال " دعنا نوقف هذه المسرحية. لدينا الكثير للتحدث عنه" .

كان جو العمل يمر بتحول سريع . فقد فرض مؤخراً الاستقلال المفاجئ لبعض الدول التي كانت ترزح لقرون عديدة تحت الحكم الاستعماري مشاكل خارج حدود خبرة جهازنا الدبلوماسي . وبعد ذلك، تفاقمت مشاكلنا بشكل كبير في سوريا ولبنان بسبب اعتقاد الحكومات المحلية بأن حكومتنا تدعم بشكل غير نزيه الصهاينة ثم بعد ذلك دولة إسرائيل الجديدة. الشيء الثالث، في الوقت الذي كان لدينا موظفون دبلوماسيون من الطراز الأول في مراكز الشرق الأوسط ، وهم يتعرضون يومياً للاحتجاجات والانفعالات العربية ، فإن زملاءهم في واشنطن يتعرضون بنفس القدر والطريقة لضغوط السياسات المحلية الأمريكية بحيث أنه لا يتوافر لديهم الوقت الكافي أو الصبر لمعالجة المشاكل التي نمر بها محلياً. كنا نشتكي باستمرار ولا يأتي الحل إلا في رسائل شخصية من أصدقاء في الدوائر المختصة: "إن من يعمل بعيداً هناك، كما أنتم، يكون توجهه ميدانياً، بينما من يعمل هنا في واشنطن، يكون توجهه لواشنطن، وفي الآخر، يكون توجه واشنطن هو الأهم " .

وقد كانوا على صواب، حيث أصبحت الدبلوماسية المحلية أكثر من مجرد تسليم رسائل روتينية " بأن حكومتنا مهتمة " إلى وزارة الشؤون الخارجية، تعززها بين فينة وأخرى بما أصبحنا نسميها " تطمينات كافيري" على اسم سفيرنا بالقاهرة ، لنعلمهم " أننا لسنا هنا لمناقشة الحجج المؤيدة والمعارضة للسياسة الأمريكية بل فقط من أجل التأكد أنكم قد فهمتم فحواها . " وكما أفهم اللعبة الدبلوماسية ، فإننا نعتبر جميعاً خارج الملعب. فقد عاد الملحق الثقافي ليدير مكتبة وكالة الإعلام الأمريكية ولم يجر حديث آخر عن تملق السوريين لإجراء انتخابات " حرة ونزيهة "، والتي لو كانت قد جرت لربما أدت إلى إغلاق المفوضية الأمريكية واعتبارنا جميعاً أشخاصاً غير مرغوب فيهم .

كانت "الدبلوماسية السرية" ، كما كان القائم بأعمالنا يسمي نشاطي الخاص بهذا العمل ، محددة بإعداد حملات دعم، مشابهة إلى حد كبير لما يفعلـه البريطـانيون والفرنسيون والسوفيت، إلى المرشحين الذين نختارهم في سوريا ولبنان والعـراق ومصر . كان موقفنا عبارة عن (دعونا ننتظر لنعرف بعدها ما سنفعل). كنا نشبه لاعب القمار الذكي، الذي يأتي إلى طاولة حولها وجوه لا يعرفها، يجلس ويلعـب دورة أو دورتين أو لا يقوم إلا برهانات رمزية. ولكن حتى الأكثر تمرساً بيننا فإنه يفقد صبره في النهاية ويريد أن يشترك بقوة في اللعبة لهذا سرعان ما شرعنا فـي عملية في سوريا، وصفتها فيما بعد بكتابي لعبة الأمم " كمثال نموذجي عن كيفيـة التدخل في الشؤون الداخلية لدولة ذات سيادة "، رغم أنني أعترف أنها قدمت بيانـاً قيماً عن الأخطاء المألوفة التي يجب تفاديها في العمليات اللاحقة من هذا الطراز".

وفي الدفاع عنها، عليّ أن أضيف أن موظفي وزارة الخارجية الكبار كـانوا يؤمنون في ذلك الوقت أن الفراغ الذي تركه البريطانيون مع موقفنا الثابت المؤيـد للصهيونية في فلسطين، قد جعل النجاح أمراً مستحيلاً وأن "تقليل حجم الفشل" هـو كل ما يمكن أن نرجوه. وبالنتيجة فإن التعليمات الصادرة من واشنطن إلى العديـد من البعثات الدبلوماسية واضحة وضوح نبوءة كاهنة دلفي**Oracle of "Delphi"**[١]. وسمحت لرؤساء البعثات تفسيرها كما يشاءون، ملقين اللوم عن أي خطأ على قيام الآخرين بهذا الفعل، في حين تترك للمسؤولين السياسيين في واشنطن ادعاء الفضل في أي شيء قد يسير، بشيء من الحظ ، بشكل صحيح. وتحت مثل هذه الظروف يعتبر كمال ودهاء وشجاعة موظفي الميدان هي الأهم قبل كل شيء.

كان بوب ميمنغر ، القائم بأعمالنا يتمتع بالكثير من الكمال والدهاء والشجاعة للوظيفة الاعتيادية ولكن عندما أصبحت دولة إسرائيل الجديدة حقيقية واقعـة، رأت

---

(١) دلفي : مدينة قديمة وسط اليونان على منحدرات جبال يارناسيوس التي تطل علـى خلـيج كونثاين . اشتهرت بنبوءة إحدى نسائها التي تدعى فيها معرفة نتـائج الحـروب والأعمـال السياسية وقد كتب الكهنة نبوءاتها بشعر عالي الغموض ويمكـن تفسـيره بوجـوه شـتى . (المترجم) .

وزارة الخارجية أننا نحتاج في سوريا إلى شخصية هادئة حتى وفق المقاييس العربية، شخصية تتمتع بقدر كبير من هذه المواصفات. وفي الحال ، استطعنا العثور عليها . إنه جيمس هوف كيلي ، وهو موظف ناجح تم نقله من أثينا حيث كان يعمل نائباً لرئيس البعثة وله سجل سابق في المحافظة على هدوئه أثناء الأزمات ، وقبل التفويض بالصلاحيات واتخاذ القرارات دون الرجوع إلى واشنطن في كل صغيرة .

وفي اليوم الأول لعمله، عزز قناعتنا أن الوزارة كانت مصيبة في اختيارها. جرت مظاهرات مناهضة للأمريكيين في كل أنحاء دمشق مع حشد من الطلبة المتوجهين نحو المفوضية وهم مسلحون بآلات تشبه المعاول. وقبل أن يتمكن كيلي من معرفة أنها مجرد تقليد من ورق المقوى لأسلحة عربية، صعد إلى أعلى السلم المؤدي إلى مدخل المفوضية وأعلن أنه إذا أراد المتظاهرون أي شيء منا، فإن عليهم العودة بمجاميع لا تزيد الواحدة منها عن ثلاثة أشخاص والمراجعة خلال أوقات الدوام من الساعة ٨,٣٠ ولغاية ١,٣٠ من صباح كل يوم من أيام الأسبوع، ومن الساعة ٣,٠٠ ولغاية ٦,٠٠ من عصر كل يوم أو قبل الظهيرة من كل يوم سبت. قال ذلك بحزم ولكن مع ابتسامة، ويبدو أن شيئاً في أسلوبه قد أقنع المتظاهرين بفعل ما أراده .

لم يستغرق الأمر طويلاً من وزيرنا الجديد ليدرك أن الموقف في سوريا يقتضي شيئاً أكبر من الدبلوماسية التقليدية، وقد أقنعته وكالة المخابرات المركزية المشكلةّ حديثاً، عن طريق وزارة الخارجية، أنني الرجل المناسب والذي يفيده لهذا العمل عندما التقينا للمرة الأولى. ومع ثناء رؤسائي في المخابرات المركزية عليَّ ، لم يزدد إلا قناعة بكوني الدبلوماسي السري الذي يحتاجه .

وقد عبر عن موافقته على رأيي بأنه يجب نقل ستيف ميد من بيروت ليكون خارج " فريقنا في العمل " . وما يجب ملاحظته أنني قد جندت مؤخراً عدداً من

العملاء ، استخدمت في ذلك نفس الأساليب التي ابتكرتها عندما كنت في هيئة تدريب وحدة الخدمات الاستراتيجية . حصلت بسهولة على قائمة بأسماء العاملين في وزارة الدفاع من خلال دفع سائقي لسرقة دفتر تليفونات الوزارة ، ثم بعد ذلك استخدمت محتال دمشق الذي جندته "كعميل بديل" بالبحث عن الأشخاص في القائمة ممن يحتاجون شيئاً أستطيع تقديمه لهم – كالمال مثلاً وربما تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة أو زمالة دراسية في جامعة أمريكية لأحد أقربائه الصغار، أو وكالة لمنتج أمريكي. وخلال وقت قياسي قصير، حددنا اثنين من كبار المسؤولين في وزارة الدفاع، وبعد ذلك استخدمتهما في سرقة وثائق من خزانات رؤسائهم. وبعدها حصلت على معلومات كافية تمكنني من تجنيد المسؤولين الكبار أنفسهم . في الآخر استبعدنا أحدهما لأنه أصبح طماعاً أكثر من اللازم. (وقد تابعته وتبين أنه عميل لدى صديقي في المخابرات السوفيتية ايغور فيدورنكو)، إلا أن العميل الآخر قد أدى لنا عملاً مفيداً، وظل صديقي المقرب لغاية هذا اليوم. وبعد سنوات من أول لقاء لنا في دمشق، سألته لماذا يقبل رجل ذو أخلاق رفيعة أن يقدم معلومات سرية إلى حكومة يعرف أنها تقف خلف عدوه اللدود، الاسرائيليين اجابني : أولاً أن المعلومات هي ليست سرية جدا ونحن السوريين نعرف من خلال تجربتنا الطويلة مع الأتراك والفرنسيين والبريطانيين أنه من الحكمة فصل القضايا العملية عن السياسية.

كان كيلي يرى أن هناك مخططين بديلين لسوريا وكلاهما غير مرغوب فيه. الأول هو احتمال أن يشغل الانتهازيون السياسيون بدعم سوفتي انتفاضة دموية ضد الرئيس القوتلي والثاني هو احتمال أن يستولي الجيش السوري بمساعدتنا (السرية) على الحكم ويحافظ على النظام لحين احداث ثورة سلمية.

الاحتمال الثاني سيخفض على الأقل من فرص سفك الدماء ويعطي العناصر المسؤولة في المجتمع فرصة مناسبة ضد العناصر التي يعتبر العنف قوتها الوحيدة.

وهكذا، كان ما تمخض عن تفكير كيلي هو انقلاب حسني الزعيم(*) في ٣٠ أيار ١٩٤٩ وبموجب التعليمات، أعطيت رؤساء محطات المخابرات المركزية في الخارج حرية العمل تحت إشراف مراكز قيادة بعيدة مع إبقاء الدبلوماسيين الأرفع منزلة منهم بعيدا عما يفعلونه بحيث إنهم يستطيعون التملص باي طريقة إنكار معقولة. وقد أعطي لي الضوء الأخضر، ولكن، ولكون كيلي هوليس الرجل الذي يتملص من المسؤولية، فإنه لم يقبل فكرة "الإنكار المعقول". وبدلا من ذلك، كان يؤمن بالتفويض- أو بالأحرى بمبدأ أن الرئيس يستطيع تفويض صلاحياته ولكن ليس مسؤوليته – لهذا ورغم أنه فوضني بالصلاحية الضرورية، إلا أنه لم يتملص من مسؤولية ما سأعمل به وفقها. وهكذا، وفي الأسابيع التالية حتى وأنا أعمل دون علمه، فإنه كان دائما يقف بيني وبين مراكز القيادة ليتحمل لومها عندما يعطي أحد الأعمال التي قمت بها عكس النتائج المرجوة، إلا أنه كان يمنحني الفضل كاملا عندما يحرز العمل النجاح. كان هذا هو جيم كيلي. لقد عملت مع العديد من الرؤساء، قبل أن أخوض العمل في أنحاء العالم بمفردي، وأستطيع القول الآن إن كيلي كان ينفخ في مرؤوسيه روح الإخلاص أكثر من أي رئيس آخر عملت معه أو عرفته أو سمعت عنه.

ومن الطبيعي أنني اعتمدت كثيرا على ستيف ميد الذي انتقل إلى دمشق بعد يوم أو يومين من طلب كيلي نقله. لقد نهج في عمله على أساس الفهم أن أسلوبي

(*) حسني الزعيم ١٨٨٩-١٩٤٩ سياسي وضابط سوري : رئيس سوريا في ١٩٤٩ ولد في حلب من أصل كردي. خدم في الجيش العثماني وفي القوات الخاصة التي شكلتها السلطات الفرنسية في سوريا كان مواليا لحكومة فيشي التي أسسها الألمان النازيون في فرنسا. اعتقله البريطانيون بعد احتلال سوريا في ١٩٤١ أطلق سراحة وعاد للجيش. كان رئيسا لأركان الجيش السوري خلال الحرب العربية الإسرائيلية في ١٩٤٨ في ١٩٤٩/٣/٣٠ قاد أول انقلاب عسكري في سوريا ضد الرئيس شكري القوتلي وحل البرلمان وجميع الأحزاب وأسس أول ديكتاتورية في سوريا. قام بعدة إصلاحات منها إعطاء النساء حق الانتخاب. أطيح به بانقلاب قاده سامي الحناوي وحكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم فورا.

في الإدارة على النقيض من أسلوب جيم كيلي: فعنـدما تسـير الأمـور بالاتجـاه الصحيح، اكون انا من ينال الفضل، وعندما تسير على غير ما يرام، يكون هو من يتلقى اللوم.

قلت له: عليك أن تنظر إلى الأمور بهذه الطريقة، فأنت لا لزوم لوجودك بينما لايستغنى عني . ضافة إلى ذلك أننا نعمل تحت نظـامين مختلفـين مـن الثـواب والعقاب. قال: على الأقل إنك شريف وإني أحبذ هذه الصفة في الإنسان.

كان عمله بسيطا: فهو يمكنه أن يستخدم موهبته لمداهنة العقيد حسني الـزعيم وهو كردي ضخم البنية كان آمرا للواء الثالث ومعروفا بارادته الحديديـة وذهنـه الوقاد. وبالطبع يمكنه تلمس طريقه بحذر لأن هناك احتمالاً بأن تنقلب ملاحظاتـه عليه وقد تسبب طرده من البلاد على أساس أنه مثير للمشاكل. إضافة لذلك لم تكن مهمة ستيف دفع الرجل للقيام بعمل بل لإبقاء خط اتصـال معـه لمعرفـة آرائـه وطموحاته .

في نفس الوقت ومن خلال عملائي في وزارة الدفاع، هيأت جميـع الأوامـر والتقارير الاستخبارية والمراسلات لتصور حسني بأن نسبة إخلاصـه لأنصـاره السياسيين أكثرمن ١٠٠٪ . قرر العملاء بأنفسهم اختيار الأدوات التي يستخدمونها حيث تطلب ذلك منهم فهما معمقا ودراية لا يستطع كل من تربى في ظـل ثقافـة أجنبية أن يفهمها وقد قاموا بعمل جبار ونجحوا في المهمة. جيء أولاً بحسني إلى دمشق ليكون رئيسا لجهاز الشرطة ثم عين فيما بعد رئيسا لأركان الجيش.

وهكذا حصل انقلاب الزعيم. ولما كنا نزود مراكز القيادة بالتفاصيل الدقيقـة للتطورات في مرحلة التخطيط، أصبح لدى موظفي المكاتب انطباع بأننا أنا وستيف العقل المدبر لهذا الأمر- وهو انطباع لم نجد سببا لإصلاحه طالما أنه يمنح معجبينا في الوطن السعادة، وطالما أن أيًا منا لم يكره أن يكسب تقدير رؤسائه في ملفاتنـا الخاصة. والآن وبعد أربعين عاما، أستطيع الاعتراف بأن مساهمتنا الحيوية الوحيدة هي الضمان الذي قدمناه لحسني، الذي كان حينها رئيسًا لأركان الجيش، إنه حالما

يستلم السلطة، فإن حكومتنا ستعلن الاعتراف به، يليه بعد أيام قليلة اعتراف قانوني. نعم أن ستيف قد تنقل في أنحاء المدينة مع حسني وهو يشير إليه بالأهداف التي ستتم السيطرة عليها : محطة الإذاعة، محطات توليد الطاقة الكهربائية، شركة الهواتف، وجميع السياسيين الذين يمكنهم جمع المقاومة، وقد تظاهر حسني بأدب بأنه لم يفكر بهم بعد. كذلك، أعطيته قائمة "بما يجب فعله وما لايجب" ضمن الإجراءات الأمنية، ويعود الفضل إلى العميل (٨) في وزارة الدفاع بأنني استطعت تقديم معلومات خاصة لها علاقة بالخطط بحيث لم يكن حسني يستطيع أن يحصل عليها من الوزارة دون إثارة الشكوك. إلا أنه لم يكن أي من هذه المعلومات أساسيًا لتحقيق النجاح.

وباستثناء معارضة أديب الشيشكلي(*) (الذي سأتحدث عنه أكثر لاحقًا)، فإنها تعتبر فرصة حسني المواتية.

ومن الجدير بالذكر، أن حسني قد قام بعملين فيما يخص الاستعدادات الأساسية للانقلاب، لهما طابع مثير من وجهة النظر الأمريكية . الأول هو عملية "تضليل" بدائية القصد منها كشف ضعف الإجراءات الأمنية للبلاد لحماية الدبلوماسيين

(*) أديب الشيشكلي: ١٩٠٩- ١٠٦٤ سياسي وضابط سوري، أصبح رئيسا لسوريا في ١٩٥٣-١٩٥٤. ولد في حماة وخدم في القوات الخاصة الفرنسية في سوريا. كان ضابطا كبيرا في جيش الإنقاذ الذي أسسه القوتلي لمحاربة العصابات الصهيونية بفلسطين. و عضوا في الحزب الوطني السوري الذي أسسه انطوان سعادة مؤيدا لحسني الزعيم إلا أن الاخير طرده من الجيش بعد أن شك بولائه. أعاده سامي الحناوي إلى الجيش. وفي ١٩٤٩/١٢/١٩ قاد انقلابا عسكريا أطاح بالحناوي . أبقى على برلمان الحناوي واكتفى بمنصب نائب رئيس الاركان ثم في ١٩٥١ قاد انقلابا ثانيا اصبح فيه ديكتاتورا حيث منع الأحزاب وعطل الصحف. عرف عنه تأييده للغرب وتأييد الغرب له. وفي ١٩٥٤ أطاحت بحكومته مظاهرات وأعمال شغب قادها الدروز في البداية ثم عمت البلاد. اضطر للاستقالة ومغادرة سوريا والعيش في لبنان والسعودية وفرنسا في ١٩٥٧ اتهم بالتآمر لقلب نظام الحكم في سوريا وحكم عليه غيابيا. في ١٩٦٠ هاجر للبرازيل واغتيل هناك عام ١٩٦٤ على يد أحد الدروز انتقاما لقصف جبل الدروز خلال فترة حكمه. (المترجم)

الأجانب. والثاني هو أسلوبه في إبعاد أي احتمال لتسرب المعلومات قبل أن يبــدأ الانقلاب بحيث لايستطيع أي كان ايقافه.

هل قلت إن هناك طابعا مثيرا من وجهة النظر الأمريكية؟ نعم، إلا أنه يســتند على القيام بهجوم علي شخصيا. لقد علمنا من احد مستخدمينا الذي كان يتجســس علينا لصالح وكالة الاستخبارات التابعة للرئيس القوتلي، بأن رئيس الوكالة، وهــو شخصية وسيمة محبوبة يدعى فخري بارودي كان يشك بأني أترأس قسم عمليــات المخابرات المركزية في المنطقة المشكل حديثا، وأنه يبحث عن دليل يستطيع تقديمه للرئيس. واعتقادا منا بأن فضول بارودي قد يقوده إلى القيام بعمل ما ضدي أو ضد المفوضية مما قد يكون أما محرجا لنا أو مميتا، قررنا أنا وكيلي وستيف فضــحه. اخبر ستيف حسني بقرارانا وقد سر لذلك. قال: "نعم يجــب أن تجعلــوا الوكيــل المزروع في مفوضيتكم يبلغ بارودي بأن كوبلاند يحتفظ في منزله بجميع الوثــائق التي تجرمه شخصيا، وبذلك يتم إغواؤه للقيام بغارة عليها. سوف نضــع شــرطة عسكرية على اهبة الاستعداد للقبض على المغيرين. بعد ذلك نستطيع أن نشير إلى الحادث بأنه دليل إضافي على أن الظروف غير آمنة للدبلوماسيين الأجانب. واترك الباقي علي.

لهذا جلسنا أنا وستيف لتدبير شكل من المكائد، ليكون إخراجًا حيًا وواقعيًا كما يجري في الأفلام السينمائية. وكان أحد إجراءات كيلي البطولية هو نقــل الملحــق الجوي من بيروت إلى دمشق، وبهذا لايكون بأيدينا فقط سلاح الطائرة (C47)، بل أيضا مدفع جوي رشاش بيد مقدم القوة الجوية جيم كيانيتي ونقيب مقدام آخر هــو ديك رول كمساعد طيار. أمضينا فترات الصباح للأسبوعين التاليين نضع الخطــط المحكمة وفترات بعد الظهيرة نتمرن على التصويب في الصحراء خارج دمشــق. ولسبب اجهله، احتفظ جيم كيانيتي بخزين كبير من الأسلحة في مكتبه وكنــا أنــا وستيف وجيم وديك نستقبل مرة أو مرتين في الأسبوع – وعلى مــرأى مــوظفي المفوضية– شاحنة محملة بالأسلحة الخفيفة مع مدفع أو مدفعي هاون.

ظل أحمد وكيل المخابرات السورية في مفوضيتنا يــزود العجــوز فخــري بارودي بالمعلومات المضللة التي ستوقعه في فخنا، في نفس الوقــت يبلغنــا أنــا وستيف إلى أي حد صدق فخري هذه المعلومات. وفي الآخر، حل اليوم العظــيم، فقد سأل فخري أحمد هل يستطيع أن يعرف متى يمكن أن أكون خــارج منزلــي وأجابه أحمد: "إن سكرتيري الخاص يعد الترتيبات لي ولزوجتي ولطفلي للسفر إلى بيروت في عطلة نهاية الأسبوع". قال فخري: "حسنا، إنه سيرسل فريقه في السبت القادم". وأضاف : "وستكون يا أحمد جزءًا من هذا الفريق".

لم يكن أحمد سعيدا بهذا الخبر وبدأ بالتملص إلا أن ستيف قد وعــده بمكافــأة كبيرة إذا واصل العمل المطلوب منه وبعقوبة كبيرة إذا لم يفعل. لهذا توجهنا نحــن الأربعة نحو منزلي وفي الصباح وأمام مرأى الجيران، صعدت لوراين وأطفــالي إلى سيارتي ومعهم أمتعة كافية لتشير إلى قيامنا برحلة نهاية الأسبوع.

امضينا يومي الجمعة والسبت داخل المنزل، نأكل الشطائر ونحتسي البراندي والجعة، مبتعدين عن الشبابيك ولانشعل الأضوية. كان الهاتف يــرن بــين فتــرة وأخرى، ولانرد عليه. وفي الظهيرة، لاحظنا رقيبا عبر الشارع الضيق ورقيبا آخر عند أسفل الحديقة الخلفية لمنزلي. وفي مساء يوم الجمعة، تقدم أحدهم نحو البــاب، ودق الجرس، وسلط مصباحًا من خلال الشباك، وبعد أن وجد أنــه لا أحــد فــي الداخل، غادر المكان. وبعد ذلك وفي بداية المساء حيث لايزال هناك بعض الناس في الشوارع يمكن للمغيرين الفارين الاختلاط بينهم بسهولة ولم يكونوا متــأخرين كثيرا بحيث يجلبون الشك، وعند هذا الوقت حلت اللحظة الحاسمة.

وأود أن أوضح أن المنزل قد تم إعداده بعناية، فقد وضعت مصابيح وهاجــة في القاعة الرئيسة ويمكن اشعالها في الوقت المناسب ومصائد مغفلين فيهــا غــاز مسيل للدموع يمكن أن تنفجر عند محاولة فتح المجر العلوي لمكتبي . كنا نســتلقي على الأرض مسلحين بأسلحة مختلفة رغم أن حسني قد أكد لنا بأنــه قــد تحقــق وعرف أنه سوف لن يكون هناك أكثر من ثلاثة مغيرين غير مسلحين. لهذا وبحدود

الساعة التاسعة مساء وعندما سمعنا جرس الباب وشاهدنا للمــرة الثانيــة ضــوء الصباح، أيقنا أننا سنتمتع بوقت جميل.

إلا أننا لم نتمتع، فأثناء انبطاحنا على الأرض سمعنا تحطم الشباك الأمامي ثم رأينا اربعة اشباح ضخمة تتقدم ببطء وهم يتحسسون طـريقهم بواسـطة ضــوء المصباح، اجتازوا خط رؤيتنا دون ضجيج، فلم يرونا أو يسمعوا أنفاسنا ثم دخلــوا الغرفة التي استخدمها كمكتب. كانوا على وشك إيجاد السبيل للبدء بفتح المجــرات عندها اتخذ ستيف قرارا مفاجئا بأن علينا أن نمسكهم قبل أن تنفجر عليهم أوعيــة الغاز المسيل للدموع. صرخ ستيف قائلا: "الأضوية؟" ثم صاح بالعربية : "اخرجوا بهدوء وأيديكم فوق رؤوسكم." ظهرت يد وفيها مسدس بمستوى الأرض. وأخــذت تطلق النار. رد ستيف على النار مصيبا تلك اليد (كما علمنا ذلك لاحقا)، بعد ذلــك ظهرت أياد كثيرة، جميعها أخذت تطلق النار، بعضها كان يطلق باتجاه الاضــوية وبعضها الآخر باتجاهنا.

والذي زاد الطين بلة هو أن بضعة من رجال الشرطة أخذوا يطلقون النار من الشارع على البابين الخلفيين الذين يمكن أن نهرب من خلالهما.

في هذه النقطة أود أن أسجل ملاحظة عن جبن النقيب ريتشارد أي رول مــن سلاح الجو األمريكي. أصدرت أمرا مباشرا إليه للتوجه نحو الباب الخلفي ومعالجة رجال الشرطة. هل تعلمون ما قال لي لقد قال : "تبا لك يا سافل، اذهب أنت بنفسك إلى هناك يا راعي البقر، سوف لن أدع مؤخرتي تتلقى الرصاص من أجل إحــدى ألاعيب المخابرات المركزية".

حصل هناك أمــر مضحك عندما رن جرس الهاتف، حيث اتضح أن الطالب هو ارك دريك من شركة النفط الإنكليزية- الإيرانية (الــذي أصــبح فيمــا بعــد السيرارك دريك رئيس شركة النفط البريطانية). أجابه كيانيتي بأننا مشغولون الآن ثم أخذ ينقل إليه التفصيل الدقيق لما كان يحدث. كان يقول له: "أجل، إنهم يطلقــون

النار علينا الآن، والرصاص يتطاير في كل اتجاه، ايه، من اللطيف التحدث معك، ولكني أرى أنه من الأفضل إنهاء المكالمة. أعتقد أنهم يطلقون النار علي شخصيًا".

وقد كانوا كذلك بالفعل فقد أخطأت رصاصة رأس جيم بقليل وأصابت مصباحا وأسقطته إلا أنه بعد فترة قصيرة، خمد الرمي داخل المنزل، بينما تواصل سريعا خارجه (حيث لم يطع الجبان ديك رول أوامري المباشرة بمعالجة هذه النيران)، وجاءت هذه الضجة داخل المنزل من إطلاقنا وإطلاق أحد المغيرين الذي كان يسعى لإبقائنا مسمرين على الأرض بينما كان رفاقه يندفعون بصعوبة عبر القضبان الحديدية لشباك مكتبي، وكان هناك رجال شرطة يساعدونهم من الخارج .

استمرت العملية اثنتين وعشرين دقيقة حسب توقيت ساعة ستيف وذلك منذ أن سمعنا صوت الفرقعة الأولى على الباب الأمامي وحتى آخر رصاصة. كل من خاض مباريات ملاكمة احترافية، يدرك كم طويلة جولة الثلاث دقائق، إنها تبدو أبدية. حسنا، يمكنني أن أصف لكم ما طول فترة اثنتين وعشرين دقيقة، إنها كاثنتين وعشرين ساعة.

على أية حال، انتهى كل شيء في الآخر. فرّ المغيرون (في سيارات الشرطة دون شك) وبدأ الزعيم يحقق غايته. وبعد أن تركني أتحدث مع أصدقائي في المفوضية الذين بدأوا بالتجمع وهم دين وأنجيلا وهنتن والكس وبك دافيت وغيرهم، انطلق ستيف لملاقاة حسني الذي وجده مغمورًا بشعور من السعادة كما هو ستيف. كان حسني يضحك ولكن عندما قال له ستيف: "إنني أراهن أنك قد دهشت لرؤيتي"، وفي الحال فهم القصد، وأبدى مشاعر الأسف.

قال: "كلا يا ستيف، إنني لا أزال بحاجة إليك، سوريا بحاجة إليك، العالم بأجمعه بحاجة إليك، لقد بدأ عملنا توًا. ثم تمتم ببعض العبارات التي مفادها أنه إذا كان هذا الحدث الصغير حسنا فإن الحدث الأكبر أي (مقتل ستيف) سيكون أفضل، ثم غادر ستيف دون أن ينبس بكلمة أخرى.

مرت الأسابيع التالية سريعًا. كان علي أن ارسل بعض التوضيحات، إلا أنـه طالما انني كنت أطلع رؤسائي يوميا على مجريات الأمور، لم أكن بحق في ورطة. إضافة إلى ذلك، لم يدخر كيلي وسعا في إلقاء المسؤولية على نفسه، جاعلا وزارة الخارجية على اطلاع بأنه قد صادق على العملية منذ البداية وأنه لايـزال موافقـا عليها، وإذا كان للوزارة وجهة نظر مختلفة حول الموضوع، فإن الاختلاف معه هو ليس مع أي "فرد آخر من مجموعتي"

ولحسن الحظ، كانت التقارير الصحفية مشوشة وغير دقيقـة بحيـث كانـت المخابرات المركزية ووزارة الخارجية مستعدتين لتصديق أي توضيح نزودهما به (لقد كتبت جميع الصحف من الساحل إلى الساحل عن الحدث وكتبت إحداها التـي تصدر في مسقط رأسي في برمنغهام بالألباما في الصفحة الأولى عنوانا يقول: "أحد مواطنينا يقاتل عصابة مسلحة". لم تقل برقية نيك الأولى شيئا سـوى "نتمنـى أن تكون أنت وبديلك بامان" إلا أنه بعد أسبوع تلتها برقية أخرى أكثر واقعيـة تقـول " نعتقد أنكم تعدون تقريراً مفصلا عن كيفية وقوع الغارة على منزلكم، ومهما يكن الذي يعقب ذلك فإنه سيؤثرعلى مواقف الحكومتين الأمريكية والسوفيتية في سوريا وباقي بلدان الشرق الاوسط" .

في نفس الوقت، قدم لنا حسني مكافأة فقد أعلن بأن الهجوم على منزلـي هـو إشارة لما يمكن أن يحدث لجميع الدبلوماسيين الأجانب إذا لم يكن هناك أي تحسـن أمني في دمشق. وقد دعم تحذيره بإصدار تقرير سري من مصدر موثوق (ليس من ستيف أو مني) سمّى فيه اثنى عشر شخصية مهمة في "قائمة المسـتهدفين" التـي ادعى مرات عديدة انها تمثل هدف الحزب الشيوعي أو الجماعة الدينية المتعصـبة المناوئة للشيوعيين المسماة الإخوان المسلمين. ثم بعد ذلك دعـا أمـراء الألويـة للاجتماع لمناقشة الوضع الأمني العام، واقتراح السبل والوسائل لتقديم اقصى الدعم لحكومة الرئيس القوتلي، وبذلك "تنتفي الحاجة لإزالة هذه الحكومة بالكامل". وفـي الآخر، كشف عدة حالات من الفساد الحكومي التي عرفها خلال الفترة التي كـان

فيها قائدا للشرطة، وبذل جهدا خاصا لضمان معرفة جميع الرتب وعناصر الجيش السوري بهذه الحالات، وبذلك يزيد التذمر الذي كان متفشيا في حينه. الفقرة الوحيدة من المعلومات التي حصل عليها من ستيف أو مني التي ساعدته في هذا الجانب من استعداداته، هي تقرير صادق سلمناه إليه من محطة المخـابرات المركزيـة فـي سويسرا ورد فيه أن أحمد الشراباتي وزير الدفاع يدخر ملايين الدولارات نتيجـة مشتريات الأسلحة بأسعار مبالغ فيها.

كنا واثقين بدرجة معقولة بأن حسني لم يطرح بشكل صريح إمكانية إحـداث انقلاب على أي من أمراء الألوية، رغم دخولهم في مخططاته دون علم منهم. وقد ألمح مرة، كما قال لي صديقي المخلص أديب الشيشكلي فيما بعد، إلى هذه الإمكانية وأمراء الألوية الأربعة هم: أديب الشيشكلي (شركسي) ومحمد ناصـر (علـوي)، وبهيج كلاس (مسيحي) وشوكت شقير (لبناني درزي). ومن المصادفة أنه يعتبـر ابن العم الثاني لزوجة أركي الحالية السـفيرة سـلوى روزفلـت، وهـي إحـدى الشخصيات التي أهديت لها هذا الكتاب. لم يكن أي من هؤلاء ممن يدعوهم اركي بالعرب (الأقحاح) لديه الرغبة في خوض معركة مع الجيش الإسرائيلي المرعـب المشكل حديثاً.

وهنا أود أن أقول كلمة بخصوص أديب. كان حسني الزعيم صـديق سـتيف وليس صديقي بينما كان صديقي هو أديب الشيشكلي.

وهو على حد معرفتي الأكيدة أنه لم يكن أبداً أسير الصورة السيئة المـأخوذة عنه فقد ارتكب انتهاكات للمقدسات ومارس الكذب والقتل والزنا والسـرقة ووجـه زورا العديد من الاتهامات الباطلة (رغم أنها في الغالب لدعم قضية عادلـة)، وأن القول بأنه كان مجرد طامع بأملاك غيره، يعتبر استخداما مبتسراً للحقيقة . كما أنه، إضافة إلى الخطايا المعروفة، كان يدخن الأركيلة بين الفينة والأخرى ويميل إلـى الشراب بأكثر مما يحتمل، وخلال الفترات العديدة من سجنه كان يمارس اللواطـة، كما قلت ذلك في أحد التقارير التي رفعتها إلى مركز قيادتي. فبعـد متابعـة نيـك

نيكلسون باهتمام كبير لصداقتي المتنامية مع هذه الشخصية الرئيسة في الثورة السورية الوشيكة، أثارت الفقرة الأخيرة اهتمامه وأبرق لي أنه إذا كان لدي "دليل دامغ" عنها، فربما علي الاحتفاظ به لاستخدامه مستقبلا كوسيلة ابتزاز في الحالات الطارئة. لا أتذكر بالضبط جوابي إليه، إلا أنه لاشك يتفق إلى حد كبير مع ملاحظة وودي الن بعد أكثر من ثلاثين عاما: "أن كونك مثليا يضاعف فرصك في الحصول على لقاء ليلة السبت". وعلى أية حال، ربما يضحك أديب كثيرا من هذه الفكرة.

ومن الجانب الإيجابي، علي أن أقول إنني عرفت أديب كريمًا إلى حد بعيد بحيث أنه ظل مخلصا لأصدقائه (بمن فيهم ستيف وأنا) ولم يكن مخادعا في القضايا المالية. وفي صباح يوم السبت ٢٧ شباط ١٩٤٩، وبينما كان ابني الثاني على وشك الولادة، لازمت زوجتي الفراش بسبب نوبة صرع من النوع الذي يصيب الحوامل اللواتي لم يتلقين عناية قبل الولادة. وبعد فشلي في الحصول على أي مساعدة بعد إجرائي نداءات الطوارئ الاعتيادية، استطعت مكالمة أديب الذي حضر بعد دقائق ثملا بعد قضائه ليلة في شرب الخمر، وضعت زوجتي في المقعد الخلفي لسيارته ونقلناها إلى المستشفى. بعد ذلك جلس معي حتى صحا من سكره وولد ابني واجتازت الأم حالة الخطر. ولأغراض التوثيق في سوريا، سجلت الاسم الأوسط لابني الصغير باسم أديب، وهكذا نشأ إيان كوبلاند الموسيقي الشهير في نيويورك، والوحيد من ذريتي الذي ظل يتحدث العربية، وظل يدعى أديب بين أصدقائه المشاكسين في أوساط بيروت الشعبية.

ظل الشيشكلي لعدة شهور قبل ولادة ايان ولحين حصول انقلاب الزعيم، يبلغني عن شكوكه بأن صديق ستيف "حسني الزعيم" يحمل أفكارًا أعظم شأنا من مجرد تنفيذ تمرد عسكري. وقد أدرك ستيف (الذي قابل أديب بشكل معمق عدة مرات) سريعا بأنه رغم افتقاره لحضور الزعيم وأنه ليس الرجل الذي يقبل به الرأي العام كبديل لشكري القوتلي، إلا أنه أذكى من الزعيم بعشر مرات وأنه واثق من أنه سيعالج موضوع الزعيم حالما تتشكل الحكومة الجديدة. كان ستيف على

حق. فمنذ اللحظة التي استلم فيها الزعيم السلطة، أخذ انقلابه يصبح تدريجيا انقلاب الشيشكلى، حتى قاد بنفسه بشيء من الممانعة، انقلابا في تشرين الثاني ١٩٥١.

دام حكمه ثلاث سنوات فقط، وعندما أطيح بحكومته، فر إلى بيروت ثم إلى العربية السعودية ومن بعدها إلى باريس في طريقه إلى البرازيل. لقد جاء إصراري بأنه "تزيه من الناحية المالية"، من حقيقة أنه لم يحصل إلا على عدة آلاف من السعوديين عندما توقف عندهم، وكان يسكن فندقا من طراز (غرفة مع وجبة إفطار) في منطقة الضفة اليسرى عندما زرته في باريس. وقد رفض إعانة مني، إلا أنني قد دفعت دون علمه فاتورة الفندق لشهر واحد والتي بلغت أكثر من خمسمائة دولار.

وعودة إلى بعض الفقرات السابقة قبل أن أدخل في الذكريات الجميلة لأديب الشيشكلي، قلت إن الزعيم قد قام بعملين واسعي الخيال ساهما في تهيئة الوضع قبل حصول الانقلاب الفعلي. الأول هو برنامج التضليل الذي برر فيه حصول الانقلاب. والثاني هو ضمان الجانب الأمني لحين نقطة اللاعودة، حيث لايستطع أي فرد منع حصول الانقلاب.

وسأوضح ما فعل. ففي وقت متأخر من المساء الذي سبق الانقلاب، استدعى اثنين من العرفاء يعملان كسكرتارية (أحدهما هو الوكيل الذي يعمل عندي)، إلى الطابق العلوي من وزارة الدفاع، وجعلهما يطيعان أوامر من نوع:

"أيها الجنود أيها المواطنون: لقد حانت لحظة حاسمة من تاريخ أمتنا العظيمة فقد بدأ عصر جديد، وانتهى الفساد. وسقطت صنائع الامبريالية والشيوعية. [أضيفت عبارة والشيوعية كنوع من الترضية لستيف دون علمه] ولأول مرة منذ قرون، أصبحنا نحن السوريين، شعبًا حرًا."

وهكذا تواصل الخطاب . لم يكن قطعة أدبية بمستوى خطاب لنكولن في غتسبيرغ، إلا أنه يؤدي الغرض خاصة بعد أن عزز فيما بعد ببيان عبر راديو

دمشق يعلن فيه حسني رسميا حدوث الانقلاب، مضيفا فيه أن الحكومة العسـكرية هي حكومة مؤقتة وأنها ستحل حالما تجري "الانتخابات الحرة النزيهـة" واسـتمر الخطاب ليعطي أوامر دقيقة، بأن على هذه الوحدة أن تفعل كذا، وتلك الوحـدة أن تفعل كذا، وهكذا. تم وضع هذه الأوامر في مغلفات مختومة ليتم تسليمها إلى أمراء الألوية الأربعة ولا تفتح إلا عند منتصف الليل. طبع العريفـان، هـذه البرقيـات، وسلماها إلى حسني، الذي قام بختمها ، ثم قاد العريفان إلى حجرة صغيرة مهيـأة سلفا في نفس الطابق واحتجزهما لما تبقى من الليل وظلا منسيين هناك، حتى قـام أحدهما وهو وكيلي بكسر باب الغرفة في فترة بعد الظهر ليجد الوزارة خالية مـن أي شخص ويسمع صوت الاحتفالات في الشوارع، ثم اتصل بي هاتفيا ليعرف مـا فاته وما عجز عن إبلاغه لي.

وفي الوقت نفسه، وقبل منتصف الليل، استلم الأمراء الأربعة الأوامر الموجهة اليهم ، وبعـد أن لم يروا أي سـبب لفتحها كون الوقت متأخرًا جدًا على فعل أي شيء ، انتظروا بصبر بعد ذلك فتحوها ورأوا ما تحتويه من أوامر دقيقة. ولأنـه لاتوجد أمامهم أي فرصة لاستشارة أحدهم الآخر، قام كل واحد منهم بتنفيذ الأوامر المكلف بها. فبعضهم كان عليه القبض على الرئيس وآخرون القبض على رئـيس الوزراء، وآخرون عليهم الاستيلاء على محطات الكهرباء والإذاعة، وهكذا.

كانت خطط حسني ، وهي نموذج ظـل يـدرس فـي صـفوف التـدريب بالمخابرات المركزية للعقدين التاليين، مضبوطة كعمل السـاعة. ففـي الصـباح، استيقظت دمشق على أصوات النشيد الوطني السوري عبر الإذاعة تـلاه تسـجيل صوتي لحسني الزعيم يعلن بأنه قد استولى على البلاد، وأنه سيدير الحكومة لحين إجراء "انتخابات حرة ونزيهة" وهلم جرا. على وفق هذا، أرسـلت برقياتنـا إلـى واشنطن .

وخلال الأشهر المتبقية من عملي في دمشق أمضيت معظـم الوقـت أفكـر بالاستنتاجات البدائية إلى حد ما التي استخلصتها من تجربة الزعيم، وفي هذا العمل

الشامل من "التدخل في الشؤون الداخلية للدول ذات السيادة". ونتيجة تطلعي نحو تعييني القادم في واشنطن، كتبت عدة تقارير عن الموضوع، أحدها إلى وزارة الخارجية، وقد ركز على نقطتين : الأولى ، لايمكننا نحن كأجانب أن نفعل شيئا لمساعدة بلد كسوريا ليصبح عضوا ذا مكانة محترمة في أسرتنا "أسرة الدول الحرة" كما أصبحنا نسمي العالم الغربي فيما بعد، إلا إذا استند الأمر إلى فهم أساسي للاضطراب السياسي المزمن الذي يمكن أن يواجهه حسني الزعيم، أو أي قائد آخر ممكن للبلاد ، سواء أكان ديكتاتورا عسكريا أم رئيسا منتخبا.. وقد شرح التقرير تاريخ سوريا الطويل من لامبالاة الجماهير ثم بروز التحالف بين ضباط الجيش الشباب "والطليعة الراديكالية من الطبقة الوسطى الجديدة" التي كان الضباط السياسيون في المفوضية يسعون بشكل دائم لكسب صداقتها، وكيف أن إحباطاتهم الشخصية وآلامهم الاجتماعية كفيلة بتدمير أي محاولة لإقامة حكومة مستقرة في الوقت نفسه لايستطيعون توفير بدائل قابلة للتطبيق. ونتيجة مواجهتنا لكل هذه الضغوطات، تشعر أي حكومة قادمة بأنها مضطرة لإطلاق بعضو الوعود التي لاتستطيع تنفيذها. بعد ذلك يمكن أن تسلك سلوك الزعيم، وقائد يعقب آخر بنفس طريقة كهنة نمي في رواية فراسر "الغصن الذهبي". (كنا نتحدث بصورة خيالية في تلك الأيام). وفي الآخر، يمكن أن ينتهي الأمر بوصول زعيم ديماغوجي(*) ماهر في استغلال استياء الجماهير لمصلحته وذلك بإعطائهم آمالا عريضة وبعد ذلك يلقي اللوم في فشله على قوة خارجية جديرة بالتصديق ظاهريا، "كالرأسمالية والامبريالية" والولايات المتحدة المؤيدة لإسرائيل.

تبين أن النقطة الثانية ذات أهمية أكبر. وهي أننا بحاجة إلى فهم أفضل لما يمكن أن يفعله الشعب السوري أو شعوب العالم غير الغربية إزاء إحباطاتها والتوترات التي تواجهها. فمع خلفياتها الثقافية المتميزة والنماذج التحريضية التي

(*) الديماغوجي: هو الزعيم السياسي الذي يسعى للحصول على التأييد الشعبي من خلال الخطابات التي تستند على الإثارة واستغلال استياء الجماهير . (المترجم)

تبرز منها، فإنهم إذا ما أنحوا علينا باللوم لمشاكلهم، فإن شكل معـــاداتهم لأمريكـــا يختلف عن شكل، ولنقل «معاداة الأوربيين لأمريكا. فإذا ما كانوا جميعا كالأوربيين، فإنه من السهل نسبيا التنبؤ بسلوكهم- بل وحتى معالجته. وقد قلت: "إذا ما نقلنا كل السويسريين إلى سوريا وكل السوريين إلى سويسرا، فسيكون لدينا شكل مختلف من المشاكل على صعيد العلاقات الدولية". بالطبع سيكون هنـــاك نـــزاع بخصـــوص إسرائيل، إلا أننا من الممكن حله بطريقة عقلانية بدلا من الطريقة العاطفية المدمرة للذات.

يتضح الاختلاف الجذري في العادات وطرق التفكير والنظم القيمية وطـــرق ربط الأفعال بالأفكار لدى السوريين عنها مما لدينا في عدة أمثلة وجـــدناها داخـــل المفوضية. أحدها برز من خلال مقترح قدمه بوب اودن، ملحقنا الثقافي وذلك بأن يتبادل الرئيس ترومان وحسني الزعيم الصور. إنها فكرة عظيمة. وقـــد اســـتجاب حسني بحماس عليها عندما طرحها ستيف وفورا سلم ستيف صورة لنفســـه ببـــزة عسكرية وفيها نياشين وعليها توقيعه واقتباس مـــن القـــرآن، وبالمثـــل اســـتجابت واشنطن بحماس، وارسل موظف العلاقات العامة في البيت الأبيض صورة للرئيس ترومان في قميص رياضي وهو في المطبخ بمنزله يساعد زوجته بيس في غســـل الصحون.

لم نستطع مقاومة إغراء إرسال صورة حسني إلى واشنطن (على أية حال، لم يكن ستيف يمتلك الشجاعة ليوضح لحسني لماذا هذه الصورة هي ليســـت الشـــيء الذي كنا نتصوره) وقد أعطى كيلي لحسني صورة للرئيس ترومان كانت معلقة في مكتب الأول. وبمساعدة سكرتيرتي روز ، وموظفة الرسائل والأختام التابعة لمحطة المخابرات المركزية، رفعنا إهداء الرئيس الشخصي الموجه إلى كيلي واســـتبدلناه باقتباس من العهد القديم ترجمة يوسف دبوس إلى العربية. لم تقابل سعادة وعرفان حسني بمثيلها لدى رؤسائنا المنتخبين في واشنطن . فقد ألقوا نظرة واحـــدة علـــى صـــورة حسني واستنتجوا في الحال أن أســـوأ مخاوفهم قد تحققت ، فقـــد نصـــبنا

ديكتاتورًا عسكريًا فاشيًا رئيسًا لسوريا. لم نجبهم بالقول إنه لو كنا قد أعطينا حسني صورة رئيسنا التي أرسلها لنا البيت الأبيض، لاستنتج وضابطه بأن معتوهًا يحكم الولايات المتحدة.

بعد ذلك، هناك داود، مدرس اللغة في المفوضية، وأجوبته على الأسئلة التي قدمتها له. يعتبر داود أحد أفراد طبقة ذوي الياقات البيضاء الصغيرة في سوريا والتي تجادل في الأمور السياسية (كما كنا نفعل في درس اللغة العربية)، وقد كان يعترف بأنه أحد أتباع ميشيل عفلق زعيم حزب البعث. كذلك كان يتمتع بفهم أكبر لما يدور في العالم من أي خريج جامعة أمريكية عادية، سألته عن المشاكل التي تواجه حسني الزعيم، وماذا يعتقد عن كيف يمكن لنظام الزعيم أن يتغلب عليها. كانت أجوبته عميقة التفكير وانتقادية بارعة. إلا انني سألته ماذا سيفعل الزعيم إزاء هذه المشاكل لو كان في وضع يسمح له بتقديم المشورة إليه، وكانت أجوبته خيالية. لاتوجد إلا في قصص السندباد البحري.

منذ مجيء الزعيم وحتى مغادرتي دمشق في منتصف عام ١٩٥٠، كنا سنكون عاطلين، لو لم نعد إلى ما أسماه شيرمان كنت رئيس وحدة التقديرات الوطنية في المخابرات المركزية "بالمخابرات المبدعة". يقال إن عقل العاطل هو ورشة الشيطان. كنا نظن أن "عملا مخابراتيا مبدعا" هو أمر جدير بالاهمية طالماً لايسبب هذا العمل أي ضرر عرضي. والواقع أنني عندما بدأت أبتدع التقارير لسلك الملحقيات، لم يكن لدي أي غرض سوى الاستئناس البسيط، فأطلق العنان لعواطفي في السخرية المرة واستدرار العطف. إلا أنه وبعد مضي الوقت أصبح هذا النشاط غير الضار يشكل أسلوبا مثاليا لإبلاغ الحكومة بما يجب أن تسمعه من اجل منعها من فعل أي شيء يتسم بالحماقة، بينما تحتوي تقاريري الدورية المرسلة إلى المخابرات المركزية صورة تقريبية عن الحقيقة.

حدث كل هذا مع إصدار وزارة الدفاع البنتاغون تقريرا أسبوعيا يعرف باسم (ويكا weeka) وهو عبارة عن إيجاز للأحداث عن المنطقة تعده لجنة تعقد

اجتماعاتها صباح كل جمعة ومشكلة "داخل مؤسستنا الدبلوماسـية"، مـن الملحـق العسكري والملحق الجوي والضابط السياسـي فـي المفوضـية ومـدير محطـة المخابرات المركزية والوزير جيم كيلي. ومن الطبيعي أنني أدخـر ملاحظـاتي الساخنة إلى القنوات التي أتراسل معها، إلا أننـي أسـتخدم التقريـر الأسـبوعي الـ(ويكا) كوسيلة لمكافأة صديقنا الحميم الملحق الجـوي جـيم كيـانيتي، وذلـك لاستخدامنا المتكرر لطائرته الفخمة. ولكونه حاصلا على شـهادة الـدكتوراه فـي الفيزياء النووية ويتمتع بذهنية مركبة، فإنه متمكن من اللغة الإنكليزية الأكاديميـة منها بالدرجة الأولى، إلا أنها غير ملائمة لأساليب المراسلات الحكومية. فمسوداته الأولى بحاجة ماسة ليد أخرى تساعده في التحرير. كنت مسرورا لأن أكون كاتب ظل له، طالما أنني أرى في كتابة التقارير لمراكز قيادته وليس لمراكـز قيـادتي، فرصة فريدة لإطلاق عنان خيالي الجامح عند محاولتي إيجاد السبل لردم الفجـوة الشفافية .

لقد ابتدعت كلاما رائعا، وكان جيم يقدر هذا كثيـرا. وبالنتيجـة، اسـتخدمت الطائرة أكثر حتى من كيلي، وكان بإمكان أعضاء المفوضية الآخرين الذين وقفـوا على الجانب الايمن مني ومن جيم الانضمام الينا في رحلاتنا نهاية الأسبوع إلـى طهران وكينيا وفيينا أو أي مكان آخر نقرر الذهاب إليه في لحظتها. وإذا كان على جيم أن يقبض أجورا لطيرانه، فعليه أن يبقي طائرته محلقة في الجو ساعات عديدة شهريا، واكتشف أنه بدلا من الدوران محلقا فوق دمشق، فيمكن أيضا أن يستفيد من هذا الوقت بطريقة ينال فيها رضا المفوضية عنه وعن قسمه. فقد كان كل خمـيس يقف عند باب مكتبي ويبتسم كتلميذ يتوقع عطلة وشيكة لنهاية الأسـبوع ويسـأل : "هل لديك أية مقترحات بخصوص الطائرة **R&R** ؟

نعم، كنا نستخدم الطائرة أحيانا في أغراض طائشة بشكل لايمكن تبريره. على سبيل المثال، إلقاء داود من الطائرة بالمظلة، وداود هو مدرس اللغة في المفوضية جنده الملحق العسكري كعميل، حيث تم إلقاؤه في وسط الصحراء السـورية فـي

منتصف الليل بعد إقناعه بوجود معلومات مهمة للملحقية العسكرية هناك. (وعندما اعترض مفتش القوة الجوية القادم من واشنطن على هذه المهمة قائلا إنها ليست "غير مرخص" بها فقط، بل إن جيم قد حلق بالطائرة وهو تحت تأثير الكحول، أجابه جيم:" انظر يا ولد، لقد حلقت بالطائرة وأنا سكران ساعات أكثر مما حلقت وأنت صاح). وعلى العموم كان التعاون بين الملحقية الجوية ومحطة المخابرات المركزية مثمرا لكلا الجانبين. وعندما عدت إلى واشنطن، علمت أن التقارير التي أكتبها لجيم قد اعتبرت أفضل من حيث النوعية من المواد التي كان يكتبها باقي أعضاء لجنة التقرير الأسبوعي (الويكا)، وقد حاز جيم على ثناء مراكز قيادته.

إلا أن تجنيد الملحقية العسكرية لداود "كعميل" قد فتح بابًا جديدًا من الاحتمالات. فبعد أن ألقينا المسكين بالمظلة في الصحراء السورية، استغرق الأمر منه، أسبوعا كاملا للعثور على طريق العودة إلى دمشق. في هذا الوقت اتضح له أن خدمة سيدين، أحدهما أنا، هي غلطة فادحة. لهذا وبعد أن عاد صباح يوم الاثنين، دخل مكتبي والدموع في عينيه وهو يقص لي كامل الحكاية كيف أن "العقيد ماثيسون" (كما سأسميه)، قد أبلغه بأنه سيفقد عمله التدريسي إذا لم يقدم الخدمة الإضافية دون أجر إضافي. فقد كان ينشج قائلا:" إنه يريدني أنا أتجسس لصالحه" وأضاف أنه لايتمتع باية قدرات تؤهله لأداء وظيفة التجسس، إضافة إلى ذلك أنه ليست لديه المصادر التي يمكن أن يحصل منها على المعلومات التي يبدو أن العقيد يريدها. وما هو اسوأ من ذلك ، فإنه كان يخشى إذا ما أصبح فضوليا أكثر مما ينبغي بين معارفه في الجيش فإن أجهزة الأمن السورية ستعتقله فورًا . إن رجال الأمن المرعبين ، يتعاملون دائما بقسوة مع المسيحيين أمثال داود، فيضربونهم الفلقة حتى يعترفوا بما يتهمون به، (فقد كانوا يجأرون: أتريد الحصول على معلومات عسكرية لذلك العقيد الأبله في ملحقيتك؟ هراء، لاشك أنك تتجسس لصالح ذلك الخواجة من المخابرات المركزية لتزوده بالمعلومات التي سيرسلها إلى أصدقائه في إسرائيل؟"

تمسك داود بالقشة التي عرضناها عليه وهي أن المعلومات المطلـوب منـه العثور عليها في الصحراء محض عمل متهور. وقلت له: "أبلغ العقيد أنك لاتستطيع أن تقوم بأي عمل تجسسي محترف لصالحه، إذا لم يكن لـديك مخبـرون داخـل الحكومة وأجور مثل هؤلاء باهضة. لهذا فإنك تحتاج إلى حساب مصروفات". وعند ذكر حساب المصروفات، التمعت عينا داود، وعندما أوضحت ما أخذ يفكر فيه توًا، بأنه ليس لديه أي مصادر ثانوية للمعلومات، وأنه يسـتطيع أن يحـتفظ بحسـاب المصروفات لنفسه، كان مبتهجا بنشوة. أخبرته أنني سأوفر "جواسيس" بما يكفـي لمساعدته في تزويد هذا السافل بمعلومات أفضل وأكثر مما توقعه.

لقد وجدت أن معرفة كل شيء تشكل عبئا ثقيلا. إلا أنني سرعان ما عرفت أن أكثر موظفي المفوضية يتحدثون عن الموضوع إلى حـد أن التقريـر الاسـبوعي (الويكا) أصبح شيئا كالمزحة، وعندما اختلى بي ايغـور فيـدورنكو فـي حفلـة دبلوماسية وسالني: "ماهذا الويكا؟ هل هو شيء عائد لك؟" عرضت عليـه بجديـة مقايضته بالتقرير الأسبوعي الذي ترسله السفارة السوفيتية إلى موسكو. وعلى أيـة حال كان (الويكا) طيلة الفترة المتبقية من عملي في دمشق يشكل تسـلية سـاعدتنا جميعا في إراحة اذهاننا من القضايا الجدية التي كانت تكتبها أقسام المفوضية .

كانت سكرتيرتي روز، وهي بارعة في اختلاق المواقف الجاسوسية الخيالية، بحيث إني كنت أشك في انها تكتب روايات بوليسية عن المكر، تقوم بتأجير وطرد وتحييد المصادر الكاذبة بطريقة تبرر حساب مصاريف داود، وتجعله يبـدو بأنـه يقوم بعمل عظيم من التجسس البارع. وكانت التقارير الفعلية المكتوبة في الأصـل بلغة إنكليزية رصينة، إلا انها مترجمة باسلوب داود الركيك، هي جهد مشترك لنـا جميعا، باستثناء دي هنتن، كما أتذكر، الذي كانت لديه أسباب عجيبـة فـي عـدم الاشتراك بهذا المزاح. كان الوحيد الذي لا يبتسم، وقد يقطع بين فتـرة وأخـرى المناقشة حول مسودة (الويكا) ليقول: "أخشى أن لمصادري (انظر الجمـع) قـراءة مختلفة للموضوع". ودون الحاجة إلى القول أنه تجري عادة معالجـة التناقضـات الموجودة بين تقارير المفوضية الدورية وإسهامات "مصادر" العقيد.

وبالرغم من الموقف المتعالي لموظفي وزارة الخارجية إزاء أي شيء يصدر من الدفاع، فقد كانت الخارجية تستقبل تقريرنا بلهفة كما هي وزارة الدفاع، وكانت المخابرات المركزية تقتبس مقتطفات منه لتضعها في تقاريرها إلى البيت الأبيض أكثر مما تقتبس من تقاريري المرسلة إليها. كان تقريرنا (الويكا) موجزا ومباشرا، مع ذلك كان مليئا بالمصطلحات الطنانة التي تعجب أشباه المتعلمين من جميع الوزارات مثل : (ميثودولوجي) عن مفردة (منهج) و(سوسيتال) عن مفردة (اجتماعي) و(يتكهن) عن مفردة (يتوقع) و(تخوم) عن (حدود). والكثير من الحشو الذي يلبي رغبات البيروقراطيين المتحجرين. إذا كان أي منكم أيها القراء يكتب أطروحة دكتوراه عن سوريا ما بعد الحرب العالمية الثانية، فأنصحكم بممارسة حقوقكم في الوصول إلى المعلومات لتدقيق التقارير الأسبوعية (الويكا) القادمة من دمشق خلال الفترة بين ١٩٤٧ و١٩٥٠. إذ ستجدون فيها بيانا بالأحداث الماضية يمكنكم الاستفادة منه. فهو يتلاءم مع المعرفة التقليدية السائدة حاليا ومع ما أسماه لينين (الأسطورة الشعبية)، بينما يتطلب الأمر عالما انثروبولوجيا ليوضح الرسائل البرقيات التي تعكس بدقة تقييمنا للأوضاع كخبراء في المنطقة.

لم ير ستيف أي شيء يثير الضحك في مزحتنا على (المسكين العقيد ماثيسون) كما كان يسميه، وعندما أصبح ضحك المفوضية على ذوقه أكثر حدة، طلب إعادة نقله إلى بيروت، حيث يفضل، كما يقول، أن يعمل كمساعد لملحق عسكري أبله لكن جنتلمان على أبله لكن مجرد أبله. وقال: إن الذوق، هو قبل كل شيء، مسألة نسبية". أن ما جعله يعزم على ذلك هو امكانية عودته للعمل مع اركي روزفلت الذي بدأ في نهاية عام ١٩٤٩ يحقق تقدما حقيقيا في تجنيد ارمن واكراد وجورجيين (شركسيين) وأفراد من اقليات أخرى لتهريب أنفسهم إلى داخل الاتحاد السوفيتي عن طريق غرب تركيا. هناك شيء واحد آخر علي أن أذكره: هو أن قيام ستيف بدور(الرائد لنكولن) يأتي للمحافظة على أثمن الخبرات الاستخبارية للحكومة الامريكية، والمقصود به أنا.

فبينما اخذت قصص ظهور وسقوط حسني الزعيم والتي بعضها حقيقي تنتشر في أنحاء الشرق الأوسط، كان قاضي محكمتنا العليا بيل دوكلاس يقــوم باحــدى رحلات المغامرة المعتادة له في مواقع بالشرق الاوسط وآسيا الوســطى. وخـــلال تناول البراندي والقهوة بعد حفلة عشاء في السفارة الأمريكية بطهران، لاحظ اثناء تبادله الأسرار مع السفير، أن دور بيرسن السيء الصيت، وكاتب العمود الصحفي (دوامة واشنطن) وسلف الأكثر سوءاً جاك اندرسن، كان يتنصت على حــديثهما. تظاهر بيرسن بالانشغال بنقاش مع الضابط السياسي في السفارة، إذ إنه يستطيع أن يشترك بنقاش في إحدى زوايا الغرفة، بينما يستمع إلى كل كلمة همس في زاويتها الأخرى.

وهكذا دخل دوكلاس بحديثه وأخبر السفير بهمس أنه وخلال رحلة قام بها في كردستان ايران، وبينما كان يشوي اللحم، تقدم منه رجل عبر الظلام وقدم نفسه بأنه الرائد لنكولن وأعطاه رسالة شفوية إلى السفير واختفى. بعدها تظاهر دوكلاس بيل بأنه يهمس نص البرقية في اذن السفير، وأومــأ السفير برأسه علامة المعرفة. وفي الأسبوع التالي ظهرت قصة (الرائد لنكولن) في عدة مئات من الصحف الامريكية والتقطتها مجاميع أخرى من الصحف في الشرق الاوسط واضعة عليها المزيد من الزخرف.

وكما أن السفارات الفرنسية في الشرق الأوسط كانت تعرف من خلال وثائقها الاستخبارية بأنني استخدمت الاسم المستعار (الرائد لنكولن) في الحــرب العالميــة الثانية، فإنهم افترضوا بانني كنت الشخص الذي رآه بيل دوكلاس يتجول في شمال إيران بملابس تنكرية. لهذا استعلموا من أجهزة الأمن الإيرانية والعراقية والأجهزة الأخرى وبذلك أثاروا انتباه جميع الأجهزة الأمنية والتجسسية السرية في كل أنحاء الشرق الأوسط. اقتطع صديقي ناصر النشاشيبي جزءا من وقته كــرئيس للــبلاط لجلالة الملك عبدالله ملك الأردن، ليكتب مقالاً لصحيفته السابقة يصفني فيه بــأني

هدية أمريكا لدبلوماسية الشرق الأوسط. وقال لي: "عندما تصل هذه القصة واشنطن، فإن عليهم أن يعينوك سفيرا".

على أية حال، كانت لأربعة أو خمسة أجهزة أمنية في الشرق الأوسط خطط أخرى إزائي. فقد أبدى أديب الشيشكلي اهتمامًا كبيرًا بي وأرسل مجموعة من الشرطة السرية لتوفير الحماية لي، بينما أخبر الأمير فريد شهاب رئيس المكتب الثاني اللبناني، اركي، أن عناصر عراقية قد مرت عبر بيروت في طريقها إلى دمشق لاغتيالي، وبمساعدة ناصر اشعت خبرا مفاده أن الرائد ستيف ميد هو السيئ الصيت المدعو (الرائد لنكولن) وليس انا. وانه إذا اراد القتلة من مختلف الأجهزة الأمنية في الشرق الاوسط أن يصنعوا لهم صيتا، فعليهم قتله وليس قتلي. كان جيم كيلي وانا نرى أنه من الافضل إلا نخبر ستيف بالتضحية التي يمكن أن يؤديها لبلاده، إلا أننا كنا نعلم أنه يمكن الاعتماد حتى النهاية على وطنيته وشجاعته. على أية حال، كان يستحق النقل، وقد رتب كيلي مع نظيره في لبنان السيد بنكرتون، ليضعه وأسرته على ظهر السفينة التابعة لشركة خطوط التصدير الأمريكية المغادرة لبيروت. ولم يعلم بمساهمته في دعم المصلحة الوطنية إلا بعد أن اخبره بذلك ضابط المخابرات الفرنسي الذي كان معه. لقد رأى جانب المقامرة في الموضوع كما كنا نتوقعه. وقد كتب لي ولجيم كيلي رسالة يشكرنا فيها على منحه فرصة أخرى لخدمة بلاده.

وبالمناسبة، أخبرني القاضي دوكلاس، بعد عدة أشهر أن اسمي المستعار قد قفز من لاشعوره في تلك اللحظة، ربما لأنني سبق أن رويت له عدة قصص لامعة (للرائد لنكولن) في إحدى حفلات العشاء في لاوتن.

مع رحيل ستيف وعدم رغبة أديب في سماع مشورتنا عند تخطيطه لانقلاب آخر على كرسي الرئاسة، أصبحت حياتنا في دمشق وبيروت كالحياة في حرم جامعي حيث عاد جميع الطلبة ، عدا طلبة الدراسات الصيفية ، إلى منازلهم أو كالحياة في منتجع ساحلي في الخريف حيث غلفت بيوت الاستحمام بالألواح

الخشبية وأصبح الجو باردا لايسمح بالنزول إلى الماء. حتى أنني قد أصبحت أشعر بالملل من إصدار التقرير الأسبوعي (الويكا) كل جمعة، لهذا عندما تمـت تسـمية بديلي، غيرت مساري الممل لابدأ بوضع مصائد المغفلين في طريقه. إنكم تـرون كيف أنه في الايام الأولى لتأسيس المخابرات المركزية، لم تكن الخبرات تتـراكم، فكل محطة ميدانية تبدأ من الصفر حالما يتم تغيير رئيسها. وعندما يستلم الموظف الجديد مهامه، يرى أن عمله هو تنظيف الفوضى التي تركها سلفه، ليبـدأ مرحلـة جديدة يكون فيها الممثل النجم. ومن الطبيعي أن رئيس المحطـة المغـادر يـرى الأمور بشكل مختلف. ورغبة منه في إظهار "الأيام الخوالي الجيدة" فـي عيـون رؤسائه في واشنطن، فإنه يظل يؤكد أن بديله منشغل في تعقب الأخبـار المزيفـة بحيث أنه ليس لديه الوقت الكافي لإعادة ترتيب الأحداث. كان بديلي يدعى (والتـر ساندرسن)، شغل وقته في عمل فارغ كمطاردة الإوز البري بحيث أنه لم يتـوافر لديه الوقت الكافي ليقلل من شأن جهودي المتواضعة.

مع ذلك، كان الذي حصل هو انني عندما التقيته، وجدته رجلا لطيفا ورغبتـه الوحيدة هي: "مواصلة العمل الرائع الذي كنت تقوم به والـذي نجـد فيـه نحـن الموظفين الجدد للوكالة ملهما لنا"، كما قال ذلك بكلمة التعارف التي أعدها جيـدا. وبعدها، رأيت أنه من الممكن أنه يقصد فعلا ما يقوله، إلا أنه بعد ذلك وفي وقـت استرخاء، اعترف أن نيك قد أوجزه بكل دقة ما يبيت له إذا لم يبد الاحترام اللائق، مضيفا انني سأكون رئيسه عندما أعود إلى واشنطن، وأن كل مـا يرسـله إلـى واشنطن سيغربل من قبلي. وقد اعدت تأكيد ذلك: "إذا ما وقفت إلى يمينـي فإنـك سوف لن تخسر شيئا". وقد أدركت أنني حققت غايتي عندما وجدته خلال الأسبوع الأول من عمله يعمل بحماس في إعداد بعض المواد لداود لتسـليمها إلـى العقيـد ماثيسون لإدراجها ضمن التقرير الاسبوعي (الويكا).

الفصل الثالث عشر

واشنطن والألاعيب القذرة

لكوني أنا وأركي روزفلت قد وصلنا إلى مواقع وظائفنا الحالية في نفس الفترة، فقد حدد موعد نقلنا معا إلا أنه بعد ذلك، وقبل شهر من موعد رجوعنا إلى الوطن، أصبنا بعدة أمراض. فقد كان صاحبي يعاني من نوع غريب من المشاكل في القلب يبدو انها متوارثة في أسرة روزفلت، بينما كنت أعاني من إصابة قديمة بسيطة بالتهاب الكبد من النوع الذي يصيب جميع أفراد الشرق الأوسط سابقا أو لاحقا. ومرة أخرى أقول، إننا كنا نعاني من عدد من الأمراض المعوية الناجمة عن رحلاتنا المتعددة داخل الصحاري السورية والأردنية والعراقية التي لايتسع المجال لوصفها. فكنا نرقد في مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت في نفس الفترة ولنفس المدة تقريبا.

وعندما خرجنا، كان على اركي أن ينهي دورة عمله بنهاية تعيسة فقد هربت زوجته مع طبيبها النفساني، وكتب سفيرنا بنكرتون تقريرا إلى واشنطن يقول فيه أن سلوكه خلال عمله كان سيئا باكثر من المعقول، وقد كتب نيك نيكلسون ملاحظة في هامش التقرير موافقا عليها ووضعها في ملف اركي (٢٠١)[*] الشخصي.

وهكذا كنا عام ١٩٥٠ أركي وأنا في الولايات المتحدة، حيث كنت في واشنطن اساعد نيك نيكلسون في فصل الحقيقة عن الخيال في مراسلاتنا خلال الأعوام الثلاثة الماضية، وكان اركي في نيويورك يشرف على إذاعة صوت أمريكا التي تبث إلى الشرق الأوسط وأفريقيا. كنت أحب نيك، إلا أن اركي لم يكن كذلك، وقد

(*) هناك ملف شخصي لكل موظف من موظفي الحكومة الأمريكية يسمى الملف رقم(٢٠١) . (المترجم)

احتل ابن عمه كيرمت (كيم) روزفلت منصبا مؤثرا فـي المخـابرات المركزيـة بحيث كان يخلق التوترات التي تؤثر علينا جميعا وبالأخص اركي. عـلاوة علـى ذلك، كان مكتئبا بسبب التأنيبات الرسمية له، كانت آخر كلمات قالهـا لـي عنـد صعوده على ظهر الباخرة (اكساليبور) عائدا إلى الوطن، أنه لايستطع أن يتخيـل مواجهة المحامي المكلف بطلاق زوجته في الأسبوع الأول ثم مواجهة نيك نيكلسون في الأسبوع التالي. لهذا فإنه قبل العمل الذي عرض عليه في الإذاعة.

وهكذا اتخذ كل منا طريقه. إلا أنني كنت قلقا حول اركي، لهذا بعد أن ادعيت في واشنطن أن هذه المهمة من اختصاصي، انتزعت أسبوعين واتجهت إلى الأمـم المتحدة وهذا ما وفر لي الفرصة لمراقبة أحواله عند استقراره في عمله الجديد. وقد زارني في أحد الأيام بينما كنت خارجا من قاعة الألعاب في أحد النوادي. قال لي: "سوف لن تصدق هذا، لقد التقيت لتوي بفتاة جميلة جدا إلى حد أنك ستبكي عنـدما تنظر إليها".

قلت له: "أنت وفتاة؟ الآن؟، إن الحبر لم يجف بعد على ورق طلاقك".

قال: كلا، أنا جاد، إنه أمر حقيقي . أريدك أن تلتقي بها هذا المساء".

سألته:" ماذا تشبه؟ إحدى نساء مجتمع بوسطن الراقي؟ إحدى أساتذة نيويورك؟ أم نجمة من هوليوود؟"

قال: "لا تدعي الذكاء. كم عدد الساميين المخلصين لله الذين تعرفهم؟ اليهـود؟ إنهم كلهم من السلاف والسوريين واللبنانيين؟ إنهم جميعا من الحيثيين(*). إلا أن هذه الفتاة طاهرة، أقصد سامية نقية. إنها درزية. حتى إن رأسها مستطيل.

قلت مع نفسي، يا للمسيح! إن الفتى أسير الحب. قلت له: إذن العشاء هذه الليلة قائم". وهكذا التقيت سلوى شقير (لاكي). هل قال اركي انها كانت جميلـة؟ إنهـا لاتزال تلك التفاحة في نظر اركي، لقد أصبحت السفيرة روزفلت، ورئيسة دائـرة

(*) الحيثيون: شعب فتح آسيا الصغرى وسوريا في الألف الثاني قبل الميلاد. (المترجم) .

التشريفات في إدارة ريغان، ورغم بلوغها الخمسين، إلا أنها لاتزال سيدة مثيرة، وعندما كانت في العشرين لابد أنها كانت كطالبات المرحلة الرابعة من كلية فاسار (*).

بعد ذلك بفترة قصيرة عاد اركي للعمل في المخابرات المركزية مع (لاكي) كمديرة شخصية غير رسمية لعلاقاته الخارجية. وقد استطاع كيم في ذلك الوقت احباط انقلاب داخلي من المقرر له أن يرسل نيك نيكلسون إلى وظيفة ثانوية في دائرة السجلات، بينما ثبت نفسه كمدير ليس فقط للعمليات الاستخباراتية في الشرق الأوسط، وجنوب شرق آسيا وأفريقيا، ولكن لعملنا السياسي المبتدئ والحرب النفسية، والاقتصادية والعمليات شبه العسكرية في تلك المناطق. وقد عينت نائبا لكيم لشؤون المخابرات، إلا أنني قد منحت فرصة كبرى لمراقبة أحوال نائبه الثاني، تيدلوكارد، الذي كان يشرف على العمليات السرية التي ليس لها علاقة بجمع المعلومات. كنا جميعا تحت إمرة فرانك وسنر رئيس المؤسسة الجديدة التي تشكلت خلال فترة غيابنا، وهي الذنب الذي يهز كلب المخابرات المركزية برمتها، والتي أخذت تعرف فيما بعد باسم "مكتب تنسيق السياسات" (OPC). مع ذلك، ومن خلال الصداقة العائلية القديمة للاثنين من أبناء أسرة روزفلت مع الأشقاء دالاس، ومن خلالي، كوني صديقا حميما للطرفين، أصبح للعصبة المكونة منا نحن الثلاثة نمط خاص من العمل. فقد كان فرانك يود أن يطلع على كل شيء، لهذا فإنه يدعو كيم بين الفنية والأخرى إلى مكتبه (مبديا له تقديره العالي) للإيجاز الذي يقدمه له كيم والذي لايحتاجه فرانك أو أن يدعوني أو اركي (متأثرا باسلوب الآمر الشديد) لمجرد أن يبين أنه الرئيس.

كنا قد التقينا أنا وكيم في أواخر ١٩٤٧ عندما أجرينا جولة في قلاع الصليبيين والأماكن البعيدة عن الطرق الممهدة في سوريا ولبنان. لهذا فإننا الآن أصدقاء منذ أربعين عاما، كان كيم خلال عشر سنوات منها رئيسي والمدافع عني (فقد كان

(*) كلية فاسار: كلية عالية الأجور تدرس فيها بنات الأثرياء فقط. (المترجم) .

يدافع عني أمام العديد من المدراء وأكثر الأحيان أمام ديك هيلمز، الذي يلهث على الدوام، لأسباب لا أعرفها، وراء قهري) وخلال أكثر من خمس عشرة سنة منهـــا، كان كيم زميلي في الأعمال التجارية.

لقد حصلت أشياء كثيرة عندما كنا أنا واركي في بيروت ودمشق، بعضها على مستويات عليا في الحكومة، حيث حصلت مناورات لكسب النفــوذ فــي أعقــاب تعليمات مجلس الامن القومي رقم (٤) التي أعطت للمخابرات المركزية وضـــعها الرسمي، والتعليمات اللاحقة المستندة على إدراك الحكومة المفاجئ أنه إذا ما كنــا نريد مقاومة النشاطات السرية الشريرة للاتحاد السوفيتي وإحباط أهدافه ونشاطاته، فمن الافضل أن نقوم ببعض النشاطات الشريرة الخاصة بنا. وطالما أن هذا الكتاب هو سيرة حياة وليس كتابا عن المخابرات المركزية، فسوف لن أثقل على قرائـــي بسرد المشاحنات البيروقراطية التي تلت ذلك. وبدلا من ذلك، سوف أركــز علـــى التطورات التي أثرت علي شخصيا وأعطت شكلا للعمليات السرية التي أصـــبحت بصراحة، خبيرا فيها.

أكثر ما يخطر ببالي بخصوص دائرة تنسيق السياسات، **OPC** ودائرة العمليات الخاصة **OSO** عندما عدت من سوريا في ١٩٥٠، هو التباين في كوادرهما. فقــد كان معظم أعضاء دائرة العمليات الخاصة، كما أنا، من ضباط المخابرات القـــدماء من مكتب الخدمات الستراتيجية والمخابرات المضادة خلال فترة الحرب، رغـــم أن هناك القليل من موظفي مكتب التحقيقات الفيدرالي الذين جاءونا بعد الحرب عندما تولت المخابرات المركزية عمليات مكتب التحقيقات الفيدرالي في أمريكا الوســطى والجنوبية. وكان معظم أعضاء دائرة تنسيق السياسات أصدقاء قدامى لفرانك وسنر أو الن دالاس الذين عادوا إلى مهنهم القانونية أو جامعاتهم عندما انتهت الحـــرب، رغم أن هنـــاك القليل من المختصين في المنطقة من الـــذين تـــم تجنيـــدهم مـــن الجامعات . كان معظم كوادر دائرة العمليات الخاصة يعيشـــون علـــى رواتـــبهم ويمتلكون بيوتا متواضعة قرب فرجينيا. ويبدو لي أن معظم كوادر دائـــرة تنســـيق

السياسات من الأثرياء المستقلين ماديا وكانوا أعضاء في نادي (متروبوليتان) (أو في نادي the chevy chase country) ولديهم منازل راقية في جورج تاون أو في مرتفعات ويسلي.

وعلى سبيل المثال، كنا أنا ونيك نيكلسون نعيش في مجمع سكني في ارلنغتون بفرجينيا ونذهب يوميا إلى مبنى (L) بالحافلة، بينما كان فرانك وسنر ودي فيتزجرالد وجوني بروس وباقي كادر مكتب التنسيق يعشون في جورج تاون وكان لدى كيم روزفلت منزل فاخر في مرتفعات ويسلي، ومقابل منزل الجنرال والتر سميث. كان منتسبو المكتب OPC يختلطون مع بعضهم ومع مؤسسة واشنطن ويتم ذكرهم في الصفحات الاجتماعية من صحف (الوشنطن بوست) و(ايفننغ ستار). بينما كانت تتسم علاقات منتسبي مكتب العمليات الخاصة بالودية حول موائد العمل. هناك قليل من العلاقات الاجتماعية بين أفراد المكتب الذين نمت بينهم صداقة حميمة عند عملهم في الوظائف العديدة عبر البحار، إلا أنها كانت علاقات محدودة للغاية.

إنني أذكر ذلك، لأن له علاقة بوضعي الخاص حيث ابتعدت عن مهمة جمع المعلومات إلى العمل السري، ويعود الفضل في القدرات التي بدأت بتطويرها خلال عملي في دمشق إلى كيم روزفلت، الذي يقدرها جيدا. وفي صباح أحد الأيام، دخل مكتبي شاب مليونير يقوم بعمل مكتبي صغير في فرع مكتب التنسيق في قسمنا، ليبلغني أن "فرانك غير مرتاح من الطريقة التي عالجت بها الخطأ في الباكستان".

سألته: "فرانك، من هو فرانك؟"

قال: "فرانك وسنر". وبعد أن رأى دهشتي، أوضح قائلا: "نعم، جرى بيننا حديث قصير أثناء تناولنا العشاء معا في منزل ألن الليلة الماضية".

لم يسبق لي أبدا أن تناولت العشاء في منزل فرانك أو ألن، فقد كان "السيد دالاس"(*) رئيسي في ذلك الوقت . وإذا ما استطاع أحد الموظفين الصغار في

(*) السيد دالاس هو نائب مدير المخابرات المركزية في حينها . (المترجم)

مكتبي، وهو أحد مرؤوسي التحدث معهم أثناء العشاء حول شؤون مهمـة للدولـة بينما يتحتم علي أنا أن اقف في الدور لمقابلتهم خلال ساعات الدوام، فلا بد أنني في المكان الخطأ.

وبعد يومين، جرت مشاجرة حامية بيني وبين فرانـك وسـنر. لقـد نسـيت الموضوع، إلا أنني أتذكر جيدا قولي له: "فرانك، إننا نناقش موضوعا أفهمه جيدا، وأنت لاتعلم أي شيء عنه، احمر وجهه واسـتشاط غضبا ، شعرت بذلك وقلت له ما أعتقده صراحه بآرائه حول "المفوضية"، وخرجت غاضبا.

وبعـد ذلك بقليل عدت مضطربا إلى مكتبي، وأنا أمسك رأسي وأسأل نفسي : " ماذا فعلت؟" لقد كنت أحب فرانك وأعرف أنه كان يحبني، ولكن لا أحد أبدا تحدث معه بتلك الطريقة. أنه إمـر لايمكن التسامح معه. وتصـورت أنـه سـيطردني، وينبغي عليه أن يفعل ذلك. وبعد ذلك سأكون في الشهر التالي عاجزا عـن دفـع الفواتير المترتبة علي وسوف لن أتمكن من الحصول على عمل آخر حتى أغـرق بالديون ولا أستطيع أن أستخدم بطاقتي المصرفية.

لهذا غيرت موقفي بالاتجاه الآخر، وتسللت نحو مكتب فرانك واعتذرت منه، قلت له: "انني أعتذر ، يا فرانك، لا أعلم ماذا جرى لي. إنني عاجز عن التعبيـر عن مدى أسفي. إنك تعلم بهذا الموضوع أفضل مني، وسوف لن أتحدث معك بتلك الطريقة ثانية..." قال فرانك: "هون عليك انس الموضوع وأنا آسف لأنني قد رفعت صوتي".

عدت إليه مساء اليوم التالي مبديا رغبتي بترك العمل. أصيب بالدهشة، كيف يأتي هذا من شخص بحاجة إلى عمل. ففي تفكيره أن أي شخص يختلف مع رئيسه عليه أن يستقيل حالا، إلا أنه يعود بعدها إلى مهنته القانونية أو جامعته أو مزرعته، ويبقى هناك حتى يتلقى استدعاء من الرئيس أو وزير الخارجية التالي. استفسـر مني عن وضعي المالي، ليس من باب التدخل بل من أجل معرفة أشياء جديدة عن دوافع مرؤوسيه التي لم يكن يعرفها وفي الاخر قال: "انتبه الي، إذا كانـت لـديك

مشاكل في تسديد فواتيرك، فيمكنني أن أتحدث مع كيم ليمنحك ترقية أخرى، وإذا شعرت ثانية بأنك لاتستطيع العمل، يمكننا أن نجد لك عملا آخر، لاتقلق. لغاية هذا الوقت لم يسبق لي أن رأيت فرانك يبتسم، ولكنني عندما خرجت من غرفته استدرت لأراه يهز رأسه ويضحك بخفوت.

وطالما أنه لم تكن لدي رغبة حقيقية في ترك المخابرات في ذلك الحين، فقد اقتنعت بتطمينات فرانك، التي كانت تتضمن تلميحا بأني إذا ما بقيت فإني سأعمل في ذلك الطراز من العمل الذي أحلم به. لم أخبر كيم بمشاجرتي مع فرانك إلا بعد أن انتهت لأجده أيضا كثير النسيان كما هو فرانك بالنسبة إلى موضوع حاجة بعضنا ممن يعمل تحت إمرته إلى وظيفته. ولكنه بخلاف فرانك، كانت تطميناته تتضمن تفاصيل دقيقة. قال: "سانظر في تخصيص وظيفة لك تقودك إلى مكان ما خارج الوكالة ولكن تابع لها. على أية حال، عليك أن تفكر بمدى أبعد، وليس بمدى ضيق". وقد كرر هذه الإشارة عدة مرات قائلا إن تفكيري بعيد المدى يجب أن ينصب بشكل رئيس على ميدان العمل السري بدلا من واجبي المعين لي وهو الإشراف على العمليات السرية الاستخبارية للفرقة.

سمعت حديثه منذ البداية وأمضيت جل وقت فراغي في قراءة الكتابات التي قادت إلى تشكيل مكتب التنسيق وارتباطه بمكتب العمليات السرية ليشكلا ما أسميناه DDP ووضعنا التعليمات الأساسية التي قادتنا نحو التصادم مع الجناح اليساري في الدولة. وبعد سنين تطور النقاش ليصل إلى مرحلة أن العمل السري هو شر لايغتفر في مجتمع ديمقراطي. وأصبح إلقاء اللوم في جميع مشاكل العالم على عاتقنا أمرا مألوفا. لقد منعنا هتلر من الاستيلاء على أوربا، ووضعنا خطة مارشال زادت رفاه الأوربيين وأعدائنا السابقين إضافة إلى أصدقائنا، بدرجة كبيرة، بينما نواجه نحن وهم عدوًا جديدًا، يضمر مطامع كمطامع العدو السابق. لم نكن نشعر بالحاجة إلى الاعتذار لأي كان، والمجانين فقط هم الذين يمكن أن يعترضوا على مسألة حاجتنا للعمل السري، خاصة أن الأغراض التي نقصدها هي نفسها التي قبلها الشعب

الأمريكي. إلا أنني لاحظت بعد ذلك تناقضا ثانيا. ففي الوقت الـــذي كانـــت فيـــه التعليمات الواضحة التي تفيد بأن على المخابرات المركزيـــة أن تقـــوم "بألاعيـــب قذرة"، إلا أن معظم خبراء المخابرات المركزية الذين عليهم إيجاد الوسائل، كـــانوا على ما يبدو يجهلون هذه التعليمات. والحقيقة، أننا عندما أطلقنا العنان لخيالنا فـــي تطوير هذه الألاعيب لم نول اهتماما للأهداف التي تستخدم من أجلها. نص قـــانون الأمن القومي لسنة ١٩٤٧ أنه أسس وكالة المخابرات المركزية لإنجاز الواجبـــات والوظائف المتعلقة بالمعلومات التي تهم الأمن القومي والتي قد يطلبها المجلس بين فترة وأخرى، بينما حددت التعليمات الخاصة بمكتب تنسيق السياسات أن هدفه هو مواجهة محاولات الاتحاد السوفيتي وأقماره التجسسية إحباط أهـــداف ونشـــاطات الولايات المتحدة وباقي الدول الغربية. لم تظهر كلمات مثـــل "ســـري" و"مكتـــوم". وهناك شرط أن عملياتنا يخطط لها بحيث تبدو الحكومة الأمريكية غيـــر مســـؤولة عنها في حالة كشفها. وفي الموقع الذي كنت احتله في ذلك الوقـــت، ومـــا جـــرى تدبيره تحت انوف فرانك وسنر وكيم روزفلت، لم يكن يحمل أي ضرر، ولايتضمن شيئا مما اتهمنا فيه المحققون الصحفيون المناوئون للمخابرات المركزية. لم نكـــن شياطين أشرارًا نتآمر لغسل دماغ العالم والسيطرة عليه من خلال حيل القصـــص العلمية التي تظهر في المسلسلات التليفزيونية. على العكس من ذلك، فقد كنا أطفالاً ابرياء ومعنا لعب جديدة ، مع رخصة بالسرقة.

في بعض الأحيان، وبموجب أوامر مباشرة إما من فرانك أو كـــيم، وأحيانـــا بدافع التطفل كنت أقول : "إذا لم يستطع المرء أن يتجسس على مراكز قيادته، كيف يمكن أن يتجسس على مراكز قيادة العدو؟"، كنت أقرأ جميع المشـــاريع باســـتثناء القليلة الأهمية. لهذا أستطيع أن أؤكد كشاهد أنه لم يمـــر مشـــروع أمـــام أي مـــن رؤسائي فيه رائحة مشاريع الجستابو (المخابرات الألمانية)، أو يتضـــمن "انتهاكـــا للحريات المدنية" أو يمثل ابتعادا عن مبادئ الديمقراطية. أعترف، أن هناك بعـــض المشاريع الغريبة، إلا أن أسوأ ما يمكن أن يقال عنها حتى في ضوء الجو الاخلاقي

المتزمت في هذه الأيام، هي أنها لا علاقة لها بمشروع مكافحة "النشاطات السرية الشريرة للاتحاد السوفيتي."

وكمثل على هذه المشاريع السيئة أو ما يمثل نموذجا لها هو مشروع وفر لي فرصة لقضاء أسبوع أو أسبوعين في نيويورك لمعرفة حياة صديقي اركي بعد طلاقه من زوجته.

يعرف المشروع باسم "مدرسة السيدة ماك مرتي الراقية" وهو من ابتكار ضابط جورجي يدعى "ادريان لندكويست". تدير المدرسة السيدة ماك نفسها، وهي شخصية معروفة من واشنطن عيّنها كيم لتدير وحدة صغيرة باسم (أزياء ومواد تجميل) وتعرف اختصارا باسم (C&C) "سي آند سي" لدعم عمليات (الهرب والتملص) التي يديرها ستيف ميد في آسيا الوسطى. ففي اجتماع الكادر في تشرين الأول عام ١٩٥٠ نهض لندكويست ليبلغنا أنه يعتقد بان هناك أسرارًا خطيرة عن الأزمات الدولية في رؤوس بعض الدبلوماسيين الأفارقة والآسيويين والأمريكيين الجنوبيين ويمكن الحصول عليها من خلال دفع نساء جميلات مدربات نحوهم. وقال إن: السود والسمر والصفر في هذا العالم يفقدون أي حس لكتمان الأسرار عندما يلتقون بنساء بيض يحملن صدورا وأردافا مليئة". واستمر قائلاً : إن لدى المخابرات المركزية، بعد أن جندت معظم كادرها النسوي من جامعات عدة، عددًا كبيرًا من النساء ممن يتمتعن بمثل هذه الصفات، وأنهن يستطعن أن يخدمن بلدهن في نيويورك من خلال الحصول على الأسرار من موظفي الأمم المتحدة أفضل من وجودهن في واشنطن يجمعن المعلومات من الصحف والإذاعات الأجنبية.

كان فرانك وكيم متأخرين في عودتهما من عطلة نهاية الأسبوع ولم يحضر صباح يوم الاثنين، وترأس الاجتماع ضابط محبوب إلا أنه مغفل هو ولشغتون السبري. وآخر عمل ميداني له هو تنظيم الانتخابات اللبنانية في ١٩٤٧ ويعمل حاليا مديرًا للإدارة الاحتياطية المسؤولة عن المحافظة على قوائم المواد المتفجرة الألمانية التي جمعت من مختلف أنحاء العالم بعد انتهاء الحرب.

وفي ظل الوضع العام في ذلك الوقت، تطور مقترح ادرين لندكويســـت مـــن مجرد مذكرة مكتبية إلى مشروع رسمي ثم إلى أمـــر يخول لندكويست الشروع في "عمليات استكشافية" وقد أعلن تعميم إلى جميع الموظفات من درجة **GS.1**(*) صعودا تذكر أنه ستتوافر عما قريب "تعيينات تحمل طابع التحدي" إلى موظفـــات الوكالـــة اللواتي يتمتعن بالذكاء والثقافة والإيمان"، ويشعرن أن باستطاعتهن أن يجعلن مـــن أنفسهن محط إغراء لموظفين ينتمون إلى خلفيات ثقافية تختلف عن خلفياتنا. وأشار التعميم إلى أن محل العمل سيكون في نيويورك.

ورغم عدم تحديد الواجبات بدقة، إلا أن أي طفل لبيب بعمر العاشرة يستطيع أن يستنتج أنها تتضمن الاتصال بوجوه اجتماعية لامعة، والاشتراك فـــي مطـــاعم ونواد باهظة الثمن، وفرصة للتحدث بقليل من الفرنسية والاسبانية وكذلك الـــدخول في قصص رومانسية وجنسية غريبة من النوع الذي كانت سيدات الوكالة يحلمن به عندما قدمن اوراق تجنيدهن، إلا أن الوكالة لم تستثمر مواهبهن. كان لندكويســـت يقول أن الدعاية الأخيرة ستضمن جذب فتيات جامعات ســـمث وردلـــف وفاســـار وبراين مور طالما أنهن لايختلفن عن شباب جامعات هارفارد ويال وبرنستون في الحرب العالمية الثانية الذين كانوا يكمنون ويقتلون ويحطمـــون الخـــزائن بـــدوافع وطنية، فإنهن أيضا سيشعرن بالسعادة للاستلقاء أمام الرجـــال كـــل ليلـــة مـــا دام بمقدورهن إقناع أنفسهن أنهن يفعلن ذلك من أجل العم العزيز سام.

دعا التعميم جميع الراغبات بالحضور إلى مبنى الاجتماعات العامة **B** ومبنى الألعاب الرياضية في الوكالة وساحة كرة السلة في موعد محدد. وقد أثبتت جلسات الاستماع، أنها أكبر مهزلة في تاريخ المخابرات المركزية. فقـــد ظهـــرت أربـــع وثلاثون سيدة شابة، يرتدين تشكيلة من الأزياء تبدأ من روائع ديور الأصلية إلـــى إبداعات أعدها خصيصًا للمناسبة رئيس قسم الملابس في الوكالة في عرض شـــبه

(*) هناك درجات للموظفين المدنيين في الولايات المتحدة تبـــدأ مـــن G.S1 أو Government Service 1 وتستمر إلى تسع أو عشر مراتب . (المترجم)

رسمي قدمته فرقة المتدربين الجدد. وعلى كل متقدمة أن ترتب مقدمة للتعارف "بالهدف" المعين إليها (فقد تم تدريب عضو في الكادر التدريبي ليتصرف بطريقة دبلوماسي من العالم الثالث)، وتبدأ بالدخول بحديث معه، وتتصرف بطريقة تجعله يشعر أنه متيم بها تحت ظروف تؤدي إلى ارتكاب الحماقة.

كانت شخصية كيم روزفلت تطغى على الحاضرين، حيث علم بالمشروع بعد أن قطع الأخير شوطا طويلا لايمكن إيقافه، وقد أصر على الحضور لأنه كان يرى أنه المسؤول الرفيع والوحيد في الوكالة الذي يتمتع بخبرة لها علاقة بالأساليب المطروحة. فخلال الحرب الثانية وبعد إلقاء الألمان القبض عليه خلال إحدى جولاته خلف خطوطهم، صمد بشجاعة لأكثر من أسبوع إزاء عمليات التعذيب القاسية التي مارستها الجستابو حيث لم يبح بأية معلومات عدا اسمه ورتبته ورقمه التسلسلي إلى العميلة الالمانية التي كانت تصغي إليه بتعاطف كبير لشرحه أن عزرا باوند هو المؤلف الحقيقي لقصيدة الأرض اليباب(*) .

كان الخبير الحقيقي الوحيد بين الحضور هو أنا. فمهما كانت نقاط قوتنا وضعفنا كحكام، علينا أن نختار عشر أو اثنتي عشرة متقدمة نعتقد أنها الأكثر جاذبية ثم نحيلهن إلى السيدة ماك مورتي ليتلقين تدريبا خاصا.

كان العرض يشبه عرض فرقة مسرحية من الهواة، كن جميعهن يتمتعن بالإغراء والجاذبية في الظروف الاعتيادية، إلا أنهن بملابسهن الخاصة وسلوكهن المتكلف، قد يوقعن النفور في نفس أخشن شخصية في العالم الثالث. إلا أن هناك درسًا، لابد أن نكون قد تعلمناه هو أن هذه المفاتن التي تعرضها المرأة عندما تلاحق رجلا، هي السبب الذي يدفعه إلى البحث عن ستار- أي بمعنى أنه رجل على قدر من الرفعة وليس مجرد باحث عن متعة. وهذا المعنى حدده ادريان لندكويست بقوله : سيكون واجب موظفة الوكالة التي تعمل في الدوائر الدبلوماسية هي التخلي عن الكثير من الفضائل مقابل حصولها على دليل هواتف مثلا.

(*) تي . اس. اليوت هو المؤلف الحقيقي لقصيدة الأرض اليباب. (المترجم)

وهكذا تعلمنا شيئا أو شيئين عما يجب عدم فعله في موضوع الاستفادة من الجاسوسات المحتملات التابعات للوكالة. وكحقيقة واقعة، فقد كانت لدى مكتب العمليات الخاصة عدد قليل من الجاسوسات الناجحات، وبعضهن قد عملن مؤخرا على إغواء الدبلوماسيين الأجانب. إلا أنه حتى هذه فإنها تستحق الذكر ضمن تاريخ المخابرات المركزية، لانها توضح روح المغامرة البريئة المعتمدة على الحظ التي تميز التجربة الأولى لمكتب تنسيق السياسات، المناقضة للتصور الحالي للمناوئين للوكالة بكونها شريرة. وعلى أية حال، لم نكن سذجا، فعلى سبيل المثال، خطر في بالنا أنا وستيف أنه إذا كان زملاؤنا في مكتب التنسيق يبحثون بجدية عن وصفة للإغواء، وليس مجرد ممارسة حريتهم الجديدة في التجريب، فإن عليهم الالتفات إلى حيث تتواجد الخبرات التي تساهم في نجاح المشروع، وعليهم استشارة أي منا.

وللتاريخ أختم هذا الفصل بتوثيق مفاده أن السيدة ماك مرتي وهي شخصية معروفة في واشنطن ومضيفة شهيرة، قد تولت إدارة "المدرسة الراقية"، عندما كانت مهمة المدرسة الوحيدة هي تدريس فن البروتوكول لزوجات ضباط المخابرات وإعدادهن لوظائف أزواجهن في السلك الدبلوماسي. لقد خلقت لنفسها أسطورة في الوكالة من خلال إنجاحها للمدرسة فبعد إبلاغها لمجموعة منتقاة من متدرباتها بألا يبلغن أي أحد عن الموضوع، أدخلتهن دورات متقدمة في "مهنة التجسس، وأحالتهن إلى ديك هيلمز ، مدير العمليات السرية في ذلك الحين ليكلفهن بواجبات خاصة ، وفي العديد من الحالات لم يعلم الأزواج بوضع زوجاتهم المهني.

كان المشروع مجرد تجربة ويمثل إحدى الحماقات العديدة للمخابرات المركزية في مراحلها الأولى والتي كان لها عواقب كبيرة، إلا أنها لم تحظ إلا باهتمام محدود من قبل المسؤولين. تعتبر التجربة كنزا من المادة التي يستطيع أي سافل ماهر، ومع قليل من الزخارف الجميلة، أن يصوغ منها حكاية من الدرجة الأولى يمكن إعادتها في اللقاءات مع ضباط الوكالة السابقين. نقطة أخرى، إنها ليست لها علاقة بمسؤوليات مكتب تنسيق السياسات طالما أن غرضها ابتكار وسيلة

جديدة للحصول على المعلومات ولا أكثر من ذلك، ولابد أنها كانت ضمن الاختصاص المباشر لمكتب العمليات الخاصة الذي، كما سبق أن قلت، يحاول إخفاء الهدف ووسيلة الوصول إليه.

ويمكن أن يقال نفس الأمر عن جميع تجارب المخابرات المركزية في تلك الفترة، فعندما جرى تفعيل مكتب التنسيق، أدرك جميع قياديي الوكالة ماذا يفترض منه أن ينجز، ومدى الحاجة لذلك، وحدود عمله إلا أن هناك قسمًا من ضباط المخابرات المركزية ممن ليست لديهم أية مسوليات بشأن "مكافحة النشاطات السرية الشريرة للاتحاد السوفيتي" استغلوا النقاط الغامضة الواردة في تعليمات مجلس الأمن القومي ليشرعوا بمغامرة في مجالات التجريب، والتي كانوا في ذلك الوقت يحلمون بحصولها. وقد راحوا بعيدا. كانت مشاريعهم عبارة عن فضائح استغلها المناوئون للمخابرات المركزية.

صحيح أن أحد منتسبينا قد دس حبة هلوسة في الشاي الخاص بالرئيس الإندونيسي قبل إلقائه خطابا وكانت النتيجة أنه قدم طرحا معقولا عن "الحياد الإيجابي"، في الوقت الذي كان يتوقع منه الثرثرة.

وقد نفذنا تجارب لتوارد الخواطر بين السيد والسيدة براون. كانت السيدة براون في ريجموند بفرجينيا، بينما السيد براون في استنبول، حيث أرسلت إليه رسائل عن طريق توارد الخواطر وقد وصلت، بدقة معقولة، قبل أن تصل نفس الرسائل المرسلة بواسطة قنوات المخابرات العادية إلى رئيس محطة استنبول.

وقد زرعنا عميلا في حركة السانيتولوجي(*)، الذي أصبح "طاهر الروح" تحت اشراف رون هبارد نفسه، وبعد ذلك أخذ يطلب ويحصل على المزيد من "النفقات للعملية".

(*) السانيتولوجي: حركة دينية تقوم على إمكانية الحصول على المعرفة عن نفس الإنسان والمظاهر الروحية عن طريق الدراسة والتدريب. (المترجم).

ولكن، في الوقت الذي كانت فيه مشاريعنا الداخلية (العجيبة والمدهشة) عبارة عن تسلية كبرى، لكنها لم تكلفنا من المال إلا قليلا، ولم تسبب ضررا دائما. وقياسا إلى ما حصلنا عليه من هزل مهني، فهي تستحق كل فلس دفعناه فيها. ولم تكشف لجنة السناتور جيرج المخيفة التابعة لمجلس الشيوخ والمختصة بالتحقيق بأعمال المخابرات أي قضية صادق فيها فرانك أو كيم على مشروع يهدف إلى غسيل دماغ أو تحويل أفكار أو تغيير شخصية أو قتل أي فرد سواء كان أمريكيا أم أجنبيا. كان هناك شيء من اللغط حول خطط لنا ننوي فيها تلويث سجائر كاسترو بمادة معينة بحيث تسقط لحيته عندما يدخنها، وقد زارني محقق اللجنة صباح أحد الأيام ليسألني عن "التوثيق" حول الجرعة التي دسها أحد مرؤوسي في كأس الليمون لسوكارنو، كان هذا هو كل شيء. كاسترو وسوكارنو فقط؟ ومن منهما يهم؟

إن المشاريع التي أثارت اهتمام لجنة جيرج قد أديرت جميعها خارج وكالة المخابرات المركزية من قبل علماء وعلماء مزيفين وظفتهم الجامعات والشركات الدوائية بموجب عقد مع وكالة المخابرات المركزية لإنجاز أمر تجريبي حسب ما نفهم. وليس هناك أي ضرر أبدًا من معرفة ما يمكن عمله. لهذا فإن هؤلاء "العلماء"، أو قل أي صفة أخرى لهم، قد صنعوا أدوية قد تجعل "الهدف"، يقول الحقيقة، ويهلوس، ويتصرف بصورة مدمرة للذات أو حتى أن يسقط ميتًا دون أن يكتشف أحد. إنها مادة مثيرة، إلى حدنني اقتطعت جزءًا من وقتي لكتابة مقالة لصحيفة (النيويوركر) حولها، ضمنتها فقرة عن كيفية قيام أحد العلماء التجريبيين بإرسال رئيس فريق عمل إلى منزله الذي تفوح منه رائحة كريهة بحيث أن زوجته وأطفاله لم يستطيعوا تحمل البقاء معه في نفس المنزل، وفقرة أخرى حول كيفية جعل واعظ معمداني يثرثر بفحش في موعظة يوم الأحد.

إلا أننا قد أصبنا بالدهشة بنفس القدر الذي أصابت فيه الرأي العام عندما تفجرت القصة حول ذلك الرجل المسكين الذي أسقاه أحد العلماء التجريبيين حبة

(LSD)(*)، واندفع بتهور من شباك في الطابق العاشر من فندق في واشنطن وهو يصيح: "انظري لي يا أمي، إني أستطيع الطيران" ولم يتفهم السناتور جيرج، الذي بدأ بتصويب ناره نحو المخابرات المركزية، الجانب المضحك في الحادث، وعندما نقب محققوه بشكل معمق في الزوايا الخفية في الوكالة عثروا على تجارب بالحرب الجرثومية، وتغيير الشخصية، ومحو الذاكرة، والاغتيال، والله وحده يعلم ما هي الأشياء الأخرى. وفي أواخر الخمسينات، أوكل لي كيم مهمة النظر فيما يمكن أن تكون قد اكتشفته اللجان التحقيقية من نشاطاتنا، وقد وجدت بعض القضايا المثيرة، إلا أن وجودها لا يشير إلى شيء شرير كما جرى تصويرها، ومرة أخرى أقول، ماذا يمكن أن يحصل في سراديب معمل سري كالمخابرات المركزية، إذا لم يكن رؤساؤه دائمي اليقظة.

عندما حققت في نشاطات علماء المخابرات المجانين، مرة في أواخر عام ١٩٥٠ وفي أيار ١٩٥٣، لم أعثر على قضية واحدة من نتاجهم قد جرى استخدامها ضد أي فرد عدا المتطوعين من خنازير التجارب. وعلمت من مصدر موثوق أنه لغاية ذلك الوقت، كانت المناسبات الوحيدة التي نظرت فيها الوكالة بأمر استخدام أدوية الوهم أو تحويل الأفكار أو السموم قد جاءت بناء على طلبات من سلطات أعلى، خاصة من البيت الأبيض. وأذكر ضمن ذلك خطط قتل لوممبا في الكونغو وكاسترو في كوبا– وكانت هذه مجرد خطط وليست محاولات حقيقية.

ولكن إذا كان "قسم الألاعيب القذرة" في المخابرات المركزية، كما أسماه الرئيس ترومان، لم يكن يلعب ألاعيب قذرة، فماذا كان يعمل؟ إنني أتكلم عن الفترة التي كنت فيها في واشنطن. وأكرر أنه مهما بدت مرعبة نشاطاتنا الحقيقية والمزعومة في تلك الفترة في عيون نقاد المخابرات المركزية في هذه الأيام، إلا أنها كانت منسجمة مع ما كان الشعب الأمريكي يريده في ذلك الوقت، بل بالعكس،

(*) حبة LSD هي دواء مناف للقانون يؤثر على دماغ الإنسان ويجعله يرى ويسمع أشياء غير موجودة. (المترجم)

كانت المخابرات المركزية بطيئة في فعل أي شيء بنظر الرأي العام الذي كـان يستمتع بمشاهدة أفلام مثل "مكتب التحقيقيات الفيدرالي في الحرب والسلم"، وبقراءة روايات جيمس بوند ويستحسن تشهير السناتور مكارثي بالشيوعيين. وقياسا إلـى الشعبية العالية لمكتب التحقيقات الفيدرالي ، فإن اندفاعنا "لمقاتلة الشـيوعية" فيـه الكثير من القصـور عما يتوقعه منا زملاؤنا في المكتب. ستصيب الدهشـة نقـاد المخابرات المركزية هذه الأيام لمعـرفة أن شكوك مكتب التحقيقات الفيدرالي لهـا ما يبررها. والحقيقة هي أننا فعلنا كل ما بوسعنا للنأي بأنفسنا عن المكارثية(*). لقد استنتج مكتب التحقيقات بأننا كنا في أحسن الأحوال مجموعة من مخنثـي عصـبة الجامعات (**).

ولكننا لم نكن كذلك. لقد كنا مجموعة من بيروقراطيي عصبة الجامعات فمنذ اليوم الأول لنشوء مكتب تنسيق السياسات، كانت حركة رؤسائنا مشـلولة بسـبب الميزانيات وخطط المؤسسة، والتسلسل الإداري بحيث أنهم لم يبدوا اهتمامـا بمـا يفترض علينا القيام به. حتى نحن على "مستوى الأعمال التنفيذية" علينـا أن نبـدد بعضاً من وقتنا الثمين على مثل هذه الأمور. أتذكر جيدا المعاناة حول ميزانيتنا في الشرق الأدنى. فبالنسبة إلى مصر، هل نحتاج إلى مليون أم إلى خمسـين مليـون

(*) المكارثية: هي الأساليب التي اتبعها السناتور الأمريكي جوزيف ريموند مكـارثي (١٩٠٨-١٩٥٧) والجو الذي خلقه في الولايات المتحدة في بداية الخمسينات عندما كان رئيسا للجنـة التحقيقات التابعة لمجلس الشيوخ الأمريكي التي تحقق في التهم التي أثارها المـذكور عـن تسلل الشيوعيين إلى وزارة الخارجية والدفاع والمؤسسات الحكومية الأخرى. أدت حملته إلى طرد الكثيرين من وظائفهم والتشهير بآخرين. لم يستطع أن يثبت اتهاماته ولم يقـدم اسـما واحدا لشيوعي في وزارة من الوزارات تمت تنحيته من رئاسة لجنة التحقيقات وأدانه مجلس الشيوخ رسميا لسلوكه المنافي لتقاليد المجلس ومساسه بالحريات المدنية، أصبح اسمه مرادفا للانتهازية وللاتهامات الباطلة. (المترجم).

(**) عصبة الجامعات The Ivy League هي عصبة من ثماني جامعات معروفة فـي شـرق الولايات المتحدة الأمريكية تتميز بمستوياتها الأكاديمية العليا ووضعها الاجتمـاعي الرفيـع. (المترجم).

دولار؟ كيف لنا أن نعرف؟ ومرة جاء إلى مكتبي موظف من مكتب سوريا ليبلغني أن حساباته تشير إلى حاجته إلى (١٢٠٠٠٠٠) دولار وقد حل هذا العقدة، فإذا كنا نحتاج هذا المبلغ لسوريا، فإننا سنحتاج إلى ضعفه للعراق، طالما أن العراق أكثر أهمية من سوريا بمرتين، ونحتاج إلى أربعة أضعافه إلى مصر طالما أن مصر أكثر أهمية بأربع مرات وهكذا. رغم أنه ليست لدى أي منا فكرة واضحة عن طرق صرف هذه المبالغ.

بعد ذلك أخذنا الأرقام إلى مكتب كيم. وقد أصيب بالهلع وقال :" إن لدينا أهم فرقة في الوكالة ، وإذا ما طلبنا مثل هذا المبلغ الزهيد ٢٠ مليون دولار فسيضحك الجميع منا، لهذا طلبنا ١٠٠ مليون دولار، وحصلنا عليه، وبنفس الطريقة قاتلنا لنحصل على كادر إضافي. فقد بدأ مكتب تنسيق السياسات بكادر لايتجاوز ثلاثمائة أو أربعمائة موظف، بما يكفي لتشكيل قوة طوارئ صغيرة مطلوبة لشن عمليات في مناطق حساسة يكون فيها التهديدان الدبلوماسي والعسكري قد فشلا. وفي عام ١٩٥٣ ارتفع عدد موظفي المكتب إلى أكثر من خمسة آلاف موظف.

وكما ترون، فقد انتصر البيروقراطيون. ومهما كان نوع الواجبات المكلفين بها فإنهم في نمو مطرد. فهم إما أن يوسعوا أعمالهم أو يضيفوا طابع الضرورة الملحة إليها. وحتى في الأوقات الهادئة، كانت "قوة الطوارئ الصغيرة" التابعة لنا آخذة بالتوسع لتصبح مؤسسة على نطاق العالم، إذ إن الحرب الكورية غذتها، كما تغذي الأسمدة، النباتات الاستوائية. فعندما ظهرت على صعيد المسرح الدولي في منتصف ١٩٥٠، اتخذت لنفسها دافعا للتوسع لتصبح وكالة حكومية مستقلة وتطلب أكثر من نصف ميزانية المخابرات المركزية.

اندلعت الحرب الكورية في الوقت الذي كنت أستعد فيه للعودة إلى الوطن من دمشق. وعندما حضرت إلى مبنى (L) في شهر أيلول ١٩٥٠، ظهرت أول قضية تورطت فيها الوكالة ، نتيجة فشلها في التنبؤ بمدى وتوقيت الغزو الكوري الشمالي لكوريا الجنوبية وكونها لاتمتلك حتى المادة الأساسية لتعطي "تقديرا مناسبا

للموقف". وقد فقد الأدميرال هيلينكوتر، وهو مدير المخابرات المضادة فـــي ذلـــك الوقت، توازنه في محاولة إقناع وزير الخارجية أو وزير الدفاع، اللذين كانا علـــى خلاف دائم مع بعضهما، وأمضى شهره الأخير في مكتبه لا يفعل شيئا. لهذا عندما جاء المدير الجديد، وهو الجنرال "الخنفسة" سميث، فإنه وجد ذلك النوع من الفراغ الذي كان يحب أن يشغله. ولكونه رجلا عسكريا سريع الصعود، فقد سعى لمـــلء هذا الفراغ.

سعى الجنرال سميث للحصول من وزارة الخارجية والدفاع على طلب منهما إلى المخابرات المركزية للقيام بعمليات شبه عسكرية في كوريا الشمالية والصين، إضافة إلى القيام بمجموعة أخرى من العمليات ذات الطبيعة العسكرية. وبين ليلـــة وضحاها أصبح مكتب تنسيق السياسات أكبر بمرتين من حجم مكتـــب العمليـــات الخاصة، وأصبح لدى منتسبيه من القمة إلى القاعدة درجات وظيفية مدنيـــة أعلـــى بمستوى أو مستويين من نظرائهم في مكتب العمليات الخاصة. ففي البداية، أصبح أكثر من نصف كادر المكتب الجدد، والذين جاءوا من الجيش النظامي، أعضاء في فرقة الشرق الأقصى. وبما أنهم كانوا يعملون في شعبة كوريا، فقد أصبح الكـــادر الإداري لهذه الشعبة أكبر بعدة مرات من جميع شعب الفرقة.

في البيروقراطيات، لايمكن أن تحصل هكذا أمور. فمن الممكن تصور دمـــج جميع العمليات المتعلقة بالحـــرب الكورية بفرقة واحدة مستقلة عن فرق المنطقة ، إلا أن أي رئيس للفرقة يتمتع بقدر من النشاط والخبرة الإدارية سينجح في التصدي لذلك. وهكذا ازدادت أعداد فرقة الشرق الأقصى وحصلت الشعب الأخـــرى علـــى كادر أكبر بثلاث أو اربع مرات عما تحتاجه فعلا ، ولتبرير هذه الزيادة تم ابتكـــار ما يسمى "بعمليات الاسناد".

وقد إختلقت الفرق الأخرى، ولا نستثني من ذلك فرقة الشرق الأدنـــى التـــي أعمل بها، ازمات في مناطق عملها لتبرير الزيادة التي تريدها لمجاراة فرقة الشرق الأقصى وأصبح هذا الأمر أشبه بكرة الثلج.

يقول الأصدقاء القدامى من الذين عملوا في فرقة الشرق الاقصى في ذلك الوقت إنني أبالغ، إلا أن أي مراجعة لنمو مكتب تنسيق السياسات الملحوظ بين الاعوام ١٩٤٩ و١٩٥٣ تشير بوضوح إلى أنه لايمكن تفسير ذلك بغير هذه الطريقة.

وعند النظر إلى تلك الفترة بعد أكثر من ثلاثين عاما من الصعب فهم ماذا كان يدور في أذهان مدرائنا عندما فكروا بإنشاء قوة ضاربة صغيرة تكون مستعدة وفي المتناول في واشنطن للقيام بعمليات مفاجئة عندما تبلغ بأن هناك مشكلة معينة في الأوروغواي أو مصر أو لاوس أو ألبانيا، يصعب حلها بالطرق الدبلوماسية أو العسكرية. هل كانوا يتصورون بأننا سنجلس كرجال المطافئ في محطة الإطفاء نعلب القمار وبانتظار دقة جرس؟ ألم يتصوروا بأننا لابد أن نبحث عن حرائق لإطفائها حتى لو كان علينا أن نشعلها بأنفسنا؟ على أية حال، فإننا لم نكن متعطشين لإشعال الحرائق حتى نطفئها.

عند عودتي من دمشق، كلفني نيك ببناء – شبكة خلفية – في الشرق الأوسط، استعدادا للحرب العالمية الثالثة والتي بدأت بعض الأحداث تنبئ بوقوعها. لهذا سافرت إلى قبرص والقاهرة وعمان وبغداد والبصرة والرياض والظهران وطهران لزيارة رؤساء محطاتنا الاستخبارية، وشرح برنامج الشبكة الخلفية والتمهيد لاستلام المعدات اللاسلكية ومعدات –البقاء– التي ستسلم اليهم بطائرة شحن تابعة للمخابرات المركزية .

كانت مهمتي إعلام رؤساء المحطات عن كيفية إخفاء المعدات وهي كبيرة الحجم بحكم قدم طرازها، في الصحراء مع وضع علامات طبيعية دالة على أماكن وجودها.

كانت أسئلتي لرؤساء الوحدات– حسب تعليمات كيم روزفلت– هل هناك شيء يجري في مكان عملك ؟ وهل تستطيع معالجته دبلوماسيًا ؟ وهل تحتاج مساعدة

مادية أو تقنية؟ وبعبارة أخرى هل تستطيع شراء البلاد عن طريق الحكومة الحالية، أو عن طريق حكومة جديدة نسندها بدعم سري؟ كان عليّ تحديد المشـــاكل التـــي لايمكن حلها إلا عن طريق عمليات يتم تنفيذها بتفويض من مكتب التنسيق الجديد.

عدت إلى واشنطن بجواب أساسي واحد هو (سوف لن تكون لدينا أية مشاكل لو توقفنا عن دعم إسرائيل). ويمكن لرجال مكتب التنسيق مع فهم كـــاف لمنـــاطق عملهم أن يحلوا عددا من المشاكل الصغيرة والمتوســـطة عـــن طريـــق النشـــاط الدبلوماسي ، كما أصبحنا نسمي أعماله فيما بعد. وباختصار فإن ما عدت به كـــان حجة إضافية لتبرير زيادة أخرى في حجم المكتـــب: فعلـــى خـــلاف المراســـلين الصحفيين الذين يمكن أن يعملوا في الأرجنتين مدة أسبوع ثم في بـــرلين الشـــرقية الأسبوع الآخر، يمكن لرجل المكتب أن يعمل في منطقة واحدة فقط مـــن العـــالم. وربما لا يستطيع أن يفهم الطبيعة الحقيقية للمشاكل في تلك المنطقة، إذا تجاوزنـــا ذكر إيجاد الحلول لها، مالم يكن يمتلك فهما تاما عن سكانها، ودوافعهـــم وقـــيمهم. وهذا يعني أنه، بدلا من وجود مجموعة صغيرة من رجال مطافئ المكتب تجلـــس حول المحطة في واشنطن وهي متأهبة للانطلاق نحو مواقع الأزمات أينما تحصل، كنا نحتاج أن يبقى كادر المكتب في حالة تأهب طيلة الوقـــت، وبعضـــهم علمـــاء بالانثروبولوجيا (علم الإنسان) متخصصون بجميع بلدان العالم التي قـــد نحتـــاجهم فيها.

أعجب كيم بالتقرير واصطحبني إلى مكتب ألن دلاس، الذي كان على وشـــك تعيينه نائبا للمدير ومشرفا ورئيسا لمؤسستي مكتب تنســـيق السياســـات ومكتـــب العمليات السرية. وقد قدمني كيم إليه بأني العنصر الوحيد من المخابرات المركزية وحتى ذلك الوقت، الذي أدار عملية نشاط سياسي سري حقيقي- كما كنـــا نســـمي "النشاط السياسي" وفي ذلك الوقت الذي لا يشمل العمليات العلنية وشبه العلنية التي أخذت تحظى باهتمام الصحافة أخيرا. قال دالاس إنه سمع عني من خلال عملي في

الحرب العالمية الثانية في مكتب الخدمات الاستراتيجية والمخابرات المضادة، وكان باقي حديثه يشير إلى أنه يرى أنني متميز في هذا النوع من الأعمال.

مع ذلك، أوضح لنا أن حكومة الولايات المتحدة قد فعلت حسنا في مجال ما يسمى بالنشاط السياسي العلني. على سبيل المثال، عندما ظهر في عام ١٩٤٨ أن الشيوعيين قد يكسبون الانتخابات في إيطاليا دعت وزارة الخارجية رئيس الوزراء الإيطالي، دي كاسبري، إلى واشنطن لإبلاغه أن مبلغ المعونة الكبرى الذي تحتاجه إيطاليا لاغراض اعادة البناء، سوف لن يصلها، إذا لم يتخلص من الشيوعيين في مجلس وزارئه. بعد ذلك قامت مصلحة الإعلام الأمريكية USIS بتشجيع الأمريكيين الإيطاليين لإرسال رسائل وبرقيات إلى الآلاف من أقربائهم في إيطاليا يخبرونهم أنهم سوف لن يحصلوا في المستقبل على صكوك حوالات إذا لم يشتركوا في جهود "إيقاف الشيوعيين". وقد وجه بعض الأمريكيين المعروفين الناطقين بالإيطالية محطة إذاعية ليخبروا فيها الإيطاليين ما يعنيه لهم استيلاء الشيوعيين على بلادهم. وقد جرى إرسال بعثات ودية وفرق موسيقية وإقامة معارض فوتوغرافية واستخدام كل الوسائل الممكنة لبيان مزايا العلاقات الأمريكية الإيطالية الطيبة، على النقيض من نمط العلاقات التي تتهدد الإيطاليين بإقامتها مع الاتحاد السوفيتي. بلغت مساهمة المخابرات المركزية أكثر من مليون دولار عبارة عن هدية لحزب سياسي واحد مناهض للشيوعيين ونصيحة بسيطة إلى حكومة دي كاسبري حول العمل الذي ينبغي على الإيطاليين أداؤه لإبعاد الخطر.

قال دالاس أن على المخابرات المركزية أن تشجع باقصى قدر ممكن النشاطات العلنية من هذا النوع، وكان يأمل أن نجد في الشرق الأوسط مجموعات وأفرادًا يقومون بما هو مطلوب بأنفسهم وعلينا المشورة والمال فقط. وأضاف أن وزارة الخارجية تحتاجنا، إلا أنها قد تلجأ إلينا إذا ما أرادت الحكومات التي ندعمها إبقاء علاقاتنا سرية معها. أي أن السرية هي لمصلحتها.

وعند عودتنا إلى بناية (L) ، قال كيم إن عليّ ألا أفتتن كثيرا بما سمعت، لأن ألن دالاس يتصــــور نفسه كشخصية في إحدى روايات جون بوكن(*) ولايتردد إذا ما حانت فرصة مناسبة إليه للعب أدوارنا. وقال كيم: "قد يعمل ألن المستحيل مـــن أجل السماح له بالذهاب إلى مكان ما ليخطط بنفسه لانقلاب معين".

(*) السير جون بوكن ١٨٧٥-١٩٤٠ مؤرخ وروائي ورجل دولة أسكتلندي، أصبح الحاكم العام لكندا من ١٩٣٥-١٩٤٠ . (المترجم)

الفصل الرابع عشر

المخابرات المركزية: هل هي مؤسسة نظامية أم تشكيل بيروقراطي؟

حدد مكتب تنسيق السياسات خمسة مجالات لأعماله هي: الدعاية، ونقابات العمال، واللاجئين والميدان السياسي وشبه العسكري. كان علينا التركيز في العمل على اوربا الغربية ثم الشرق الأوسط وبعده افريقيا. لم تكن أوربا الغربية ضمن نطاق اهتمامي، وذلك لانني كنت وسط كادر فرقة أوربا الغربية الذين يتحدثون لغتين وثلاث لغات، مجرد فتى ريفي. وقد اتضح لي هذا عندما عملت لفترة قصيرة في قسم ألمانيا. وفي الوقت الذي عدت فيه من سوريا، كانت فرقة أوربا الغربية قد ازدادت قوة.

هناك اثنان من المجالات الخمسة هما نقابات العمال والميدان شبه العسكري، لم تكن فرقة الشرق الأدنى توليهما أدنى اهتمام. لأنه لاتوجد هناك نقابات عمال تستحق حمل هذا الاسم في الشرق الأوسط. ولكون العمليات شبه العسكرية من النوع الذي نبحث له عن حجة قوية لاضعافها قبل أن يأتي صاحب أفكار لامعة ويطالبنا بدور فاعل في النزاع العربي الإسرائيلي أكثر مما كنا نأمل. أما الميدان السياسي، فإنه سيكون ميداني المفضل، فقد أصبحت جهودنا لرفع حسني الزعيم إلى السلطة في سوريا قضية قياسية تدرس في الصفوف التدريبية. إلا أن كيم كان يرى أن علينا ألا نثير الانتباه لفترة معينة عندما كنا نراقب ونستمع لضجيج زملائنا من وزارة الخارجية حول كيف يمكن إن يؤدي انشاء حكومات منتخبة ديمقراطية في البلدان العربية إلى اتخاذها مواقف أكثر اعتدالا إزاء دولة إسرائيل الجديدة.

وهكذا وبينما كنت منشغلا بتصفية عملي كنائب لكيم لشؤون المخابرات، كنت في ذات الوقت أهيئ نفسي لمنصب مستحدث وهو رئيس هيئة التخطيط للمعلومات في فرقة الشرق الادنى، مع ترفيع بالرتبة حسبما وعدني فرانك وســنر. حــددت وكالة المخابرات المركزية مفهوم "المخابرات" ليشير إلى ما علمناه عن الآخــرين ويشير مفهوم "المعلومات" إلى ما أبلغنا الآخرين به حول أنفسنا. الأولى هي الوارد أي ما نريد أن نعرفه عن الأهداف، بينما الأخيرة فهي الصادر أو ما نريد أن يعتقده الأهداف من معرفة بشأننا. أشار كيم إلى أن هناك "معلومات" أكثر من "المخابرات" في التقارير التي كنت أرسلها من دمشق ، ولهذا فانني يجب أن أعود فــورا إلــى الوطن لتولي هذا العمل الجديد.

وقد وافقت. كان العمل من الناحية الأساسية عبارة عن تلفيق معلومات علــى غرار "رجل يعض كلبا" وذلك لتوفير أفضل فرصة لتتلقفها الصحافة وفــي نفــس الوقت تحتوي على مضامين تعزز المصالح الامريكية وتؤذي السوفيت. وهو عين العمل الذي أريده. إلا أنني أشعر أنه كانت تعوزني المؤهلات الأدبية الضــرورية. لهذا اتخذت لي مساعد، وهو صديق من الالباما سمعت أنه قد كتب روايتين حظيتا بثناء النقاد لاسلوبه في الحوار. لم اكن اتصور أن حواره في رواياته هــو نفــس اسلوبه العادي في الكلام، وعندما وصل إلى غرفتــي دهشــت لســماعه يتحــدث بعبارات مثل " **ain't**" " **he don't**" ، كما كنت أسمع ذلك سابقا. وقد أخذت أتــآلف مع هنري راكو وجيم ايكلبرغر.

ايكلبرغر! لم أعد أسمع عنه منذ افترقنا في نهاية الحرب. لقد ظل في باريس وانتقل إلى شقة في منطقة (الضفة اليسرى) وأخذ يكتب مواضيع غريبة لصــحيفة النيويوركر. واكتشفت انه انتقل بعد ذلك إلى شيكاغو واستلم عملا في أكبر شــركة عالمية للعلاقات العامة (**JWT**) ، فيكتب نسخا وخطابات للسياسيين. وبعد مكالمــة معه وهو بشيكاغو، استقل الطائرة وتوجه إلى واشنطن.

لم يكن هذا ايكلبرغر السابق. لقد حضر، وأخبرني أنه مستمتع جدًا في العمل بالعلاقات العامة خاصة من حيث الراتب وحساب النفقات وقال أنه بعد شهور قليلة من الممارسة، اصبح يكتب بنفس سوء باقي موظفي شركة (JWT). كان هو وكيم يقدران بعضهما وينظر أحدهما للآخر بأنه الزميل المثقف، وبعد تدقيق أمني سريع، تم تعيينه كموظف دائم وبراتب يستطيع سحب جزء منه لاستئجار منزل في جورج تاون. خصصت لي وله ولصديقي من الألباما، ولاثنين من السكرتارية، مكاتب من جناحين ملاصقة لمكتب كيم، وبعد أسبوع من الإجراءات الإدارية، باشرنا العمل. ولمدة شهرين أمضينا بعض الأوقات الممتعة في المساء نناقش مواضيع ثقافية رفيعة المستوى، بينما نبتكر مواضيع دعائية خلال النهار حيث بدأت مرحلة جديدة في مسيرة حياتي الاخذة بالصعود.

أتذكر حصول ايك على موافقة كيم بدون رغبة منه على خطة تقضي بإرسال وابل من البرقيات إلى زعماء الشرق الأوسط حادي الطباع وغير المحبوبين والتي قد تثير ردود لاعقلانية يمكننا نشرها بطريقة تثير الشكوك حول سلامتهم العقلية. كان أول تطبيق لهذه الفكرة هو إرسال سلسلة من الرسائل البرقيات إلى جميل بارودي، الممثل السعودي الذرب اللسان في الأمم المتحدة. وكانت هذه الرسائل ذات نغمة تجمع بين الاهانة والتقى، رغم أنها مكتوبة من قبل مسلمين شديدي التدين وعرب مغالين في الوطنية، فقد اتهموه بفتور الهمة في الدفاع عن الجانب العربي في الصراع العربي الاسرائيلي، وهذا يعود ربما إلى خضوعه للتأثير الغربي. وقد أكل بارودي الطعم، وألقى عدة خطابات حتى إنه ثرثر فيها بكلام خال من المعنى أكثر من المعتاد.

وقد سر ايك بالعمل، وقال إنه "أفضل وأكثر عملية من حبوب الهلوسة". مع ذلك لم يكن كيم، مرتاحا له. فهو في الوهلة الأولى يحب جميل بارودي، ويوافق على معظم ما يقوله. وثانيا، يقول إنه لاشيء خاطئ في الموقف السعودي من الصراع العربي- الاسرائيلي، وإنه من الأفضل للولايات المتحدة أن يتمكن

السعوديون من شرحه بوضوح وبطريقة مقنعة. مع ذلك، ما أثار انزعاجه أكثر هو منظر خبراء مكتب تنسيق السياسات ذوي النفوذ العـالي وفـي متنـاولهم جميـع إمكانيات حكومة الولايات المتحدة، وقد كرسوا قدراتهم للسخرية مـن صـديق ذي نوايا حسنة. شرح كيم موقفه، ونكسنا رؤوسنا خجلا.

كانت لديه ملاحظات أخرى. أولاً يجب علينا من دون جميع النـاس أن نفهم ما يعنيه فهم أو معرفة شيء معين، وأن ندرك الفرق بين فهم شيء والإيمـان به. ثانيا اننا كمختصين في مجال الدعاية علينا أن نفهم انه يجب تكييف "المعلومات" لتلائم "المعتقدات" وليس الفهم أو المعرفة. كان موسوليني يدرك هذا الفرق (فقد كان يقول: انا لا اريد لشعبي أن يفهم أو يعرف، انا اريده أن يؤمن) وهكذا نحن علينـا كذلك. إن ما يهمنا هو معتقدات أهدافنا وليست معتقداتنا.

في تلك اللحظة المعينة من التاريخ، لم يكن هناك عمل جدي لرجل الدعاية في فرقة الشرق الادنى، ولو لم يكن لدينا مثل هذا المرح، فليذهب العمل إلى الجحيم . كان انقلاب حسني الزعيم يشكل حتى ذلك الوقت العملية السياسية الوحيـدة التـي ادارتها المخابرات المركزية دون معرفة الوكالات الأخرى. لهـذا، وتنعمـاً بهـذا النجاح، أو مهما كانت تسميته، رأيت نفسي بأني أفضل موظف في بناية (k) فـي مجال العمليات الفعلية. مع ذلك كنت أشعر في ميدان العمل بأنني موظـف مـن الدرجة الثانية خاصة في ضوء التخطيط للعمليات الذي كنت ألاحظه بـين حـين واخر في فرقة أوربا الغربية . كانت لدى هذه الفرقة التابعة لمكتب التنسيق حوالي مائة خطة على الورق هدفها التأثير على الانتخابات وإحراز السيطرة على نقابات العمال، وخلق نقابات عمال جديدة، ودعم صحفًا وصنع وجوهًا سياسية في مجاميع اللاجئين، وقد وضعت ثلاثون أو أربعون منها موضع التنفيذ مؤخرا. لقـد جعلـت درجة وضوح عرضها في كتابات كادر مكتب العمليات الخاصـة تبـدو بسـبب تناقضها وكأنها عمل مجموعة من الأميين. مع ذلك ورغم أن معظم عملـي فـي منتصف ١٩٥٢ كان في التخطيط لمشـاريع عمليات مكتب التنسيق، إلا أنني كنت لا أزال مدرجا كضابط في مكتب العمليات الخاصة وهذا هو التناقض.

بعد ذلك حصل أمران أسرعا في إدخال حياتي الاستخبارية مرحلـــة جديـــدة. الأول هو قيامي بجولة واسعة في أفريقيا. فعندما أدمج مكتب العمليـــات الســـرية وتنسيق السياسات وأصبح الن دلاس نائبا للمدير لشؤون التخطيط، اضفيت الصـــفة الرسمية على منصب كيم كرئيس لفرقتي الشرق الأدنى المدمجتين. كذلك، توسعت الفرقة لتضم ليس فقط الشرق الاوسط ومجمل أفريقيا بل أيضا أفغانستان والباكستان والهند وسيلان . وقياسا بالأميال المربعة، أصبحت ساحة عملياتنا أكبر من ســـاحة عمليات جميع الفرق الأخرى مجتمعة واعتقدنا أنه يجب أن نلقي نظرة عليها.

من الصعب على رجل واحد القيام بذلك، لهذا قرر كيم بـــان يـــزور الشـــرق الأوسط وشبه القارة الآسيوية، وأزور أنا كوني الثاني في التسلسل القيـــادي كـــل افريقيا. كان هو من يغادر أولاً وعاد إلى واشنطن بعد شهر بعد أن أجرى محادثات مطولة مع جميع حكام غرب آسيا المهمين، وكذلك مع جميع الحكام الثانويين، وقد جند بعضهم كعملاء للمخابرات المركزية، ولنقل زبائن يمكـــن أن يتعـــاونوا مـــع حكومتنا حول جميع الشؤون الدولية التي لنا مصلحة مشتركة فيها، مقابـــل الـــدعم المالي والمعونة الفنية.

عاد كيم إلى واشنطن وقد أمضينا نحن الاثنان وزوجتانا عطلة نهاية الأسبوع نستمع إلى قصص رحلته ونشاهد شرائحه (سلايداته) الملونة .بعد ذلك غادرت إلى افريقيا. لم يعرض لي أي أحد في تلك القارة ضيافته، إلا أنني اجريت اتصـــالات مفيدة في السودان واثيوبيا وكينيا وجنوب افريقيا ونايجيريـــا وتوغـــو ولايبيريـــا. اجريت اتصالات أخرى في غانا وساحل العاج والسنغال. على سبيل المثال كان في غانا بوب فليمنغ وهو "تي.ئي. لورنس[*] الخاص بساحل الذهب"وهو أمريكي وزنه

([*]) توماس إدوارد لورنس الشهير باسم لورنس العرب (١٨٨٨-١٩٣٥) ضابط بريطـــاني مـــن اصل أيرلندي، وهو مغامر وكاتب، ساعد الملك فيصل بن الحسين خلال الثـــورة العربيـــة الكبرى في ١٩١٦. كتب مذكراته عن الثورة في كتابه أعمدة الحكمة الســـبعة. مثّـــل دوره الفنان عمر الشريف في فيلم عنوانه لورنس العرب . (المترجم)

(٣٠٠) باون كان مستشارا لكوامي نكروما وأحد أكثر الرجال الذين التقيتهم حكمة. كذلك التقيت نكروما نفسه الذي تناولت معه بفضل بوب، غداء لثلاث ساعات. وقد وجدته أحد أكثر الرجال الذين التقيتهم سحرا، حيث لم يصبح بعد الشخصية العظيمة السلطان، كانت امامه فترة طويلة ليطور بها أوهامه بالعظمة. كان ودودا ومحبـا ويتمتع بحس عال من الروح ويتحدث الانكليزية بلهجة موسيقي من نيواورلان. بعد ذلك التقيت بفيلكس هوفوا بوانيه، رئيس ساحل العاج، الذي يتحدث فرنسية باريسية جميلة، وقد اعجبت به لأنه رفيع الثقافة وسياسي من الطراز الأول وأخيرا التقيـت الرئيس سنغور، رئيس السنغال وهو شاعر ضليع. أن لقاءاتي بنكرومـا و هوفـوا بيوانيه وسنغور تكفي لجعل رحلتي ناجحة في مجال وظيفتـي فـي المخـابرات المركزية ومستقبلي فيما بعدها.

جاءت أكبر فائدة في رحلتي من خلال المشاورات التي أجريتها مـع بـوب فليمنغ الذي يشاركني تعاطفي الطبيعي مع الأفارقة السود، إلا أنـه أبـدى ازدراء لنكروما، أكثر مما يستطيع نكروما تحمله، فطرده من البلاد. ولكن حتى بعد نفيـه إلى نيجيريا ظل يساهم في زيادة تفهم حكومتنا للافارقة السود وكانت النتيجة أن بدأ الموظفون المحليون في وكالة التنمية الدوليـة (AID) يفهمـون ضـرورة تقويـة تعاطفهم مع "الواقع الثقافي" (كما يسميه بوب)، حتى ولو عارض رؤسـاؤهم فـي واشنطن ذلك.

وبالنسبة لي، شرح نقطتين لهما علاقة بما كنت أفكر به. الأولـى أن الـنمط الوحيد من المجتمعات التي يشعر فيها الأفارقة السود بالراحة هو المجتمع القبلـي، وجوهره هو "السلطة القبلية". والنقطة الثانية، لايوجد هناك شيء يسمى قيادة لكـل افريقيا يمكن عهدها لرجل واحد أو أي مجموعة صغيرة من الرجال، لـيس فقـط بسبب أنها تتعارض مع "السلطة القبلية"، بل لأنه لاتوجد لغـة مشـتركة. نصـف الأفارقة يتحدثون الفرنسية، ونصفهم الآخر الإنكليزية والكثير منهم يتحدث بـأكثر

من مائتي لغة مختلفة وكل واحدة منها تضم مجموعات عديدة من اللهجات المختلفة.

كما ينقسم الأفارقة السود أيضا من حيث أحقادهم ومخاوفهم المتبادلة وبحقيقة أن المتنورين منهم لديهم "آمال" تختلف بجوهرها وكيفية تحقيقها. لقد تحدث بوب مع كل هذه المجاميع. قال إن ما يريده الافارقة السود من هذه "الامال"، هو بالنسبة لنا محض شعوذة، إلا أنه بالنسبة لهم يشكل سببا كافيا لشن حروب قبلية فيما بينهم. فالأحاديث حول وباء الحمى القلاعية(*) الذي اجتاح كل أراضي أفريقيا هي إلى حد كبير عبارة عن نقاشات حول أدوية من السحر، بل حتى أن رجال الطب الذين يحملون شهادات من جامعة اوكسفورد يشتركون بنفس الحماس مع ابناء عمومتهم من الاميين.

لقد حقق السوفيت قدرًا معينًا من التقدم على صعيد أفريقيا لأنه كان موجهًا ضد شيء معين، جزء منه حقيقي والآخر خيالي. أي رجل دعاية يعرف أن أفضل طريق لتوحيد الشعوب المختلفة هي خلق وتأجيج كراهية مشتركة ، في حين إذا ما حاولت أن تقدم إليهم ما يريدونه، فإنك ستجد أنهم يريدون مجموعة واسعة من الأمور، ولايستطيعون الاتفاق على الأوليات. وبإمكانهم فقط الاتفاق على ما يقف بينهم وبين هذا الاختلاف وعلى من يوجهون إليه أصابع اللوم على حرمانهم.

ولغاية نقاشي مع بوب فيلمنغ حول الموضوع، كنت أحلم برفع نكروما إلى مرتبة يكون فيها بمثابة المسيح الأفريقي. كنت أعتقد أنه إذا استطاع تولي القيادة في غانا رغم اصوله القبلية الوضيعة فانه قد يفعل الشيء ذاته لكل أفريقيا السوداء. ونتيجة إعلانه أنه على الحياد في النزاعات القبلية الداخلية، فإنه رفع نفسه فوق

(*) وباء الحمى القلاعية هو مرض خطير معد يصيب الماشية ويسببه أحد الفيروسات ومن أعراضه الحمى وظهور قروح في الفم وحول الأظلاف. ويمكن أن ينتقل إلى الحيوانات المنزلية وإلى الإنسان.(المترجم)

مستواهم بشعارات راقت لهم جميعا أو هكذا كان يبدو الأمر لي. إلا أن بوب قـــال إنني على خطأ شنيع. فالأمور ليست كما تبدو. فقد ادعى نكروما مؤخرا أنه "أعظم من موسى"، وأنه مستعد "لقيادة جميع الشعوب الأفريقية عبر البحر الأحمر للخلاص من الظلم الامبريالي". علي ألا أنخدع بهذه الإشارة الأولى لاتجاهه نحـــو جنـــون العظمة. كان بوب يأمل ألا يكون رأيي انعكاسًا لما يجري في أرض الوطن. وقال انني إذا ما المحت بذلك إلى القادة الأفريقيين الآخرين بأنني قـــد صـــدقت بهـــذر نكروما، فاني سأصبح بنظرهم مجرد موظف آخر من واشنطن يقوم برحلة علـــى نفقة الدولة. إلا انه اتفق معي على أنه أي سياسي ساحر للجماهير سيحظى بدرجة من القيادة في أفريقيا - إذا كان مرغوبا به - حتى لو كان أبيض .

ولكن، رغم عدم وجود أي قادة حاليا، فإن ما ادعوه "بفراغ القيـــادة " يجعـــل السوفيت يخططون لملء هذا الفراغ، وتوحيد أتباعهم خلف شخصية غير معروفـــة ترفع شعارات مناهضة للاستعمار. تنتشر في افريقيا السوداء ما يسميه مخططونـــا "الأوضاع السابقة للثورة"، وليس البريطانيون والفرنسيون على رأس هذه الأوضاع كما يعتقد رؤسائي. إن الصورة التي سيكون بها الافارقة السود إذا لم يكن هنـــاك الاستعمار البريطاني والفرنسي، واضحة بما يكفي للمراقب المحايـــد، كمـــا هـــي الحقيقة بأن أمريكا هي المصدر الوحيد الذي يمكن تصوره ليقدم المعونة الاقتصادية والفنية المطلوبة لإنقاذ ملايين الأفارقة من الموت بسبب المرض وسوء التغذية. مع ذلك فرجال الدعاية السوفيت والمبتدئون من أتباعهم يقنعون بعض الأفارقة النشطاء سياسيا وبلاغيا بانهم يجب أن يتخلوا عن خلافاتهم القبلية وأن يطردوا "الاســـتعمار والرأسمالية" .

لهذا يمكن للأفارقة أن يتحدوا. لقد اهتم السوفيت بدرجة كبيرة بالبرهنة علـــى هذه الحقيقة إلا أنني لا أقبل الجزم بأنهم لا يمكن أن يتحدوا إلا أمام عدو مشـــترك. فخلال يوم أمضيته في غابة بساحل العاج مع المبشر والعـــالم الالمـــاني بأصـــل الإنسان الدكتور هانس كروبر، أقنعني أنه في تلك المرحلة من التطور الاجتماعي،

فإن الأفارقة القبليين ينقادون وراء أي قيادة تتمتع بالسحر الجماهيري وتكون من نمط الواعظين الأصوليين الذين كانوا يسلبون لب الجماهير في ولاياتنا الجنوبية.

أوضح بصورة دقيقة كيف أنه في أوقات الأزمات قد يظهر قائد ويتبعه رجال القبائل بكل طاعة رغم أنه لا يلقي خطباً ملتهبة أو يرفع شعارات معينة. لقد رأيت هذا بنفسي. عندما اقتربنا أنا والبروفسور من إحدى القرى ومعنا شيخ قبلي. كان القرويون يصيحون على بعضهم البعض حول شأن قبلي معين. وحالما رأوا الشيخ توقفوا عن جدلهم وأصغوا بانتباه، وهو يقرر الحل بهدوء.

سألت البروفسور كروبر: ما الذي لدى هذا الزعيم وليس لدى أتباعه؟ قال إنه يمتلك السحر الجماهيري. ما هو هذا السحر ؟ هل يمكن لأحد رجال القبائل تطوير مثل هذه الملكة واستلام زمام القيادة. قال: كلا. ياتي القائد أولاً ومن ثم يأتي سحره الجماهيري. لم يكن قائدا لأنه يمتلك هذا السحر، إنه يمتلك هذا السحر لأنه قائد، إن الأمر بسيط كموضوع الدجاجة والبيضة. من الممكن تصور أن يستطيع شخص معين تطوير سحر جماهيري أو حتى يمكن أن تقوم بخلقه له شركة علاقات عامة لتحسين الصورة، إلا أن الأمر لا يمكن أن يحصل تحت أنوف الأتباع ودون ملاحظتهم، والقائد المصنوع ذو السحر الجماهيري يجب أن يأتي من الخارج.

وهكذا تركت أفريقيا مشبعا بأفكار وآراء جديدة. النقطة المركزية فيها هي إيماني بأننا نحتاج إلى قائد واحد في أفريقيا لا يهم إن كان أبيض أو أسود أو أسمر، يستطيع توحيد جميع الأفارقة السود خلف قضية إيجابية بناءة، وإن علينا أن نمدهم بمثل هذا القائد. كتبت مقترحاتي وأرسلتها إلى واشنطن ببرقية تضارع في طولها البرقية التي أرسلها جورج كينان من موسكو قبل سنوات من ذلك.

عند إعادة النظر إلى أفكاري اللامعة في عامي ١٩٥١ و ١٩٥٢ وبالخبرة التي اكتسبتها من تجربة أكثر من خمسة وثلاثين عاما، من الصعب إعادة صياغة ما كان يدور في ذهني في ذلك الوقت. إنني أتذكر فقط تلك المجموعة من المفاهيم

التي عدت بها إلى واشنطن قد جعلت ثمانية أو عشرة من الموظفين يعملون بجـد لأكثر من شهر في توضيح مدلول المفاهيم أو في توضيح "المفاهيمية" كمـا كنـا نسميها. لغاية ما وجه كيم روزفلت نقده إليها، كانت تكبر ككرة الثلج لتصبح خطة دخلت في الأرشيف السري لنشاطات المخابرات المركزية تحت عنوان "البحث عن بيلي غراهام مسلم"(*). فقد دفعت مذكرة بريدية رئيس محطة المخابرات في بغداد لتجنيد" رجل دين " محلي وإرساله في جولة خطابية حيث سببت اعتقاله ومحاكمته ومن ثم شنقه على يد حكومة نوري السعيد. كان نوري يعارض هذا الأمـر "مـن حيث المبدأ"، كما قال ذلك فيما بعد في رسالة اعتذار إلى كيم روزفلت عندما علـم أن الرجل هو حقاً عميل مخابرات مركزية كما ادعى، ولم يكن متبجحًا أمام محققيه بعلاقته هذه.

كانت رسالة نوري باشا هي أول شيء يسمعه كيم عن الموضوع. كان حانقاً وتصور أني قد أصبت بالجنون. وهو يعرف بالضبط أن موظفي مكتـب تنسـيق السياسات هم مجانين بالفعل، إلا انه يتوقع مني الأفضل، قال: "إنك تحب الفكـرة لمجرد الفكرة نفسها، تلك هي مشكلتك، إلا أن عليك أن تتعود علـى النظـر إلـى أفكارك اللامعة من خلال عواقبها". ولأنه من أسرة روزفلت، تلك الأسـرة التـي تعتبر فيها القيادة تقليدًا، منح الموضوع قدرًا كبيرًا من الأهمية. ألقى علي محاضرة عن كيف يمكن أن يكون القادة برغم سحرهم الجماهيري عملاء لأتبـاعهم فقـط، وكيف أن أي توحيـد دون تفكير كاف بين القـادة والأتباع يمكن أن يولد انفجارًا لا نتوقعه.

قال كيم، مع ذلك فإن للفكرة بعض المحاسن، لذلك سوف نضعها في الزاويـة لفترة من الزمن حاليا، وسوف ترافق كيرك باترك وجونستون فـي جولـة لتفقـد محطاتنا الميدانية. سوف تمتليء جعبتك وستنشغل بجمع الأفكار وراءهـم، إلا أن

(*) بيلي غراهام هو أرفع شخصية دينية في الولايات المتحدة ويردد أمامها الرؤساء الأمريكيون القسم عند توليهم منصب الرئاسة . (المترجم)

عليك أن تواصل بكل الوسائل بحثك عن رجل دين كبير، وأن تدقق هذه الأفكار مع الظروف المحلية في الأماكن التي ستزورها وسنناقشها عندما تعود.

كان ليمان كيرك باترك رئيسا لمكتب العمليات السرية والعقيد كيلبورن جونستون رئيسا لمكتب تنسيق السياسات وهما الآن "هيئة أركان" بدلاً من كونهما " في صفوف الوحدات المقاتلة " (أي في لغة هندسة الإدارة، لم يكن لهما بعد صلاحية القيادة، وبامكانها فقط كتابة تقارير عن الشؤون السياسية) .

كانت شخصية كيرك باترك وظلت، خارج نطاق خبرتي التحليلية. فمنذ التحاقي بالمخابرات كنت أحتفظ بملفات عن كل فرد فيها يمكن أن يؤثر بأية طريقة بحاضري أو مستقبلي وهو دافع بدأ عندي منذ أيام لعبي القمار، حيث احتفظ بملاحظات عن سلوك جميع اللاعبين الآخرين والتي تشير فيما إذا كان لديهم ورق جيد أو أنهم مخادعون. إلا أن قصاصاتي حول كيرك لاتتطابق مع بعضها لترسم له شخصية يمكن التنبؤ بها. عندما كان الفتيان دون العشرين يسرقون سيارات ذويهم ويمرون بتجارب مع البنات (أو الأولاد)، ويتعلمون التدخين، كان كيرك يجمع شارات الاستحقاق ليصبح في الآخر أصغر عضو في فريق كشافة النسر في نيويورك. وعندما أصبح راشدا، ظل جديرًا بالثقة، ووفيًا، ومتعاونًا، ونشيطًا وشجاعًا ومهذبًا ومحترمًا وإلى حد معين رحيمًا.

كان قاسيا معي ويمثل رجل الوكالة الصارم الذي يسمو على العواطف. ويوبخني بين كل محطة وأخرى، ويعنفني أمام منتسبي مكتب العمليات السرية في جميع المحطات لمجرد أن يريهم كم هو قاس. إلا أنه ينسى ما يفعل. وعندما أحتج، فإنه يعتذر بشدة وبحرارة. بينما كان العقيد "بات جونستون" سكيرا سابقا وعانى من نوبة قلبية واحدة على الأقل، وهو يتبنى أسلوبا مشاكسا أفاده كثيرا في وظيفته كرئيس لمؤسسة كل كادرها من "انتهازيي عصبة الجامعات". ورغم أنه يحاول إخفاء الحقيقة، إلا أنه شخص ألمعي بما لايقبل الشك، فتسلطه يستند على ذكاء متفوق.

ولكونه ابناً لهوف جونسون العجوز المبدع والاداري المنظم في إدارة روزفلت فإنه قد تعلم العمل الحكومي منذ نعومة أظفاره، بعد ذلك التحقق بجامعــة ويســت بونيت حيث برع في مبادئ التنظيم العسكري. وفي الحرب الثانية أصبح الشخصية الرئيسة في مجال برامج الإدارة والتنظيم التابعــة للجـيش الأمريكــي، فيكتـب الكراسات ويضع الأفكار بأسلوب واضح خال من الصيغ العسكرية المبتذلة. وفــي الوقت الذي قمنا فيه برحلة انا وهو وكيرك، كان قد قرأ كل ما كتب عــن الإدارة والتنظيم، ويستطيع أن يستعيد ما قرأه بطريقة ممتعة وغزيرة بالمعلومات.

وعليّ أن أذكّر القارئ، أنه لم تكن خبرة بات جونستون ولا قائمة الكتب التي زودني بها هي أول ما عرفته عن موضوع الإدارة. فقد سبق أن ساعدت بيــردي سيلفا في كتابة خطط الوكالة عندما كان قسم المخــابرات المضــادة متحــدا مــع المخابرات السرية قبل مدة طويلة من سفر كيرك أو بات إلى خارج الوطن. علــى أية حال، فالبيروقراطية (نظام الأساليب والقواعد لأداء الوظــائف) هــي لعبتــي المفضلة، وليس التنظيم أو الإدارة أو برامجها بالمعنى الخاص الذي تستخدم فيــه هذه المفردات من قبل موظفي هذه الأيام. لقد قرأت ماركس ولينين وماكس فيبــر ولود فيك فون أيار وفردريك فون هايك وخاصة فرانز نيومان وروبرت ميشــيلز. ففي كتابة المسمى "بهيموث" بيّن نيومان كيف أن "دولة البيروقراطية داخل الدولة" قد سهلت وصول هتلر إلى السلطة، وطرح كتاب ميشيل "القانون الحديــدي لحكــم الأقلية (الأوليغاركية)(*) "عدة أفكار لم افهمها عندما قرأتهــا لأول مــرة، إلا أنهــا برزت إلى السطح عندما التقيت القادة الأفارقة الذين كانوا يــرون البيروقراطيــات أخذت تنمو أمامهم وتخرج من أيديهم.

من خلال قراءاتي، كنت أفهم البيروقراطية على أنها شيء مقيت يــدل علــى مفهوم الروتين الحكومي وموظفي الخدمة العامة ذوي الوجوه عديمة الملامح الذين

(*) الأوليغاركية: نظام حكم تنحصر فيه السلطة بيد جماعة صغيرة تــتحكم بمقــدرات الــبلاد ومصالحها. (المترجم)

يزعجون المواطنين من دافعي الضرائب. ففي مصطلحاتي الخاصة، تعتبر البيروقراطية نوعا خاصا من التنظيم له سمات معينة- أي توزيع المهام على وفق المهارات الخاصة ونظام الأهمية في علاقات الموظفين ببعضهم والوصف الرسمي لعمل كل فرد، والقواعد المحددة التي تحكم العلاقات بين الأفراد والأقسام والمجموعات العاملة. إن تأسيس البيروقراطية كما حددتها هي أكثر قليلا من إدراج الأشياء التي يجب القيام بها على شكل قوائم من أجل تمكين المؤسسة النظامية من بلوغ اهدافها، ثم تقديم هذه الاشياء الاربعة بأية وسيلة ممكنة بتعقيد أقل. أن صفتها الرئيسة هي أن السلطة يهمها وصف العمل وليس الأشخاص، والولاء يكون للموقع الوظيفي بغض النظر عن الشخص الذي يشغله.

كم هو نظام سهل يمكن اختراقه؟ فأي جمع كبير من الناس العاملين معا وتربطهم شبكة من العلاقات الشخصية القوية ولديهم مصادر معلومات سرية، فان هذا الجمع سينمو ويكبر سواء شاء مؤسسوه أم أبوا. يمكن للمؤسسة الشديدة البيروقراطية أن تعمل بنجاح منقطع النظير عندما تكون وظيفتها ليست أكثر من صيغ مكررة روتينية، إلا أنها عند وقت الأزمات، فإن العلاقات الشخصية هي الحاكمة. وبتأثير من بات، ابتكرت عبارة "خلق الأزمات"، بعد أن أدركت أن الفهم الشامل للقوى المحركة في المؤسسات هو أمر لازم في التخطيط للعمل السياسي المتقن الذي أود أن أكون حاذقا فيه. لقد بحثت عن عملية تكون أكثر فناً من مجرد العثور على عقيد معتوه ثم إرشاده لخطوات تنفيذ انقلاب ما. وعند تطبيق دروس بات على ما شاهدته في أفريقيا، خطر لي أن أي بيروقراطية صارمة لابد أن تكون متحسسة من خبراتي المتنامية في أي درجة من تسلسلها الهرمي ابتداء من رئيسها وحتى أدنى مستوى وظيفي، طالما أن هناك مجالاً واسعًا "لخلق أزمة" أو "لمعالجتها".

وعن طريق سيطرته على قنوات المعلومات الخاصة بمؤسسته، يستطيع أعلى مسؤول فيها أن ينشط الشبكة الشخصية غير الرسمية وفقا لمصلحته. وأن يستفيد

من التفاعل بين الهياكل المؤسساتية الرسمية وغير الرسمية لتحقيق أغراضه وكذلك يعتمد بشكل رئيس على هذه الهياكل من خلال استخدام الأشخاص لموالاتهم وليسوا كشاغلين لمراكز وظيفية شريطة أن يتمتع بالقدرة على تزويد الهياكـــل الرســمية بأشخاص موالين له ويشغلون المواقع الحساسة.

يمكن لأي فرد في المؤسسة بدرجة دنيا، إذا ما مارس الأساليب التي عرفهـــا أن يبث خبرا في الوسط الناقل للإشاعات حيث يمكن أن ينتشر نحو الأدنى ليخلـــق مشاكل وإلى الأعلى ليؤدي إلى المعرفة بهذه المشاكل، وبهذا ينشئ في المؤسســـة غير الرسمية علاقة من نوع الجذر والنبتة، والتي تتعرض بشكل خاص "للتأثيرات الخارجية"، كما استخدمنا هذه العبارة في بحوثنا الخاصة بالتخطيط. وبعبارة أخرى، خلق الأزمة على المستوى دون المتقدم.

وقد نبهني بات على حقيقة أن شيئا من هذا القبيل قد حصل إلى صنف جديـــد من المهنيين يعرف بمهندسي الإدارة. في كل بلد أفريقي زرته، وصل القائد إلـــى السلطة عن طريق قطعه وعودًا لا يمكنه تنفيذها ويبقى يتمسك بالسلطة ملقيًا اللـــوم في فشله على القوى الخارجية ويأخذ بإلقاء المشتبه بهم في السجون. يعتبر مـــزيج "اللوم والقمع" فاعلا عند تطبيق ما أطلـــق عليـــه ميشـــيل وآخـــرون "الســـيطرة البيروقراطية". ولأنني كنت أحاول توضيح العديد من الفقرات السابقة، فـــأقول إن نقص هذه السيطرة هو الذي أدى إلى سقوط حسني الزعيم.

وبخلاف مدير المخابرات المضادة الجنرال سميث، لم يكن كيرك باترك (كما كان يقول بات)، "رجل المؤسسة الكامل" بل كان "رجل البيروقراطية الكامل". وقد التمعت هذه الفكرة بذهني بقوة عندما هبطنا في استنبول بعد تعكيرنا لمزاج رؤساء محطاتنا الاستخبارية في نيودلهي وكلكتا وكراجي وبغداد وبيروت، حيث كان أركي هو المسؤول.

في لقائنا الأول، واصل كيرك وبات حديثهما حول كيفية إجراء دمـــج مكتـــب تنسيق السياسات ومكتب العمليات السرية في مؤسسة واحدة تحت قيادة نائب المدير

لشؤون التخطيط وكيف أصبحا ضمن "هيئة الأركـــان" ولـــيس ضـــمن "صـــفوف الوحدات المقاتلة". بعد ذلك، اخرجا مخططاتهما الخاصة بالمؤسسة وشرحا لأركي كيف أن عليه من الآن فصاعدا أن يدير شؤون محطته. وقد خطر لي فجأة أنه لـــم يبد أي منهما فضولا ذكيا عن أسباب وجود محطات في تلك المناطق المحـــددة، أو ما هي الظروف المحلية التي تؤثر على طرق تنفيذ العمليـــات، إن وجـــدت. مـــن الواضح، أنهم لم يكونوا يرون أن مثل هذه الأسئلة لها علاقة بمهمتهم. فـــواجبهم الحالي هو الإدارة والتنظيم وليس الشؤون "الواقعية".

لم يقدموا عرضهم الافتتاحي إلى اركي فقط، ولم يناقشوه معه لوحده، بل إنهم دعوا مجمل أعضاء المحطة، باستثناء السكرتارية، وتحدثوا عن التنظيم المؤسساتي الذي وضعوه. سيكون هناك رئيس للمحطة (هو اركي) ونائـــب لشـــؤون مكتـــب العمليات السرية ونائب لشؤون مكتب تنسيق السياسات وهنـــاك رؤســـاء لشـــعب المخابرات والمخابرات المضادة والنشاط السياسي والدعاية وشؤون نقابات العمال والشؤون شبه العسكرية، رغم أن اركي يستطيع توحيـــد أو ترفيـــع أو تنزيـــل أو استبعاد أي من هذه الاختصاصات حينما يرى ذلك ملائما للوضع المحلي. وقد سمح اركي، وهو دائما الرجل الذي يفترض النية الحسنة إلى حين إثبات العكس، لهـــذا الغلو بالاستمرار لغاية ما اصبح الوقت متأخرا جدا مما يصعب إيقافه. بعدها استدار كيرك نحوي وسألني: هل هذا واضح لديك يا سيد كوبلاند". قلت لـــه: "نعـــم إنـــه واضح بما فيه الكفاية، رغم أن ما أكتبه يمكن أن يصلح مقالة لمجلة النيويـــوركر أفضل مما يصلح كتقرير إلى كيم، من الأفضل أن تسأل أركي فيما إذا كـــان كـــل شيء واضحًا له أم لا".

كان أركي جالسًا هناك مذهولاً، ثم قام بفعل شيء لم أره في السابق يفعلـــه . انتفخت أوداجه غضبا، نسيت ما قاله بالضبط باستثناء أنه بدأ يخبـــرهم بعبـــارات وكلمات منتقاة بعناية ما يعتقده فيهم من أنهم إمعات لا تفهم شيئا، بعدها وقف أحـــد

العاملين معه برتبة عقيد يفترض أنه مستشاره لشؤون العمليـات شـبه العسـكرية وقبض على الكرسي الذي يجلس عليه وقذفه على الجدار وحطمه.

كان فعلا مشهدا مؤثرا!! تحولت لهجة بات مباشرة إلى لهجة تصالحية. فقـد أدرك لكونه مؤمنا متحمسا بالتمييز بين "صفوف المقاتلة" و"هيئة الأركـان"، انـه تصرف بطريقة غير لائقة. مع ذلك، فقد شعر كيرك أنه جـرى تحـدي سـلطته ومطلوب منه أن يقوم بدور المسؤول الانضباطي القادم من مراكز القيادة العليـا. احتفظ بهدوئه، ولكن من الواضح انه كان غاضبا، إلى حد أنه تجاهل بات، وقـال إنهما لايتمتعان بأي "صلاحية" بالمعنى المعروف لهذه الكلمة، إلا أنه يأمل أن يقدر أركي "حجم الصلاحية" في توصياتهما، عندما يقرر أي اركي، قبولها من عدمه.

إنني أظن أن أركي، ولكونه غير عارف بالتقرير الصاعق الذي أحتفظ بفكرته في ذهني لأكتبه إلى كيم، قد شعر بأنني قد خذلته بجلوسي بخنوع جانبا عندما كان كيرك يتحذ ويجعل من نفسه أحمق. على أية حال، فقد بدد تهشم الكرسـي علـى الجدار التوتر نوعا ما، ودفع كيرك إلى محاولة تطمين العقيد الذي كسر الكرسـي أنه إذا ما احتفظ بهدوئه للحظة ، فإنه سيعمل على نقله إلى موقع سيتم فيه تقـدير مواهبه بشـكل جيد . بعد ذلك تناولنا الغـداء . كان كل شيء هادئًا، هادئًا إلى حد لا يطاق لأننا في الحقيقة كنا في مراحل مختلفة من الصدمة وكانت أحاديثنا متكلفة ومهذبة بصورة مزعجة، وتلطفها فقط محاولات عرضية للمزاح والضحك المشوب بالتوتر.

ومن الغريب أننا عندما غادرنا استنبول جرى كل شيء على ما يرام وكان كل من كيرك وبات مرتاحين وسعيدين بانتهاء الرحلة وكانا يقهقهان عندما ركبنا سيارة السفارة من مطار لندن إلى منطقة كلاريجز، لإرسال برقية إلى مدير المخـابرات المضادة يخبرانه فيها بأنهما متعبان من الرحلة وأنهما بحاجة إلى رحلـة بحريـة. وجاءهما الجواب (حصلت الموافقة) وقد منحتنا الباخرة المسماة (الملكـة مـاري) الراحة المطلوبة. وقد استمتعت بها حتى سأل رجل من المخابرات المركزية، بات

هل صحيح أن كيرك سيصبح مديرا للمخابرات المضادة قال بات إن التعيين أمر حتمي لأن كيرك يشكل مزيجا متكاملا من المقدرة الإدارية والذكاء الفطري وقوة الشخصية وهو حالما يحقق طموحه سيتحول إلى "وغد".

أصبت بالقلق. فقد صدمت بحتمية صعود كيرك ليكون مديرا علينا. فهو قد يصبح يوما مديرا للمخابرات المضادة وربما يكون مديرا جيدا لسبب وحيد هو أن فهمه للشؤون "الواقعية" محدود. لهذا فإنه ربما يكون قادرا على إدارة المخابرات المركزية كمؤسسة نظامية وليس كأسطبل للعلوج بنفس الطريقة، على سبيل المثال، التي يدير فيها أمر مستشفى والتر ريد أطباءه الأحرار الفكر. كان منافسه الرئيس ديك هيلمز وهو قليل الخبرة في العمل المخابراتي إلا أن كيرك كان رجل البيروقراطية المثالي.

أحد هؤلاء العلوج الذين لن يخضعوا لإدارته هو أنا لأنني أصبحت أدرك أن عملي سيكون هامشيا في ظل مخابرات يديرها ليمان كيرك. وربما أكون مجرد مهندس إداري!! لهذا عندما وصلت واشنطن أمضيت أسبوعا أكتب تقريرا عن الرحلة إلى كيم (واتخذت من التوقف في استنبول مناسبة لشرح التاريخ للأشخاص)، وأسبوعا آخر جلست في مكتب وسنر حيث أخبر كيم كلاً من بات وكيرك رأيه بهما وأسبوعا ثالثا أدون أفكاري حول كيفية البحث عن "أب أبيض كبير"(*) إذا أمكن إجراء مثل هذا البحث.

لاقت آرائي، كما شرحتها في ثلاثين صفحة، قبولا جيدا. حتى إنها لاقت القبول الأفضل عندما أعلنت أنني سأستقيل من المخابرات لأتولى عملا في شركة **(Booz-Allen & Hamilton)** أكبر شركة استشارية محترمة في العالم، وهي وظيفة يعود الفضل في حصولي عليها إلى محادثة طويلة على مأدبة غداء مع رالف سمايلي رئيس مكتب الشركة في واشنطن وكتاب توصية رائع من فرانك

(*) عبارة يستخدما الهنود الحمر للإشارة إلى القائد أو الزعيم . (المترجم)

وسنر. فقد أعجب رالف بأفكاري حول القيادة والديمقراطية التي سرقتها من كتاب ميشيل (Iron Law) وكيفتها مع الظروف في أفريقيا والشرق الأوسط عندما بـــدأت أفهمها، وقلت له إنها ربما تكون مفيدة له إذا ما أراد دراسة مشاريعه لإنشاء فروع عالمية لشركة (BA & H) .

وهكذا وصلنا إلى مرحلة أخرى من مسيرة حياتي المتذبذبـــة بـــين النجـــاح والفشل، وهي المرحلة التي ينطبق عليها المثل القديم بأنك تستطيع إخراج الرجـــل من المخابرات المركزية إلا أنك لن تستطيع إخراجها منه.

الفصل الخامس عشر

« بيلي غراهام مسلم »(*)

لقد استقلت مرتين من المخابرات بسبب الحاجة للمال، ولكن مرة واحدة فقط قبلت عودتي، بعد أن جمعت مالا كافيا لأنفقه على ترف العمل في هذا المكان الساحر. وقد اعتاد أحد زملائي، الذي كان يقتصد في الإنفاق من دخله ويحصل على إعانات من والده الثري، على القول إنه يشعر كما لو أنه قد عاد إلى الجامعة عندما يكتب مثل هذه الرسائل إلى والده: "والدي العزيز، أرجو أن ترسل لي المزيد من المال كي أستطيع البقاء في المخابرات لمدة ستة أشهر أخرى". ولأنه ليس لدي أب ثري ، كان علي في ١٩٥٣ أن أترك الوكالة لسنتين بهدف جمع مال كاف لشراء منزل في فرجينيا وسيارة ثانية. كان راتبي الذي أقبضه من شركة (BA & H) ضعف الراتب الذي أحصل عليه من المخابرات المركزية، ولم يشعر أصدقائي في الوكالة من الذين أكثر فقرا بالغيرة، بل إنهم كانوا يودون أن يحذوا حذوي. عندما أخذت إجازة دون راتب من شركة (BA & H) لألتحق ثانية بالوكالة عام ١٩٥٥، كانوا سعداء جدا بعودتي.

كانت المرة الثانية التي تركت فيها الوكالة عام ١٩٥٧، وبعد فترة قصيرة أصبح دخلي مرتفعا بما يكفي لجعل إحدى مجلات الأعمال المحلية تدرج اسمي ضمن مجموعة المستشارين العشرة الذين يتقاضون أعلى أجور في العالم، وعندما أصبحت ثريا إلى حد أستطيع فيه شراء شقة فاخرة في برج وارد مان وأعين فيها خدما، فإن الأوغاد من زملائي القدامى شعروا بالغيرة حتى أنهم قاطعوني. وعندما

(*) انظر الهامش في صفحة ١٨٨.

وقعت الوكالة بمشكلة بعد قضية خليج الخنازير(*) "عرضت خدماتي على ريتشارد بيسيل الذي خلف فرانك وسنر كنائب للمدير لشؤون التخطيط، حيث أبلغنـــي أنـــه سيحدث تمرد فوري من المبنى (I) وحتى المبنى (K) إذا ما حاول توفير وظيفة لي في الوكالة. عرضت خدماتي لأعمل وفق نظام من يتقاضـــى راتبـــا قـــدره دولار واحد، في السنة(**) إلا أنه حتى مات بيرد الذي أصبح مديرا للتدريب، لم يقبلنـــي. ومن ذلك الوقت ولغاية هذا اليوم، أصبحت كما قال فرانك وسنر مرة "الزميل القديم الوفي"، أقوم بالأعمال التي تتطلب إنجازا سريعا إلا أن الوكالة لاتتجرأ على القيام بها. بعض الأحيان كنت أتقاضى راتبا متواضعا، وأحيانا أخرى كنـــت أتقاضـــى مقابلا عن النفقات التي أنفقها. وقد لا أتقاضى شيئا، والحقيقـــة أنـــه فـــي العقـــود المتأخرة كان أبنائي يمولون نشاطاتي غير الرســـمية، بكلفـــة بضـــعة آلاف مـــن الدولارات سنويا لاتخضع لضريبة الدخل. وفي الوقت الذي كنت فيه أحظى بثقـــة وصداقة العديد من الزملاء القدامى، كان هناك من الزملاء الجدد ممن لايروق لهم عملي أو وسائلي.

(*) قضية خليج الخنازير : رداً على دعم كوبا للاجئين الثـــائرين فـــي كـــل مـــن الـــدومنيكان ونيكاراغوا وهايتي وبنما، وبناء على مقترحات وكالة المخابرات المركزية ووزارة الـــدفاع ورئاسة الأركان المشتركة، سمح الرئيس الأمريكي كنيدي للاجئين الكوبيين بغزو كوبا عبر خليج الخنازير في البحر الكاريبي وبطائرات B-٢٦ التي زودتهم بها الولايات المتحـــدة . وفي ١٥/٤/١٩٦١ قصف اللاجئون الكوبيون المراكز المدنية والعسكرية بكوبا وأعلنت كوبا النفير العام وقدمت شكوى إلى الجمعية العمومية في الأمم المتحدة. استطاع الكوبيون صـــد الهجوم وملاحقة اللاجئين الذين لم يستطيعوا الوصول للجبال للاختباء فيهـــا، فـــتم القضـــاء عليهم. في ١٩/ نيسان أصدر الاتحاد السوفيتي بيانا هـــدد فيـــه بعواقـــب وخيمـــة للتـــدخل الأمريكي. وفي ٢٤ نيسان أعلن الرئيس كنيدي تحمله وحده مســـؤولية الفشـــل فـــي خلـــيج الخنازير. واصل الاتحاد السوفيتي دعمه لكوبا فزودها بالصواريخ، مما خلق أزمـــة جديـــدة عرفت باسم أزمة الصواريخ الكوبية . (المترجم)

(**) يستخدم هذا النظام في بعض الشركات الكبرى حيث يحدد راتب لأحد المدراء قدره دولار واحد في السنة إلا أن مكافآته قد تصل إلى الملايين. (المترجم)

إذا ما وعدتموني أليها القراء ألا تخبروا أحدًا، سأفشي لكم سرًا عن قصة حياتي، أو بالأحرى عن الدوافع التي كانت وراء سلوكي التحرري. لقد كرست الثلاثين سنة الماضية في وضع وتطوير النظرية التي توصلت إليها خلال رحلتي عبر الأفريقيا وأحاديثي مع جونستون وملاحظاتي المباشرة عن النموذج البيروقراطي المثالي ليمان كيرك باتريك. ادعى ارخميدس انه إذا أعطي مكانًا ليقف عليه وبترتيب صحيح من الرافعات، فإنه يستطيع رفع العالم. تقوم نظريتي في شكلها الأولي على إمكانية استخدام القادة الذين لهم سحر جماهيري والذين جرى وضعهم في أماكن معينة داخل "البيروقراطيات" الرئيسة في "العالم الحر، كرافعات سياسية تستطيع فيها سياسة أمريكية خارجية متنورة أن ترفع العالم إلى مراتب من الأمل والسعادة. وكما قلت في المذكرة الوداعية التي كتبتها قبل أن أترك مبنى (I) أن التطبيق الحكيم لنظريتي سيمكن المخابرات المركزية الموظفة بشكل جيدا من تحقيق تعهد ولسن "بجعل العالم آمنا من أجل الديمقراطية"، وبنفس الوقت تقضي على النشاطات التي تحصل هنا وهناك وتؤثر على أسلوب الحياة الأمريكي. وحتى مع التحسينات، فإن النظرية لم يقبلها أحد لسنوات، إلا إنها أدخلتني بمواقف محرجة مثيرة وصنعت لي شيئا من المال. وما هو جدير بالأهمية فإنها قد علمتني الكثير حول ما لايمكن الاعتماد عليه لرفع العالم نحو مراتب السعادة والأمل أو لحل مشاكله المختلفة.

على سبيل المثال، الديمقراطية. حتى الديمقراطية الأصيلة، كنقيض للنوع الزائف الذي يستعمله الاشتراكيون للمفردة، يمكن أن تكون لعنة أكثر مما هي نعمة إذا لم تنتج نمطا خاصا من القيادة. وهذه إحدى فرضيات نظريتي التي توقفت تحت وطأة وضغط التجربة. وقد أصبحت الآن فكرة قديمة بحيث يتطلب الأمر مجموعة واحدة من الميزات لكسب السلطة ومجموعة أخرى لاستخدامها بشكل فعال لمصلحة من يمتلكها، ولكن حتى في عام ١٩٥٣، كان واضحا لدي أن الديمقراطية كغاية بحد ذاتها تأتي لمصلحة الديماغوجيين الذين قد يستخدمونها لغايات ليست

ديمقراطية. استلم بعض أسوأ الطغاة فـي العـالم السـلطة بواسـطة الانتخابـات الديمقراطية، ومؤخرا في عام ١٩٨٠ تبجح المنتخب ديمقراطيا روبرت موغـابي رئيس زيمبابوي بأنه يحب الديمقراطية لأنها "نظام من السهل السيطرة عليه". فـي نفس الوقت، حاز بعض أسوأ الأشخاص كفاءة في التاريخ السلطة عن طريق كسب الانتخابات التي كانت شيئا أشبه بالمسابقات الشعبية، وبعد ذلـك أفسـدوا شـؤون بلدانهم لأنهم لايستطيعون سوى أن "يتبعوا الطليعة"، كما كتب ذلك ادموند بـورك عن الثائر الفرنسي الذي قال : "إن الغوغاء تملأ الشوارع. علي أن أكتشف إلى أين ستتجه لأني أنا القائد".

على أية حال، لا أريد أن تكون هذه الملاحظات عبارة عن مقالة في القيـادة السياسية، ولا أريد أن أدافع عنها. ولان هـذا الكتاب هو سيرة ذاتية، فإني أكتب ما كان في ذهني عندما تركت المخابرات المركزية في ١٩٥٣، للتعريـف بتلـك المواقع في عدد من البيروقراطيات العالمية حيث تصنع أكثر القرارات تأثيرا على مصالح الولايات المتحدة . كنت آمل أن أبتكر انشطة سياسية تدعم الطموحين الذين أختارهم للمشاركة فيها وإبقاءهم هناك وقيادتهم إلى السبل التي تؤدي إلى رخـائهم وأمنهم وإلى رخائنا وأمننا. وبعيدا عن الحديث عن التسالي العابثة، فإن كل نشـاط قمت به خلال الخمس والثلاثين سنة الماضية كان يتعلق بطريقة أو بأخرى بآمالي في تحديد القادة المحتملين وإرشادهم إلى قدرهم العادل عبر الوسائل الديمقراطية إذا كانت مثل هذه الوسائل متوافرة، ودون تردد أقول عبر وسائل أخرى إذا لم تكـن مثل هذه الوسائل متوافرة.

كانت أول أهدافي فيما يتعلق بالمنطقة هي مصر. حيث كان المساهمون فـي شركة (BA & H) وهي الشركة التي سأعمل بها مستقبلا ورئيسي فيما بعـد كـيم روزفلت مهتمين بشدة في نفس الوقت بتلك البلاد وكل له أسبابه، إلا أنهـا تـرتبط على نحو وثيق بالأسباب التي لدي. كانت شركة (BA & H) تتفاوض مـن أجـل القيام بتقييم إداري عام للبنك الوطني المصري وممتلكاته المتعددة. كان كيم، ودون

أن يعلم باهتمام الشركة قلقا إزاء الفوضى السياسية، في ضوء تجاربه في الحرب العالمية الثانية، فيما أصبح بلده الخارجي المفضل. وإهمالا منه لدعواتي بأن عليه أن يترك الأفكار اللامعة لي، وصل صباح أحد الأيام إلى مكتبه، ودعا إلى اجتماع للكادر وأعلن أنه قد قضى الليلة الفائتة يفكر ويقلب بعض الأفكار حول كيفية امكانية انقاذ جلد ملك مصر فاروق، الذي لايزال الغرب يفضله. علينا أن نقنع "السافل البدين"، كما كان موظفو التخطيط البذيئون في فرقة الشرق الأدنى يدعون فاروق من وراء ظهر كيم، أنه إذا لم يحول فساده وحكومته الميتة غير الكفئة إلى شيء ملائم أكثر مع متطلبات مجتمع المساواة الحديث، فان شخصا آخر سيفعل.

كتبت أفكار كيم على شكل خطة (أسميناها (س. ب) لتشير كما تعرفون الى السافل البدين). وكانت الخطة تسير بإجراءاتها التطويرية بطريقة منتظمة روتينية عندما قفزت أمامنا الأحداث فجأة في القاهرة. "أستثير نشاط" فرقتنا الشرق الأدنى، كما سمى أحد مؤرخي المخابرات المركزية حمى النشاط الذي دخلنا فيه في تلك الفترة، نتيجة ما أصبح يعرف بـ "سبت مصر الأسود".

وبحدود نهاية ١٩٥١، قررت حكومة ونستون تشرشل، التي عادت إلى السلطة بعد دورة حكم حزب العمال، التي أضعفت بريطانيا دوليا ومحليا، معاقبة مصر لإلغائها المعاهدتين اللتين تبرران الوجود البريطاني في منطقة القناة، ولدعمها للإلغاء بحصار ضربته مجموعة من الفدائيين على المنطقة. وفي كانون الأول، قامت القوات البريطانية بتدمير قرية كان ينطلق منها المخربون المصريون، وفي بداية كانون الثاني هاجمت القوات البريطانية موقعين مصريين في محيط مدينة الاسماعيلية وقتلت أو اعاقت معظم شاغليه. تصاعد الانفعال ، وفي سبت القاهرة الأسود أحرقت حشود المتطرفين المسلمين أو دمرت كل بناية في المدينة تحمل نكهة "الإمبريالية البريطانية"، كفندق (**Shepherd**) ونادي (**Turf**) وكل مطعم أو حانة أو دار سينما يعرف أن المستعمرين الأجانب يترددون عليها. بل حتى أنهم

قذفوا الأطفال حديثي الولادة مع أمهاتهم من النوافذ العلوية للمستشفى البريطاني في حي الزمالك الراقي.

كان كل الذي حدث في مصر الصبورة، موضع ازدراء في معظم أنحاء العالم العربي بســبب انعدام التعصب . هددت الحكومة البريطانية ، التي كانت غاضــبة إلا أنها عاجزة، بشن هجمات أخرى ضد المصريين. شــعرت وزارة الخارجيــة الأمريكية بالاستياء من البريطانيين لفشــلهم في الاعتراف بأن "عصر الامبرياليــة قد ولى"، وارسلت احتجاجات شديدة إلى كل من الحكومتين البريطانية والمصرية. وقد وجدت المخابرات المركزية الأمريكية فرصة في ذلك. أوقفنا فجأة اتصـــالاتنا الرسمية مع المخابرات البريطانية SIS، وأخذت خطة كيم لإنقاذ فاروق عن طريق "ثورة سلمية" طريقها إلى التطبيق. فقد صادق عليها الن دالاس في يوم الاحد الذي تلا السبت الأسود، واعلن كيم تدشين الخطة في اجتماع الكادر في صـــباح اليـــوم الثاني.

هل سيرسلني كيم إلى القاهرة لتنفيذ المهمة؟ لا أعتقد ذلك. فهو قد يبدأ بتنفيـــذ الخطة بنفسه. ربما سأستدعى إلى القاهرة لاحقا لإدامة الزخم بعد أن يــتم ضـــمان نجاحها – وكما قال كيم، إنه سيرسلني إلى هناك إذا ما تركت "إصـــراري العنيـــد" لترك المخابرات المركزية والجري وراء مدخول أكبر. قلت سأفكر بالموضوع. لم يكن كيم يعرف بالطبع بأني سأذهب لاحقا إلى مصر سواء شاء أم أبـــى بصـــفتي عضوا يتحدث العربية في فريق شركة (**BA & H**).

إن إعادة قراءة ملف كيم الشخصي (١٠٢) تثبت لي أنه كـــان مصـــيبا فـــي اصراره على أن يبدأ هو بتنفيذ الخطة. فقد أسس فاروق خلال الحرب الثانية قاعدة شعبية في فترة متأزمة عندما أجبره البريطانيون بتهديد السلاح، لإبعاد العناصـــر الموالية للمحور من حكومته واستبدالهم بأشخاص من اختيار البريطانيين. وعنـــدما كان فاروق يستشيط غضبا في قصره، أخذ كيم يزوره يوميا تقريبا لتهدئته بـــالقول

انه ستكون بعد الحرب اتفاقية جديدة يتم فيها منح مصر السيادة الحقيقية وسيكون هو "أول حاكم لمصر الحرة منذ ألفي عام". وعندما كان كيم يذكرنا بالخطة في اجتماع الكادر صباح يوم الاثنين، كان فاروق مستعدا لسماع مثل هذا الحديث، وهناك أسباب عديدة تجعلنا نعتقد أنه إذا زاره كيم إكراما للأيام الماضية، فإنه سيتقبل الأفكار التي طورها خلال ليلة الأرق. وفي غضون أقل من أسبوع، كان كيم في طريقه إلى القاهرة. استقبله فاروق بحرارة وأبهة، حيث يفترض أن تكون الزيارة "ذات طبيعة بالغة السرية"، كما أشار كيم في برقية مشفرة أرسلت عن طريق قنوات معدة سلفا. فقد جاء مسؤول مصري كبير إلى الطائرة ليأخذه بالأحضان وينطلق به عبر مكاتب الإقامة والجمارك قبل أن يسمح بنزول أي راكب اخر. شقت سيارتهم التي تحمل الشارة الملكية الطريق وسط سيارات الأجرة وعربات الخيول والأغنام والنسوة اللواتي يحملن أواني المياه فوق رؤوسهن، والأطفال الباحثين في القمامة. ومراعاة للسرية وضعت ستائر تغطي نوافذ السيارة بحيث إنه لايستطيع أن يعرف وجهته حتى يفتح له السائق الباب ليدخل في حديقة بدار الضيوف الملكية في الجيزة على مرأى من الأهرامات.

كانت لقاءات كيم مع فاروق تظهر مدى ضيق تفكير الملك، فهو قد يبدو مهتما لما يجري في بلاده وتراه في اليوم التالي مختفيا مع قصفه ولهوه ناسيا أن يتخذ أي خطوة سبق أن وافق عليها وتعتبر أساسية في خطة كيم. وبعد ذلك في الأسبوع التالي، وبسبب نزوة أو نوبة غضب، قد يتخذ إجراء يقوض كل الخطة .

ظل كيم شهرا في القاهرة، بعدها تخلى عن خطة (س. ب) وعاد إلى واشنطن مستسلما لليأس من إمكانية فهم أي شيء في مصر طالما ظل فاروق على العرش. إلا انه كان مصمما أكثر "لإنقاذ مصر من نفسها" كما يقول. ولأنه أخذ يتمسك بكل قشة، عاد إلى فكرتي بخلق بيلي غراهام مسلم، وقرر إرسالي إلى مصر لغرض الاستطلاع. أمرني أن أزور القاهرة لتقييم الموقف العام، وأن أدون أي ضرر يمكن أن يكون قد حصل خلال المزاح الثقيل مع فاروق وأن أعود إلى

واشنطن بخطة جديدة. لم تتضمن تعليماته تفويضا مطلقا إلي، بل جاءت بعبـــارات تتفق والأغنية القديمة:" انشر ملابسك على شجرة الجوز، ولكـــن لا تقتـــرب مـــن المياه"(*) .

مع ذلك، عندما هبطت في القاهرة، كان أول عمل لـــي هـــو خـــرق قاعـــدة للمخابرات المركزية كانت في تلك الأيام لها مفعول الكتاب المقدس: فقد قررت أن أزور السفير الأمريكي لأخبره بما سأقوم به وأطلب مشورته. عذري عندما وصل خبر سلوكي هذا إلى واشنطن ، هو أن هذا السفير وهو جيفرسون كافيري والـــذي كان في ذلك الوقت أكبر وأعقل شخصية في جهازنا الدبلوماسي ، يعـــرف مصـــر أكثر من أي من مستعربينا، ويعزز وجهة نظره عن المشهد المصري اثنـــان مـــن موظفيه يتمتعان بعلاقات مع المصريين أفضل من محطة المخابرات المركزية. كان مساعد الملحق العسكري المقدم دافيد ايفانز والضابط السياســـي "المســـتقيم" بيـــل ليكلاند، يؤديان عملا يجب على المخابرات المركزية أن تشعر بـــالفخر إزاءه لأن لديها عينا ذكية تراقب الفوضى التي أشعرت كيم روزفلت ومحلليه السياسسن فـــي واشنطن بالقلق، وقد أبديا معي تعاونًا تامًا وواعيًا رغم امتعاضهما لكوني دخـــيلاً متطفلاً .

إلا أنني عندما بدأت بصورة جدية ببحثي عن زعيم مناسب، بدأت من خارج السفارة، مع صديق طيب أعرفه منذ أيام عملي في دمشـــق هـــو ناصـــر الـــدين النشاشيبي أو (ناصر) وهو من الجيل الواحد والثلاثين من ســـليلي الأميـــر أحمـــد ناصر الدين النشاشيبي مفتي جوامع القدس والخليل أيام المماليك. كنت قد التقيـــت لأول مرة بناصر في الأردن وهو في العشرينات من عمره عندما كان رئيس بلاط الملك عبدالله وهو المنصب الذي ظل فيه لغاية تموز ١٩٥١، عندما اغتيل الملـــك. وقد بقيت على اتصال معه منذ ذلك الحين. ولأنه قد أصبح الآن على اتصال وثيق

(*) يقصد بها المؤلف أن تعمل وتراقب ولكن لاتتدخل ولاتورط نفسك في أمر معين (المترجم).

بالمراكز العليا في المجتمع السياسي المصري، فقد أردت منه أن يخبرني كيف يمكن لأي زعيم في "ثورة كيم روزفلت السلمية" أن يحول الآمال إلى حقائق أو إلى أية أشياء أخرى، ويكون منهمكا بالوقت نفسه بكل هذه الدسائس والمؤامرات التي نسجها كيم مع فاروق.

وهكذا، وعلى مائدة شراب، أوضحت له كيف أنني، وكآخر عمل أقوم به قبل أن أترك الوظيفة الحكومية، أريد أن أجد وأعد منقذاً يبدأ بالعمل من مصر ومن ثم ينشر كلمته إلى الأفارقة وربما إلى شعوب العالم الثالث الأخرى، قلت له إن اختيارنا الأول يجب ألا يلهب الآمال فقط بل أن يحولها إلى وقائع نافذة المفعول ، ويقود فعلا شعوب العالم المعدمة نحو أمن وصحة ورفاه أكبر وقبل كل شيء نحو "الحرية" ويحصنهم من الأنبياء المزيفين.

وبعد شكواه من الدعم الأمريكي لإسرائيل، وافق ناصر على أن المطلوب هو زعيم يتمتع بسحر جماهيري ويستطيع أن يحول التيار المتنامي من العداء لأمريكا- الذي، كما أشار، أخذ بالانتشار في كل أنحاء غرب آسيا، وليس فقط داخل ما يسمى بالعالم العربي . أن خطيبا دينيا مفوها هو الشخصية المثالية المطلوبة . ولكن ألا يجب أن تكون أي حركة دينية معادية أولاً لشيء معين؟" حسنا، علينا أن نخلق هذا الشيء"، يكون أكثر خطرا من دولة يهودية، شيئا من الصعب خلقه في زمن تعتبر فيه يهودية اسرائيل هي سمتها التي تتبجح بها أكثر.

لهذا وفي بحثنا عن عدو مقبول ظاهريا يكون بديلا عن الولايات المتحدة وإسرائيل أجرينا جولات على المجاميع الدينية المحلية المتطرفة وبدأنا بتكية ميلو وهي حانة دينية غير مرخص بها داخل المدينة القديمة مشرفة على جامع السلطان حسن الجميل. كان ميلو لوطيًا يوغسلافيًا تجسس لصالح العديد من أجهزة الاستخبارات خلال الحرب العالمية الثانية، وقد وضعته المخابرات المصرية في قصر كان يملكه أحد وزراء المالية أيام حكم المماليك في القرن الخامس عشر. وقد

حول جهاز المخابرات المصرية غرف تربية الأرانب في القصر إلى غرف سرية والممرات والأنفاق السفلية إلى ملهى شرقي يصلح لتنفيذ كافة نشـــاطاته الغريبـــة. ابتداء من التهريب العادي وحتى تخدير واختطاف الدبلوماسيين الأجانب. وقد سمح لميلو بتحويل الاقسام التقليدية من القصر إلى ما يسميه "النادي الليلـــي للمـــؤمنين بوحدة الوجود"، حيث يؤدي المشعوذون والمجاميع الدينية المتطرفة طقوسهم ويتردد عليه السياح الأوربيون. كان فيه الدراويش ومجموعات مـــن الطوائـــف الهنديـــة الصوفية، وطوائف وطرق أخرى ابتكرها ميلو نفسه لتوسيع جماعته.

في الليلة التي زرنا فيها المكان، كان مجموعة من الدراويش محطاً للأنظار، يدورون حول أنفسهم بسرعة بالغة داخل مبنى دائري كبير، وتوجد مجموعة مـــن السياح يرتشفون الشمبانيا المصرية ، وهم يدورون على أنغـــام درويـــش أعمـــى يضرب الدف، بطريقة مهيأة لخلق نوبة من الهستيريا الدينية يرددون خلالها اســـم "الله" . قال ناصر انه إذا لم يخدر مثل هذا أذهانهم عن "ظلم إسرائيل" ، فلا شـــيء آخر يفعل ذلك.

خلال فترة استراحة كانت فيها إحدى الفرق التي ابتكرها ميلو تقـــوم بقضـــم وقطع رؤوس الدجاج وهو حي، همس ناصر بأذني قائلا إن الدراويش هـــم فرقـــة إسلامية، ينقل أعضاؤها أرواحهم عن طريق الرقص الذي نشاهده إلى "عالم غيـــر مرئي" وبذلك يتحررون من الصراعات الدنيوية المستوطنة في مصر. سألت ناصر عن وجهة نظرهم بدعم أمريكا لإسرائيل. قال: "هذا هو الموضوع، فهم لايملكـــون وجهة نظر، إنهم مجرد مجانين".

ليس الأمر دون أساس، عندما فكرت بخلق بيلي غراهـــام مســـلم. وبصـــفتي مواطناً من الباما يعرف الدوارين المتدينين والمعمدانيين المنشدين ومربي الأفاعي، فقد خطر لي أنه ربما يكون هناك شيء عن هذه الشخصيات يمكن أن نأخذه علـــى محمل الجد. وقبل كل شيء يجب أن يكون لديك دماغ قبل أن تحـــاول أن تغيبـــه، ويجب أن تشعر أنك جزء من هذا العالم قبل أن تحاول الفرار منه.

يمكنني أن أصدق أن هؤلاء الراقصين هم مجانين أو مجرد حمقى، إلا أنه لابد من وجود فكر متطور في أصول هذه الحركة. يقول ناصر: إن الطائفة بدأت في القرن الثاني عشر كثمرة للصوفية وهي نظام كامل التطور للتأمل (أو التصوف) الروحي الإسلامي. كان للدراويش فيما مضى أتباع ومريدون ولهم كل مظاهر الدين الواسع الانتشار،وهم قوة مؤثرة في العصور الإسلامية الوسطى إلا أنهم الآن ليسوا أكثر من مجموعة غريبة لاهوتية يرتبط أتباعها بأصولهم بنفس الطريقة التي يرتبط بها أبناء بيرو الحديثة بشعوب الانكا القديمة (*).

لهذا ماذا كان الخطأ في ذلك؟ أوضح ناصر لب الموضوع قائلا إن الصراع العربي الإسرائيلي قد أيقظ مشاعر الوعي السياسي لدى الناس البسطاء في البلاد، وكنت أعرف من خلال ما حدث في أمريكا أن أي حركة دينية لاتحتاج لأن تكون مفهومة لكي تجذب الأتباع قبل زمن طويل من ظهور التبشير التليفزيوني، إلا أن هناك في أمريكا عددًا من الشخصيات من طراز بيلي غراهام لا تخاطب الحمقى والمتخلفين عقليا فقط بل أيضا المحامين والاطباء وحتى أساتذة الجامعات الذين يريدون أن "يولدوا من جديد". قلت: "لابد أن هناك دراويش مفكرين".

أجاب ناصر: "نعم، أنهم يستغلون الجهلة" وهكذا كانوا هم. وبعد مدة قصيرة التقيت بأحدهم. وقد رفض ناصر الذهاب خلف الكواليس، حيث يعود الراقصون فيه إلى العالم الدنيوي. خاطبني أحدهم، وكانت أقدامه قبل قليل مثبتة بقوة على الأرض (انظر، إني لم ألاحظه كأحد الراقصين)، وسألني بإنكليزية مقبولة فيما إذا كنت أبحث عن دروة مياه. كنت على وشك إجابته عندما أخبرني شخص هزيل يرتدي كما الآخرون، من الواضح أنه أمريكي، قائلا إنني غير مرغوب بي وأن كل ما علي فعله هو التبول في زاوية في مكان ما، بعدها أكون قد ضعت.

(*) هم قبائل في أمريكا الجنوبية عاشوا قبل شعب المايا وقد كونوا حضارة لاتزال آثارها موجودة حتى اليوم. (المترجم)

عندما عدت إلى ناصر، وجدته مستمتعا للغاية برفضهم لي وكان يمزح ويقول إنه يعرف بوجود وكيل مسرحي من نيويورك في مكان ما في الخلف". وبينما كان المساعدون يكنسون الدم والريش ورؤوس الدجاج، انضم ميلو إلى مائدتنا وأنهينـــا شربنا وتناولنا الطعام. (ومن المصـادفة أن هذه كانت بداية لصداقة طويلة مع ميلو دامت لحين وفاته في بداية السبعينات بعد أن عاش حياته في الإسكندرية على نفقة المخابرات المركزية).

وفي الليلة التالية، أخذني ناصر إلى مبنى للاجتماعات العامـــة قـــرب جـــامع الأزهر، وهناك سمعنا خطابا ملتهبا للسيد حسن الهضيبي(*) والذي (كما قال ناصر بخبث) "كان يقول الحقيقية فيه". ولكونه حديث التعيين كرئيس لحركـــة الإخـــوان المسلمين المخيفة، كان يترنم بخطبة تقريعية قاسية ضد تأثير أمريكا المفســـد فـــي العالم. وكنت أعرف القليل عن الإخوان، وجاءت معرفتي نتيجـــة أســـابيع قليلـــة أمضيتها في قسم ألمانيا في بناية (L). لقد أسسها السيد حسن البنا(**) فـــي أواخـــر العشرينيات. وهي في البداية جمعية سرية تهدف إلى رفع التـــأثير الأجنبـــي عـــن الإسلام ، إلا أنها وخلال الحرب العالمية الثانية، تم تسييسها بإمكانيات عملية قدمها الإيطاليون والألمان بهدف إخراج البريطانيين. كان الشيخ حسن الهضيبي، خلـــف الشيخ حسن البنا خطيبا مفوها يأسر سامعيه وينومهم مغناطيسيًا بنبرتـــه الرتيبـــة.

(*) حسن الهضيبي: ١٨٩١- ١٩٧٣. ولد في مركز شبين القناطر بمصر. تخرج في الحقوق في ١٩١٥ وعمل قاضيًا ومدير إدارة النيابات ومستشارا بمحكمة النقض. اعتقـــل فـــي ١٩٥٣ و١٩٥٤ وحكم عليه بالاعدام ثم خفف إلى المؤبد وبعدها أفرج عنه. أعيد اعتقاله فـــي ٩٦٥ وأفرج عنه في ١٩٧١. من كتبه: دعاة لا قضاة والإسلام والداعية، وإن هذا القرآن. (المترجم)

(**) حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩) مؤسس وزعيم الإخوان المســـلمين فـــي مصـــر ولـــد فـــي الإسماعيلية لاسرة متدينة، عمل معلما دينيا في مسقط رأسه وفي القاهرة. في نيسان ١٩٢٩ أسس حركة الإخوان المسلمين في الاسماعيلية. لقد أكسبه مبدؤه البســـيط وطريقـــة حياتـــه المتقشفة حب وعطف الآخرين. وفي ١٢ شباط ١٩٤٩ اغتيل ثأرا لمقتل رئـــيس الـــوزراء المصري في حينها النقراشي على يد حركته.

ولديه جماعة تتبعه. ولكني عندما همست في أذن ناصر بأني أود لقاءه، اعتقد ناصر باني أمزح وسألني: "هل اصبح عميلا للمخابرات المركزية؟" على اية حال، عندما انتهى اللقاء، انطلق بي ناصر من مؤخرة القاعة قبل أن يرانا أحد، وفي أقل من دقيقة، كنا نجلس في سيارته في طريقنا إلى وسط القاهرة.

لم يكن هذا قد جرى قبل مشاهدتي للأمريكي الذي رأيته مساء اليوم السابق في محل ميلو، وهو يرتدي هذه المرة قميصا بياقة واقفة تحت سترة من قماش القطيفة ويجلس في مؤخرة القاعة، كان مقطبا بوجهي. رفض ناصر الحديث في السيارة عن كذبته حول حسن الهضيبي وكونه عميلا للمخابرات المركزية وأنزلني في فندق سميراميس دون أن يودعني بكلمة. بعد ذلك، وعندما ذهبت إلى جناحي في الطابق العلوي، وجدت الأمريكي هناك جالسا على الأرض في وضع ممارسة لرياضة اليوغا أمام كرسي ذي ذراعين. وسرعان ما حدست من هو، وأيد هو ذلك.

سألني: "ألم يخبرك فولك ويز أن تتركني وشأني؟" وهو الاسم المستعار لكيم روزفلت في المخابرات المركزية. من الواضح أن الرجل هو احد افراد مجموعة العملاء الخاصين بكيم، وقد علمت بوجود هذه المجموعة بالصدفة من سكرتيرة كيم.

"ماذا تريد أن تفعل أنت بحق الجحيم؟"، سألت الرجل بشيء من الانفعال، انفعالا إزاء كيم وليس إزاء المسكين الذي يتضح أنه أصغر سناً من أن يشكل أهمية في السلم الهرمي القيادي للوكالة رغم أنه كما يبدو يعمل على اختراق مجاميع تابعة لهدف ذي أهمية. هذا ما حدسته من خلال المكالمة التي تلت ذلك. كان الرجل والذي سأسميه (روبرت)، يعرف من أنا لأنه رآني في مراكز القيادة، إلا أنه لايعرف شيئا عن مهمتي الحالية. كما أنه كان مدركا للجانب الأمني ويجب أن يكون متكتما في السؤال لذلك قمت بإخباره.

أصيب بالدهشة ثم بعد ذلك كشف ما عنده. وفي الوقت الذي كنت أؤدي فيه مهمة استطلاعية،أعد كيم عدته للقيام بشكل من أشكال الانقلاب ضد فاروق. سوف

لن أكون أنا طرفًا فيه. من الواضح لي ولروبرت أن أمامنا واحدا من تلك المواقف التي يكون فيها واحداً زائد واحد يساوي أكثر من اثنين وأن علينا أن نستفيد من الجمع الحذر للمعلومات إلا أن روبرت كان بطيء التعاون لحين ما سألته عن درجته الوظيفية.

قال لي: "إنه موظف من الدرجة السابعة، وهذا يعني أنه أقل من درجة طابعي في قسم الكتابة الاختزالية. كان يجب أن يكون موظفا بالدرجة الثالثة عشر حتى يشغل هذا الموقع.

استفاد كيم من كون روبرت أكاديميًا اعتاد على الراتب البسيط ووظفه في أي درجة يقبلها. لم يكن أمامي سوى أن أعلق: "لقد ضحكوا عليك يا فتى" لكي أكسبه إلى صفي.

ولكن، ولمرة أخرى أقول، إن ما علمته منه جعلني أرفع قبعتي احترامًا لكيم. لقد أدرك كيم بنفسه ولوحده ومع وجود فرق الرصد التابعة لفاروق وهي تراقبه على مدار الساعة وما هو مهم أكثر إنها تعمل تحت أنظار فاروق نفسه أدرك حقيقة انه بينما كان يفترض أنه يخطط هو وفاروق للقيام "بثورتهما السلمية"، كان فاروق يعمل بصورة سرية في نفس الوقت مع قادة الإخوان الرئيسيين لإحداث انقلاب تسيطر عليه حركة "العودة إلى الله" التابعة للأصوليين الإسلاميين في مصر. ويرى أن فساده لايمنع من قبولهم لدعمه. بينما يرى كيم أن وضعه الحالي يمنع عليهم قبول الدعم الملكي وهذا سيساعدهم في تحقيق أهدافهم المناوئة لفاروق والتي أخذت تترسخ في ذهن كيم بعد أسبوع من محاولة التعاون مع السافل البدين.

أقنع فاروق بأن يرشي الإخوان وذلك بإعطاء حسن الهضيبي مبلغا كبيرا من المال. لم يكن فاروق يعرف أن الرشوة قد استخدمت لأغراض الإنفاق المطلوب لإغراء الجيش المصري وإشراكه في خطط الإخوان الانقلابية في الوقت نفسه يوفر دليلا آخر على مدى إلحاد وفساد فاروق. أن تحاول رشوة أولياء الله، يعني إلى أي درجة من الفساد قد وصلت. سوف لن يكون له مكان في النظام الجديد.

في الوقت الذي حصلت فيه على كل المعلومات المتوافرة عن الإخوان، فإني، مع ذلك، أدركت الآتي: أن النوع الوحيد من الانقلابات الذي يمكن أن يكون فاعلا في مصر، سواء في الاستيلاء على الحكم لأول مرة أو في تعزيز الاستيلاء حالما يتحقق، سيكون باتحاد الجيش مع الإخوان. رغم اني لم أوضح لروبرت أكثر من فكرة عامة عن تفكيري، فقد اخبرته بما يكفي للحصول على مساعدته في تعيين المستويات العليا والوسطى وضباط الجيش الكبار الأعضاء أو المنتسبين للإخوان. في نفس الوقت، سألت ناصر النشاشيبي أن يدلني على أرفع شخصية في الجيش المصري تتوافر أمامها فرصة كبرى لتلقي الدعم الشعبي إذا ما قرر الجيش ، وهذا مجرد احتمال افتراضي، الاستيلاء على الحكم.

جعل سؤالي ناصر يشعر بالاضطراب. وقد اعترف بأن هناك استياء واسعًا يعم البلاد، وأن همهمة تدور بين أوساط اعضاء نادي الضباط في مدينة هليوبوليس حول كم سيكون مرضيا أن تتولى شخصية معتدلة تتمتع بالشعبية كالجنرال محمد نجيب زمام الأمور في البلاد سواء بوجود أو عدم وجود ملك. هذا أقصى ما يمكن أن يتحدث به ناصر. هل يعرف ضباطا كبارا من جماعة الإخوان؟ قال : "كلا"، بطريقة أفهمتني أنه لايريد مناقشة هذا الموضوع مرة أخرى.

كان روبرت مشغولا. فبعد يوم من رفض ناصر، رافقني في وقت متأخر من الليل لاجتماع سري للغاية في منزل قريب من الأهرامات وصلنا إليه بعد سلوكنا العديد من الأزقة الخلفية والانعطافات بحيث إنني لم أتمكن من العثور عليه في اليوم التالي. كان هذا الاجتماع الذي حصل في آذار ١٩٥٢ هو الذي كتب عنه بطرق مختلفة الكتاب المصريون والأمريكيون والأروبيون على أنه الاجتماع الذي يفترض أن يكون كيم روزفلت قد أشعل فيه الشرارة التي أدت إلى انقلاب الجيش بعد أربعة اشهر ونصف. حسنا، سأقول شيئا لمصلحة محمد حسنين هيكل الذي ينكر تلقائيا أي شيء أقوله، هو أن كيم لم يكن هناك، ولم يكن يعرف عن الاجتماع لغاية ما أخبرته به عندما عدت إلى واشنطن، وأنه لم تتم مناقشة موضوع الانقلاب. لقد أخبرت الضباط الثلاثة الذين التقيتهم، والذين لم أكن أعرف أسماءهم حينها،

بأن حكومتي قلقة من الاستياء المتزايد في مصر وهي البلد الصديق وانها تـود أن تسمع وجهات نظر ممثلي ضابط الجيش الموثوقين حـول مـا يمكـن أن نقدمـه للمساعدة في وقف المزيد من التدهور في الموقف.

إن الملاحظات المهمـة الوحيدة التي أثارها حديثي تتعلق باسـتياء البلد ككل - وأكرر ليس استياء الجيش فقط بل البلاد كلها - إزاء "الاحتلال البريطاني الدائم"، والطريقة المهينة التي يجري بها هذا الاحتلال. جاءت الإشارة الوحيدة لإسـرائيل في سياق نقد أحد الضباط الحاد لفساد الحكومة التي أحبطت قدرة الجيش عن تقديم عرض مرض في الحرب العربية - الإسرائيلية في ١٩٤٨. لقد ذكر بشكل صحيح أن التقرير عن هذا الاجتماع الذي وصل واشنطن (أنه تقريري- وليس تقرير كيم، فهو مرفوع إليه وليس منه) كان يتضمن إشارة إلى الرائد عبد المنعم رؤوف الذي لم يكن عضوًا في الإخوان فقط بل عضو في جماعة جمال عبد الناصر من الضباط الأحرار أو الدائرة الداخلية لجمال عبد الناصر. هذه حقيقة. إلا أنني لـم أعلـم إلا لاحقا أن الرائد رؤوف كان أحد الضباط الثلاثة الذين سـيلتقون بروبـرت وبـي. وصحيح أيضا أن رؤوف قد أخبرني بأنني سأقدم خدمـة لبلـدينا إذا مـا أقنعـت الحكومة الأمريكية بألا تتدخل بالشؤون المصرية. لم يأت اليوم التالي حتى أبلغت من قبل ضابط مصري شاب جاء للفندق الذي أنزل فيه قائلا بأن ممثلـي حركـة الضباط الأحرار السرية سيشعرون بالسعادة بلقاء مديركم السيد روزفلت شريطة أن يكون اللقاء في مكان يتفق عليه خارج مصر.

وفي أواخر آذار ١٩٥٢، وبعد أسبوع من عودتي إلى واشنطن وأربعة أشهر من الانقلاب الذي طرد الملك فاروق، بدأ المتآمرون الكبار كيم روزفلت وجمـال عبد الناصر سلسلة اجتماعاتهما التي اعتبرت فيما بعد نموذجا أوليا للنشاط السياسي السابق للانقلاب. ففي البداية، التقى كيم بلجنة من الضباط الذين كانوا بعيدين عـن مركز الحركة بما يكفي للتخلص منهم، مع ذلك يمكن الاعتماد عليهم في قول جميع الأمور التي يراد قولها وفي الوقت نفسه لا يكشفون أسرار الحركة الأساسية. وكان

هناك اجتماعان آخران، وقد حضر الثاني عبد الناصر نفسه (ويستطيع هيكل أن ينكر ما يريده، فكل شيء موثق ومصور). لم أحضر أيًا منهما، رغم أنني كنت أنتظر مع روبرت في الفندق بينما كان الاجتماع الثالث جاريا. يعتبر النطاق الكبير من الاتفاق الذي توصل إليه كيم وناصر وكتبته أنا على أساس ما يدلي به كيم إلي شفويا، مهما ككتاب تاريخي منهجي يوضح التفاهم المتبادل الذي سيشكل أساس النشاط السياسي الذي تقرر الولايات المتحدة دعمه.

ناقش ناصر وكيم وجها لوجه ثلاثة أمور عامة. الأول هو أنه من غير المحتمل أن تقوم الجماهير بثورة بسبب الظروف الاقتصادية الخانقة. ناقش كيم هذه النقطة مطولا مع وزارة الخارجية، مشيرا إلى كتاب كرين برنتن "تحليل الثورة" لتعزيز رأيه بأنه لاتوجد ثورة كبرى في التاريخ حدثت لأسباب اقتصادية ولا يمكن لحكومتنا أن تتملق زعيما معينا ليتصرف بما نرغب عن طريق التهديد بقطع المعونة الاقتصادية. أدرك ناصر منذ ذلك الوقت بأن التجربة الشخصية ستثبت له انه متى ما حاولت الحكومة الأمريكية أن تعاقبه بقطع شيء مهم من المساعدات (الحنطة على سبيل المثال)، فإنه سيصبح في وضع أقوى من السابق، وذلك بان يلقي الناس اللوم في حرمانهم منها على الولايات المتحدة وليس عليه.

الأمر الثاني هو أنه من غير المحتمل أن تقوم الجماهير المصرية بثورة تحت أي ظرف آخر. تؤمن حركتان ثوريتان في ذلك الوقت الإخوان والشيوعيون، أن الشعب المصري بما فيه من فلاحين وعمال وموظفين من المدن بل وحتى الطبقات المثقفة قد وصل إلى مرحلة الغليان ويمكن إحداث الثورة باستخدام الشكل الصحيح من الدعوات. لم يوافق ناصر. وقال: "إن مشكلتنا هي أن الشعب لايريد المزيد، إن معظم المصريين يعيشون على موارد هزيلة لآلاف السنين ويمكن أن يستمروا كذلك لألف سنة أخرى. لهذا ليس هناك أي مجال لنشوب ثورة "شعبية" أو "ديمقراطية". من المفهوم منذ البداية أن الجيش المصري سيتولي زمام الأمور في البلاد وسيختار الوقت والظرف الذي يضمن دعم الجماهير المدنية الناشطة الواعية سياسيا. وبعد ذلك تتم السيطرة على باقي البلاد تدريجيا.

وثالثا، تم الاتفاق بأن نتجنب في العلاقات المستقبلية بين الحكومتين استخدام عبارات مثل "اعادة تأسيس العملية الديمقراطية" و"الحكومة النيابية". وإذا ما تم استخدام مثل هذه العبارات بأية حال فيكون ذلك مقتصرا على النقاشات التي يمكن أن تكشف على الملأ . وسيكون هناك تفاهم سري بيننا بدون أية شروط مسبقة لإقامة حكومة ديمقراطية لسنوات عديدة. ويكون واجب الحكومة الجديدة هو تطبيق هذه الشروط.

أدرك ناصر سريعا توضيح كيم حول كيف أن الرأي العام الأمريكي أو أعضاء مجلس الشيوخ وبعض الصحفيين وحتى بعض موظفي وزارة الخارجية بما في ذلك وزير الخارجية نفسه، سرعان ما يبدأون بترديد الشعارات القديمة. في نفس الوقت، وافق كيم على وجهة نظر ناصر بأن أية محاولة قبل الأوان لإحلال الديمقراطية ستعيد البلاد ثانية إلى نفس الفوضى القديمة. فستجري الانتخابات بين مرشحين تدعمهم الحكومتان الأمريكية والبريطانية مقابل مرشحين يدعمهم السوفيت وستصوت الجماهير الفلاحية (إذا ما صوتت فعلا) كما يريد ملاك الأراضي الكبار، وسينقلب سكان المدينة إلى القلاقل وإثارة الشغب لانها وسيلتهم الوحيدة لممارسة الضغط السياسي وسينضمون إما إلى الإخوان أو إلى الحزب الشيوعي لأنهما المنقذان الوحيدان اللذان يناسبان طاقاتهم.

نوقشت مواضيع أخرى، وكان الاتفاق الصريح عليها أمرًا عسيرًا، إلا أنها مع ذلك أسست فهمًا مشتركًا لنوع الدوافع التي ستقف وراء الانقلاب القادم. فقد قاد النقاش حولها إلى ما يعتبر مبدأ أساسيا للمساومات السياسية :

"ستتضمن الاتفاقية النهائية اتفاقا حول بعض النقاط و"اتفاقا على عدم الاتفاق، على أخرى. يجب أن يكون هناك فهما مشتركا واضحا عن كل من هذه النقاط" كي لاتسبب أي نزاعات قد تظهر في وقت لاحق لكسب الرأي العام أدنى ضرر للاتفاقية الأساسية".

كانت هناك خلال المفاوضات السابقة للانقلاب بين كيم وناصر، نقطة واحدة "اتفق على عدم الاتفاق عليها"، وهي تحوي أمورًا متفقاً عليها أكثر مما تحوي من

الأمور الخلافية وهي موقف ناصر من إسرائيل . كان السياسيون والكتاب والمواطنون العاديون في كل بلد عربي – بالإضافة إلى معظم الدبلوماسيين الغربيين- يقولون لدبلوماسيينا أن العزم على "استعادة فلسطين" له الأولوية القصوى في تلك البلاد . حتى أن معظم صحفيينا البارزين كانوا يلحون طيلة هذه السنوات على أن هزيمة مصر على يد الإسرائيليين في ١٩٤٨ هي "تجربة بمثابة الجرح" وأن "كراهية إسرائيل" هي عنصر هام في تفكير قادة الثورة المصرية. إلا أن الحقيقة هي عكس ذلك إلى حد ما. كان ناصر يدرك أن الحديث عن "تحشيد قوى مصر لتصحيح الأخطاء الحاصلة في فلسطين" يمكن أن يخدم غرضا معينا في المستقبل إلا أن مثل هذا الحديث في بداية ١٩٥٢ قد يكون وسيلة غير صالحة وضارة لموضوع إشعال ثورة في مصر.

كانت القضية الأكثر حساسية هي الاحتلال البريطاني لمنطقة قناة السويس والحقيقة أن أهم ما برز خلال محادثات ناصر- روزفلت هو شدة استياء الجيش المصري من الوجود البريطاني في مصر ومن جميع المصريين الذين يقبلون به. وبخصوص الأفراد البريطانيين، كانت مواقف الضباط متضاربة، إلا أن الشعور الأعم هو مشاعر الإعجاب. كانوا يحبون الأمريكيين وقد ارتبطوا سريعا معنا بصداقة حميمة مصحوبة بطلب المساعدة. إلا أنهم كانوا يحترمون البريطانيين ومعجبين بهم. لهذا السبب كان تعامل البريطانيين معهم على أساس أنهم الأدنى، مؤلما جدا لهم.

عندما عاد كيم من القاهرة مساء يوم الانقلاب، كتب إلى الوزير دين اكاسون الآتي:

إن "الثورة الشعبية" التي تتوقعها وزارة الخارجية ويسعى إليها الشيوعيون والإخوان هي أمر غير محتمل الحدوث.

ليست هناك أية إمكانية "لإبعاد الجيش عنها"، وهو الأمر الذي كان يتمناه خبراء وزارة الخارجية الذين يدركون جيدا، الأسلوب الذي حكم فيه القادة العسكريون سوريا، وان الجيش سيقود انقلابا بعد مدة قصيرة سواء شئنا أم أبينا.

إن لدى الضباط الذين يحتمل أن يقودوا الانقلاب دوافع "سليمة"، على النقيض من تلك التي ينسبها اليهم معظم المراقبين الدبلوماسيين. وهذه سوف لن تزيد من فرص نجاحهم فحسب، بل ستجعلهم مفاوضين أكثر عقلانية ومرونة حالما يستلمون السلطة.

إن على حكومة الولايات المتحدة أن تقبل الإطاحة بالملك فاروق وربما الإنهاء التام للملكية، رغم انه لايوجد ما يمنع من إصدار شكل من أشكال الاحتجاج الهادئ لمداراة سليمي النوايا، وأنه من الأسلم للسفير كافيري أن يبدي نوعا من الاهتمام بسلامة فاروق الشخصية.

إن على حكومتنا بعد الانقلاب أن تمتنع عن أية محاولة عدا الرمزية منها لإقناع المجموعة العسكرية بأن تجري انتخابات وتؤسس حكومة دستورية وما شابه، وعليها أن تدير علاقاتها مع الحكومة الجديدة على أساس بناء المؤسسات الديمقراطية من الصفر.

بسبب هذه الاجتماعات التآمرية السابقة للانقلاب، يجب ألا يفهم أي عضو في حكومتنا أن هذا الانقلاب هو انقلابنا، إنه شأن داخلي صرف، ولاتأثير لنا عليه ويمكننا فقط دعمه من خلال عدم المعارضة. وفيما يخص الحاجة لخلق عدو للخشية منه، فسوف لن يكون هذا العدو هو الإسرائيليين بل الطبقات العليا في مصر والبريطانيين سواء شئنا أم لا.

وخلال الفترة من منتصف أيار وحتى ٢٣ تموز/يوليو، يوم الانقلاب، كنت أنتظر بترقب في واشنطن. وكان لدى كيم، بصفته رئيسا للقسم المهتم بالأحداث ابتداء من كاب تاون وإلى نيودلهي، أمور أخرى تشغله إلا أنني أبعدت جميع الاهتمامات الأخرى، وركزت على أن أبقي المخابرات المركزية ووزارة الخارجية بعيدة عن التأثر المفرط بالتقارير المتشائمة التي تردهم من القاهرة. فقد كان روبرت، بعربيته الطليقة ومواهبه في أن يظل مبهما، يسعى إلى أن يبقى قريبا من الضباط الذين التقيناهم أنا وهو في المنزل قرب الأهرامات. وتشير تقاريره إلى

محطة المخابرات المركزية في القاهرة إلى أن كل ما يجري يتم على وفق الخطة. إلا أن رئيس المحطة، الذي يجري كل اتصالاته حصريا مع السياسيين والشخصيات الحكومية الرفيعة المستوى، رفع هذه التقارير إلى واشنطن تحت مذكرة غلافية هي في الواقع دقيقة في النظر إلى هذه التقارير من حيث صدقها. والحقيقة، أن رئيس المحطة يؤمن لغاية يوم الانقلاب أن فاروق يتابع النشاطات السرية للضباط الأحرار يوما بيوم وأنه سينزل العارضة عليهم إذا ما حانت اللحظة الاستراتيجية. وكل ما يقوله روبرت هو مجرد تعزيز لرأيه.

وفي يوم ١٦ تموز، تلقيا تقريرا متشائما محتفلا بالنصر ورد من القاهرة ويذكر تفاصيل إجراءات فاروق في تنحية اللجنة المسؤولة عن إدارة نادي الضباط، حيث يعرف أن معظم أعضائها هم أعضاء في تنظيم الضباط الأحرار. كانت آخر جملة في البرقية هي أنه "ستلي ذلك عمليات إلقاء قبض". إلا أنه بعد يوم واحد، تلقى كيم برقية شخصية من روبرت، أرسلت عن طريق إحدى القنوات التي لم يكشفها لي حتى ذلك الوقت، تفيد أن رئيس المحطة رجل وغد وأن ردود أفعال فاروق على الطعوم التي وضعها ناصر أمامه تشير إلى أنه غافل عن نوايا الضباط الأحرار. اتخذ فاروق عدة إجراءات تكشف عن شكوكه بأن الجنرال محمد نجيب، الشخصية الأكثر شعبية التي اختارها ناصر لترأس الحكومة التالية للانقلاب، يدبر شيئا معينا، ولكن لا شيء أكثر من ذلك.

وهكذا وفي ٢٣ تموز ١٩٥٢، تم الانقلاب بنجاح دون عقبات. وكان الجنرال محمد نجيب رئيسا من الناحية الاسمية. وخلال الستة أشهر التالية، جرت الاتصالات الوحيدة مع ناصر ومجلس قيادة ثورته والمسؤولين المدنيين رفيعي المستوى في الحكومة الجديدة، من خلال "عقلاء" سفارتنا، بمن فيهم السفير كافيري نفسه.

وبعد أعياد الميلاد في ١٩٥٢، سألت رالف سمايلي مدير شـــركة (BA&H)، فيما إذا كان عرض شركته لا يزال ساريا. وعلمت أنه كــذلك، وكتبــت "إحـــدى أصعب الرسائل عندي" ووضعتها على مكتب فرانك وسنر وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى مكتب كيم لأبلغه ما فعلت. كانت هناك مكالمة من فرانك يطلب فيها منا أنا وكيم أن نحضر أمامه في الحال. وفي الطريق علمني كيم كيف أتعامل مع فرانك. قال لي: "قل له أن قلبك سيظل إلى الأبد مع المخابرات المركزية وأنك بالرغم من استقالتك بهدف الحصول على مال أكثر. إلا أنك ستظل دائما "الابن الوفي" للوكالة.

قال فرانك : حسنا، أنا موافق، يمكنك أن تكون "ابنًا وفيًا". ولكنني إذا ما كنــت أعلم أي شيء عن شركة (BA&H) فاعرف أنهم سيحصلون على ثروتهم الماليـــة من خلالك، ومن المؤكد أنهم سوف لن يسمحوا لك باستخدام عملك معهم كغطـــاء. إلا أنك تستطيع أن تلتقي "بروبن" (كما سأسمي مدير محطة المخابرات المركزيـــة في القاهرة)، اجتماعيا وتخبره أي شيء مهم استطعت الحصول عليه خلال سير عملك. قاطعنا كيم موافقا ليقترح أنه يمكن تكييف عملي مع الوكالة ليكون ذا قيمـــة لكل من الحكومة الأمريكية وأرباب عملي الجدد. وأطلب من قرائي العفـــو إذا مـــا ركزت على هذه النقطة. إلا أنني أريد أن يفهم جيدا أن شـــركة (BA&H) ليســـت غطاء، بل إنني موظف حقيقي في هذه الشركة. وإذا ما تجـــاوز عملـــي لصـــالح المخابرات المركزية كأبن وفي لها حدود نداء الواجب، فهذا يعود لا لسبب إلا لفرط الحماس من جانبي، وبالطبع من جانب كيم. هذا شيء مهم بالنسبة لي لأننـــي قـــد وصفت في العديد من الكتب والمقالات التي كتبت في السنوات الأخيرة حول العهد الناصري بأنني "عميل مخابرات مركزية"، ممـــا خلـــق إحراجـــا كبيـــرا لشـــركة (BA&H)، وهي رب عملي الحقيقي .

الفصل السادس عشر

شهر العسل الناصري

وفي آذار ١٩٥٣، وبعد سنة تقريبا من اليوم الذي قمت فيه بمهمتي الاستطلاعية، عدت إلى القاهرة لأغراض عملية صرفة، بمهمة مشتركة بين المخابرات المركزية وشركة (BA&H)، إلا أنها لاتتضمن أي تضارب في المصالح بين الطرفين. وبالنسبة للمخابرات المركزية، كان علي أن أتابع المفاوضات الجارية بين ملحقنا العسكري ديف ايفانز وزكريا محيي الدين(*) المدير الجديد للمخابرات المصرية وأحد المقربين من ناصر حول إمكانية تقديم المخابرات المركزية التدريب الاستخباري للتجسس ومكافحة التجسس للمصريين. وبالنسبة لشركة (BA&H) كان علي أن أكتشف فيما إذا كان بنك مصر، وهو المصرف الوطني المصري جادا في موضوع استخدام شركة (BA&H) في إجراء تقييم شامل لجميع ممتلكاته، ابتداء من معمل النسيج في المحلة الكبرى إلى المصرف نفسه. وقد نجحت في كلتا المهمتين. قال زكريا إنه يرغب بالتأكيد في تقديم خبراء المخابرات المركزية المعونة في إعادة تنظيم المخابرات المصرية،

(*) زكريا محيي الدين: ضابط وسياسي مصري. ولد في ١٩١٨ بقرية في الدقهلية. تخرج في الكلية الحربية في ١٩٣٨ مع عبد الناصر. كان مقربا من الضباط الاحرار وانضم إليهم عشية الانقلاب في تموز ١٩٥٢. تسلم مناصب عدة منها وزير الداخلية ١٩٥٣-١٩٦٢ ورئيس المخابرات ورئيس الأمن الداخلي ، كان أيضا في ١٩٦١ نائبا لناصر. أصبح رئيسا للوزراء في ١٩٦٥-١٩٦٦ ثم نائبا للرئيس ثانية في ١٩٦٦-١٩٦٧، تم إعفاؤه من كافة مناصبه. عرف عنه قربه من الأوساط الغربية والأمريكية. كان مرشحا بارزا لرئاسة مصر بعد وفاة ناصر. أيد السادات فيما عرف بأزمة مراكز القوى إلا أنه لم يسلم أي منصب. (المترجم)

وقال أحمد رشدي رئيس بنك مصر إنه يرغب بالتاكيـد فـي أن تتـولى شـركة (BA&H) المهمة التي ناقشها السفير المصري في واشنطن مـع رالـف سـمايلي رئيس الشركة، شريطة أن تتولى الوكالة الأمريكية للتنمية (AID) الدفع للشركة.

إذا كانت هناك أية حيل في العملية النهائية، فهي قد جاءت نتيجة رغبتي فـي ربط المهمتين معا. فإذا ما استطعت أن أجعل المخابرات المركزيـة تقنـع وكالـة التنمية (AID) أن تدفع عن بنك مصر أو بالأحرى إذا مـا اسـتطعت أن أجعـل المخابرات المركزية تقنع وزارة الخارجية لتقنع مسئولي وكالة التنمية الكبار، (وهو طريق ممكن في تلك الأيام، طالما كان الن دلاس مديرًا للمخابرات المركزية وجون دلاس وزيرًا للخارجية) فستكون لدي عملية استخبارية متكاملة. وبقدر تعلق الأمر بي ستكون المخابرات المركزية غطائي في العمل بشركة (BA&H) وعملي فـي الشركة سيكون غطاء لعملي في المخابرات المركزية كبن وفي لهـا. ولـيس لأي منهما أن تشعر بالقلق من الأخرى طالما أنني أزود كل واحـدة منهمـا بالنتـائج المرجوة. في البداية، لم يكن يعرف وضعي المزدوج سوى زكريا محيي الدين. إلا أنه، وفيما بعد اكتشف مدير الشركة في واشنطن رالف سمايلي هذا الوضع لأنه لم يكن يدرك أي سبب آخر يجعل موظفا بسيطا في شركته بمصر يستطيع الوصـول بسرعة إلى مسؤولي الحكومة الكبار. مع ذلك، لم يكن يرى أي تعـارض، طالمـا يبدو واضحا أنني شخصية مرغوب بها في الأوساط الحكومية المصـرية وبـذلك أتمتع بوضع أستطيع فيه الحصول على المزيد من العقود المربحة للشركة.

وبينما كنا في طريقنا لمقابلة زكريا، أعطاني سكرتيره تقييما مفصـلا حـول كيف أن زكريا قد حدد عشية الانقلاب ماذا سيتصرف فاروق لو علـم بـالانقلاب الوشيك، وكيف أن الملك قد تصرف في أعقاب ذلك بنفس الطريقة التي تنبـأ بهـا زكريا. كنت أعرف في ذلك الوقت أن زكريا محيي الدين، وبغـض النظـر عـن منصبه يعتبر أحد المقربين من ناصر الذين يمكن أن نتفاوض معهم ونحقق فوائـد عظيمة لمصالحنا المشتركة.

وخلال الأسبوعين اللذين أمضيتهما في القاهرة، أجريت عدة لقاءات مطولة مع زكريا، أدركت أنه من حيث الذكاء والكمال هو الأرفع من باقي زملائه من الضباط الأحرار، وربما حتى ناصر نفسه. وفي نهاية آخر لقاء وضعنا جدولاً بمفاوضاتنا غير الرسمية التي لا نريدها أن تظهر وبمؤتمرات المسؤولين البيروقراطيين الكبار (كما أوضحت هذه المفردة في مكان سابق من هذا الكتاب) من المصريين والأمريكيين، وحتى بالدورات التدريبية المخصصة لإطلاع أعضاء مجلس قيادة الثورة على الطلبات والقيود الأمريكية التي عليهم تذكرها عندما يقررون ما يمكن توقعه منا.

كان يجب أن تتم المصادقة على كل ذلك من قبل كيم وناصر عند لقائهما بعد ذلك بحوالي شهر، إلا أنه وخلال الفترة الفاصلة بين لقائي بزكريا ولقاء كيم بناصر، اضيف أمر جديد ذو أهمية لهذا الاتفاق ويتمثل بشخص النقيب حسن التهامي. فقد وافق زكريا على إرسال أحد الضباط الأحرار الذين يتحدثون الإنكليزية إلى واشنطن لالقاء نظرة علينا ونحن في بلادنا، وكان حسن هو رجل الموقف.

وصل حسن في ١٠ نيسان ١٩٥٣، وتبين أنه ظاهرة انسانية في غاية الإثارة للدهشة لم أر مثلها طيلة حياتي التي أمضيتها أتعامل مع ظواهر إنسانية غريبة. بعد قضاء يوم واحد فقط معه، تبين لي لماذا اختاره زكريا أو ناصر لهذه المهمة. في البدء أقول إنه كان وطنيا متعصبا وشديد التدين وفي غاية النزاهة ويتمتع بمزايا أخرى جعلته محصنا ضد أي شكل من أشكال التملق التي كنا مستعدين لتقديمها. هل نقدم الشراب؟ فهو لم يلمس هذه المادة في حياته. هل نوفر له النساء؟ في الليلة الثانية التي أمضاها في المدينة، أخذه مرافقه إلى مكان في ماريلاند يدعى (الملاك الأزرق)، وهناك صب قدح الكوكا-كولا على رأس إحدى "المضيفات" التي حاولت الجلوس في حضنه. هل نقدم له المال؟ ففي مرحلة معينة خلال فترة إقامته سأله الضابط المسؤول عن الواجب المسائي: "هل يمكن أن نسلفك، لنقل، بعض مئات من

الدولارات كي تستطيع أن تستمتع بوقت على راحتك؟ ما كان مـــن حســـن إلا أن استل مسدسه وسحب زناده وســـدده علـــى رأس الضـــابط وأجابـــه: "بحصـــانتي الدبلوماسية أستطيع أن أنثر دماغك على هذا الحائط وسوف لن أدفع شيئا عن ذلك حتى ولو بقدر ثمن بطاقة وقوف السيارات". كان، كما اعتدنا أن نطلق عليه في تلك الأيام "شخصية متميزة" (Character). إنني فخور في القول إننا قد أصبحنا بسرعة اصدقاء حميمين ، وبقينا كذلك لغاية هذا اليوم، رغم الاختلاف الواسع في خلفياتنـــا ونظرتنا إلى الأمور، ومشاربنا واتجاهاتنا المختلفة.

أمضى حسن في واشنطن فترة أسبوعين عرضت أمامه خلالها كل الخـــدمات والمعونات الفنية التي يمكن أن تقدمها المخابرات المركزيـــة ومكتـــب التحقيقـــات الفيدرالي ووكالات شرطة المدن المختلفة إلى الحكومة المصرية الجديدة، وكنـــت برفقته طيلة الوقت. وبعدما غادر مباشرة، استقلت رسميا من المخابرات المركزية، وودعتها بدموع من قبل كل من حولي، وغادر كيم إلى القاهرة لإضـــفاء الصـــفة الرسمية على هذه الترتيبات مع جمال عبد الناصر الذي كان في ذلك الوقت نائـــب رئيس الوزراء ووزير الداخلية. أمضيت ربيع ١٩٥٣ في مدينة نيويورك أتعـــرف على عمل الشركة بهدف الاطلاع على أساليبها، بعدها عدت إلى واشـــنطن لأيـــام قليلة لأمارس دوري كابن وفي وأقدم ملاحظاتي حول تقرير كتبه كيم عند اجتماعه مع ناصر، وأتلقى بعض التعليمات، بعدها اخذت زوجتي أطفالي وغـــادرت إلـــى القاهرة.

وخلال الأسبوع الذي أمضيته في واشنطن قبل مغادرتي إلى مصر، حاولـــت أن أجد طريقة يمكن بها استخدام نجاحنا، إذا كان هذا نجاحا، في مصـــر لتعزيـــز أهداف الولايات المتحدة. زرت عدة اصدقاء في وزارة الخارجية، وذهبـــت إلـــى المطعم السريع المخصص لأعضاء الكونغرس لتناول وجبة غداء مع صديقي القديم والسناتور المحسن جون سباركمن والسناتور وليم فولبرايت واخـــرين، وأمضـــيت عدة ساعات مع نائب الرئيس نيكسون وأود أن أسجل للأجيال القادمة، أنني وجدته

يتفهم كثيرا مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط أكثر من أي مسؤول رفيع في المخابرات المركزية ووزارة الخارجية، باستثناء كيم روزفلت، ولكن بما في ذلك الأخوان دالاس. إلا أنني لم أجد أي شخص يستطيع أن يعطيني جوابا بسيطا لسؤالي: ماذا سنفعل بعلاقتنا بحكومة مصر الجديدة التي تأسست لنا الآن معها ؟ لو نفترض أننا استطعنا تنويم ناصر مغناطيسيا ماذا سنأمره أن يفعل؟

بالطبع هناك عدة إجابات، إلا أنها لا تبدو معقولة في ضوء ما نعرفه من تغييرات جارية في سياسات الشرق الاوسط في ذلك الوقت، وفيما كتبناه في تقاريرنا إلى البيت الأبيض والى وكالات ووزارات الحكومة الأمريكية. قال مدير قسم مصر في وزارة الخارجية بيل بيرديه إن غرضنا يجب أن يكون هو أن نجعل الحكومة المصرية الجديدة "تتوصل إلى تفاهم مع إسرائيل"، وتستخدم نفوذها لإقناع الحكومات العربية لفعل ذلك. وقال مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى بيل رونتري، علي أن اقنع ناصر بأن يشترك بخطط حلف الناتو الدفاعية، وبشكل خاص أن يشترك في خطة دفاع إقليمي كانت في ذلك الوقت قيد النظر من قبل لجنة الخبراء الاستراتيجيين المختصين بشؤون الدفاع. وعندما سألت أعضاء مجلس الشيوخ عما يمكن أن نطلبه بشكل معقول من الحكومة المصرية المستعدة للتعاون، قال بيل فولبرايت: أي شيء يمكن أن يطلبه السفير كافيري من ناصر نيابة عن الحكومة الأمريكية، يمكن أن يكون في الواقع، طلبا منه بالانتحار.

إلا أن كيم أخذني بعد ذلك إلى الغداء في اليوم الأخير وأوجزني بالمعلومات التي حصل عليها الوزير دالاس خلال رحلته التي دامت عشرة أيام في منطقة الشرق الأوسط الشهر المنصرم. قال :" جميعها سرية بالطبع، ولكن إذا أردت أن تعرف أي شيء آخر عنها، فعليك أن تعرف ما تعلمه وزير الخارجية- أنه لا شيء فطالما انه يدعي معرفة كل شيء، فلا أحد يستطيع أن يدخل في ذهن الوزير دالاس بأية أداة كانت فهما معينا لمشاكل ناصر. فهكذا هو دالاس كالبركان لا يؤثر عليه غطاء ثلجي، وكما اعتدنا أن نطلق عليه "حقيقة ماثلة علينا التوافق معها". مع ذلك،

يبدو أن هناك تحققًا لما كنت قد توقعته ليس فقط بصفتي ابنًا وفيًا للمخـــابرات بـــل بصفتي الشخص الذي أطلق للمرة الأولى خطة المخابرات المركزية في مصر. وما يثير السرور فقد حصل تطور على الصعيد الشخصي. حيث رتب كيم موضـــوع نقل جيم ايكلبرغر إلى وزارة الخارجية وبعد ذلك تم تنسيبه إلى القـــاهرة بصـــفته ملحقا اقتصاديا، وقد قرر صديقنا القديم أيام الحرب فرانك كيرنـــز الـــذي التحـــق بمحطة تليفزيون CBS كمراسل متجول، طلب النقل إلى القاهرة كي يشـــترك فـــي المتعة. ورفض قبول أي وضع رسمي مع المخابرات المركزية، إلا أنه سرعان ما وافق على التعاون معي ومع ايك وذلك بتقديمه قليلا من المشورة المجانية في مجال العلاقات العامة إلى ناصر "فقد أخبره كيم: دعه فقط يبتسم أكثر قليلا" مقابل بعض المعلومات السرية فيما يخص الأحداث القادمة التي يمكـــن أن تصـــلح لعرضـــها تليفزيونيا.

وصلنا ثلاثتنا مع أسرنا إلى القاهرة في نفس الوقت تقريبا، وبدأنا في الحـــال، الاختلاط اجتماعيا فيما بيننا بطريقة جعلت هيكل وأخرين يعتقـــدون أننـــا جميعـــا "عملاء من المخابرات المركزية"، وقد اتخذنا من شقة فرانك الفاخرة في الزمالـــك مقرًا لنا (حيث كان لديه حساب مصاريف أكبر مما لدينا).

وفي القاهرة، بدأت بداية جيدة. فقط خصص لي صديقي الجديد حسن التهامي منزلا (فيلا) جميلا في حي المعادي الراقي، كانت مقر الإقامة الســـابق للجنـــرال "جمبو" ولسن عندما كان قائدا للقوات البريطانية في مصر، مع دار للضيوف خلفه، خصصها لنفسه، ودار آخرى مجاورة خصصها لضابط المخابرات المركزية الذي يعمل كضابط ارتباط بينه وبين فريق المخابرات المركزية الذي أرسل إلى مصر. وبالنسبة إلى فريق شركة (BA&H) فقد نزل خمسة مستشارين أكفاء فـــي بنايـــة حديثة في مدينة الحدائق (جاردن سيتي)، وبدأوا العمل الشاق فورا في محاولة لفك تشابك شركات بنك مصر. كان ايك في السفارة الأمريكية يتقدم بنجاح مع الســـفير كافيري والضابط السياسي بيل ليكلاند (حيث تم تنسيب ديف ايفـــانز إلـــى وزارة

الدفاع- البنتاغون). وظهر فرانك كيرنز عدة مرات على الهواء لصالح محطة CBS بينما كانت زوجته كوين مضيفة لنساء الطبقة العليا في مجتمع الزمالك.

في لقائي الأول مع ايك، أخبرني أن أسئلتي التي أثرتها في واشنطن قبل أسبوع واحد من مغادرتي إلى القاهرة، قد أثارت قلق الكثير من الناس، وجعلتهم يدركون لأول مرة أنهم لايستطيعون إصدار أحكام جارية على عملية معينة، ما لم يكونوا هم والموظفون الذين يؤيدونها يتمتعون بفهم مشترك عما يفترض أن تحققه هذه العملية. وداخل مكتبه، سلمني وثيقة ذات عنوان يشير إلى شيء كما لو أنه: "الحصة الأمريكية في الشرق الأوسط"، وطلب مني أن اجلس فيما بعد لأقرأها مرة بعد آخرى حتى ترسخ بشكل تام في دماغي. بعد ذلك، وإذا ما توفر لدي الوقت الكافي بعد واجباتي في شركة (BA&H)، علي أن أساعده في إعادة كتابتها وهو يريد ترجمتها بواسطة أستاذ بالعربية من فريق المخابرات المركزية، سيطلب مني بعدها أن أعطي الترجمة إلى زكريا محيي الدين واطلب تعليقه عليها. لايبدو أنها تسبب أية أضرار، فهي لاتحتوي على أسرار رسمية رغم أنها تحمل طابعا سريا للغاية. قال ايك إن علي أن أنقلها إلى زكريا ليس بصفتي مندوبا عن المخابرات المركزية، بل تفضلا شخصيا على السفير كافيري، لأستغل فرصة اتصالي بزكريا بخصوص عملي في شركة (BA&H). (كان علي أن أوضح قبل هذا الوقت أن زكريا قد عينه ناصر مرافقا لفريق الشركة، ليس لاهتمامه الرسمي ببنك مصر بل لأنه وبصفته رئيسا للمخابرات فهو يعتبر المسؤول الطبيعي عن مراقبة فريق من الأجانب يعمل في أحد المجالات الأكثر حساسية لدى الحكومة، ألا وهو ماليتها). على أية حال، لم أحبذ الفكرة. قال ايك بعد ذلك: إذا لم تكن مستعدا لأداء أفضال بسيطة كهذه من وقت لآخر، فإن علينا أن نبعدك عن عملنا كلية". وقد أدى هذا مفعوله. فقد تغلب علي فضولي ودوافعي التي لاتقاوم في "المشاركة". بعدها اتصلت بحسن التهامي، وذهبنا إلى هليوبوليس في الوقت الذي يمكننا فيه العثور على زكريا في مكتبه متأخرا بعد ظهر يوم الخميس أثناء مغادرته في عطلة نهاية الأسبوع

الخاص بالمسلمين. نظر إلى الورقة، وكانت نسخة منها بالأصل الانكليزي والنسخة الأخرى الترجمة العربية لها، وقال إنه سيأخذها إلى الرئيس ناصر، فيما بعد هــذا المساء. وهذا ما جرى.

هذه هي نهاية الموضوع قدر تعلق الأمر بي. إلا أن ايك أخبرني فــي يــوم الاثنين التالي، أن السفير كافيري قد ناقش الورقة بصورة مقتضــبة مــع محمــود فوزي، وزير الخارجية. قدمت الورقة إلى فوزي عبر قنوات "غير رسمية" وغيــر دبلوماسية، لهذا أصيب كافيري بالدهشة واعترف بجهله بها وأنكر مسؤوليته عنها وأخبر فوزي أنه إذا ما تبنت الحكومة الأمريكية مثل هذه السياسة، فإن هــذا دون علمه أو موافقته.

بعد ذلك، وفي الأسبوع التالي، وبينما كنت ألقي محاضرة على مديري عــدد من شركات بنك مصر، لاحظت مصريا طويلا قوي البنية غير مبتسم يرتدي زي ضابط ويجلس لوحده في نهاية القاعة. كان منكبا باهتمام على اســتيعاب خبرتــي الادارية. إنه ناصر، اتخذت سلوكا أكثر جدية ومهنية، وتجاوزت مزحي القذرة التي كنت ألقيها في محاضراتي كوسيلة لإيقاظ الطلبة الناعسين، وأنهيــت محاضــرتي بطلب لتشكيل فريق عمل مشترك. كانت محاضرتي عبارة عن نقد لاذع للأجهــزة التنظيمية الشرقية التي جرى تأسيسها لإرضاء بل وحتى تشجيع المنافسات داخــل الأجهزة ولتبسيط مهمة "الإدارة من خلال التجسس". وقد شعر ناصر، الذي كــان حينها نائبا لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية، بالتأثر لذلك.

سألني عندما قدمت نفسي إليه بعد المحاضرة، فيما إذا كان لدي أي برنــامج بخصوص الغداء. قلت له كلا، ثم رافقني إلى سيارته، وهي من نوع بيوك قديمــة يقودها سائق، وأخذني إلى مكتبه في وزارة الداخلية لتناول غداء مكون من حســاء وشطائر. ومنذ هذا الوقت حتى تنحيته لنجيب بعد عدة شهور كنت (ومت بغيظك يا هيكل) أتناول الغداء معه مرتين وثلاث مرات أسبوعيا إما في وزارة الداخليــة أو

في مطعم مقر مجلس قيادة الثورة في الزمالك. كان حسن التهامي معظم الأوقات معنا، وبعض الأحيان يحضر زكريا، وغالبا ما يحضر أعضاء مجلس قيادة الثورة الآخرون- وأقول للتوثيق إنه لم يحضر محمد حسنين هيكل أبدا.

أمضيت وأسرتي في القاهرة سنتين سعيدتين بالكامل وعاشت حياة أشبه أجواء مؤلفات لورنس دوريل تتخللها أنشطة تآمرية محمومة. إلا أنها كانت مثمرة بشكل عام.

ولحين الوقت الذي التقيت به بجمال عبد الناصر، كنت منهمكا في مشاكل الإدارة العامة التي كانت كما أكد لي ذلك زملائي في الشركة، أكثر تحديا وإثارة من المشاكل التي صادفها مهندسو الإدارة في أي مكان من العالم في ذلك الوقت. كنا حقا نحرث أرضا جديدة، ونشق طريقا وسط الفوضى المؤسساتية ووسط ما أطلق عليه أحد أعضاء فريقنا "تحجر التقاليد".

على سبيل المثال، حاولنا في عملية تنظيم ادارة الجمارك المصرية أن نفهم كيف يمكن أن نحسن الجهاز عن طريق تحديثه بطريقة تجعل من خمسمائة موظف فقط يؤدون عملا يقوم به في السابق ألفان. قال زكريا إننا أغفلنا "الضرورة الاجتماعية". وذكرنا أن المسؤولين الإداريين البريطانيين الذين وضعوا هذا النظام في المرة الأولى قد سحبوا ألفين من مثيري المشاكل المحتملين من الشوارع، بينما نسعى نحن لإعادة الف وخمسمائة منهم إلى الانتشار بالشوارع. وقال أيضا إن الخبراء البريطانيين قد سعوا لتعقيد واعاقة عملية استيراد البضائع، وإرضاء جميع ذوي المصلحة- وبالطبع باستثناء المستوردين ومجهزيهم الأجانب وهما العنصران الأقل أهمية في العملية.

أشار علينا زكريا: "يجب أن نضع أسبقياتنا بشكل صحيح". قال إن المجالات الوحيدة في الحكومة التي تعتبر فيها كفاءة الأداء هي أهم من "الاعتبارات الاجتماعية" هي المخابرات ووزارة الداخلية نفسها. وهي فروع الحكومة التي

تسيطر على الداخل والخارج من وإلى البلاد، وتبقي العين مفتوحة على ما يجـري داخلها. لا جدال حول أسبقياته. وفيما بعد، اصرت لجنة تابعة لمجلس قيادة الثورة حول كفاءة الأداء الحكومي، وكانت مدركة لمشكلة البطالة التي ورثتها من حكومة فاروق، على أن تستبقي مئات الموظفين الفائضين عن حاجتها لادارة وزارة فاعلة. وفي هذه الحالة، لم تطبق معرفته التي دعا إليها بصدد باقي المؤسسات الحكومية. وقد وصل عمل اللجنة إلى وزارته. وعندما رفضت اللجنة أن تغير موقفهـا إزاء الفائض، قام بجمع الموظفين الفائضين ونقلهم إلى بناية منفصلة وجعلهم يستنسخون كتابة القرآن الكريم. هكذا كان زكريا محيي الدين نموذجا فريدا، إلا انه فيما بعـد حل محل ناصر كوزير للداخلية ورقى ناصر نفسه من نائب رئيس الوزراء إلـى رئيس للجمهورية. عندما ذهبت لأول مرة إلى الوزارة، كان ناصر مسؤولا عنهـا بنفسه، لأنه يعتبرها الأسبقية الأولى لحكومته الجديدة من أجل إرساء قاعدة متينة بل وقامعة، كتلك المطلوبة لحماية النظام الجديد من الاضطراب العـام الـذي يميـز الفترات، التي تلي الثورات في كافة أنحاء العالم.

كان واجبي في تقديم المشورة حول تنظيم وزارة الداخلية هو الذي وحد عمل المخابرات المركزية و شركة **(BA&H)**. فقد كان علينا معا أن نضـع برنامجـا ليست له سمة المخابرات المركزية بل الحكومة الأمريكية. كانت تديره في الحقيقة الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية **AID** مع دور للمخابرات المركزية فيه. لـيس لأن الحكومة الأمريكية تريده أن يكون سريا بل لأن المصريين يريدونه كذلك. وتعتبر هذه الحالة مثالا نموذجيا لتقديم الملاحظة العامة التالية. ففي السابق عنـدما كانـت وكالة المخابرات المركزية هي مجرد وكالة مخابرات، كانت معظم العمليات التـي اشتركنا بها سرية لهذا السبب نفسه وهو أن الطرف الحكومي الآخر قد يعاني مـن إحراج سياسي لا يغتفر إذا ما عرف على نطاق واسع بوجود علاقات وثيقـة مـع الحكومة الأمريكية كعلاقة المريض بطبيبه.

وهكذا كان الوضع في وزارة الداخلية– فقد تولى اثنان من مستشاري شركة (BA&H) مهمة معالجة مشاكل نظام بطاقات الهويات وتسجيل السيارات ومشاكل داخلية آخرى، وأضفوا تحسينات على نظام الخدمات الجمركية والهجرة رغم حظر تخفيض قوائم الموظفين. وكان مجال عملي هو الشرطة، وطالما أن الأمر مقيد، فعلي أن الجأ إلى رب عملي السابق وهو المخابرات المركزية. وبعد شهر من لقائي بناصر، قدمت إلينا أكاديمية الشرطة، التي سبق أن أشرفت عليها قبل تركي العمل في الوكالة، ملازما يدعى بات كيلي وهو رجل شرطة كريم كبير السن من نيويورك، أحيل إلى التقاعد مؤخرًا من منصب رئيس أكاديمية شرطة نيويورك بعد ادائه الخدمة لسنوات عديدة كرئيس للوحدة المسؤولة عن حماية طائفة كبيرة من الشخصيات المهمة التي تزور منهاتن.

كانت مهمتي هي وضع المخططات التنظيمية ورسم المناهج التدريسية للكلية الجديدة. ويتم تنفيذ المهمة الثانية بمساعدة فرانك دوين وفرانك هولمز، وهما موظفان سابقان في مكتب التحقيقات الفيدرالي، استدعاهما صديقي المخلص في وحدة العمليات الخاصة أورفال باركر لإدارة كلية الشرطة التابعة للمخابرات المركزية.

ظهر الاهتمام بمهمتي العملياتية مع الشرطة بمعونة بات كيلي، بعد سنوات قليلة عندما أصبح السير انتوني ايدن مهووسا بقضية الرئيس المصري ناصر بحيث أن وزير خارجيتنا يتوقع في أي يوم أن يواجه إلحاحًا بريطانيًا لتدبير مؤامرة اغتيال ضد ناصر. وفي هذا الوقت، تلقى رئيس محطة المخابرات المركزية من الن دلاس نفسه برقية أرسلت بناء على إلحاح أخيه تأمرنا بدراسة الطرق التي يمكن بها، إذا ما مورس الضغط علينا، قتل ناصر. كانت هناك نبرة سلبية في البرقية التي أفادت أن الشقيقين دالاس سيرحبان برد متروّ، يفيد أن ناصر عصي على ذلك. ولكن علينا بالطبع ألا نذكر حقيقة أننا السبب في أنه بعيد عن متناول القتلة المحتملين طالما أننا قد وضعنا بأنفسنا الإجراءات الأمنية حوله.

وبعد هذا الزمن، فقد آن لي أن أعترف بالشيء الوحيد من كل الدعاية الكاذبة المناوئة لكوبلاند والتي دأب الشيوعيون وبعض الأمريكيين محدودي التفكيرعلـــى ترديدها خلال السنوات الأخيرة. نعم، ناقشت القضية مع ناصر نفسه، ويعود الفضل الكبير في التقرير الممتاز الذي نلنا مكافأة فيه والذي أرسلناه أخيرًا إلى واشنطن إلى مقترحاته.

سألته: "ماذا عن السم؟، لنفترض أنني انتظرت حتى تدير وجهك ثم وضـــعت حبة في قهوتك؟"

قال : "حسنًا، إن حسن واقف هناك، وإذا لم أرك، فحسن سوف يراك".

قلت: "ولكن قد نرشي خادما ليضع السم في قهوتك قبل أن يجلبها اليك؟"

قال: "يبدو أن رجل الشرطة النيويوركي قد فكر في ذلك. إن القهوة ستقتل من يتذوقها، وعندما يسقط المتذوق ميتا، ألا ينذرنا هذا بمؤامرتك؟

وهلم جرا. ويتضح أن بات قد فكر بكل شيء، ولكننا بتدريبنا ناصـــر علـــى اكتشاف محاولات اغتياله قد جعله يدرك الأهمية القصوى لهذا الأمر.

وكما قلت، فقد حصل كل ذلك بعد سنوات لاحقة. في ١٩٥٣، عندما كنا نريد أن نبقي ناصر حيا، كان همنا الأساس هو احتمال حصول انقلاب مضاد تقوده نفس المجموعة التي قادتنا إلى الجيش في المرة الأولى وهي الإخوان المســـلمون. وقـــد اتخذ ناصر كل ما من شأنه قمع الحركة، إلا أن هناك عقبتين. الأولى، أنه صـــدق المعلومات المضللة التي أوصلناها إليه عبر وسائلنا السابقة للانقلاب، وصدق لعدة أشهر بعد أن استلم السلطة أن الإخوان يمكن أن يكونوا حلفاء مفيدين. ثانيا، بعد أن أصبح مقتنعا أن الأمر ليس بهذه الصورة، لم يستطع التفكير بأية وســـيلة آخـــرى لتحييد الحركة دون أن يعرض نظامه الجديد للانتقاد من أنه نظام قمعي. بســـطت الأمور هنا بالطبع بأكثر مما ينبغي، لأني أريد أن أوضح هذه الفكـــرة. إن نظـــام ناصر، كأي نظام ثوري آخر، لابد أن يمر بفترة من القمع المعلن، فلا بـــد لـــه أن يؤسس قاعدة قمعية، حتى قبل أن يفكر بخلق "قاعدة للبناء" .

كانت أول برقية أستلمها مدير محطة المخابرات المركزية جوابا على تقريره المطول حول تقدمنا في العمل بوزارة الداخلية تطلب منه أولاً أن ينقل لي شكر الإخوان دالاس لنجاحي، وثانيًا أن يكتب إليهم عن احتمالات إقامة "انتخابات حرة ونزيهة في المستقبل القريب". الأساس في كل المراسلات التي تلت ذلك هو الافتراض بأن إقامة أية حكومة منتخبة بشكل حر ونزيه في أي مكان في العالم ستكون تلقائيا مناهضة للسوفيت ومؤيدة للأمريكيين حتى لو أعطاها السوفيت كل ما تريده ووقفنا نحن بجانب أعدائها الرئيسيين.

وبينما أخذت ضغوط واشنطن تزداد علينا، طلب مني جيم ايكلبرغر مساعدته في تنفيذ اختبار "محامي الشيطان" فيما يخص المشهد المصري حيث طلب من السفير كافيري إجراءه. وبعد أن وافق السفير على أفكارنا كحدود للاختصاص، فقد كان الباقي علي أو بالأحرى على حسن التهامي وعلي. وفي الشهرين التاليين أمضينا أنا وحسن أمتع أيامنا. وبموافقة ناصر وزكريا، أرفع شخصيتين في البلاد في شؤون الأمن العام، وضعنا لعبة انقلاب ضد ناصر. وضعنا أنفسنا بموضع مجموعات وشخصيات مختلفة معروفة إما بمعاداتها للنظام الجديد أو كونها منافسة محتملة له، ولم نصبح أبرز الخبراء في مصر حول كيفية زعزعة النظام وإسقاطه فحسب، بل ربما في العالم أيضا. فقد تعلمنا ما هي عناصر الانقلاب، ووضعنا بها قائمة تفصيلية ومعقدة أكثر مما دار في رأس ستيف ميد عندما أخذ حسني الزعيم بسيارته في شوارع دمشق وأشار عليه بالأهداف التي ينبغي عليه السيطرة عليها ليلة الانقلاب. وبعد سنوات، وعندما جلست مع فريق من ضباط المخابرات البريطانيين والأمريكيين للتآمر لاسقاط ناصر بالفعل، لم يبد زملاؤنا البريطانيون أية إشارة تفيد أنهم يعلمون بأنهم يتحدثون إلى الشخص الوحيد في العالم الذي يتمتع بخبرة مستقاة من الواقع حول كيفية تنفيذ ذلك.

وهنا علي أن أدلي باعتراف مهم. فبينما كان "العقلاء" في واشنطن يبدون امتعاضهم من النبرة المعادية للأمريكيين في خطابات ناصر العامة والدعاية

الموجهة ضدنا من راديو القاهرة وهي الوسيلة المؤثرة التي تصل معظـم أنحـاء الشرق الأوسط، هل يمكنك أن تحزر من يكتب جزءاً كبيرا من هذه المواد؟ لقد كنا نحن. كنا نفهم كما يفهم ذلك ناصر في تلك الفترة أن سيطرة النظام الجديـد علـى البلاد تعتمد على كونه معاديًا باستمرار وبطريقة مقنعة للأمريكيين، حتى إن ناصر لا يستطيع المخاطرة بالإشارة إلى العقلانية إزاء سياساتنا المختلفـة فـي الشـرق الأوسط . حتى لو استطعنا تنويمه مغناطيسيا كي يطيع دون تردد رغبات واشنطن، فإننا سوف لن نجعله يقوم بأعمال كنا نعرف أنها ستكون انتحارية. لهذا قدمنا إليـه المساعدة في مجال دعايته المضادة للأمريكيين. لقد بذلنا جهدا عظيما لكي نجعلهـا ذات أثر معاكس بالطبع، وقد أدخلنا فيها الكثير من الهراء، إلا أننا بقينـا نمسـك بزمام السيطرة على آثارها. حتى إننا دعونا بول لنبرغر، الذي ربما كـان أعظـم خبير أنجبته الأرض في ميدان الدعاية السوداء، إلى مصر لتدريب الفريق المصري الامريكي الذي يخرج هذه المادة.

وكما ترون، كانت مهمتنا هي خلق قناة مصرية– أمريكية سرية حرة التشكيل الاداري لتبقى مفتوحة وبعيدة عن مؤثرات الفساد. وهي سوف لـن تتـدخل فيمـا يجري من خلالها. فهذا هو من واجب وزارة الخارجية. إذا ما أفرزت الحـوارات تلاق بوجهات النظر، فهذا جيد وحسن. ولكن إذا ما أفرزت خلافات فقط فلا شيء يمكننا أن نفعله بخصوصها.

وعلي أن اؤكد هنا أن هذا لا يمكن أن تقوم به أية عملية للنشاط السياسي. فهي يمكنها أن تدفع بأحسن الاحوال القوى الديناميكية المحلية المتغيرة، ويمكنهـا فـي بعض الاحيان أن تغير من مسارها، وحتى إنها في أحيان معينـة، تخلـق قـوى ديناميكية جديدة. إلا أنها نادرًا – إن لم نقل أبدًا – ما تستطيع أن تحدث تغييـرات داخلية في بلد معين عن طريق استخدام قوى من الخارج – ليست من داخل مصر، أو داخل كوبا، وكمثال أحدث، ليست من داخل نيكاراغوا. فـي زمـاني، كانـت عناصر المخابرات المركزية التي تصر على التفكير بطريقة مغايرة، أما أن تنقـل

إلى وظائف إدارية أو تصرف من الخدمة. كان الن يقبل بالمنطق، إلا أن أخاه ليس كذلك. لا يمكننا القول إن جون فوستر دالاس رجل أحمق، ولكن من المؤكد أنه ليس ذكيا كما يعتقد هو ورئيسه ايزنهاور. ولديه دماغ، إذا ما عزم على شيء فلا يمكن فتحه حتى ولو بأداة فتح. لقد أعطى عبارة : "دماغ كالفخ الفولاذي" معنى جديداً. ولكونه لم يعش فعلا أو يعمل وسط مرؤوسيه في العالم الثالث ، فإنه لم يتفهمهم ، ولانه لا يتفهم فهو مقتنع بشكل أعمى بتمتعه بفهم ميكيافيلي ذكي أكثر من الآخرين لجميع مشاكل العالم الإقليمية، بينما تعتبر وجهات نظره عن العالم بالنسبة لنا نحن الضباط الميدانيين من المخابرات المركزية وموظفي وزارة الخارجية، ليست أقل بدائية من الهراء الذي يغشى عقول معظم سياسيي الشرق الأوسط.

وخلال المتبقي من السنتين من رحلتي في القاهرة السنتين التاليتين اللتين قضيتهما بعد أن تركت شركة BA&H وعدت إلى المخابرات المركزية لأصبح رئيسا لهيئة النشاط السياسي، أمضيت معظم وقتي في مساعدة كيم روزفلت في تنظيم الأمور بعد حصول خلافات مع مصر وباقي حكومات الشرق الأوسط بسبب إصرار الوزير دالاس على اتباع سياسات وسياقات يعرف رجال المخابرات والخارجية أنها ستكون كارثية. هل كان هذا خطأنا؟ ألم نخبر دالاس ومعاونيه الكبار، وأنصاره ومؤيديه في البيت الابيض، بأنها ستكون بمثابة الكارثة؟ في الواقع لقد فعلنا ذلك، وكل من يشك، يمكنه مراجعة المراسلات المتوافرة حاليا أمام أنظار الرأي العام بالاستفادة من قانون حرية الوصول للمعلومات.

كنا في الميدان نعمل على وفق أربعة مبادئ نعتقدها، لجهلنا بأساليب واشنطن، إنها تلائم المعايير العامة المعقولة لرؤسائنا. لا بد أننا كنا على صواب- من حيث المبادئ إن لم نقل من حيث وجوب طاعتنا لرؤسائنا- لأنه منذ ذلك الوقت وحتى الآن، لابد أن تلحق الكارثة أية عملية تجري دون رضاهم.

المبدأ الأول هو الذي سبق أن أوضحته آنفًا. إذا كان لابد أن تغير شخصية أو طريقة عمل أي حكومة أخرى، عليك أن تفعل ذلك باستخدام قوى موجودة في

حينها داخل البلاد. لابد أن تكون بالطبع عواقب. فحالما ترى أنه لا توجد مثل هذه القوى- أو أنه لا توجد قوى ساكنة يمكن إيقاظها، وتحفيزهـا بلغـة مصـالحها، وتوجيهها نحو القنوات التي تخدم مصالحنا- فعليك أن تتخلى عن النشاط السياسي وأن تحاول أن تجرب طريقة أخرى أو ببساطة أن تتكيف مع وضع غير مناسب. لقد أعلن أساس هذا المبدأ على يد الاستراتيجيين العسكريين الصينيين قبـل ثلاثـة آلاف سنة بقولهم : "لا تخض حربا لا ترى أن طريقك سالكة لكسبها". عليـك ألا تباشر بنشاط عملي معين ما لم تر هناك فرصة مقبولة بالنجاح فيه في الاخـر. إن تكلفة الفشل في النشاط السياسي في مجال حل مشكلة معينة تكون أكبر دائما مـن كلفة تركها غير محلولة، ويمكن أن تكون تكاليف الفشل الذريع في حلها انتحارية.

المبدأ الثاني هو المبدأ الذي لم يحقق رجال الميدان أدنى نجـاح فـي إقنـاع الاستراتيجيين المكتبيين في واشنطن به. وهو أن الديمقراطية والانتخابات الحرة في العديد من بلدان العالم هي ليست الحل سواء لمشاكل البلاد نفسها أو مشاكلنا نحن. وغالبا - إن لم نقل دائما - أن الانتخابات الحرة التي تتم داخل ما يسمى بالبلـدان النامية ستفوز بها فئة من الفئتين التاليتين: الأولى جماعة سياسية تكون أولـويتهم القصوى ضمان ألا تجري مستقبلا أية انتخابـات حـرة، أو الثانيـة، شخصـية ديماغوجية تطلق وعودًا لا تستطيع الوفاء بها، وتقدم لنا طلبات ربما لا نسـتطيع تلبيتها وبعد ذلك تلقي اللوم علينا لفشلها.

المبدأ الثالث هو أن علينا أن نعترف ونقبل ذلك كحقيقة ، وهـو أن الحكومـة التي نرفعها إلى السلطة ستنظر أولاً إلى مصالحها هي. حتى الحكومة الأكثر تأييدا لأمريكا سوف لن تطيعنا ما لم يخدم ذلك مصالحها ومصالحنا، وما لم يشكل ذلـك خطرا على سيطرتها على البلاد. هذه هي الحقيقة التي لم نستطع نحن الذين عملنا مع حكومة ناصر أن نعبرها إلى واشنطن. فقد كنا نرى أن أولويتنا هي إبقاء ناصر في السلطة. فهو لا يشكل فائدة لنا وهو بعيد عنها ولا بديل غيره في الأفق. إلا أننا كنا نؤمر المرة تلو الأخرى بأن نطلب من ناصر القيام بعمل معين، يعـرف هـو

ونحن أنه سيكون انتحاريا، وعندما ظل يرفض، طلب منا أن نضع خططا للتخلص منه.

وأخيرا علينا أن نعترف بوجوب أن يظل معظم عملنا مع الحكومة التي نريدها أن تبقى في السلطة سريًا، ليس لأننا نريد السرية بل لأن عميلنا يريدها. إننا لسنا محبوبين في معظم أنحاء العالم، ولا يتقدم أي قائد في الدول التي تتلقى هباتنا في نظر شعبه من إعلان صداقته معنا – رغم أن القليل جدا من القادة يكسب نقاطا قليلة بين فترة وأخرى من ادعائهم كيف أنهم استغفلونا– وهناك شواهد عديدة عن قادة إقليميين عرف عنهم ولاؤهم للأمريكيين قد فقدوا هيبتهم أو حياتهم نتيجة ذلك. والإسرائيليون إلى حد ما استثناء من ذلك، بل حتى إنهم يؤكدون من وقت لآخر، ورغم المبالغ الكبيرة من المعونات التي نمنحها إليهم، أنهم يملكون تأثيرًا علينا أكثر مما نملك. في مجال التعامل مع الحكومات الاسرائيلية، فإن نجاحنا في النشاط السياسي، كما نعرفه في الأيام السالفة، يعتمد على إبقائه سريا. فإعلانه لا يدمر العمل فحسب، بل يعكس تأثيره بحيث تصبح كلفته أكبر بكثير من المكاسب التي قد نحصل عليها منه.

إلا أن المشكلة المركزية هي خارج هذه الاعتبارات. فبعد سنوات من الان، سيكتشف طالب جامعي معين يكتب أطروحة دكتوراه، من خلال بحثه أن مشاكل اللعبة الأمريكية في الخمسينات لم تنتج بسبب أنه لا أحد في واشنطن يقرأ تقاريرنا كما تنتج من حقيقة أننا في الميدان لم نكن نعرف أنه لا أحد يقرؤها. إن المبادئ التي أوضحتها قبل قليل هي مشكلة توثيق فقط، فعندما عدت إلى واشنطن وجدت خزانة ملفات كاملة لا تحتوي فقط على بحوث من طراز المقالات تشرح هذه المبادئ، بل أيضا تقارير تفصيلية عما كنا نضمنه فعلا، حيث كنا نراعي هذه المبادئ في كتابة التقارير. مع ذلك، لا يوجد تقرير واحد سواء في أرشيف وزارة الخارجية أو المخابرات المركزية. تبلغنا فيه واشنطن بأننا على خطأ. والحقيقة أن هناك كتابي شكر موجهين إلى يشيران إلى أن واشنطن ترى أننا على صواب، وتشكرني بشكل صريح على "خطتي الاستراتيجية"، في التعامل مع حكومة ناصر.

لهذا واصلنا عملنا بشكل أعمى متصورين بأننا نعمل ضمن حدود متفق عليها مع واشنطن بينما نحن في الحقيقة نقود ناصر نحو مشاكل لم يستطع هو ولا نحن، كما يسجل التاريخ، التغلب عليها. وما جعل الأمور أسوأ أننا كنا على طول الخــط مخدرين بكلمات الزوار القادمين من واشنطن الذين يقتنعون بوجهات نظرنا عندما يكونون في القاهرة، إلا أنهم عند رجوعهم إلى واشنطن يلوذون بالصمت- لقد ظلت وزارة الخارجية تطلب من ناصر أن يتخذ إجراءات تعتبر انتحارا سياسيًا، وبقينــا نحن في القاهرة نتنبأ بدقة متناهية كيف سيكون رده على طلباتنا. بل حتى إننا تنبأنا كيف أن أعمال ناصر والإجراءات الأخرى المرافقة لها ستحقق له النصر طالمــا ظل جون فوستر دالاس وزيرا للخارجية.

لقد فشل الوزير دالاس في فهم القاعدة الأولى وهي: "أنك لا تستطيع أن تكسب اللعبة إذا كنت لا تعرف أنك تشترك بها". إلا انه يمكــن أن تصــل الاســتراتيجية الناجحة إلى نهاية سيئة إذا ما فشلت في فهم التغييرات الجذرية في مسرح اللعــب نفسه. كان ناصر يقول دائما: "أنا لا أتخذ أي فعل بل رد فعل فقط". وقد جعل ذلك الأمر سهلا علينا، ودون لف أو دوران أقول، قد جعل الأمر سهلا علي.

نعم، هناك عمل واحد لناصر فشلنا أنا وكيم في التنبؤ به، فعندما أعلن الوزير دالاس أننا سوف، لن نقدم المساعدة لناصر في بنائه لسد أسوان، دعينا إلى اجتمــاع في وزارة الخارجية لتحديد ماذا يمكن أن يكون رد فعله. طرحت العديد من الآراء، إلا أن فرانك وسنر وحده، مديرنا المحبوب، ذكر احتمال أن يقوم ناصــر بتــأميم شركة قناة السويس. وقد رفسناه كيم وأنا من تحت المنضدة (كنا نحب فرانك ولــم نكن نريده أن يظهر أحمق)، إلا أنه أصر على موقفه عندما كان بعض من موظفي الخارجية الجالسين حول المنضدة يوضحون له بمنة لماذا يكون مثل هذا العمل غير محتمل.

وكما يعرف الجميع، قام ناصر بتأميم شركة القناة (وليس القناة نفســها، كمــا يذكر ذلك خطأ)، ودعانا فرانك إلى مكتبه للتباهي علينا. قال لنا: "عنــدما تــأتون، أرجو منكم جلب ملاحظاتكم حول اجتماع وزارة الخارجية".

كان فرانك يردد بروح معنوية عالية "ألم أقل لكم؟"، حتى ألقي نظـرة علـى ملاحظاتنا يبحث عن إشارة لتنبئه. لم يستطع العثور عليها، قال: "ألا تتـذكرون؟" وأخذ صوته يرتفع قائلا: "لقد قلت مرتين أو ثلاث مرات كيف أنني أرى أن ناصر سيؤمم شركة القناة".

نظر إلي كيم وقال : "فرانك ، أنا لا أتذكر أنك قلت شيئا كهذا هل تتذكر أنت يا مايلز؟"

قلت لكيم: "أنا لم أسمعه"، ثم قلت لفرانك: " هل أنت متأكد من أنك لـم تكـن مجرد تفكر بقول شيء كهذا؟ مع ذلك، لو كنت قد قلته لكان أعظم تنبؤ بـالأمور، ولكنك.."

إلا أن فرانك أصر قائلا: "إنك تعلم، أنني قد قلته"، إلا أننا أنا وكـيم واصـلنا القول بنظرات مرتبكة على وجوهنا، إننا لا نتذكر أي شيء. كـان مقلبًـا ثقـيلاً، وأصبحنا نشعر في الغالب بالذنب، خاصة بعد أن مات فرانك بعد أقل من سنة على تدهور وضع الثورة في هنكاريا- وهي العملية الأثيرة لديه- .

أود أن أستمر بالتوثيق وأقول إن فرانك وسـنر، والـذي لا يعرفـه معظـم الأمريكيين، كان رجلا عظيما حقا ورئيسا مثاليا. قال ستيوارت السوب إن فرانك قد توفي " أثناء الحرب كأي جندي آخر قتل أثناء المعركة" كان أصدقاؤه ومرؤوسـوه راضين عنه بنسبة مائة بالمائة.

الفصل السابع عشر

النشاط السياسي السري عمل جدي

سبق أن ابلغني فرانك وسنر بأنهم سيرحبون بي دائما في المخابرات المركزية، عندما أريد العودة، فهناك وظيفة بانتظاري. لهذا عندما انتهى عملي في مصر لصالح شركة **BA&H** في تموز ١٩٥٥، دققت حسابي المصرفي، ووجدت أن فيه ما يكفي لشراء منزل جديد في فرجينيا وسيارتين. فكتبت كتاب استقالة إلى جيم الن رئيس الشركة. أجابني بنفس ما قاله فرانك عندما استقلت من المخابرات المركزية قبل سنتين "أي : إذا ما رغبت في أي وقت أن أعود إلى عملي في الشركة، فإنهم سيرحبون بي". وإني إذا ما رغبت فإن الشركة مستعدة أن تمنحني إجازة مفتوحة بدلا من اعتباري مستقيلا. لهذا ما لم يفكر أحد الموظفين في واشنطن أو شيكاغو بإلغائها ، فإني لا أزال إلى اليوم أتمتع بإجازة مفتوحة.

أمضيت وقتا ممتعا في القاهرة، وعندما أنظر الآن إلى الفترة ما بين تموز ١٩٥٣ وتموز ١٩٥٥، أرى أنها فترة مثمرة إلى حد كبير للحكومة الأمريكية ولأصدقائي المصريين ولشركة **BA&H** ولنفسي. أتمنى لو أستطيع قول نفس الكلام عن السنتين التاليتين. نعم، إني العنصر الوحيد من المخابرات المركزية الذي يتم تعيينه رسميا خبيرا بالنشاط السياسي وأول رئيس لوحدة من خمسة رجال تعرف باسم هيئة النشاط السياسي. إن لهذا التعيين وهذا اللقب وقعًا جميلاً في دعاية غلاف كتاب معين، إلا أن الحقيقة هي إني قد منحت حقيبة لحملها ولكن بعد بداية جيدة، أمضيت معظم السنتين التاليتين، أحاول وقف عمليات النشاط السياسي التي تدار من قبل وحدات في الفرق الإقليمية لا تكترث بوجودي.

تعطى الأولوية للأشياء المهمة. فعندما استلمت عملي الجديد، لم يستغرق الأمر مني أكثر من يوم أو يومين لأعــرف أنه لم يكن أي من رؤســائي المباشــرين- لا الن دلاس ، ولا فرانك وسنر ولا حتى كيم روزفلت- يعرف بالضبط ما يفترض مني القيام به. وعندما سألتهم، كان كل واحد منهم يعطيني جوابا معينا يستند علــى ما قاله الرئيس ترومان عندما وقع قانون مجلس الأمن القومي المرقم ١٠/٢ الــذي يخول المخابرات المركزية توسيع وظيفتها الاستخبارية لتقوم بمكافحة : "العمليــات السرية الشريرة للاتحاد السوفيتي" بأية طريقة تشاؤها. كــان الســوفيت يقاتلوننــا بألاعيب قذرة، لهذا علينا أن نقاتلهم بنفس الطريقة، ولكن ألا يعني هذا النزول إلى مستواهم؟ إذا ما استخدمنا ألاعيب قذرة فقط لأنهم يستخدمونها، ألا نكــون ســيئين مثلهم؟ ألا نفقد أفضليتنا الأخلاقية؟ قد يسأل بعض دعاة الأخلاق مثل هذه الأســئلة الآن، ولكن لم يكن هناك أحد يطرح مثل هذه الأسئلة حينها.

اعذروني إذا ما بدوت أتبجح، ولكنكم أيها الطلاب إذا ما دقــق مــن يكتــب أطروحاتكم للدكتوراه المواد المتوافرة أمامكم من خلال قــانون حريــة الوصــول للمعلومات، ستعرفون أنني أول شخص اقترح في الوثائق الرسمية، بألا يعهــد لأي سلاح تابع للحكومة الأمريكية ولا للمخابرات المركزية ولا لأي جهة أخرى، بمهمة في العالم للقيام بألاعيب قذرة لا لشيء إلا لأن السوفيت يقومون بها. ففي بحث من عشر صفحات حول طبيعة الصراع الأمريكي- السوفيتي كما أراه، أوضحت أننــا يجب أولاً أن نحدد ما هو الضرر الذي يسعى السوفيت لإلحاقه بنا ولماذا. بعد ذلك، علينا أن نعمل ما يلزم لمنع ذلك سواء كان نظيفا أم قذرا، ثم نواصل الســعي وراء أهدافنا.

في الوقت الذي كنت فيه أول من أدخل هذا في الوثائق الرسمية، إلا أن آرائي هذه لم تكن من بنات افكاري. فالفكرة الأساسية كانت لهاري روزيتك، وقد نقلهــا إلى ريتشارد (ديك) بيسيل، وهو اقتصادي جاءنا من البيت الأبيض حيــث يعمــل مستشارا حول تنفيذ خطة مارشال. وفي غضون أسبوع من التحاقــه بالمخــابرات المركزية، أدرك كيم أنه يمكن أن يكون حليفا محتملا. كان يعرف القليل عما نطلق

عليه "العقلية المستهدفة"، إلا أنه كان يتفق مع رأينا بأن فهمها يعتبر شرطا أساسيا لوضع خطط عن تنفيذ عمليات استخبارية ضد أصحابها. وبعد أن ربطت بين ما سمعته من هاري مع ما تعلمته أثناء دعوتي للغداء مع ديك، شرعت بجولة إلى وزارة الدفاع والخارجية وباقي مراكز صنع القرار لمعرفة رأي خبرائهم بالمشاكل التي نواجهها مع السوفيت.

عند إجرائي لهذه الجولات، تعلمت درسا أصبح منذ ذلك الحين حقيقة ظلت ملازمة لي طيلة حياتي. وهي أن البيروقراطي (أو رجل الإدارة)، ومن خلال تعريف واجباته، يقوم بإعداد المشاكل وتهيئتها للحل، وليس العكس. ماذا يحاول السوفيت أن يفعلوه لنا، وكيف علينا أن نوقفهم؟ كل وحدة حكومية تجيب عن هذا السؤال بطريقة تلائم اغراضها. وبذلك تخلق "لعبة" جديدة اطلقت عليها اسم "اللعبة البيروقراطية"، ووضعتها جنبا إلى جنب مع باب "اللعبة المحلية" ومباشرة بعد باب "اللعبة الدولية" مبادئها الاساسية هي:

- إن غرض كل لاعب (أي غرض كل وحدة داخل التشكيلة البيروقراطية) هو تحقيق وضع متفوق في ساحة اللعب، وضع يمكنها من تحديد المشكلة الإجمالية بطريقة تمنحها دورا قياديا في حلها.
- إن الاستراتيجية الناجحة هي إلى حد ما استراتيجية بناء الإمبراطورية، أي الحصول على كادر أكبر وكادر أعلى في الرتب والاعتبار، ومبان أحدث وأكبر وميزانية أكبر من ميزانيات باقي اللاعبين.
- إن الحل المتفق عليه للمشكلة الإجمالية، كما يراه اللاعبون المتنافسون، لا يأتي من التعاون لتحقيق غرض معين بقدر ما يأتي من التوفيق بين اللاعبين المهتمين بأدوارهم المختلفة.
- إن سمة وتأكيد الحل (إذا كان يمكن إطلاق هذه المفردة عليه)، يتقرر من قبل الوحدة التي تستطيع أن تستخلص من الكونغرس أعلى ميزانية وبعدها كل شيء يجري لصالحها.

إنني أتحدث عن اللعبة كما أراها في ١٩٥٣، ومنذ ذلك الوقـت حتـى الآن، شرحت عقول أكثر مني خبرة المنافسـة البيروقراطيـة فـي الحكومـة ، إلا أن الاستنتاجات ظلت إلى حد كبير هي نفسها التي طرحتها قبل أكثر من ثلاثين عاما، ففي حكومتنا، أن ما يتخذ من "سياسة دفاعية وطنية" هو لـيس حـلا موضـوعيا مدروسا بعناية لمشاكل بلادنا الأمنية بقدر ما هو إجراء توفيقي بين وزارة الـدفاع والخارجية وباقي دوائر ووكالات الحكومة الأخرى، ويكون الرجل الجـالس فـي البيت الأبيض هو الحكم النهائي. في ١٩٥٣، كان الرجل الجالس في البيت الأبيض هو دوايت دي ايزنهاور، وهو عسكري نال الشهرة بصفته قائدا عسكريا للقـوات التي هزمت ألمانيا النازية. وبالنسبة له، يعتبر تسلمه منصـب رئـيس الولايـات المتحدة هو آخر خطوة في مسيرته العسكرية. لهذا، فالرابح الدائم من اللعبـة هـو وزارة الدفاع.

وقد لاحظت أن أكبر تأثير للألاعيب الشخصية هـو فـي وزارة الخارجيـة فموظفوها وهم العمود الفقري في الوزارة، يتصورون أنفسهم خلاصة الدبلوماسيين المحترفين. ولكوني قد أمضيت الجزء الأكبر من السنوات الست الماضية في بلدان الشرق الأوسط، حيث العادات وطرق التفكير بل وحتى القيم الأخلاقية تختلف بشكل كبير عنا، تحدثت معهم قائلا إننا لا يمكن أن نحقق أدنى قدر من أهداف سياسـتنا الخارجية في أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية دون جهـود الدبلوماسـيين ورجـال المخابرات، الذين كما كتب عنهم اركي روزفلت في وقت لاحق، درسوا لغة وثقافة ومجتمع الشعوب الأخرى بحيث استطاعوا تعلم التفكير بطريقة هذه الشـعوب وأن يروا العالم وفق تصوراتها. إلا أنهم وتحت قيادة وزير للخارجية كـدالاس، لـيس عليهم أن يتعبوا انفسهم فقد كان اختصاصيو المخـابرات المركزيـة الميـدانيون يحاولون إيجاد طريقة للتعاون المشترك مع الموظفين الدبلوماسيين الـذي يـرون جهازهم بأنه سلك النخبة وإنهم المحترفون من متعددي الكفاءات والذين يمكـن أن يعملوا بكفاءة في كابل بنفس الطريقة كما لو أنهم في باريس- أي بعبارة أخـرى،

أنهم يستطيعون الصيد في أي مكان- من بين اللاعبين الأربعة المشتركين في اللعبة البيروقراطية والذين زرت مقراتهم استعداداً لاستلامي عملي الجديد كرئيس للهيئة الجديدة للنشاط السياسي، كان جهازنا الدبلوماسي الذي يعتبر أقلها إحساسا بالمخاطر التي تهدد أمننا القومي.

لا يتطلب الأمر محللا من مؤسسة BA&H لنـدرك أننـا فـي المخـابرات المركزية مقبلون على معركة متواصلة مع الموظفين الدبلوماسيين. فهم ببساطة لا يحبوننا وممتعضون من دخولنا إلى وضعهم النخبوي. ولكوننـا نسـتخدم الغطـاء الدبلوماسي في السفارات والمفوضيات والقنصليات في الخـارج ، فـإنهم كـانوا يصرون على أن تعييناتنا في هذه المواقع تشير بشكل واضح لأي شخص لديه أي إلمام بسيط بالخدمة المدنية إلى أننا لسنا جزءا منهم"، كما كانوا غالبا يسـتخدمون هذه العبارة للإشارة إلى وجودنا بينهم عند حديثهم مع الغرباء- إذا كانوا لا يحبوننا في ظل الظروف الاعتيادية، فهم أصبحوا يمقتوننا عندما كان جون فوسـتر دالاس وزيرا للخارجية وشقيقه الن رئيسنا. في ظل الوزير دالاس، تخلى موظفـو وزارة الخارجية، مع بعض الاستثناءات الجديرة بالثناء، عن أي تظاهر بالخبرة الميدانيـة والتجأوا إلى خلق التحالفات والاتفاقيات.

أما ما يراه هؤلاء الخبراء المعزولـون وشـبه المنبـوذين فهـو أن هـدف الاستراتيجية السوفيتية هي حرماننا من أنظمتنا الحياتيـة، علـى وفـق مفـردات الإيديولوجية الماركسية، وهذه الاستراتيجية دفاعية في أساسها، لا تدفعها الرغبة في السيطرة على العالم بل الخشية من أن تسيطر "الرأسمالية والامبريالية" عليه إذا لم تفعل الشيوعية السوفيتية ذلك. فاللينينيون الجدد في موسكو لا يفكـرون بطريقـة التمنيات فحسب، بل إنهم يعتقدون أن الاقتصاديات الغربية تعتمد علـى اسـتغلال العالم الثالث. وهم يؤمنون أنهم إذا استطاعوا حرمان حلفائنا الأوربيين من الوصول إلى المواد الخام وإمدادات الطاقة من أفريقيا والشرق الأوسـط، فـإن "إمبرياليتنـا الرأسمالية" ستفقد شأنها. وقد بين لي أفراد من مخابرات القوة الجوية مـا أعتبـره

دليلا لا يمكن دحضه وهو أنه إذا حرمت أوربا الغربية من بعض المواد الخام التي كانت تحصل عليها في حينها من بلد واحد في جنوب أفريقيا، فإن صناعاتها ستتلكأ وتتوقف في غضون أقل من شهر. من السهل تصــور مــا سيحصــل للتحــالف العسكري الأمريكي مع أوربا الغربية إذا ما أصبحت فجــأة تعتمــد علــى الهبــة السوفيتية، فقد يتقدم الاتحاد السوفيتي لتجهيز الأوربيين بأية مادة يحتاجونها بما في ذلك النفط، إذا لم تعد متوافرة في افريقيا والشرق الاوسط.

عدت من جولتي في مؤسسات واشنطن البيروقراطيــة المختصــة بالسياســة الخارجية لأجد وظيفتي قد ضاعت فقد أمر كيم روزفلت وحدتي بالتحرك بــدوني. أخبر مساعدي الأول وهو شاب ألمعي مبدع يحمل شهادة الدكتوراه يــدعى بــوب مندلسنام بأن يبدأ بأي عمل فيه رائحة النشاط السياسي، كي لا يلحظ فرانك وســنر خمول الوحدة وبالتالي يسرق مكاتبها وميزانيتها. وقد ركز بوب خياله بحماس في العمل على بعض أفكاره منذ أيام دراسته في الجامعة.

كانت أولاها ما اطلق عليه "التنجيم في المستويات العليــا"، أو OHP، وهــي نظرية من نظريات مذهب الفعالية السياسية (*) القائمة على دراسة عميقة للأساليب التي يعتمدها قادة العالم في إصدار احكامهم المستندة على شكل من أشكال الهدايــة الإلهية. على سبيل المثال، أخبرنا مدير محطتنا أن السياسيين الأفغــان عــادة مــا يحلون إخفاقاتهم في الاتفاق داخل برلمانهم بواسطة مصارعة الديكة. فكل طــرف في النزاع يطلق ديكا في باحة البرلمان تهاجم الديكة بعضها البعض، وعندما ينتهي القتال بمقتل أحدها، يمسك رئيس البرلمان الديك الباقي وهو المنتصر ويرفعه عاليا ويعلن تسوية النزاع. سعى بوب للحصول على مشورة مدرب ديكة مكســيكي، إلا أن كيم أوقف المشروع. موضحا أنه يجب إفهام رؤسائنا تدريجيا بهــذه الأنمــاط

(*) هو مذهب يدعو لاتخاذ إجراءات فعالة ومؤثرة لتحقيق هدف معين بما في ذلــك اســتخدام القوة. (المترجم)

الغريبة من المشاريع التي سنضعها، إضافة إلى ذلك أن عرض خرافات الشعوب الأفريقية والآسيوية سيسيء إلى الليبراليين الآخرين بيننا ويتهموننا بأننا عنصريون.

عندما طرح بوب فكرة زرع منجمين لدى بعض قادة العالم، لم يعترض عليه أحد. وفي البداية حاز على دعم كيم المتحمس، وقام كلاهما بتخفيف معارضة فرانك وسنر بتذكيره بالتأثير الذي كان يتمتع به متصوف من جورج تاون على الحياة الاجتماعية لواشنطن. ولم تكن مضيفاتنا البارزات بيرل ميستا وكوين كافريتز وحدهما أسيرتي عادة تدقيق قوائم الضيوف مع منجميهما، بل إن هناك أعضاء من الكونغرس، سأحجم عن ذكر أسمائهم، معروفون باعتمادهم على مشورة شخصية مثيرة من جورج تاون تعرف باسم الجد موسى، والذي بدوره يعتمد على سحر مشعوذ، قامت مخابراتنا المركزية نفسها بأداء طقوسه.

ظهر بعد ذلك شيء يدعى إعادة التسلح الأخلاقي أو**MRA**، وهو حركة دينية سياسية متعددة الطوائف بدأها شخص غريب الأطوار يدعى فرانك بوجمان. وهي تدعي بسعيها لتعزيز الجانب الروحي لأعضائها وبذلك تدفعهم إلى اتباع سلوك إيثاري مسؤول في حياتهم العامة. وما جلب انتباه بوب هو المستوى الاجتماعي الذي تعمل فيه الحركة. فهي تستهدف القادة حصريا، وأدبها عالي النظم، وبعبارة أخرى إنها مروعة.

سار برنامج التدريب التنجيمي ببطء شديد ولم تظهر نتائجه إلا بعد بضع سنوات عندما أقنع العراف الذي زرعناه لدى رئيس غانا نكروما، أقنع الرئيس بقبول دعوة لزيارة الصين الشيوعية حتى يغادر البلاد عندما قام رجلنا الجنرال (العم ارثر) أو (انكرا) بتنفيذ انقلابه. وبعد أشهر عدة كذلك عندما أغوى جهاز كمبيوتر تمت برمجته لإجراء حسابات تنجيمية رئيس إندونيسيا سوكارنو للقيام بعدة إجراءات تخدم أغراضنا. إلا أن العمل الذي قمنا به بصدد مشروع إعادة التسلح الأخلاقي قد زودنا بقنوات سرية مفيدة تصل مباشرة إلى عقول القادة ليس فقط في أفريقيا وآسيا بل وأيضا في أوربا. وعندما قام بوب بإجراءات مشابهة في ميدان

السياينتولوجي(*)، وهو ثمرة أفكار رجل آخر غريب الأطوار، هذه المــرة كاتــب قصص علمية يدعى رون هبارد. كنا في طريقنا لامتلاك قدرة نشاط سياسي يمكن أن تجعل النشاط السري المكلف وغير الفاعل جدا والمكشوف إلى حد كبير الخاص برجل المخابرات المركزية بيل كيسي يبدو تافها بالمقارنة معه. وكان بوب يحب أن يتباهى وهو محق في ذلك: "أن برنامج إعادة التســلح الأخلاقــي والســاينتولوجي سيتعاونان لتحقيق هدف واحد".

إذا كنتم أيها الساخرون الذين تقرأون هذا الكلام تتصــورون أننــي أمــزح، فاتركوا هذا التفكير جانبا. في الخمسينات، كان بعض منا على الأقل يفهم أن معظم الأعمال على الصعيد الدولي وكذلك معظمها على صعيد الألاعيب المحلية المتعددة التي تقف وراءها، لا تستند على الذكاء الميكافيلي أكثر مما تستند على الخرافــات البالية. ومن يستطيع اليوم أن يناقش بأن تأثير عرافة السيدة ريغــان، الســيدة مــا اسمها؟ هو نفس تأثير رئيس أركان الرئيس ريغان القوي دونالد ريغان؟ ودون لف ودروان حول الصورة الأخيرة، علي أن أقول إن أولئك المحافظين القدامى الــذين يتذكرون الأيام الماضية لفرانك وسنر وكيم روزفلت ودي فيتز جيرالــد وفرانــك لندسي وأركي روزفلت وأنا يؤمنون بأن تدهور فاعلية المخابرات المركزية قد بدأ منذ اليوم الذي أخذ فيه رؤساؤنا بالتفكير "عمليا"، أي العمل على افتراض أن جميع شعوب العالم تفكر كرجل أعمال أمريكي جاد ومباشر. لقد تنفسنا الصــعداء عنــد اكتشافنا أن رئيسنا يأخذ مشورة منجم بدلا من مشورة وزير الخارجية ومستشــار الأمن القومي.

قمنا بعد ذلك أنا وبوب وبعض الباحثين بجولة في الفــرق الميدانيــة وزرنــا رؤساء الأقسام لنسأل هذه الأسئلة عن كل بلد يقع ضمن ساحة عملهم. مــا الــذي يجري في ساحة عملك ويهدد المصالح الأمريكية ؟ ولماذا؟ وما الذي نستطيع فعله

(*) الساينتولوجي: نظام ديني يقوم على معرفة الذات والسمو الروحــي مــن خــلال الدراســة والتدريب. (المترجم)

لتغيير ذلك؟". شملت جولاتنا كل العالم من أفغانستان وألبانيا والجزائر إلى اليمن ويوغسلافيا وزامبيا. لا ننظر إلى كل المشاكل التي يمكن أن نجدها، بل نبحث عن مجموعة من المخاطر المناسبة لتطبيق خطط رائدة يمكن بها اختبار أساليب النشاط السياسي البسيط الذي كان قيد تفكيرنا في ذلك الوقت.

قد نسأل : لماذا لا تتناولون الاتحاد السوفيتي بخططكم؟

كان جوابنا المعتاد هو: "علينا أن نمشي قبل أن نستطيع الجري".

إن الجواب المتكرر عادة لأسئلتنا هو أن هذه البلاد أو تلك لا تقدر بشكل صحيح الأسلوب الغربي من الديمقراطية، لأنها لا تنظم دوريا "انتخابات حرة" أو أن الآراء الغربية حول "حقوق الإنسان" لم تصبح بعد جزءا مكملا للثقافة المحلية. كان ردنا هو "ثم ماذا؟" كيف يمكن أن يلحق ذلك ضررا بنا؟" وجدنا حالتين أو ثلاثًا تعتبر فيها الانتخابات الحرة نموذجا مقبولا في المجتمع، وتشكل خطرا مباشرا على مصالحنا لأن الشعوب التي تكره الأمريكيين ستصوت باستمرار لصالح المرشحين الذين يوعدونها بتدميرنا في كل دورة. في مثل هذه المناطق، ليس من مصلحتنا تشجيع الدعوات إلى "حرية التعبير" كتلك التي نسير عليها داخل بلادنا.

النوع الآخر من الأجوبة التي كنا نحصل عليها تحمل أعراض "أمراض الزبائن" التي تصيب العديد من المختصين في هذه المناطق. على سبيل المثال، قد يخبرنا رئيس قسم أو رئيس محطة عند عودته إلى البلاد بإجازة "أن قوات دولة الواق واق تقاتل قوات الحيص بيص وأن شرارة الحرب العالمية الثالثة قد اشتعلت". لا يمكننا إزاء أخبار من هذا النوع سوى أن نفغر أفواهنا ونقول، مع المشاكل الحالية غير القليلة على طاولتنا، علينا أن نضع هذه الشرارات جانبا إلى حين أن تصل الحالة إلى مرحلة الخطر وتبدأ بالاشتعال لتكون حريقا مدمرا.

إن الحقيقة هي أنه من العديد من الحروب الإقليمية التي بدأت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، لم نكن نعتقد أن واحدة منها يمكن أن تتفاقم لتصل إلى حرب عالمية ثالثة. إن طبيعة صراعنا مع السوفيت هي أنه كان كذلك. عندما كنا نكتب

نفس الأمر إلى وزارة الخارجية والـــدفاع والبيـــت الأبـــيض، كنـــا نـــتهم بأننـــا استرضائيون وغير مبدعين في التفكير وقصيري النظر أو مجرد جهلـــة بســـطاء. (وبعد ذلك، كما هو الآن، أفرزت الأوضاع على الساحة الدولية آراء أكثر تطرفـــا من آرائنا وتستند على أقل قدر من المعرفة الذي يمكن التسامح فيه فـــي مجـــالات أخرى من مجالات النشاط الإنساني).

إلا أن لنا أفضلية على متهمينا هي أننا نعرف عم كنا نتحدث، وهـــم ليســـوا كذلك. لدينا معلومات موثوقة تفيد أن الاستراتيجية السوفيتية موجهة لنقاط الضعف الغربية وهي لا تستند على نقاط القوة السوفيتية ونقاط الضعف التي يعتبرونها قابلة للاستغلال أكثر من غيرها هي البلدان التي يحكمها اللصوص والطغاة الذين تكمـــن قوتهم في أنهم يعرفون مع أي طرف تكون مصلحتهم ويأخذون بمداهنته. لهذا فإن البلدان التي عينتها وحدتي الصغيرة ووضعتها في أولى الاهتمامات هـــي البلـــدان الأفريقية والآسيوية والجنوب أمريكية التي يحكمها قادة موالون لأمريكـــا والـــذين جعلهم سلوكهم فريسة سهلة لعمليات المخابرات السوفيتية. لـــم نســـتطع أن نقنـــع الإدارة الجمهورية أن هؤلاء الزعماء يشكلون إحراجا كبيرا لنا، إضافة إلى ذلـــك فهم أهداف سهلة للنشاط السياسي السوفيتي بحيث أنه ليست لدينا أية وسيلة فاعلـــة لحمايتهم من الانقلابات- إلا أن هناك الكثير منهم يصلحون أن يكونوا أهدافا نتمرن عليها، طالما لم يسمع أحد من أعضاء الكونغرس بهم.

ومنذ ١٩٥٥ حتى الآن، كتبت العشرات من الكتب حول "أخطاء" المخـــابرات المركزية في مجال العمليات السرية. كانت جميعها عمليات شبه عسكرية من النوع الذي نستنكره نحن الاختصاصيين الأوائل في النشاط السياسي السري أو العلنـــي. تعطي هذه الكتب انطباعا بأنها تشكل مجمل عمل الوكالة خـــلال الأربعـــين ســـنة الماضية، رغم أن الحقيقة هي أنها لا تشكل إلا جزءاً بسيطا مما فعلته الوكالة لإبقاء العالم آمنا من أجل المصالح الأمريكية ولمنع نشوب حرب ثالثة. لم تعلن أية عملية من تدبير هيئتي الصغيرة المختصة بالنشاط السياسي أو جرت على غرار نموذجنا

الأصلي خلال السنوات اللاحقة . ورغم أنها لم تكلف الكثير من المال (فنحن لا نحتاج جنودا أو أسلحة أو دعمًا لوجستيًا)، إلا أن أثرها النهائي أكبر وعمره أطول، ولم تقد إلى تشهير محرج من قبل وسائل الإعلام.

عندما أظهر حاليا في برامج حوارية تليفزيونية، أو أشترك في ندوات لمناقشة المخابرات المركزية، كنت دوما الصوت الوحيد الذي يؤكد على حقيقة أن التركيز هو على عمليات الوكالة التي نقرأ عنها في الصحافة، ولهذا فإنها علنية وليست سرية- وأقول إن للوكالة نجاحات أكثر من الفشل، إلا أن النجاحات لا تذكر في الصحافة. يقابل كلامي دائما بضحك صاخب وبتحد مفاده: "حسنا، هل تتفضل أن تخبرنا بنجاح واحد فقط". أجيب: "أن هذا هو صميم الموضوع، أن نجاحاتي لم تكن سرية معلنة كتلك التي يكتب عنها من يشاء بل هي سرية لا تعلن. هذا هو السبب لعدم معرفتكم بها، وسوف لن أزيدكم معرفة بها الآن". لم يقنع جوابي أي شخص، إلا أنني شعرت بالكثير من الرضا عند طرحي له.

تصدر كتابي المعنون "عالم التجسس الحقيقي" في بريطانيا و" دون عباءة أو خنجر" في الولايات المتحدة قائمة أفضل المبيعات نتيجة استعراضات كتبت عنه ووصفته بأنه "مزيج مبدع للخداع والتمويه" و"عمل إبداعي ظريف". ونتيجة ذلك، دعيت لحضور جميع الندوات المناهضة للمخابرات المركزية التي نظمتها جماعات يسارية مختلفة. في كل واحدة من هذه الندوات، يذكر بالاسم ثلاثة عشر بلد بأنها الأماكن التي نفذت بها المخابرات المركزية عمليات لا أخلاقية خرقاء ألحقت ضررا فادحا بالمصالح الأمريكية، وهذه البلدان هي بورما والصين وكوبا واندونيسيا والتبت وسنغافورا والبرازيل وتشيلي والكونغو واليونان وإيران وغواتيمالا. والحقيقة أن المخابرات المركزية نفذت في هذه البلدان وفي بلدان عديدة أخرى قليلا من العمليات الخرقاء من حين لآخر، إلا أنه في اثنين منها وهما الصين

وكوبا، حققت المخابرات نجاحا جديرا بالثناء، رغم أن خبرها، لكونها نجاحات، لم يصل إلى الصحافة أبدًا ولا حتى إلى لجان المراقبة التابعة للكونغرس.

سأورد هنا ما وجدته جديرا بالملاحظة. لم نكن مثال الكمال في مجال السرية، فمع مرور الوقت وتراخي قبضة المخابرات على الكتّاب الذين يظهرون مســتقبلا من بين كوادرها جرى تسريب للمعلومات. فبعد أن حفزت الهيئة الأولـــى للنشـــاط السياسي المخابرات المركزية لأن تجري حوالي مائة عملية سياسية تقليدية ســرية ناجحة في أكثر من ثلاثين بلدا. إلا أنه حتى هذه أهملها المحاورون المناوئون لها.

ولكي أكون منصفًا مع هؤلاء الأوغاد، سأعترف أن القضية ربما تكون قضية تعريف. فبالنسبة لهم يدل اصطلاح "النشاط السياسي السري" على العمليات التـــي أحرجت المخابرات المركزية في الداخل والخارج، وهي:

١- إما شبه عسكرية أو مساعدة للأعمال العسكرية الاعتيادية، كتلك التي جــرت في فيتنام وأفغانستان وأمريكا الوسطى .. الخ.

٢- التي تم تمويلها من قبل أو من خلال قنوات المخابرات المركزية، رغم أنها لم توجه في معظم الحالات من قبلها.

٣- كان معظم القائمين بها متعاقدين (أي ليسوا على الملاك) أو أنهم كادر عسكري منتدب من الجيش أو البحرية أو القوة الجوية.

٤- لا تعتبر "سرية" على الإطلاق، أي أن الصحافة قد تناولتها بشكل مكثف.

كنا نعرف "النشاط السياسي" في هيئتي الصغيرة بأنه أحد أشـــكال العمليـــات التالية سواء كانت مكونة من شكل واحد أو من عدة اشكال:

١- تشكيل لوبي أو جماعة ضغط: بطريقة مشابهة (رغم أنها تنطبق على الظروف المحلية)، للطريقة التي تستخدمها(لجان النشاط السياسي **PAC**)، الموجهة ضد حكومتنا من قبـل حكومـــات أجنبيـــة (كإســـرائيل، واليونـــان، وبريطانيـــا

العظمى..الخ)، نظمنا قائمة الاهتمامات التجارية والصناعية للبلدان الأهداف، وقمنا بتشجيعهم لتنظيم وسائل متحفظة للضغط على حكوماتهم. وقمنا بتدريب كادرهم في أقسام العلاقات العامة. بعض هذه الأساليب التي علمناهم إياها، قانونية دون شك، والبعض الآخر ليس كذلك.

٢- المستشارون الأمريكيون : لحين عودتي من رحلتي في ١٩٥٣-١٩٥٥ إلى مصر واشتراكي بعدها بصياغة أساليب النشاط السياسي، لم أكن أدرك إلى أي حد أسهمت عملياتنا في هذه البلاد في بناء الطراز النموذجي للعمليات. كنت أستطيع بسهولة الوصول إلى أي عضو مهم في مجلس قيادة الثورة. وفي الوقت الذي غادرت فيه مصر، لدينا مستشارون أمريكيون مدربون في المخابرات المركزية يعملون بشكل دائم مع أجهزة الشرطة والأمن ومديريات المخابرات. وبالنسبة للوظائف المؤقتة، لدينا خبراء مثل المستشار بول لاينبرغر لدى وزارة الإعلام والرئيس ناصر نفسه حول كيف يمكن للإذاعة والصحافة المصرية أن تنشر أخبارا وافتتاحيات تبدو مؤيدة للسوفيت إلا أنها تضرهم أكثر مما تنفعهم أو أخرى تبدو مناهضة للأمريكيين إلا أنها تفيدهم أكثر مما تضرهم. ألقى شيرمان كنت رئيس مكتب المخابرات المركزية للتحليلات القومية دروسًا على باحثي ومحللي المخابرات المصرية حول كيفية كتابة تقارير يومية بسيطة وحقيقية وفي الوقت المناسب وثيقة الصلة بالموضوع من النوع الذي يحتاجه الرئيس ناصر، بدلا من الهراء العقيم المتملق الذي يملأ البريد الوارد إليه يوميا.

ومن خلال هذه الطرق ومع وسائل اتصال أخرى، طورنا علاقة حميمة مع نظام ناصر الثوري مكنتنا من فهم دوافعه العامة ونواياه المحددة للتنبؤ بخطواته المستقبلية، ونعتقد أن التعبير عن رأينا علنا إذا أردنا أن نقنع ناصر بالعدول عن هذه الاجراءات سيكون بالضد من مصالحنا المشتركة. مع ذلك ليس من واجبنا إقناع ناصر بألا يتخذ خطوات لمصلحته ولمصلحة بلاده ولكن ليست لمصلحتنا.

٣- المستشارون الآخرون غير المصريين. في بداية العلاقات المصرية- الأمريكية، بدأنا نشك بأن ناصر يستخدم غير الذين نقدمهم له، فثقته بنا كانت اقل من نسبة مائة بالمائة. (لماذا بدأ حسن التهامي فجأة يأخذ دروسا لتحسين لغته الألمانية). وقد تأكدت شكوكنا عندما قام عقيد بالشرطة الخاصة للحزب النازي هو العقيد اوتوسكورنسكي بزيارة مفاجئة إلى رئيس محطتنا في مدريد ليبلغه أن الملحق العسكري في السفارة المصرية هناك قد اتصل به وطلب مساعدته في تجنيد ضباط الجيش الألماني الذين يمكن أن تكون مصر مكانا مناسبا لهم للاختباء من صيادي النازيين. هل يمكن أن تساعده المخابرات المركزية في ذلك؟ نعم يمكننا. فبمساعدة أوتو، اختار ضابط المخابرات المركزية الذي يعمل مع الجنرال كيلين عددا من الجنرالات والعقداء والرواد الألمان الذين كانوا أغبياء بحيث يمكن الاعتماد عليهم في تخريب الجيش المصري، بحيث يصبح الجيش غير قادر على ايجاد طريقه من القاهرة إلى الإسماعيلية، هذا دون أن نذكر مقاتلته للبريطانيين بعد وصوله هناك.

يمكن قول الكثير عن فكرة زرع ألمان مشتبه بارتكابهم جرائم حرب، في الحكومات الشرق أوسطية، لأنهم عادة مناوئون للأمريكيين ومناوئون أيضا للسوفيت ويفترض كذلك أنهم معادون للسامية وبالنتيجة معادون لإسرائيل ومعظمهم أيضا معادون للعرب، رغم أنهم يتمتعون بالذكاء الذي يمكنهم من إخفاء هذه الحقيقة. على أية حال، فجميعهم انتهازيون، يرغبون في العمل لأي طرف يدفع لهم، ويمدون أرباب عملهم الشرق أوسطيين بسرور بأي مشورة نأمرهم بها. ومن الطبيعي أننا نعاني من بعض الصعوبة في الدخول إلى المشاريع التي تستخدم النازيين والنازيين السابقين إلا أن مصاعبنا اختفت عندما اعترف أصدقاؤنا في المخابرات الإسرائيلية (الموساد) بأنهم يستخدمون أيضا نازيين سابقين لتنفيذ عدد من الأهداف الشائنة، ولنفس الأسباب، فقد كانوا مركز اهتمام لنا.

٤- المستشارون المحليون: ربما تكون أفضل طريقة للتأثير على رئيس أي دولة، بما في ذلك بلادنا، هي من خلال أفراد في حاشيته من نفس جنسيته ودينه وأصله العرقي والذين يثق بهم لاعتبارات شخصية بحتة. تحت هذا الصنف من العمليات، دخل رجال بوب مندلستام من منجمين وقراء كف، ومفسري معاني الأعداد، والأطباء، والأطباء الدجالين، ومحضري الأرواح، وباقي المشعوذين . مع ذلك، وباستثناء حالة أو حالتين، وجدنا من غير الضروري "زرع" سحرة قمنا بتجنيدهم من خارج حاشية الأهداف وقمنا بتدريبهم وفق طرق خاصة بنا. ويشير مسح سريع للحكومات التي اخترناها كأهداف إلى أن الزعماء القوميين الذين يعتمدون على السحرة أكثر بكثير من الزعماء الذين لا يعتمدون عليهم. وطالما أن السحرة يعيشون في خوف دائم من احتمال تقديمهم مشورة قد تضلل زبائنهم (فهم دجالون وليسوا حمقى)، فقد كانوا مسرورين لتلقي مساعدتنا. ومن خلالها يمكنهم الاستعاضة عن كلماتهم المبهمة بمادة حقيقية، ونستطيع نحن من خلالهم نقل معلومات إلى أهدافنا تبدو إليهم أنها لم تصدر منا بل من قوة عليا.

ربما يكون الرئيس ناصر هو رئيس الدولة الوحيد في افريقيا أو آسيا الذي لم يكن يعتمد على نصائح السحرة بدرجة معينة، إلا أنه دأب على الاستماع لنصائح مساعديه ومرافقيه وأصدقائه الذين يستريح معهم بعد أيام عمل طويلة- هناك على سبيل المثال محمد حسنين هيكل، صديقه الشخصي المقرب، الذي يستطيع أن يمرر لناصر" الكلمة" الأمريكية، بطريقة واضحة ومقنعة أكثر من أي تافه يعمل سفيرا للولايات المتحدة في مصر خلال السنوات القليلة الأخيرة من حياة ناصر. لقد اعتدنا المزاح أنه بوجود هيكل بجانب ناصر، فإننا لا نحتاج إلى سفير في القاهرة، طالما كان هيكل يمضي ساعة أو بحدود ذلك كل أسبوع يقرأ المعلومات المفصلة الواردة من واشنطن والتي يقدمها إليه رئيس محطة المخابرات المركزية. لا يمكن القول إن هيكل "عميل للمخابرات المركزية"، إلا أن المعلومات التي يعبرها إلى ناصر لخدمة أغراضه هي عادة ما تخدم أغراضنا أيضا.

٥- العملاء ذوو النفوذ: وهذه عبارة عامة تغطي جميع أصـــناف النـــاس، الـــذين تتطابق رغباتهم وأغراضهم الشخصية مع ما نريده ويمكن أن يكونوا مع قليل من الدعم والتشجيع فاعلين أكثر مما لو كانوا يعملون بمفردهم. في كـــل بلـــد هدف، هناك بعض العملاء الأحرار، الذين يقدمون فائدة أكبر لنا لو تركنـــاهم لوسائلهم الخاصة، وهم قد يشعرون بالمهانة لو قدمنا اليهم أي شكل من أشكال المكافأة أو أن نقول لهم بطريقة معينة بأن ما قالوه أو فعلوه مفيد لنا كما هـــو مفيد لأية قضية محلية يناصرونها. يجب أن نترك هؤلاء وشأنهم إلا أنه فـــي كل بلد هناك دوما اشخاص يحملون افكاراً مشابهة لأفكارنا ويحتـــاجون إلـــى التوجيه والدعم ولا يهمهم من أي مصدر جاء. وفي وقتي، كان عمل رئـــيس محطة المخابرات تشخيص أفضل هذه الشخصيات سواء كانت في الحكومة أم خارجها (في وسائل الإعلام أو الجامعات أو المؤسسات الدينية أو أي مكـــان يمثل منبرًا لهم)، وتجري الترتيبات الرسمية معهم لتبادل الآراء وتقديم الـــدعم المالي وباقي اشكال الدعم الأخرى وبحالات قليلة جدا تقدم مكافـــأة صـــريحة للجهود الشخصية المبذولة.

٦- الدعم المالي للصحف ونقابات العمـــال والحركـــات السياســـية والمرشـــحين المستقلين، على العكس من التهم الموجهة ضدنا في السنوات الاخيرة، فنحن لم نخبر الصحف ماذا تكتب أو نوجه نقابات العمال عند استخدامهم لسلطتهم، أو أن نصدر اوامر صريحة للمجاميع السياسية وزعمائها ماذا ســـيقولون ومـــاذا سيفعلون. وبدلا من ذلك، كنا نختار أولئك الذين يتصرفون من قبـــل بطريقـــة تناسب أهدافنا، ثم نقدم لهم الدعم الذي يحتاجونه للبقاء في الساحة "وفعل مـــا يريدونه هم". وفي السنوات اللاحقة، أصبحت عمليات المخـــابرات المركزيـــة ضد حكومة الليندي في تشيلي مثالا نموذجيا للتدريس. لقـــد اتهمنـــا بشـــراء "الصحف ونقابات العمال إلا أن هذا غير صحيح. فنحن ببساطة مكّنا الصحف المناوئة لليندي بأن تحصل على الورق الذي كانت الحكومة تمنعـــه علـــيهم،

وقدمنا لنقابات العمال الطعام المجاني بعد أن أغلقت الحكومة مخازن تموينهم. إن كل من يتصور أنه كان بإمكاننا تصحيح أعمالهم التي قاموا بها على مسؤوليتهم لزعزعة حكومة الليندي ، هو واهم بشأن قدرات المخابرات المركزية على التدخل.

٧- الإقناع بالعدول عن أمر: في الأيام الأولى للمخابرات المركزية كنا نستخدم مفردة "الإرهاب" دون حرج. الترهيب بدل القتل ، هو ما كنا نستخدمه عندما نريد ثني جماعة أو حكومة معينة عن القيام بشيء معين نعتقد أنه قد يشكل خطرا على مصالحنا المشروعة. أن أية عملية قتل أو جرح هي حادثة عرضية. وفيما بعد استعضنا عنها بمفردة الطف هي "الإقناع بالعدول"، عندما أصبح أعداؤنا أكثر مهارة منا في استخدام هذا الشكل من النشاط السياسي، ووجد رجال دعايتنا المعنى الآخر المستهجن لمفردة "إرهاب" ملائما لأغراض حرب التجسس. ومنذ ذلك الوقت، أصبحنا نمارس الإقناع بالعدول بينما الجانب الآخر يمارس الإرهاب. أما التعبير الملطف "المقاتلون من أجل الحرية"، فلم يظهر إلا بعد سنوات ليست بالقليلة.

بالنسبة إلى رجل الدعاية يعتبر "الإرهاب" هو أي فعل عنيف له المواصفات الآتية:

١ - ابتعاده عن المفهوم المقبول بصورة عامة عن الحرب.

٢ - أن يرتكب من قبل الجانب الآخر.

مع ذلك فانه بالنسبة للمحلل الاستخباري أو المخطط الاستراتيجي للنشاط السياسي فهو أي عمل مصمم لإخافة العدو ومنعه من القيام بنشاط معين أو لدفعه لاتخاذ سلوك لا عقلاني يناسب أغراضنا الاستراتيجية. على سبيل المثال، في أوربا المحتلة خلال الحرب الثانية استخدمناه ضد المتعاونين الفرنسيين والهولنديين والبلجيكيين مع العدو بطريقة تقنع أبناء بلدهم بالعدول عن فكرة التعاون مع العدو.

وفي فلسطين في ظل الانتداب، استخدمه الإرهابيون الصهاينة مثل عصابة شتيرن وعصابة اركون زفي ليؤمي، للتأثير على معنويات الجنود البريطـانيين ولزيـادة التذمر والذي أدى في الآخر إلى انسحابهم. ومنذ ١٩٥٥ حتى سياحتي في العـالم على نفقتي، لم تستخدمه المخابرات المركزية إلا نادرا، ولكن بأثر جيد وذلك عندما اردنا حث دولة بوليسية معينة لتكون أكثر صرامة مع مواطنيها بطريقة يمكـن أن تبرز شخصيتها القمعية، وبذلك يسهل جهودنا لتشكيل حركات مقاومة.

٨- القدرات المتوافرة كملاذ أخير: عندما كنت أراجع الماضي المتنوع بحثا عـن مادة تصلح لرواياتها في قصص ما قبل النوم لأحفادي، أجد نفسي أسهب دون توقف في مواضيع الانقلابات والتلاعب بالانتخابات والأساليب العنيفـة فـي تغيير الحكومات أو زعزعة استقرارها، كما كنا نمارسها في أوقات مختلفة في الماضي. هذه هي المادة التي تصنع منها المسلسلات التليفزيونية والروايـات الجاسوسية وقصص ما قبل النوم- هذا دون ذكر الفضائح المناوئة للمخابرات المركزية التي وجدت طريقها إلى الكتب بواسطة محققين صحفيين يسـاريين وكذلك نتائج تحقيق لجان الكونغرس. وتحظى المادة المثيرة والمشوقة كأخبار على نمط "رجل يعض كلبا" والتي تنشر في الصحافة، باهتمام أكبر من الأخبار العادية المتكررة. لهذا ورغم أنني احتفظ بذكريات عزيـزة عـن الانقلابـات والعمليات البطولية التي اشتركت بها، فإني أنظر إليها كما أنظر إلى شـقاوات الطفولة. على أية حال، احتفظنا بقدرات لاستخدامها في عمليات الملاذ الأخير، ولغاية اليوم الذي تركت فيه الوكالة كنت ألقي دروسًـا بشـكل دوري لقسـم التدريب حول كيفية التخطيط لها وتنفيذها.

لهذا، ماذا فعلنا بكل هذا التطور في الأساليب، الجواب هو أننا خلال العشـر إلى الخمس عشرة سنة حققنا النجاح تلو الآخر. والحقيقة أعتقد أن من العدل القول إن جميع العمليات التي أدارتها المخابرات المركزية واسـتخدمت فيهـا الطـرق والأساليب الوارد ذكرها آنفًا كانت ناجحة. إلا أنها حظيت بتقدير قليل أو لم تحـظ

بأي تقدير داخل أو خارج الوكالة، بينما حظيت كوارثنا المتعددة، التي كلفت كل واحدة منها أكثر من ميزانيتنا بالكامل، بكل المجد داخل المخابرات المركزية وشهرة واسعة خارجها. ولكوننا مخططين "سريين"، فإننا نعمل دون انتظار المجد، إلا أننا يمكن أن نستمتع بالعلاوات والترقيات.

لاتزال هذه العمليات التي بدأناها في السنوات ١٩٥٥-١٩٥٧ سرية، إلا أنه ولأغراض راهنة، أستطيع قول كل ما هو جدير بالقول عنها بجمل قليلة، أي بعد أن أقول الكلمات التالية. إن عملية النشاط السياسي "المتكاملة"، ومن خلال تعريفها، هي عملية هادئة، لا شيء "يحصل" فيها. إنها ترتيب متواصل، فهي ليست عملية جارية أو سلسلة من الأعمال التي تبدأ في نقطة معينة وتنتهي بخاتمة. قد تكون العمليات الوارد وصفها تحت عنوان "قدرات الملاذ الأخير"، استثناء، إلا أنها (ومن خلال التعريف أيضا) ليست متكاملة.

وكما قلت كان أول عمل لنا كهيئة نشاط سياسي هو إصدار قائمة بدول العالم التي تمتلك مواد أو مواقع تعتبر بالغة الحيوية لوجودنا ولرفاهنا- كالمواد الخام أو مواقع محتملة للقواعد البحرية أو العسكرية في حال نشوب حرب أو مناطق علينا عبورها لتأمين وصول سريع واقتصادي للمواد الخام الضرورية أو أماكن ذات أهمية عسكرية استراتيجية. وكما أتذكر، هناك أكثر من ثلاثين بلدا ووحدة جغرافية (وقد أدرج ما يسمى بالعالم العربي كوحدة واحدة)، تنطبق عليها هذه المواصفات، على أية حال كانت أقل بكثير مما يفترض إدراجه في ذلك الوقت.

في السنتين اللتين زاولت بهما عملي كاختصاصي بالنشاط السياسي، أرسلت المخابرات المركزية إلى الخارج أكثر من مائة مستشار من مختلف الاختصاصات والمزيد من المجندين والمدربين ووضعتهم وسط الأفراد الواعدين في البلدان الهدف لأنهم أولاً، قد أظهروا ذكاء في ميادين اختصاصهم، وثانيا لأنه يمكن اعتبارهم وكلاء ذوي نفوذ. في نفس الوقت، قام رؤساء محطاتنا في جميع هذه البلدان بإجراء ترتيبات ذات فائدة للطرفين مع أجهزة الأمن والشرطة المحلية، ومجموعة منتقاة

من الجرائد والمجلات ونقابات العمال والمنظمات الدينية والمؤسسات الأخرى، مع إبقاء هذه الترتيبات سرية ليس لوجود شيء غير قـــانوني أو غيـــر أخلاقـــي فـــي النشاطات التي ندعمها بل هناك وصمة عار تلحق من يقبل الـــدعم المـــالي مـــن المصادر الأجنبية.

أتمنى لو أستطيع القول إن الامور لم تخرج من ايدينا حتى تركـــت الوكالـــة. الحقيقة المحزنة هي أن كل شيء قد خرج من أيدينا، ودعيت المخابرات المركزية لفعل شيء أكثر من مجرد إبقاء العين مفتوحة على البلدان التي تمتلك مواد حيويـــة لأمتنا ورفاهنا. وفي الوكالة نفسها، حيث الميل البيروقراطي للتوسع، قام قادة الفرق بتعيين رؤساء محطات في الكثير من البلدان التي لا نحتاج إلى تغطيتها. وحالمـــا يصل هؤلاء، فإنهم لا يركنون إلى الهدوء بل يبدأون في الحـــال بإقنـــاع أنفســـهم وإقناعنا نحن في واشنطن بان ساحات عملهم هي مرتع للأنشطة السياسية والتي إذا لم توقف فإنها من المؤكد ستنتشر في المناطق المجاورة التي يوجـــد فيهـــا بلـــدان وردت ضمن قائمة أولوياتنا.

هذا هو جزء واحد من تفسير سبب توسع المخابرات المركزيـــة مـــن وحـــدة حكومية سهلة الإدارة تؤدي وظائف غير ذات قيمة إلى إمبراطورية أصبحت بسبب حجمها وتعدد نشاطاتها هدفا مؤكدا للمخابرات السوفيتية أولاً، ثم لعدد من الكتـــاب الأمريكيين وأخيرا لبعض أعضاء الكونغرس. وبغض النظر عمن المسؤول، هـــل هي المخابرات المركزية أم أعداؤها، من الواضح أنها كانت في نهاية الثمانينـــات تختلف بشكل كبير عن المؤسسة الرائعة والمنظمة التي لعبت بها دورا في أواخـــر الخمسينات وبداية الستينات- مع ذلك، ظلت هذه المؤسسة ناجحة، إلى حـــين مـــا انتهت أخيرا بعد الضجة المناوئة لها في الســـبعينات. يتفـــق معـــي جميـــع مـــن يشاركونني ذكريات الأعمال الأولى للمخابرات المركزيـــة التـــي تمـــت بموجـــب التفويض الذي تم حسب تعليمات مجلس الأمن القومي، بأن بذور الفشل لم تـــزرع من قبل هيئة النشاط السياسي الأولى التي كنت أرأسها.

الفصل الثامن عشر

إيران وغواتيمالا، ١٩٥٣

في بداية ١٩٥٣، وبينما كنت أتهيأ لعملي الجديد كمستشار إداري في مصـــر، حل سكون غريب على تلك الأقسام التي تتعامل بالشؤون المصرية. وفجأة أصبح كيم روزفلت وفرانك وسنر والن دالاس غير مستعدين للحوار حول هذا الجزء من العالم الذي كان يشغل لشهور عدة سلم الأولويات في اهتماماتهم. وبعد ذلك، وفـــي صباح أحد الأيام، دعاني كيم إلى مكتبه ليطلعني على السبب. يبدو أن المســتويات العليا في الحكومتين البريطانية والأمريكية منشغلة خلال الأسابيع القليلة الماضـــية بمحادثات ساخنة حول ما يمكن عمله إزاء احتمال قيادة العجـــوز المـــاكر محمـــد مصدق (*) رئيس وزراء شاه إيران لانقلاب لإسقاط الشاه وتأميم شــركة الـــنفط الانكلو-إيرانية، وبطريقة أخرى يصبح عقبة أمام خطـــط الـــوزير دالاس لإقامـــة "الجدار الشمالي" لإعاقة خطط السوفيت التوسعية.

(*) الدكتور محمد مصدق ١٨٨١-١٩٦٧ سياسي ومحام إيراني، أصبح رئيسا لوزراء إيران في ١٩٥١-١٩٥٣. دكتوراه في العلوم السياسية من جامعة باريس ونوشاتيل بسويسرا. عضو في البرلمان في ١٩١٥-١٩١٧ و١٩٢٦- ١٩٢٨ و١٩٤٤-١٩٥٣. كان وزيرا للعدل فـــي ١٩٢١ وحاكم إذربيجان في ١٩٢٢- ١٩٢٣ ووزيرا للخارجية في ١٩٢٤. ســجن خـــلال السنوات الأخيرة من حكم رضا شاه- شكل في ١٩٤٤ جبهة وطنية لمناصرة قضـــية تـــأميم النفط الإيراني. وفي نيسان ١٩٥١ أصبح رئيسا للوزراء بعد اغتيال سلفه رازمـــارا وظـــل حتى ١٩٥٣ .أمم منشآت شركة النفط الأنكلو إيرانية وخلق أزمة كبـــرى حينهـــا واصـــطدم بالشاه ووضع إيران على حافة الإفلاس. في آب ١٩٥٣، حصل انقلاب ضده قاده الجنـــرال زاهدي بمساعدة المخابرات المركزية. ألقي القبض عليه وأحيل للمحاكمة وحكم عليه بالسجن لثلاث سنوات. وبعد إطلاق سراحه، ترك العمل السياسي وأمضى حياتـــه فـــي مزرعتـــه. (المترجم)

قال كيم: "أنا آسف لتأخير ذهابك إلى مصر، ومطلوب منك القيام باستطلاع بسيط". كان علي الذهاب إلى إيران والحصول على أجوبة لأربعة أو خمسة أسئلة يمكن اختصارها، لأسباب عملية بسؤال واحد هو: هل يمكننا وهل علينا أن نتخذ إجراء سياسيا لدعم الشاه، وإضعاف الثقة بمصدق ومنع أنصاره من القيام بما تخشى وزارتا الخارجية البريطانية والأمريكية من أن يفعلوه؟ سأوفر على القراء قراءتهم لتفاصيل هذه الرحلة وتحقيقاتي التي أجريتها، وبدلا من ذلك أقول إنها جاءت بالأجوبة على أسئلة كيم والتي أعتبرها جديرة بالثقة. نعم نحن كنا بحاجة إلى نشاط سياسي استثنائي هناك لحماية المصالح الأمريكية إضافة إلى البريطانية. يجب أن تكون الغاية من النشاط هي تنحية مصدق عن الحكم وجعله أضحوكة وإلقاء كبار أنصاره في السجن وتقديم أي دعم قد يحتاجه الشاه لإطلاق برنامج علاقات عامة يبين للشعب الإيراني الفرصة الضيقة التي كانت أمامهم للنجاة وكيف كانوا محظوظين في النجاح باغتنامها.

لابد لي أيضا أن اقول كلمة بشأن المصادر التي استندت عليها في أجوبتي على أسئلة كيم. كان يعمل في قسم إيران في كل من " المخابرات المركزية ووزارة الخارجية، موظفون معظمهم عملوا في إيران ويعرفون البلاد جيدا. ثم أنه في إيران يحتل المناصب الرئيسة في السفارة وفي محطة المخابرات خبراء أكفاء في المنطقة وليس مجرد موظفين دبلوماسيين يعدون الأيام لمعرفة متى تنتهي رحلاتهم هنا لكي ينتقلوا بعدها إلى أوربا الغربية. وهناك أيضا السفير هندرسن نفسه، وهو صديق حميم لالن دالاس وكيم روزفلت والأب الروحي لجميع العاملين القدامى في الشرق الأوسط. ومن بين كادر السفارة النظامي هناك على الأقل أربعة موظفين يتحدثون الفارسية بطلاقة. وبخلاف معظم الدبلوماسيين الذي يعملون في المواقع الساخنة المتفجرة سياسيا، لم يكونوا يخشون الخروج إلى الشوارع ليروا بأم أعينهم كيف ترى شرائح المجتمع المختلفة الأمور.

وهناك رئيس محطة المخابرات المركزية الذي كان جده لأبيه وزيراً للدفاع في فرنسا وجده لأمه وزيرا للدفاع في إيطاليا وهو نفسه ضابط مخابرات متمرس

ويتحدث ثلاث لغات. وكان نائب رئيس المحطة (الذي يمكنني الآن كشف اسمه طالما قام هو بكشف هذا الستار قبل سنوات) هو جون ولر الذي ارتقى سلم المناصب في المخابرات المركزية وأصبح قبل تقاعده المفتش العام فيها في الوقت الذي كانت فيه بأمس الحاجة إلى مفتش عام أي عندما كانت حملة السناتور جيرج وآخرين في أوج نشاطها. أعطاني هؤلاء كل المعلومات التي أحتاجها لإجابة سؤال كيم الاخير وهو: "إذا دعمنا انقلابا في إيران مشابه لما فعلناه في سوريا، ماذا ستكون النتيجة؟" وبعبارة أخرى هل ستكون العملية مقبولة وماذا ستكون العواقب؟ كان جوابي: نعم، إنها ستكون مقبولة وستكون العاقبة خيرا علينا نحن الأمريكيين وعلى البريطانيين والإيرانيين أنفسهم، شريطة أن يكون الشاه حكيما وحذرا في تعزيز وضعه الجديد، وألا ينجرف وراء تفاؤله الذي استعاده.

عندما عدت، أراد كيم أي مشورة يمكن تقديمها حول كيفية تنفيذ الانقلاب. المصدر الأكثر عونا لي في الإجابة هو ما يدعوه كادر المحطة بالمخابرات المركزية الحقيقية" أو "المخابرات المركزية داخل المخابرات المركزية"، وهي وحدة صغيرة ترأسها زوجة موظف الشفرة ومشغل أجهزة الاتصال اللاسلكي، هي "السيدة القطة". أعتقد أنني أول من يكتب عنها وعن وحدتها ليس فقط لأن هناك القليل في داخل أو خارج المخابرات المركزية من يعرفها، بل لأن لها وسائلها الخاصة- وربما حتى الآن- في التعامل مع الأشخاص الذين يتلصصون عليها. سألت صديقي الجسور فنسنت ماركيتي كيف كان يستطيع مقاومة تضمين ذكرها في كشفه الفضائحي الذي كتبه. ضحك فقط وقال: "لن يتجرأ حتى فيل أكي على الاقتراب إلى المكان غير المناسب من تلك القطة المتوحشة".

عندما غادرت إلى طهران، قال لي كيم إن السيدة القطة موجودة هناك، إلا أنه حذرني بأن أبتعد عنها. وقد غير رأيه عندما تذكر أن شأنها شأن الكثير من الأمريكيين من أصل إيراني (إما فارسي أو بلوشي أو كردي أو تركماني وغير ذلك) الذين جاءوا إلى إيران للحصول على أعمال مع المقاولين الأمريكيين

و"عمالقة زركانة" سيئي الصيت، وهم جماعة من رافعـــي الأثقـــال الـــذين يمكـــن الاستفادة منهم في السيطرة وتوجيه حشود العامة- على سبيل المثال- يقومون في لحظة مناسبة وفي محل تحشد الجماهير بالإيعاز إلى الجماهير الهاتفة بأن عليها أن تغير صيحاتها من "الموت للشاه ويعيش مصدق" إلى "المـــوت لمصـــدق ويعـــيش الشاه". وقد أخبرني كيم أن مواهبها الشخصية تكمن في أنها تتظاهر بأنها ثملة بينما هي في قمة العقل، وتتظاهر بأنها لا تتحدث الفارسية ولا اللغات الإيرانية الأخرى رغم أنها قد نشأت في تبريز وتتحدث بها باعتبارها لغتها الأم.

كان منظرها، عندما وقعت عيناي عليها لأول مرة، لا يدل عليها فهـــي فـــي الأربعين من العمر بينما تبدو كفتاة في العشرين. وهي جذابة بطريقة غريبـــة. إلا أنها مع ذلك امرأة من أهل البلاد وتعرف أن النساء في إيران اللواتي يتمتعن بفتنة جنسية يفترض أنهن حمقاوات، لذلك فهي تسرح شعرها الأسود الطويل على شكل كعكة، وترتدي نظارات سميكة الإطار، وتتشح بالسواد- وبالطبع ترتـــدي العبـــاءة الوطنية (الشادور) لتخفي وجهها إذا خرجت. إن منظرها العام هو منظـــر المـــرأة الإيرانية المتحررة التي أمضت عاما في كلية الاقتصاد بلندن.

أخبرني كيم أن منزلها في زقاق ضيق "كوجيه" بالقرب من السفارة الأمريكية هو جزء من زيها. والواقع أنه كذلك فهو مليء بالقطط والأطفال الأشقياء، والضجة تصل إلى عنان السماء، وتبدو المحادثة مستحيلة فيها. وفي إحدى المرات، وبينمـــا كان "أعزاؤها الصغار" كما كانت تسميهم، يلعبون دور "الطبيب" في الغرفة المقابلة، اندلع صراخ، إلا أن السيدة القطة لم تقل سوى أن الأطفال أحيانا يثيـــرون ضـــجة كبيرة لا تقلي بالاً لهم. ولكن عندما توقف الصراخ وخيم الصمت قالت: "خير لـــي أن أتقصى ماذا يفعلون،" وتبين أنهم يقطعون إحدى القطط إلى نصفين بالمنشـــار. وأعني حرفيا ما أقوله. لقد رأيت بأم عيني الطفل الأكبر وهـــو متـــوحش بحـــدود العاشرة من العمر وقد خرج من الغرفة يحمل نصفي القطة، كل نصف بيد ملطخة بالدماء. قالت له بينما تشعل سيجارة بهدوء: "ارمها، ألا ترى هذا الرجل المحتـــرم ونحن نحاول أن نتحاور بتحضر!"

جرى هذا اللقاء في صباح اليوم الثالث لوصولي إلى طهران، وبعد أن عثرت هي علي، وهو شيء جميل فعلته، حيث لم يكن هناك أي شخص في السفارة يريد الاعتراف بمعرفة أي شيء عنها. حتى جون ولر، الذي أعرف أنه حلقة الاتصال في المحطة للأغراض المالية والإدارية، رفض أن يخبرني كيف لي أن أجدها، لكنه أوصل حديثه إليها عن طريق زوجها موظف الشيفرة في المحطة. لهذا أرسلت هي سيارة الأسرة "الليموزين" وهي سيارة فولكس واغن متداعية يسوقها خادمها لينقلني إليها عندما كنت على وشك مغادرة الفندق. أخذني السائق إلى منزلها حيث تناولت شاياً بالنعناع بينما أطفالها يلعبون لعبة "الجراحة البيطرية" مع إحدى قططها العديدة، بعد ذلك ذهبنا في جولة داخل المدينة. كانت تعرف كل طريق فرعي، وكل محل تجمع سياسي وكل ركن وزاوية. وبمساعدتها الضرورية، أمضيت صباح أحد الأيام أولاً في تحديد الأهداف التي يجب على كل من يدبر انقلابا أن يسيطر عليها (مثل محطة الإذاعة ومحطات الطاقة الكهربائية، ونقاط السيطرة الرئيسة لشبكة الهواتف، ومنازل رئيس الوزراء مصدق والآخرين الواردة أسماؤهم في قائمة الاعتقال..الخ) وثانيا رسم الطرق التي قد تسلكها الحشود المتظاهرة، ونقاط الاختناق المروري وطرق الخروج التي يفكر بها الشرطة عندما يحين الوقت للسيطرة على حشود الجماهير.

استغرق ذلك صباحا كاملا وحوالي الساعة الواحدة قالت كاثي (أو كاثرين وهو الاسم الحقيقي للسيدة القطة أو شيء شبيه بذلك): "حان وقت الغداء"، وأخذنا سائقها إلى نسخة فارسية من أحد المطاعم التي يتردد عليها سواق الشاحنات في الولايات المتحدة. كان مكتظا بذلك النوع من "القطط" البشرية التي سبق أن تحدثت عنها: قالت: "إن هؤلاء الرجال مهنيون وليسوا سياسيين على الإطلاق". "إن العم كيم بحاجة إليهم مهما كان نوع الانقلاب الذي يفكر فيه". ومن خلال دردشتنا مع عينة منهم، أصبحت على قناعة بأن تنظيم قوى بشرية لصالح انقلاب مؤيد للشاه سوف لن يعتبر مشكلة، وأن المراقبة المكثفة، "للقوى الوطنية" سوف لن تشكل

عقبة. أخذت فكرة جيدة قدر الإمكان عن كيفية نظر عينة من "الشـــعب" الإيرانـــي (لنستخدم هذه المفردة بغير معناها الدقيق) إلى الشاه ومصـــدق وشـــركات الـــنفط المملوكة للأجانب. عندما عدت إلى واشنطن كان التقرير الذي أعطيته لكيم هو كل ما يحتاجه ليس فقط لإقناع الأخوين دالاس بأن عليـــه مواصـــلة عمليـــة اجـــاكس (Ajax)(*) بل زوده بدليل حيوي مهم حول كيفية تنفيذ العملية.

وهنا لابد لي أن أصحح ما منحته لي العديد من الكتب والمقالات من فضـــل لا أستحقه. وبعضهم نسب لي بصورة معينة بـــأني "العقـــل المـــدبر وراء عمليـــة اجاكس" أو أني "العقل المدبر الذي يقف وراء كيرمت روزفلت". أو يؤكدون بطرق مختلفة بأن العملية ما كان لها أن تنجح لولا "التخطيط الجيد والعمل التحضـــيري" الذي قمت به. وبعد العملية بعدة أيام، وفي قصره، شرب الشاه نخب كيم، وقـــال: "إنني مدين بعرشي لله ولشعبي ولجيشي ولك وبالطبع إلى مساعدك السري الـــذي سوف لن أسميه". وبعد ذلك وعندما منح الرئيس ايزنهاور نوط الأمن القومي إلـــى كيم، نكس كيم رأسه بتواضع وقال بطريقته المميزة "إنني لا أستحقه في الواقع، إننا مدينون بالجميل إلى أحد مساعديّ الذي يفضل أن يبقى اسمه مجهولا".

يعود الفضل كاملا إلى كيم في أن تكون عملية اجاكس مثالا نموذجيا لعمليـــة نشاط سياسي ستكامل. لقد أفادت بعض الشخصيات داخل البلاد وأججت العواطـــف الوطنية للشعب. تضمنت العملية استلام السلطة واستعادة السيطرة علـــى الجـــيش وكانت متقنة وفاعلة أكثر من أي عمل آخر قمت به، وقـــد وازنـــت بـــين القـــوة العسكرية والدعم الشعبي بطريقة بارعة. تم تنفيذ جميع الخطوات المتفـــق عليهـــا (السيطرة على محطة الإذاعة، وغلق الاتصالات الهاتفية..الخ) إلا أن هـــذه كمـــا اتضح فيما بعد ليست ضرورية وقد كلفت العملية دافع الضرائب الأمريكي أقل من مليون دولار- على أية حال، أقل من مبلغ الثلاثة ملايين دولار الذي خصص لها.

(*) على اسم مقاتل يوناني في ملحمة الأوديسا يعتبر أسرع العدائين بـــين المقـــاتلين اليونـــان. (المترجم)

وما هو جدير بالأهمية فإن العملية نجحت على المدى البعيد وكذلك على المدى القصير. فقد ظل الشاه في الحكم مدة عشرين عاما أخرى مع شعبه وهو يستمتع برخاء لم يعرفه سابقا، رغم أنه لا يمكن إنكار أن الشعب قد عانى الاستياء والتوترات التي يعانيها أي بلد يتجه نحو الحداثة بخطى أسرع مما تستوعبها التقاليد. وقد انتهى كل ذلك عندما تحولت حكومة الولايات المتحدة إلى سياسات مشابهة إلى السياسات اليسارية التي كنا نقاومها في ١٩٥٣.

ولكن إذا كانت العملية ناجحة إلى هذا الحد، فلماذا أنا وباقي المختصين غير فرحين بها؟. للأسف فرغم أن مجندي ومستجدي المخابرات المركزية قد تعلموا شيئا أو شيئين خلال دراستهم الأكاديمية لها، إلا أن مدراءنا لم يتعلموا منها، فهم لم يدركوا المضمون. والحقيقة أنها كانت آخر فصل في قصة الحضارة كما كنا نعرفها. وفي الوقت نفسه تعتبر الفصل الأول في قصة المخابرات المركزية المتحولة إلى بيروقراطية عسكرية والتي لا مكان لي فيها وانتهت بالتنافس مع البنتاغون سواء من حيث الكم أو من حيث نوع الكادر. لقد أدت إلى استقالة كيم واستقالتي واعتماد الحكومة الأمريكية على قوى من خارج المخابرات المركزية لتنفيذ ما نعتقد أنه كان يدور في ذهن واضعي قوانين مجلس الأمن القومي.

إن آثار عملية اجاكس وليست العملية نفسها هي التي خيبت آمالنا نحن الاثنين. وقد كانت عملية (**PBSuccess**) بي بي سكسس(*) في غواتيمالا، على وجه الدقة هي التي خيبت آمالنا، ولنكن أكثر دقة، أن الذي خيب امالنا هو حقيقة أن رؤساءنا وضباط المخابرات المركزية ذوي التوجه العسكري كانوا ينظرون إلى عملية اجاكس على أنها قد شكلت سابقة لعملية **PBSuccess**. وإذا كانت عملية اجاكس قد

(*) عملية مخابراتية صادق عليها الرئيس ايزنهاور في آب ١٩٥٣ لقلب نظام الحكم في غواتيمالا الذي كان يرأسه أرينز . اشتملت العملية على قتل الشيوعيين وأنصارهم في هذه البلاد. رصد لها مبلغ قدره ٢,٧ مليون دولار. تم تنفيذ العملية في ١٩٥٤ وهرب أرينز وأنصاره من البلاد ونصبت المخابرات المركزية كاستيلو ارماز رئيسا لغواتيمالا. (المترجم)

جاءت متطابقة مع جميع المواصفات المطلوبة للعملية المثالية للنشاط السياسي، فإن عملية PBSuccess قد جاءت متطابقة مع المواصفات التي يريدها بناة الإمبراطورية المخابراتية في داخل وفي قمة المخابرات المركزية الذين يهتمون فقط بالألاعيب البيروقراطية والداخلية التي تدور في أذهانهم.

دعوني أوضح الأمر بهذه الصورة. كانت المخابرات المركزية في بداياتها مؤسسة لها سمة الفرقة السيمفونية أو فريق كرة القدم، حيث كل فرد بارع في مجال اختصاصه ويحاول أن يبذل اقصى جهد له فيه، على سبيل المثال الموظفون المكتبيون في واشنطن والكادر الذي زرته في سفارتنا بطهران قبل عملية اجاكس بقليل. إلا اننا سرعان ما تحولنا إلى مؤسسة بيروقراطية يتسابق فيها الموظفون على المناصب.

وقد انعكست الألاعيب الشخصية المختلفة على اللعبة البيروقراطية التي تلعبها المخابرات المركزية ضد الوكالات الحكومية الأخرى من اجل الحصول على ميزانيات وكادر أكبر وعلى تقدير الأمة. لقد قادتنا مطامحنا البيروقراطية إلى ميادين كان يجب على أي وكالة مخابراتية أن تتجنبها إذا أرادت أن تظل وكالة مخابراتية.

لا أريد ان أثقل على قرائي بتقييم آخر لعملية PBSuccess، فقد ظهرت تقارير منها الدقيقة ومنها الكاذبة بعشرات من الكتب والمقالات، وسأقول: إنني وطني مائة بالمائة، ومائة بالمائة رأسمالي، ومائة بالمائة امبريالي، ومؤمن بالبيسبول وبفطائر التفاح وبكل ما هو خاص بالحياة الأمريكية وحتى الديمقراطية على الطراز الأمريكي- وبأهمية ذلك لنا، رغم أنني أشك بأهميتها للعديد من الثقافات الأجنبية التي عملت داخلها. مع ذلك ومع وجهة النظر العقائدية هذه، ودون أن أكون قد اشتركت بالعملية بشكل مباشر، إلا أنني لا أرى عملية PBSuccess سوى مهانة وطنية من النوع الذي يجلب في الآخر - إن لم نقل في الحال في ١٩٥٥- العار على الوكالة وعلى أولئك المسؤولين عن اتخاذ القرارات القيادية فيها.

لم أر أية إشارة تفيد أن المسؤولين السابقين كانوا مخادعين أو يبحثون عن مصالحهم الأنانية ولكن الأسوأ من ذلك أنهم كانوا حمقى- أو بالأحرى أنهم عندما يقومون بأعمال تتطلب اقصى قدر من البراعة والحنكة الميكيافيلية، فإن سذاجتهم الاستثنائية تصل إلى حد الحماقة.

ما حصل في البدء هو الآتي:

أولاً: أن من حرّض على العملية وحث على تنفيذها، هي شركة الفواكه المتحدة : وهي الشركة التي رفضت من أجلها أكبر شركة استشارية في العالم في مجال الإدارة وهي شركة (BA&H) تولي القيام بالعملية. لقد أظهر استطلاع شركة (BA&H) الاولي أن المدراء التنفيذيين للشركة من العقليات القديمة التي لا تنسجم حتى مع شخصيات روايات ديكنز، وهم لا يتمتعون بالذكاء الذي يمكنهم من فهم التوصيات التي قد ترد في تقرير شركة (BA&H) حتى ولو قدمت لهم. وهم باعترافهم أنهم مذنبون في "استغلال مواطني البلد"، فإن منتقدي المخابرات المركزية يقولون أقل ما تقتضيه الحالة. كانت شركة الفواكه المتحدة تخدع الأهالي، والبلاد برمتها. ومقارنة بهم، فإن جميع مديري شركة النفط الإنكلو-إيرانية من الحائزين على شهادة الماجستير بإدارة الأعمال من جامعات هارفارد أو ستانفورد.

ثانيا، لم يكن مدراء شركة الفواكه المتحدة بتعاملهم مع الحكومة الغواتيمالية متعجرفين فحسب، بل إنهم محتالون أيضا. إنني حاليا أتسامح مع الخداع الرأسمالي الذي حصل في زماني، إلا أن مدراء شركة الفواكه كانوا مخادعين إلى حد فاحش بحيث أن الكذب الذي يبلغوه للموظفين الغواتيماليين (الذين لم يكونوا انفسهم مثالا للاستقامة) يشكل إهانة لا تغتفر. على سبيل المثال، عندما صادرت الحكومة الغواتيمالية فدادين واسعة من الاراضي المملوكة للشركة والتي ليس لدى الأخيرة أية خطط بشأنها، عرضت الحكومة كتعويض للشركة المبلغ نفسه الذي تقول الشركة أن الأرض تساوي هذا السعر- إلا أنها قد طالبت بضعف هذا المبلغ على اساس أن التقييم السابق الذي وضعته للارض هو "لأغراض الضرائب فقط" وهي طريقة للتهرب من الضرائب تتبع في كل مكان "حتى في البلدان المتحضرة".

ثالثا، كانت شركة الفواكه المتحدة عميلة لشركة Sullivan & Cromwell وهي شركة محاماة تابعة للأخوي دالاس وتوجد لدى كل موظف كبيــر فـــي الحكومـــة الأمريكية ممن لهم علاقة بعملية PBSuccess رابطة مالية مع الشركة، بما في ذلك وكيل وزير الخارجية للشؤون الأمريكية ووزيـــر الشـــؤون الأمنيـــة فـــي وزارة الخارجية، ووزير التجارة وحتى وكيل مدير الخارجية الجنرال بأول سميث الـــذي أصبح فيما بعد مديرا للشركة، مما مكّن منتقدينا من القول أن عمله هذا جاء مكافأة له على خدماته للشركة في عملية PBSuccess . إلا أن ما أدهشني هو أنه لا أحد من هؤلاء الرجال المعروفين يفهم إلى أي مدى يمكن أن تجعل علاقاتهم بالشـــركة من عملية PBSuccess هدفا لدعاية المخابرات السوفيتية وللهجوم على الحكومـــة الأمريكية والمخابرات المركزية بواسطة "الحمقى المفيدين" من بين أوساط النخبـــة الأمريكية، وإثارة عداء الأمريكيين الوطنيين والعقلاء الذين أخذت تساورهم الشكوك إزاء "الأرضية الأخلاقية العالية" التي يدعي وزير خارجيتنا التقي أنه يقف عليها.

رابعا: عندما ننظر إلى تلك العملية بعد أكثر من ثلاثين عاما، نرى أنها عملية شبه عسكرية، بسيطة ونظيفة من النوع الذي لا مصلحة للمخابرات المركزية فـــي الاشتراك فيها، من النوع الذي قادنا إلى شن العمليات السرية المعلنة التي ورطتنـــا في نيكاراغوا بعد ثلاثين عاما. والتي تشتمل على خرق لمبادئ العمـــل الســـري، ولغاية حصول هذه العملية، ويدخل ضمن ذلك الفترة التي تم بهـــا تنفيـــذ عمليـــة اجاكس، كانت المخابرات المركزية فاعلة. وبعد ذلك، وعندما تورطت في كوريا ثم فيما بعد في فيتنام كان عملها محكوما بالإخفاق. انتدبت المخابرات المركزية عددا من منتسبي وزارة الدفاع البنتاغون الذين يعـــتبرون خبراء في الحرب الســـرية ، إلا أنها الحرب التي تشن ضد حكومة معينة أو قواتها المسلحة من خارج الـــبلاد، والتي تهدف إلى دحر عدو معين بدلا من نزع أشواكه أو تحويله إلى عنصر مفيد.

الفصل التاسع عشر

مصـــر والولايـات المتحـدة

في الصفحات السابقة، كتبت عن كيفية قيام الزعماء والمؤثرين فـي مجتمـع معين بلعب ثلاث ألاعيب في وقت واحد (الشخصية منهـا والمحليـة والدوليـة- وأحياناً رابعة هي البيروقراطية)، وكيف دخلت المجموعات السياسية أو الوكـالات أو الشخصيات الذكية بل وحتى الدول في اللعبة بحيث إنهم ظلوا متمسكين بأصـل فعل معين يقود بصورة حتمية إلى الكارثة.

تصور رئيس أية مؤسسة كبيرة يدافع عن سياسات ستخلف انطباعا جيدا لدى المساهمين في هذه السنة، في حين يعلم أن هذه السياسات ستؤدي إلـى حصـول مشاكل جدية خلال السنوات العشر التالية، حيث سيكون هو في ذلك الوقت مستلقيا بجانب حوض السباحة في سانتا بربارا مع وغد مسكين آخر يجلس في مكتب الأول القديم يواجه العواقب السيئة لفعل الأول. تصور هؤلاء الزعماء السـوفيت الـذين تعلموا، لكونهم ليسوا أغبياء، أن النمط السوفيتي من الشيوعية لا يمكن تطبيقه، مع ذلك لا يستطيعون التخلي عنه، لأنه قد وضعهم حيث هم الآن، ولأنهم سـيكونون ضحايا لعبتهم البيروقراطية إذا لم يواظبوا عليها. تصور رئيس الولايات المتحـدة الذي يمنحنا الرخاء، ونتيجته حصوله على شعبية لنفسه، ولكنه يؤدي إلى تراكم دين قومي كبير، وهو يعلم أن رئيس المستقبل، وبالطبع ليس هو، سـيحاول أن يجـد طريقة لدفع هذا الدين.

لهذا دعونا ننظر إلى العوامل التي ساهمت فـي تـردي وكالـة المخـابرات المركزية من القمة إلى السفح. عندما فتحت الوكالة أبوابها للعمـل، كـان هـاري ترومان رئيس الولايات المتحدة ، ومهمة الوكالة هي إبلاغ الرئيس ما يريده لمعرفة

طريقة لحل مشاكل الأمة على صعيد المسرح الدولي. إلا أن الــرئيس ترومـــان، ولكونه رجلاِ بسيطا من نمط "الأمريكي النموذجي" كان يعرف القليل أو لا يعــرف شيئا عن الشؤون الدولية. ولهذا كان على المخابرات المركزية أن تخبره ليس فقط كيف يحل مشاكله بل ما هي هذه المشاكل. بعد ذلك رأى أن السوفيت عاقدو العزم على قهر العالم وأنهم عازمون على تحقيق ذلك بوسائل لا تتفق مع اتفاقية جنيف. لهذا أجاز قوانين مجلس الأمن القومي التي سمحت لوكالة المخابرات المركزيـــة ، التي كانت في البداية مجرد وكالة مخابرات، بأن توسع نشاطاتها إلـــى نشـــاطات سرية مناظرة لما كان يعتقد هو بشكل صحيح أن السوفيت كانوا يستخدمونها ضدنا.

بعد ذلك حصلت مشكلة كوريا التي عرفت الوكالة بالكثير من أنماط العمليات شبه العسكرية. وبعد ذلك جاءت عملية اجاكس وبي، بي سكسس، وكانـــت بدايـــة النهاية. ولكن ما هو أسوأ، بدأ يرأس بلادنا رؤساء يعتقدون أنهم يعرفون ما هـــي مشاكلهم أو يشعرون بالسرور بأن يشرح لهم هـــذه المشـــاكل لـــيس المجموعـــة الاستخبارية بل اختصاصيون في الحلول. ولكون كل من قرأ بعناية ما كتبته أصبح يعرف الآن أن الأشخاص والمؤسسات المتخصصة بالحلول تميل إلى البحث عـــن مشاكل جديدة أو النظر إلى المشاكل الموجودة بطريقة مختلفة كـــي تصـــبح هـــذه المشاكل متطابقة مع حلولهم الخاصة.

كانت المخابرات المركزية منذ زمن طويل تزود البيت الأبيض بالمعلومـــات التي يطلبها وليس بالمعلومات التي يحتاجها. أي بعبارة أخرى، أمضت وقتها تعـــد الفرق وتضع الدبابيس على الخرائط وتجمع معلومات أخرى كهـــذه كـــون البيـــت الأبيض يعتقد أنه بحاجة لها ليكون مستعدا لخوض طراز من الحـــروب لا ينـــوي السوفيت في الواقع خوضها. وما هو الأسوأ من ذلك، إنها تفعل ذلك حتى دون تفهم أولي للاستراتيجية التي تدور حقا في أذهان السوفيت. كـــان النـــاتج الاســـتخباري للمخابرات المركزية كما ظهر في أواخر الخمسينيات يفرض مســـبقا اســـتراتيجية سوفيتية تناسب أغراض مخططينا العسكريين. ومن الطبيعي أن هؤلاء المخططين

هم أكثر الأشخاص نفوذًا في الحكومة الأمريكية لأن وزارة الدفاع تتمتع بأكبر ميزانية لها ما يبررها. لقد قدم قسم روسيا السوفيتية في المخابرات المركزية معلومات موثوقة تشير إلى أن المخططين الاستراتيجيين السوفيت يفكرون بشكل معين من الحرب الباردة، حربا هي ليست نووية ولا تقليدية. مع ذلك، مرت هذه المعلومات إلى وارد الجهات التي رفعت إليها ثم خرجت إلى صادرهم دون أن تثير أي اهتمام يذكر.

أصبحت وكالة المخابرات المركزية سعيدة بميزانيتها ومن النوع الذي يضع الحلول في المقدمة. في بداية الأمر، تولت القيام بالكثير من العمليات شبه العسكرية التي كان يجب أن تكون ضمن مسؤوليات البنتاغون. وبعد ذلك بدأت تدير عمليات لحسابها تعتبر من الناحية الجوهرية عسكرية في صفاتها- والتي يشترك فيها، أسوة بجميع العمليات العسكرية، أعداد كبيرة من الموظفين، والمواد، والأموال. وفي الآخر، أخذت تفتش عن المشاكل التي تعتبر ذات طبيعة استخبارية عادية إلا إنها تتطلب حلولا باهضة التكاليف. وقد عثر ديك بيسيل، أحد عباقرة المخابرات المركزية الحقيقيين القلائل، عليها. كان افتراض ديك الأساسي هو أن جميع المعلومات الاستخبارية التي نحصل عليها بوسائل تكنولوجية ليست فيها دماء، يمكن أن توفر لنا معلومات حقيقية وموثوقة ودقيقة، في حين أن استخدام العنصر البشري (الجواسيس) يشتمل بصورة حتمية على أخطاء بسبب الضعف والتحيز البشري . حسنا ، قلنا جوابا على ذلك، نحن نعرف كل شيء عن الجواسيس ، ولا نريدك أن تحدثنا عن ضعفهم الإنساني. إلا أن وسائلك التكنولوجية لا يمكنها أن تقرأ العقول، فهي لا تستطيع أن تخبرنا أي شيء عن الدوافع والنوايا والشخصية (أي اللعبة الشخصية) التي تؤثر على وضع السياسات والخطط الاستراتيجية. وعندما تفكر في الماضي من خلال المعلومات الحقيقية التي قدمتها وسائلك هذه، فإنك سترتكب خطأ افتراض أن العقليات التي تقف وراءها مماثلة لعقلياتنا نحن

الأمريكيين. لا يمكنك أن تحصل على فهم للخصوصيات الثقافية التي تؤثر علـى طرق أعدائنا في تقرير ما يحاولون فعله.

وكما أتذكر المخابرات المركزية خلال ١٩٥٥-١٩٥٧ بكل وضوح، فقد بـدأ الموظفون في الأقسام الميدانية أو الذين يؤدون وظائف اجتماعيـة فـي الميـدان يشعرون بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية. وقد كانت هناك حادثة هروب أحـدهم وعملية الاختراق المتوافقة معها حيث استدعينا بعد ذلك إلى مكتب المـدير وبقينـا يوما أو يومين. إلا انه في أعياد ميلاد ١٩٥٦ برزت إلى الوجود وكالة مخـابرات مركزية لا تشبه تلك التي أسسناها قبل عشر سنوات. كان الن دالاس بالنسبة إلـى ديك بيسيل كطبيب ريفي لعالم طبي مع ما لكل منهما من فضائل وخطايا. ولكونهما أكبر مصدرين للإلهام في المخابرات المركزية، كان يجب أن يكونا أعظم فريـق. إلا أنه بدلاً من ذلك، فقد شكلا قوتين متباعدتين عن بعضهما. في أواخر الخمسينيات بدأ عمل الوكالة يتشتت في كل الاتجاهات- من طائرات التجسس و"إرهاب أفـراد معينين" ودراسة مفعول العقاقير على الأجسام ، و"الجيـوش الخاصـة"، و"البنـى التحتية" وهلم جرا، يمكنكم أن تسموها ما شئتم. فبالنسبة إلى ديك هيلمـز، رئـيس مكتب العمليات السرية في ذلك الوقت، فإن المخابرات المركزية قد "خرجت عـن السيطرة".

أمضيت السنتين الأخيرتين من عملي في الوكالة فيما لا يمكن أن أصفه بالعمل الاستخباري التقليدي. فقد انشغلت مع كيم روزفلت فيما يمكن أن نطلق عليه اسـما جميلا، الدبلوماسية السرية، وهو نمط مـن المنـاورات الدبلوماسـية مـن وراء الكواليس، والتي أصبحت نافذة بوجود فوستر دالاس كـوزير للخارجيـة وشـقيقه كمدير للمخابرات المركزية. كنت اسميا رئيسا لهيئة النشاط السري، وقـد أخـذت عملي بصورة جدية. عند عودتي من مصر، أمضيت معظـم وقتـي فـي القيـام بنشاطات الهيئة التي وصفتها بأنها: تعيين المناطق التي تكمن فيها مخاطر على أمن الولايات المتحدة والتي لا يمكن تحييدها إلا باستخدام النشاط السياسي كما عرفتـه،

وبعد ذلك نبتكر أفضل الأساليب فاعلية واقتصادية لتنفيذ العمليات الضرورية. ولكن بعد أن ترقى فرانك ويسنر ليصبح نائبا للمدير، حل محله ديزموند فيتزجيرالد وهو موظف سابق في مكتب الخدمات الاستراتيجية، أمضى معظم خدمته في الشرق الأقصى. كان ديس (ديزموند) رجلا وسيما من الطبقة العليا لا يثق "بأسلوب التخطيط" (وبالنتيجة بعملي كما هو محدد لي)، ويعرف حدوده، ويريد شخصا يراقب ذلك الجزء من العالم الذي لا يعرف عنه شيئا ويراقب الشخصية الرئيسة في الوكالة المسؤولة عن تلك المنطقة وهي كيم روزفلت.

لهذا بدأ رؤسائي يكلفوني بمهام خاصة من نمط الدبلوماسية السرية الخاصة بشكل محدد بالشرق الأوسط، أو هكذا كان يعتقد الأخوان دالاس. فعندما تحصل مشكلة في تلك المنطقة، سرعان ما يفكران بكيم روزفلت، ونادرا ما يفكران بأي موظف دبلوماسي، رغم وجود بضعة لجان في وزارة الخارجية مختصة بمشاكل وأزمات الشرق الأوسط المختلفة، منها اللجنتان الرئيستان، لجنة (A) ولجنة (O) وباقي اللجان الأخرى مسماة بالحروف اليونانية الأخرى المحصورة بين الحرفين السالفين. وقد حضر كيم معظم هذه الاجتماعات وكنت ملازما له فيها. إلا أنه إذا كان يجب أن يستقل أحد ما طائرة ويذهب إلى إيران أو مصر أو الأردن أو السعودية للتحدث مع الشاه أو ناصر أو الملك حسين أو الملك السعود كان الأخوان دالاس يفكران إما بكيم أو بي، أحيانًا بكلينا ، وأحيانًا أخرى برفقة بعض الشخصيات المهمة كأفيرل هاريمن أو روبرت اندرسن أو ارك جونستون.

لقد بدأت فكرة غرفة لعبة الحرب من ولاية كونيكتكت وكان لي يد في تأسيسها حينذاك. كانت تبدو فكرة جيدة، إلا أنه عند النظر إليها الآن، فإني أشك في كونها قد حققت ما فكرنا به. مع ذلك أوضحت بعض المواقف على الصعيد الدولي التي تعتبر مناسبة بما يكفي لإحداث شيء من "إعادة النظر" كما كان فوستر دالاس يسمي تغييره لآرائه. إلا أننا فشلنا في الأسلوب الوحيد الذي كان يجب أن ننجح فيه، كان علينا أن ندرك بأن القرارات المتخذة على الصعيد الدولي والتي تؤثر

كثيرا على المصالح الأمريكية في الخارج يقررها لاعبون تأتي المصالح الأمريكية بالمرتبة الثانية بعد مصالحهم، وعندما تتضارب المصالح الإيرانية أو المصرية أو الأروغوانية أو المنغولية أو النيجيرية أو الفرنسية أو البريطانية مع مصالحنا، فإن المصالح الأمريكية هي التي تتضرر بدرجة ما . فكل لاعـب يعطـي الأولويـة لمصالح بلاده. بالنسبة إلى أي مختص في النشاط السياسي الذي يتعلـق بمشـكلة معينة على الصعيد الدولي فإن العبارة المعمول بها هي: "ماذا يمكن الفـوز بـه". فخلال تعاملنا مع باقي اللاعبين والأصدقاء وكذلك الأعداء، نحاول تخفيض الحـد الذي يعطون فيه أولوية لمصالحهم الخاصة مهما كانت كلفتها علينا. لهذا علينـا أن لا نندهش، إذا ما حاولوا زيادة المجالات التي "يستطيعون فيها الفوز بشـيء مـا"، واضعين مصالحهم الخاصة قبل مصالحنا في الوقت الذي تكون فيـه المصـلحتان غير متوافقتين. في مجال اللعبة الدولية، نتحدث كثيرا عن "توافق المصالح" إلا أن دبلوماسيينا المحترفين سواء العلنيين أم السريين يعرفون أمرًا أفضل من مشـاركة فوستر دالاس في نفاد صبره إزاء رفض الدول الأخرى قبول مفهومه بأن ما يصلح لأمريكا يصلح للعالم.

يحمل أصدقائي البريطانيون، فكرة مشابهة. وقد وضعتني علاقتي مع جمـال عبد الناصر رئيس مصر ، في مشاكل معهم عندما علموا بها. أعتقـد أنـه مـن المناسب هنا الحديث عن جانب من "التجربة الناصرية" التي ظلوا يجهلون جـزءاً منها وهو دور المخابرات المركزية في قضية السويس وصراعها مـع الحكومـة البريطانية ومع حكومتها. ولغاية الآن ناقشت القضية مرات عديدة بحيث أصـبت بالإعياء منها، ولكنني لأغراض التوثيق (فهذا الكتاب هو قبل كل شيء سيرة ذاتية)، سأوضح فهمي لدور المخابرات المركزية فيها، حيث يتصور ضـباطنا أن لعبتنـا متوافقة مع النهج السياسي للولايات المتحدة في وقت لا تكون فيه متوافقـة معـه أحياناً. تذكروا، أنني لا أدافع عن هذا الفهم (رغم أنني اعتقد أن التاريخ قد أثبـت صحته)، فأنا فقط أخبر قرائي ماذا كان هذا الفهم.

أولاً : المسرح الدولي. يختلف المسرح الدولي الذي كنا نعتقد أننا نلعب فيه في اعتبارات مهمة عن المسرح الذي يعتقد البريطانيون أن كلينا نلعب فيه. فرغم أننا ملتزمون بشكل كامل بدعم إسرائيل، لا تتملكنا أية أوهام حول ما ستكلفنا من عداء العرب لنا والمخاطرة بمصدر مهم للنفط. فرغم أننا إذا ما عملنا على إحلال السلام بين العرب وإسرائيل، فإننا نفعل ذلك لمصلحة جمهورنا المحلي، في الوقت الذي ندرك أن الحالة المستمرة من العداء هي شيء علينا التعايش معه. علاوة على ذلك، في الوقت الذي كانت فيه كلمات ونستون تشرشل حول الإمبراطورية ترن في آذان البريطانيين، كنا نتعاطف بشكل صريح مع الحركات الوطنية. وقد اعترف وزير خارجيتنا علنا أنه يعتقد أن السياسات "الاستعمارية" البريطانية تعوق عمل الولايات المتحدة وأنه يحاول فصل حكومتنا عن هذه السياسات.

كانت وجهة نظر تشرشل وايدن أن ناصر قد "أمسك من الرقبة" حبل النجاة الخاص بالإمبراطورية، وأن الأمر هو "مسألة حياة أو موت" للإمبراطورية البريطانية، وهم يوضحون ذلك بمنة إلى الأمريكيين رغم أننا كنا كأطفال متخلفين، لا تأثير لهم علينا مطلقا. فسواء كنا على صح أم خطأ، لم نكن نأخذ وجهة نظرهم بجدية. كان يبدو لنا أن حبل نجاة الإمبراطورية لم يعد تحت رحمة ناصر كما كان من قبل. بل حتى أن دوافعه لإبقائه ممدودا هي أكبر.

ثانيًا: كان هناك ناصر نفسه، فمع وجود مثل هذه الخطة في أذهاننا، فإننا بحثنا عن بيلي غراهام مسلم، وقد تصورنا أننا قد وجدنا في جمال عبد الناصر صورة قريبة معقولة عنه. لم نكن نرغب أن نرى ملك حسين آخر (الأردن) أو نوري السعيد آخر (العراق)، فهما قد يناسبان اللعبة البريطانية إلا أنه لا دور للدمى في الخطة التي تدور في ذهننا.

نريد في مصر زعيما تكون وجهات نظره متطابقة إلى حد ما مع وجهات نظرنا، بينما يكون في الوقت نفسه متوافقا بما يكفي مع وجهات نظر شعبه من أجل أن يحظى بمساندته كزعيم شعبي . وإذا ما كان من اللازم أن يناوئ أحدًا ما (وقد

فعل ذلك ، على وفق المبدأ القائل أن تحشد الأنصار ضد شيء معين هو أسهل من أن تجمعهم من اجل شيء معين) فإننا نفضل أن يكون هذا الشـــيء (الإمبرياليـــة) بدلاً من إسرائيل. ويمكنه حتى أن يكون مناوئا لأمريكا، كما أن هذا الأمر لا يشكل ضررًا علينا، بينما يمثل مكسبا خالصا له. كنا نريده أن يكون زعيما قويـــا، كـــي يمكن أن يجرؤ، عندما تحين اللحظات النفسية المناسبة علـــى اتخـــاذ قـــرارات لا يحبذها الجمهور، رغم أن هذه القرارات، وعلي أن أؤكد هنا، قد تكون لمصلحة كل من مصر والولايات المتحدة .

والحقيقة أننا – نحن العاملين في المخابرات المركزية والمنشـــغلين بوضـــع "مبادئ للنشاط السياسي" – كنا نرى في ناصر بطل لعبتنا . كان يبدو لنا أن أي فرد له اطلاع على مجمل الظروف ويتمتع بقدر قليل من الموضوعية سيدرك أنه كـــان سيتصرف، على وفق تخطيطنا، كما تصرف تقريبا. عـــلاوة علـــى ذلـــك كانـــت مراسلاتنا مع واشنطن تشير إلى أن وزارة الخارجية كانت تتفهم الأمر الذي كنـــا نعمل عليه وهو أن ناصر هو الزعيم المقبول أكثر أو الأقل سوء@ا من الذي يمكن أن يكون لدينا في مصر في ذلك الوقت.

ثالثا: هناك، لعبة إسرائيلية على الساحة. فبينما كان العالم مرتبكا بسبب الغارة الإسرائيلية في ١٩٥٥ ، حيث قتل فيها أكثر من ثلاثين شخصا، وهي عملية وحشية شنيعة باتفاق جميع الآراء، فإننا نرى أنها كانت لعبة متكاملة مـــن وجهـــة النظـــر الإسرائيلية. إذ طالما لم يجدوا أي أمل في أن يقبل ناصر بالسلام مع إسرائيل على وفق الشروط الإسرائيلية، كانوا يريدون أن يظهر ناصر علـــى الصـــعيد الـــدولي شخصية معادية لإسرائيل بشكل لا لبس فيه بدلا من أن يكون مناوئـــا لإســـرائيل بصورة معتدلة، بحيث يمكن أن يؤثر علينا نحن الأمريكيين بعقلانيته. قبل غـــارة غزة كان اهتمام ناصر بالصراع العربي الإسرائيلي قليلا، كان عدوه هو الإمبريالية البريطانية (وليس بريطانيا. لاحظ، أنه فقط إمبرياليتها). على أية حـــال، فجـــرت غارة غزة سلسلة من الأحداث، جميعها تطلبت اتخاذ إجراءات معينـــة، اســـتغلتها

إسرائيل بشكل ناجح لتؤدي إلى أزمة السويس. كان الإسرائيليون خبراء في خدع الألاعيب التي يسميها مختصو النشاط السياسي في هذه الأيام "التمريض".

رابعا: كانت هناك الإجراءات لما بعد غزة، والإجراءات المضادة. لقد قتلت غارة غزة أية رغبة يمكن أن تكون لدى ناصر في الموافقة على خطط الوزير دالاس لإقامة نظام دفاعي إقليمي (حيث جعلت الغارة من محاولاتنا لإقناعه بأن عدوه الحقيقي هو روسيا السوفيتية وليس إسرائيل مجرد هراء)، وأمطرت الغارة علينا وابلا من الطلبات المصرية على الأسلحة الأمريكية، المبطنة بتهديدات من ناصر بأنه إذا لم يحصل عليها فانه سيتجه إلى السوفيت. كانت الخطوة التي غيرت مجمل صورة لعبتنا هي حصول ناصر على الأسلحة السوفيتية الذي أعلن إلى العالم في ٢٧ أيلول ١٩٥٥. كنا في المخابرات المركزية نبلغ زملاءنا باستمرار في وزارة الخارجية بأن ناصر سيتخذ مثل هذه الخطوة. لأننا كلاعبين علينا أن نعترف بأن هذه الخطوة هي بالضبط ما سيتخذها أي منا لو كان في محله. إلا أن وزارة الخارجية أصرت على فكرة إنها مجرد مخادعة من جانبه. على أية حال، وبموجب أوامر من الأخوين دالاس، ذهبت أنا وكيم روزفلت إلى مصر لإقناع ناصر بأن على مصر والولايات المتحدة أن تستفيدا من الموجة المفاجئة لشعبيته ليغامر باتخاذ قرار غير محبذ شعبيا، وهو تحريك خطة تؤدي إلى السلام مع إسرائيل.

بعد ذلك، كان هناك الوزير دالاس، إلا أن البعيد عن العين، بعيد عن القلب. فقد نسي كل شيء عنا، فبعد أن كنا أنا وكيم في القاهرة بحدود يوم واحد وبعد أن حصلنا على موافقة ناصر على اتخاذ "القرار غير الشعبي" أصدر وزير الخارجية بيانا صحفيا أعلن فيه أن جورج الن وكيل وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط، سيغادر إلى القاهرة "لتوجيه إنذار إلى ناصر. ومن الطبيعي (من الطبيعي بالنسبة لنا على أية حال) أن يرمي ناصر في سلة المهملات الخطاب الذي كتبته له ليعلن صفقة السلاح السوفيتية. واستبدله بخطاب منفعل إلى حد ما على وفق المعايير الغربية. ومنذ ذلك الوقت، أخذت الأمور تنحدر إلى الأسوأ. فبينما يتخذ ناصر

بطريقته الثابتة خطوات نرى أنها سليمة ضمن إطار اللعبة. إلا أن الوزير دالاس، الذي كان في ذلك الوقت هو الذي يدير الموقف، كان يتخذ خطوات لا تمنح ناصر أي خيار عدا تصعيد الصراع وذلك باتخاذه نفس الخطوات المضادة التي نتنبأ بها.

سادسًا: كان هناك موضوع سحب عرضنا لتمويل سد أسوان. إننا في المخابرات المركزية نتفهم جيدا ضرورة سحب وعدنا بتمويل السد العالي: فقد كان أعضاء الكونغرس الجنوبيون يخشون من انه سيمكن المصريين من زراعة المزيد من القطن، وكان أعضاء الكونغرس الغربيون يشتكون من أننا ننظر بعين العطف إلى بناء سد في مصر بينما لا يحصلون هم على المال الذي يطلبونه لبناء سدود في الغرب، وكان هناك أيضا خطر من أن يؤدي الإلحاح في المطالبة بمنح القرض إلى مصر إلى تعريض برنامج الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية للخطر. ولكن في مساء أحد الأيام وبعد أن ذهب الجميع إلى بيوتهم جلس دالاس وبيل رونتري الذي خلف جورج الن كوكيل لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط، في وقت متأخر يكتبون بيانا بسحب القرض معدا لإغضاب ناصر، الله وحده يعلم ما هي غايتهم. لم يكن بوسعنا نحن في المخابرات المركزية أن نفعل شيئا إزاء هذا البيان، وعندما سأل الن دالاس، كيم روزفلت فيما بعد عن رأيه فيه، كان كيم حانقا مثل ناصر، رغم انه شديد التحفظ في التعبير عن نفسه. وبسبب رد فعل كيم، أخذه الن مع فرانك وسنر وأنا إلى وزارة الخارجية حيث جلسنا وحاولنا التنبؤ بما يمكن أن يكون عليه رد فعل ناصر. بينما رأيت أنا وكيم، وأيدنا بعض زملائنا في وزارة الخارجية، أنه مهما فعل ناصر، فإن فعله سوف لن يكون مكسبا لما كنا نطلق عليه بسخرية "قضية السلام في الشرق الأوسط"، إلا أننا لم نضع آراء محددة، باستثناء فرانك وسنر كما أوضحت ذلك في الفصل السابق، الذي غامر بطرح رأيه قائلاً : إن ناصر قد يؤمم شركة قناة السويس إلا أننا سخرنا منه فصمت.

سابعًا: كان هناك الغضب البريطاني من تأميم ناصر لشركة قناة السويس. فعندما أعلن ذلك غضب البريطانيون في الحال واتخذوا زمام المبادرة. وقد تظاهرنا

بالموافقة، رغم إدراكنا أن المخابرات البريطانية، بكفاءتها العالية في كل الأنحاء الأخرى من الشرق الأوسط، لم تكن تعلم بكل ما يجري داخل حكومة ناصر وبالوضع العام في مصر. في احد الاجتماعات حول "ماذا سنفعل بخصوص ناصر" التي عقدها بعض زملائي في المخابرات المركزية وأنا مع ضباط جهاز المخابرات السرية قبل حوالي شهر من الهجوم الانكلو- فرنسي- إسرائيلي على مصر، عرض علي أحد ضباط المخابرات السرية وثيقة بالغة السرية يزعم أنها مخطط يكشف تنظيم جهاز المخابرات المصرية. أعتقد أنه كان يريد أن يسحب قدمي للحديث! فقد كان هذا المخطط هو الذي وضعته مع زملائي من شركة (BA&H)، مترجمًا من العربية إلى ما نحب نحن الأمريكيون أن نسميه "إنكليزية بريطانية"- الجزء المثير من المخطط هو قائمة رؤساء الأقسام، وجميعهم أصدقائي، بعضهم كتب اسمه بتهجئة خاطئة، وبعضهم الآخر دون الأسماء الأولى، وبعضهم ورد بشكل غير صحيح بسبب الترجمة الخاطئة للهوامش. من الواضح أن نظراءنا البريطانيين يجهلون ما كان يفعله فريقي من المخابرات المركزية في القاهرة خلال السنتين الماضيتين.

مع ذلك، ما أزعجنا كثيرا هو أن البريطانيين لم يكونوا يتصرفون كلاعبين ناضجين وواقعيين. إن كل ما قاله لنا زملاؤنا في جهاز المخابرات السرية ووزارة الخارجية البريطانية يبين أنهم لا يمتلكون أية معلومات يمكن أن تفيد حول المدنيين أو الضباط المصريين الذين يستطيعون تشكيل حكومة جديدة إذا ما تم استبعاد ناصر أو عن الوضع العام داخل مصر. كانوا فقط يخمنون ويضعون افتراضات. ولم يكن يبدو أنهم يبالون بشيء. كانوا يعتقدون أنهم يجب أن يتخلصوا من ناصر ويعرضون النتائج العملية لكي يبينوا للعالم أنه لا يستطيع أي مغرور مثله أن يفلت من العقاب عندما يلوي ذيل الأسد. إن الأمر يبدو كما لو أن هناك بطل شطرنج وقد أربك بمناورات أكثر براعة قام بها أحد خصومه الذين يعتبرهم أدنى منه مرتبة، فأراد أن يقلب الطاولة.

لهذا ماذا كان يجب أن نفعل؟ من المهم معرفة أن واشـــنطن عنـــدما كانـــت تتظاهر بالموافقة على كل ضجيج وهذيان لندن، وكان الرئيس ايزنـهاور نفسه يلهو في لحظات معينة مع فكرة "إسقاط" ناصر، كنا نحن على الصعيد التنفيـذي علـــى اتصال وثيق بزكريا محيي الدين وباقي المسؤولين المصريين ننـــاقش الإيجابيـــات والسلبيات لعمل ناصر، حيث كنا (كزوار نزيهين وموضوعيين من كوكب آخـــر) نستحسن صراحة الإيجابيات ونؤشر بوضوح على السلبيات. كان نقاشنا مع ناصر، كما هو دائما كالآتي: "حسنا، لقد كسبت هذه الجولة. ولكن قبل أن تـــأتي جولـــة لا تستطيع كسبها، لماذا لا تستغل الفورة الشعبية التي تتمتع بها الآن لتتخـــذ خطـــوة كبيرة كرجل دولة لإحلال سلام شامل في المنطقة؟" وقد وافق! في البدايـــة أعلـــن بشكل يرضي المخابرات المركزية ووزارة الخارجية بأنه سيبقي القنـــاة مفتوحـــة، وسيعوض المالكين السابقين وسيفعل كل شيء يعتبره محامونا أدنى حـــد للتســـوية القانونية في نزاعات التأميم .

وقد دعا ممثلي البلدان التي تستخدم سفنها القناة إلى القاهرة لمناقشة شـــكاواهم إن كانت موجودة. مع ذلك، لم تطرح أية شكاوى مشروعة. وعنـــدما غـــادر أدلاء السفن الأوربيون مصر، تولى المصريون إدارة القناة على نحو أرضى الجميع. وما هو جدير بالأهمية، أن ناصر قد أرسل برقية إلى الرئيس ايزنـهاور قائلا فيها إنه إذا ما انتهت كل هذه الضجة فإنه سيستمع باهتمام إلى أي عرض قد يقدمه له لوضـــع برنامج لتخفيف التوتر العربي- الإسرائيلي "على الطريق نحو سلام دائم". كان هذا جيدا بالنسبة لنا، إن لم يكن كذلك بالنسبة للبريطانيين. فبالنسبة لهم أن القناة "قناتهم"، وهذا كل شيء.

لاحظ، أن الذين تم تعيينهم من بيننا للعمل مع ناصر، قد أبلغوا بشكل صـــريح أن مهمتهم هي إبقاء ناصر في السلطة. علاوة على ذلك، رغم كل اعتراضاته، لم يكن دالاس يرى سببًا موجبًا لعدم فعل ذلك. وبصفته محاميـــا، كـــان يعـــرف أن بريطانيا ليس لها أي حق. فناصر يستطيع تأميم القناة، لأنها تعتبـــر مـــن الناحيـــة

القانونية جزءا من مصر. وهي تقع ضمن حقوقه التي منها شركة قناة السويس، التي هي كل ما أممه. . وواضح أنها شركة مؤسسة في مصر على وفق القانون المصري وليس أي قانون آخر. يمكن للسير أنتوني أن يسمي هذا الكلام "مماحكة قانونية "كما يحب، إلا أن الأمر بالنسبة إلى دالاس، الذي كان اختصاصه طيلة حياته القانون الدولي، فإن القانون هو القانون. لقد قبلنا العديد من عمليات التأميم وفي ظل ظروف قانونية مشابهة إلا أنها أقل إثارة من الناحية السياسية وكنا نصر فقط على أن يدفع التعويض أو أن يعطي وعدا بدفعه، وألا تستخدم الشركة أو المؤسسة أو مهما يكن الشيء المؤمم، ضدنا.

وأخيرًا، كان هناك لعبتنا، فبموجب مبادئ النشاط السياسي السري الذي كنا في ذلك الوقت شديدي الإيمان به، لا يعتبر الهجوم الانكلو- فرنسي- إسرائيلي على مصر معقولا، بل إنه كان أسوأ خطوة جرى اتخاذها وتنفيذها بغباء وجهل تام بأوضاع العالم، بحيث تبدو حاليا ولأغراض المقارنة عملية دعم المخابرات المركزية للكونترا (المعارضة المسلحة في نيكاراغوا)، عملية متقنة. تصور الارتباط بصداقة مع الإسرائيليين، العدو المكروه ليس فقط من قبل العرب بل من قبل معظم العالم الإسلامي، تصور التظاهر بالتدخل في النزاع "لفصل الجانبين"، مصر وإسرائيل بإبلاغ كل طرف بأن عليه أن ينسحب عشرة أميال عن القناة بينما كان الإسرائيليون يبعدون أربعين ميلا عنها، ويمكنهم تفسير الأمر بأنه رخصة لهم بالتحرك لمسافة ثلاثين ميلا إلى الأمام، كان الأمر بمجمله عملاً غبيًا. وما هو أسوأ من ذلك، فقد كان (وأريد هنا أن أستخدم أكبر عبارات النقد قسوة في قاموس مفرداتنا المهنية في ذلك الوقت)عملاً أخرق.

وبعد إقناعنا بالإلحاح للغزاة بأن ينسحبوا، كان مسؤولو وزارة الخارجية ووزارة الدفاع البريطانية يصرون أنه لو أخرنا احتجاجنا الشديد لأربع وعشرين ساعة، لكان ناصر قد سقط. دهشنا لهذا الهراء، لأنه لا توجد أية معلومات تؤيد هذا الزعم، والمؤكد أنه ليست لدينا مثل هذه المعلومات، وإذا كان لدى البريطانيين مثلها

فإنهم لم يعرضوها علينا. علاوة على ذلك، لم يزودنا أصدقاؤنا البريطانيون بتقييـم معقول عما سيحصل لمصلحتنا لو سقط.

لاحظ ماذا حصل. بدلاً من إبقاء قناة السويس مفتوحة، فإن العمل العسكري قد أغلقها، كما كان يمكن أن يتنبأ بذلك أغبى محلل استخباري سواء كان بريطانيًـا أم أمريكيًا. وقطعت مصر وسوريا والعربية السعودية علاقاتها مع بريطانيا وفرنسـا. وأبقى الأردن والعراق على علاقاتهما مع بريطانيا (ولم يبقياها مع فرنسا)، إلا أن العلاقات قد تأزمت بطريقة مهدت السبيل أمام انقلاب عسكري مناوئ للبريطانيين في العراق بعد عدة أشهر. ولأسباب عملية، انتهى حلف بغـداد، ومـات رسـميا بالانقلاب العسكري. وعلى الصعيد العالمي، أدينت بريطانيا وفرنسا ليس من قبـل روسيا السوفيتية والصين الشيوعية فحسب، بل أيضا من قبل أعضاء الكومنويلـث كندا والباكستان والهند وسيلان .نعتقد أن أصدقاءنا البريطانيين قد تعلموا درسا.

إلا أن معظمهم لم يتعلم الدرس. فقد ألقوا باللائمة لخسائرهم علـى الضـغوط الأمريكية، قائلين إنهم لو سمح لهم بمواصلة عمليتهم للوصول إلى النصر المؤزر، فإن النتيجة ستكون لمصلحتهم. وأقول هنا مرة أخرى إن كل المعلومات التي لدينا تشير إلى العكس. لم يناقش أصدقاؤنا البريطانيون مثل هذا الأمر بشكل جـدي، إلا أن الكثير منهم ظل يقول إلى اليوم أننا قد تخلينا عنهم في ساعة المحنة. ولهذا فإننا حلفاء غير جديرين. وإلى اليوم لا يقبلون القول إننا، ورغم عملنا بشكل وثيق مـع ناصر منذ اللحظة الأولى التي فكر بها في ثورته ولحين موته المبكر، كنـا نفهـم خلفية أزمة السويس بصورة شاملة أكثر مما يفهمونها. أما أن التاريخ قـد أثبـت خطأهم فهذا لا يهم. ربما كانت لدينا هناك "حماقة تاريخية" كما وصـفت بربـارا توجمان في وقت لاحق أفعال القادة التي تستند على مفاهيم ثابتـة مسـبقة بينمـا يتجاهلون العلامات المناقضة لها. إلا أنني اعتقد أن البريطانيين ينتعشون بالحماقة، لهذا فإنهم دائما يستمرون بها إلى حد ما.

وهكذا نحن أيضا وصلنا إلى مثل هذه المرحلة. ولأقتبس مرة أخرى كلام السيدة توجمان: "لم يحقق الجنس البشري تطورا في مجال الحكم كما حقق في جميع ميادين النشاط الإنساني الأخرى"، وهو شيء معقول ينطبق على الحكومة الأمريكية أكثر مما ينطبق على الحكومة البريطانية، خاصة فيما يتعلق باللعبة الدولية. فنحن أيضا نصل إلى نتيجة جيدة في الآخر، ثم نعود ونفسد الأمور. فبعد أن هدأت العاصفة بعد قضية السويس، بدا واضحا أننا حققنا مكاسب وقتية على الأقل على الصعيد الدولي. فقد خرج ناصر من الأزمة أقوى وأكثر شعبية مما كان في السابق ليس في مصر وحدها، بل في الشرق الأوسط. وعبر سفيرنا رايموند هار، قدم شكرا خاصا للولايات المتحدة لدعمها له. في الوقت نفسه ذكره بوعده السابق لعمل شيء ما بغية "تخفيف التوتر مع إسرائيل". وقد عبر القادة الآخرون في العالم العربي عن تقديرهم "لتصدينا لإسرائيل وحلفائها". حتى نوري باشا السعيد(*)، الذي يصر الكثير من البريطانيين حتى هذا اليوم أنه كان مؤيدا للهجوم على مصر، قد أبلغ سفيرنا في العراق بأنه يعتبر الهجوم "مغامرة حمقاء" وكان يمكن أن تشكل إحراجا كبيرا له لو كانت قد نجحت. وأجد من الصعب علي أن أصدق، إلا أن مصادر موثوقة أبلغتني أنه كانت وفود دول العالم الثالث في الأمم المتحدة تبتسم لممثلينا عندما يمرون أمامهم في ممرات الأمم المتحدة، إلا أن هذا لم يدم لأن طريقتنا في الاستفادة من مقترح راي (رايموند) هار القاضي "بأن علينا أن نغتنم الفرصة لتأسيس موقف قوي"، قد جاءت بصورة، ما أطلق عليه: "مبدأ ايزنهاور".

آه، مبدأ ايزنهاور، لقد أعلن بتقدير غريب للوقت المناسب. وأصبحنا نشترك فيه مع وزير خارجيتنا. كان عرضا من قبل الحكومة الأمريكية باستعداد القوات الأمريكية للدفاع عن حكومات الشرق الأوسط التي تتعرض لخطر عدوان عسكري مسلح علني من قبل أية دولة تسيطر عليها الشيوعية الدولية. وفي ذلك الوقت لم

(*) رئيس وزراء العراق آنذاك (المترجم)

تكن هناك دول شرق أوسطية تسيطر عليها الشيوعية الدولية. وليست هنـاك دول مهددة بعدوان شيوعي. على العكس، كان السوفيت يعرضون الأسـلحة والمعونـة الاقتصادية والدعم السياسي لأي بلد شرق أوسطي يريد ذلـك. لقـد أغـاظ مبـدأ ايزنهاور الدول العربية التي كانت حملات نشاطنا السياسـي تحـاول أن تقنعهـا بالتعاون معنا، وهو قد أثار فقط الميول السائدة للارتشاء لدى مرتزقتنا السياسيين.

ومرة أخرى أود أن أذكر فقرة سبق أن تناولتها في الكتابات السابقة، وعلي أن أكرر ما قاله ناصر لي عندما أخبرته به. لقد قال: "إن السمة المميـزة لكـم أيهـا الأمريكيون هي أنكم لا ترتكبون أعمالا غبية بسيطة بل غبيـة مركبـة، تجعلنـا مندهشين من احتمال أن يكون قد فاتنا شيء معين". وأضاف أنه يعتقـد أن مبـدأ ايزنهاور: "هو أحد أفظع الأخطاء التي ارتكبها دبلوماسي تابع لقوة عظمى".

كنت في ذلك الوقت شابًا، وأعرف البلدان الأخرى أفضل مما أعرف بـلادي. لقد استغرق مني الأمر بضع سنوات أخرى في واشنطن لأعلـم أن الكثيـر مـن "أعمالنا الغبية"، إذا كانت هي حقًا غبية، قد جرت لأسباب وجيهة وليست من قبـل أشخاص أغبياء.

كان الدرس نقطة تحول في حياتي. وهو واقعة حياتية، غيّرت على ضـوئها مجمل حياتي الشخصية.

الفصل العشرون

كوبلاند وايكلبر غر

حصلت نقطة التحول هذه في مكان معين وكنت في أواسط الثلاثين من عمري، وذلك عندما ظهر لي أن علي ألا أعتمد المعنى الظاهري لما يقوله الناطق باسم حكومتنا لإرضاء ميول العامة، وعلي أن أفهم أنها لا تشير بدقة إلى ما يعتقده سرا صانعو القرار. لم تكن هذه ازدواجية، بل انعكاس لحاجة السلطة التنفيذية لتكييف أعمالها مع تعليمات الكونغرس بينما تخفي دورها عن اللاعبين الأجانب.

استغرق الأمر مني أكثر من سنة في واشنطن لا تعلم كيف يجب على أية حكومة ديمقراطية وحكومتنا منها، أن تخلط "الملحّ" "بالمهم" "لقد تعلمت خلال الحرب الثانية أن الاثنين نادرا ما يكونان نفسيهما"، وكيف تدفعها الضغوطات المحلية لتسلك سلوكا يبدو طائشا للمراقب العادي. وقد طورت هذه النظرية لأصل إلى أن هناك شيئا في العقل الباطن القومي هو شيء براغماتي واقعي لا تدخل العواطف فيه، تسيطر عليه في الآخر ما يمكن أن نطلق عليه بالنخبة المحافظة. ومهما تكن التسمية، فان الأخيرة تستغل الهزائم والأخطاء على المدى القصير وتحولها إلى انتصارات على المدى البعيد.

وفي سعيي وراء الحقيقة حول سلوك حكومتنا خلال تلك الفترة لغاية ١٩٥٧، خطر لي أن أنظر أسفل ما يبدو تخبطا، لأسأل: إلى أين نحن متجهون؟ و"ما الذي سنكسبه في الآخر؟ كنت في مركز أعرف فيه أنه لا توجد خطة مفصلة محكمة. وليست هناك عبقرية استراتيجية وراء الكواليس تنظم سلوكنا، بل حتى أنه ليست هناك خطة استراتيجية مرسومة بشكل واضح- وبدلا من ذلك هناك أفكار حمقاء

كمشروع ايزنهاور وباقي السفاهات الموضوعة لأغراض الحرب النفسـية. إلا أن هناك حيلة بارعة وراء سلوكنا هذا وهي تهدف للتقليل من شأن خسائرنا وتضخيم مكاسبنا كي نحتل المرتبة العليا في الآخر. وقد عمل نمط الديمقراطية الذي نلتزم به خيرا إذ إنه رفع إلى مراكز القيادة أشخاصا ماهرين في الحديث المزدوج المقنـع لكل طرف من الأطراف المتخاصمة.

رأى جيم ايكلبرغر، الذي كان معي في مصر وانضم إلي في الهيئة السياسية التي كنت أرأسها في ١٩٥٥، كل ذلك بوضوح أكثر مني. وكتب في مصر تقريرا بعنوان: مشاكل السلطة في الحكومة الثورية"، حيث قدم، بعد ترجمته إلى العربيـة من قبل أحد مساعدي زكريا محيي الدين، دليلا هاديا لمحـاولات ناصـر الأولـى لتعزيز ثورته. وبعد قضية السويس كتبنا تقريرا مماثلا مشتركا ذكرنا فيه الطـرق التي يمكن أن تستخدمها الحكومة الأمريكية لتعزيز المكاسب التي ألقيت بأحضـاننا نتيجة معارضتنا للبريطانيين والفرنسيين والإسرائيليين. ليست لدي أدنى فكرة عمن قرأه، أو فيما إذا قرأه أي شخص من خارج وحدتنا، إلا أن كتابته قد أثرت كثيـرا في وجهات نظري. فقد بدأنا أنا وأيك نبحث بتمعن في الأسباب المعقولـة لسـلوك حكومتنا الخاطئ في ذلك الوقت. فكله يسير بالطبع في اتجاه معـاكس لتوصـيات تقريرنا. لقد وجدنا قليلا من الجنون ولكن كثيرا من التعقل .

جمعنا فيما بدا فكرة غريبة حينها، أعضاء ما يسمى بلجنة مسـتخدمي قنـاة السويس، حيث سيطير بموجبها عدد من الشخصيات رفيعة المستوى إلى القـاهرة، ليشرحوا لناصر كيف أن تأميم القناة يعتبر عملا غير مقبول من قبـل بـاقي دول العالم، وكيف أن عليه أن يحيل الأمر إلى الكبار الذين يعرفون كيف يديرونه. وبعد أن رأينا احتمالا أكيدا لحصول متعة كبيرة في هذا العمل، زججنا أنفسنا أنا وأيـك فيه بحماسة بالغة. في نفس ذلك الوقت، كان كيم يستمتع بأداء عمل سري. فقد أمتع الن دالاس ثم بعد ذلك شقيقه فوستر بإرسال روبرت اندرسن (الشريف بوب)، وزير الخزانة السابق والأثير لدى الرئيس ايزنهاور إلى السعودية لتهديد الملك بخسـارة

عوائد النفط إذا ما رفض الانضمام إلى حركة مناوئة لناصر تشمل كل المنطقة. إضافة إلى ذلك، وبصفته ممثله الخاص، أرسل برفقته صديقنا القديم ويلبور ايفلاند (بيل) ليتأكد أن الشريف بوب والملك سعود قد فهما بعضهما. كان اختيار هؤلاء الاثنين ضربة عبقرية. لم يكن بوب أذكى شخصياتنا المهنية، إلا أنه لا يرفض شيئا مكلفا به. وإذا كان يعتقد أنه ينفذ أمر معلمه ايزنهاور، فإنه ودون أن يرف له جفن قد يشير على الملك بأن عليه أن ينزوي في ركن معين، ويطلق النار على نفسه. ومن خلال تجربته السابقة، كان كيم يعرف بيل ايفلاند بكونه موظفا يميل إلى التقرب للشخصيات المهمة التي تتمتع بذكاء أقل منه، بينما يقوض جهودهم بطريقة تسر رؤساءه في واشنطن الذين يكتبون تقارير تقييم كفاءته. يمكن أن يتحدث اندرسن كمسيحي متحمس لكن يرى الأشخاص ذوو الثقافات الأجنبية حديثه غير معقول. مع ذلك، وبوجود ايفلاند بجانبه، سوف لن تكون هناك أمور مبهمة أو سوء فهم. والحقيقة، أنه عندما أخبر اندرسن الملك سعود بأن عليه أن ينضم إلى الجهد المشترك ضد ناصر وإلا فإننا سنتوقف عن شراء نفطه، اعتقد الملك أن آذانه تخدعه لأنه لم يصدق ما سمع. وسأله الملك عما يمكن أن نستخدمه عوضا عن ذلك أجاب اندرسن "الطاقة النووية"، وأكد ايفلاند للملك بأن ما قاله اندرسن هو الطاقة النووية، وما يقصده هو الطاقة النووية بعينها.

لم أكن أعلم ما الخطة التي يحتفظ بها كيم لاستخدامها عند الحاجة، باستثناء معرفتي أنه خلال أيام بعد وصول اندرسن وايفلاند إلى واشنطن، تلقى برقية من ولي العهد الأمير فيصل تقول إن المهمة قد نجحت. بعد ذلك انشغلنا أنا وايك بسلسلة من الاجتماعات التي سبق أن ذكرتها في الفصل السابق وعدد من المحاولات العقيمة لمجاراة المزاج السيئ المناوئ لناصر السائد في تلك الفترة. من بين أمور أخرى، تضمنت المحاولات تقديم إعانة نقدية إلى الملك حسين والتعاون مع البريطانيين في خطة للإطاحة بالحكومة السورية، وتقوية قناة الاتصال مع ناصر يمكن من خلالها ضمان أنه مهما يحصل من إجراءاتنا المضادة، فإن هناك

عملية إنقاذ مؤيدة له تكون في المتناول للحلول محل هذه الإجراءات إذا ما فشلت. ولكن كما سبق أن قلت ما كنا نعتقد (أنا وايك وكيم فيما بعد) أن علينا الاهتمام بـــه هو جمعية مستخدمي قناة السويس SCUA، التي كانت في الأصل تسمى الجمعيـــة التعاونية لمستخدمي القناة CASU.

وباختصار من المقرر أن تصبح جمعية CASU منظمة للدول الغربيـــة التـــي كانت تستخدم القناة، فهي يمكن أن تدير القناة وتزودها بالأدلاء وتقدم لها الخدمات وتجمع الرسوم وتعطي مصر "حصتها العادلة" من الريع. وجهت دعوات لزيـــارة لندن في ١٩ أيلول إلى جميع الدول الثماني عشرة، وأيضا رسالة إلى ناصر تعرب عن الأمل بأن يتعاون معهم. وفي خطاب إلى دورة خريجي القوة الجوية المصرية، أعلن ناصر عن عزمه تشكيل "جمعية مستخدمين" من مختلف بلدان العالم يمكن أن تدير ميناء لندن قائلا إنه سيرسل رسالة إلى الوزير دالاس يطلب منـــه التعـــاون. وجميعنا يعرف ما حدث بعد ذلك.

أبلغت أن هناك مذكرة يمكن الاطلاع عليها حسب قـــانون حريـــة الوصـــول للمعلومات عن محادثة كتبتها عند عودتي من رحلة مستعجلة لزيارة زكريا محيـــي الدين في القاهرة بعد أسبوع من عودة ايك إلى واشنطن. وكما أتذكر فقد أعطيتـــه نسخة معدلة عما اخبرني به ايك وسألته عن رأيه في فكرة ذكية خطـــرت لايـــك مفادها، ما هو رأيكم بمنظومة نقل عامة تملكها بصورة مشتركة شـــركات الـــنفط والدول الشرق أوسطية التي تساهم في إنتاج أو نقل النفط، يمكن أن يملكها ويديرها اتحاد حكومي- صناعي مع أنابيب النفط والقناة بنفس الأسلوب الـــذي تـــدار فيـــه السكك الحديد في الولايات المتحدة؟.

كان هذا قبل عدة شهور من الهجوم على السويس، لهـــذا مـــن الواضـــح أن مذكرتي وجميع الأوراق الأخرى ذات العلاقة ظلت عدة أسابيع في سلة بريد ألـــن ولم يقرأها احد. ولكن بعد أقل من أسبوع من انسحاب القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية من السويس، تمسك بها ألن على أنها قشة الإنقاذ الوحيدة التي تبدو في

الأفق. أعدنا أنا وأيك كتابتها عدة مرات لتنسجم مع الملاحظات التي أضافها فرانك وسنر وآخرون في حواشي المسودة الأولى، بعد ذلك أحلناها إلـى وكيـل وزيـر الخارجية هربرت هوفر الذي قال إنها "تستحق التفكير" لهـذا منحنـا أنـا وأيـك التفويض لزيارة نيويورك وشيكاغو وسان فرانسيسكو لمناقشة الفكرة العامة مـع مدراء شركات النفط الذين تعرفنا عليهم خلال اجتماعات ما سمي بلجنة طـوارئ الشرق الأوسط (MEEC).

لم أكن أستاذًا متمرسًا، إلا أن كيم كان ذكيًا وقد أمضى عامين بعد تسريحه من الجيش يدرس كطالب حقوق متفرغ. بعد موافقة هوفر، قام ايك بقراءة كل شـيء وقعت يده عليه عن أعمال شركات النفط، وعندما أجرينا جولاتنا على الشـركات الأمريكية الكبرى مثل شركة (ستاندر اويل) أوف نيوجيرسي، وسوكوني موبيـل، وكلف ، وتكساس وستاندرد أويل أوف كاليفورنيا، كان يحتفظ برباطة جأشه في كل المناقشات. وبإضافة خبرته المتكونة حديثا مع فهمي الطبيعي إلى حـد مـا عـن "الفواصل الثقافية"، أصبحنا نشكل فريق عمل ناجحًا.

لم يبـد أي شخص تحدثنا معـه اهتماما بفكرتنا في إقامة منظومة نقل عام ، إلا أنهم كانوا معجبين بالدراسـة المجتهدة لخلفية الأمور التي بحثت في الفكـرة . وقد عرض ثلاث من بين خمس شخصيات زرناها عروضًا إلينا بالعمـل، وقـال الاثنان الآخران إنهما سيكونان سعداء لو عملنا معهما كمستشارين شريطة أن نجلب عددًا آخر من المستشارين. وبعد أسبوعين من هذه المحادثات التي تخللها عـرض لمثل هذه الدراسة، كنا نشعر بالزهو والثقة بالنفس. وبعد المحادثات مع كيم الـذي تلقى دفعة أخرى من الثقة خلال محادثته مع الن وفرانك ورئـيس قسـم الشـرق الأقصى حول القيام بمشروع عملية في إندونيسيا. حسمنا أمرنا وقبلنا عرضا مـن شركة نفط الخليج للعمل كمستشارين لديها. وسينضم كيم إلينا بعد أن نثبت أنفسـنا فيها. وفي غضون أسبوع، وقعنا عقدا، مع أحد أكبر البنـوك، ومـع أحـد أكبـر الخطوط الجوية في العالم. وقد وقعنا مع الشركتين الأخيرتين عقودًا على أسـاس

بالغ السرية لأنهم لا يثقون بنا بسبب ارتباطنا بالمخابرات المركزية. سـوف لـن أتحدث عما وصل إليه المجموع الكلي لرواتبنا لأني لا أتذكر، ولكن مقارنة برواتبنا الحكومية، فإن الرقم يعتبر كبيرا، وهو ربما يبلغ ثلاثة أضعاف.

ولأسباب متعددة، اخترنا العمل الاستشاري مع شركة نفط الخليج في بتسبرغ في بنسلفانيا، مدينة أيك الأولى. كان السبب الأول هو قلة المنافسة في الشركة على هذا النوع من الخبرات التي أمتلكها. وشعرت أنه إذا ما عملنا لأي شركات أخرى، فإن جميع تقاريرنا ستخضع لتدقيق أحد الخبراء، مما يجعلنا دائما في وضع حرج. وتعتبر الشركة الوحيدة من بين الشركات الكبرى التي ليس لديها خبراء إقليميـون يراقبوننا، وهي تحصل على معلوماتها عن منطقة الشرق الأوسط، كما كان ذلك في السابق، عن طريق شريكتها في الكويت، شركة برتش بتروليوم. وفي الوقت الذي كنا فيه نحن وشركة الخليج نتفحص أحدنا الآخر، كان يسمح لنـا بقـراءة بعـض تقارير شركة برتش بتروليوم التي ترسلها إلى المركز في بتسبرغ. كانت عبـارة عن كلام تافه. لا ريب أن مدراء شركة برتش بتروليوم كانوا يرون أن على مدراء شركة الخليج، ولكونهم من أبناء عمومتهم من ريف وسط أمريكا، أن يجلسوا بسلبية في بتسبرغ يقطعون القسائم، تاركين الشرق الأوسط بأيديهم الخبيرة. مـن خـلال دوري في عملية اجاكس وغيرها، كنت أعرف شركة برتش بتروليوم جيدا. وكمـا قال ايك: "سيكون ممتعا تجاوزها وتخطيها".

نعم، ربما يكونون أبناء عمومتهم الريفيين، إلا أن مدراء شركة الخلـيج هـم زبائن نموذجيون لهذا النوع من المعلومات الذي يمكن أن يقدمـه بعـض لاعبـي المخابرات المركزية القدامى. كانوا يجهلون الشرق الأوسط وثقافته المختلفة إلا أنهم يدركون ذلك وكانوا أذكياء. ويعتبر رالف رودس، وهو نائـب الـرئيس التنفيـذي للشركة، الرجل الذي اكتشف النفط في الكويت، ولم يحفر بئرا واحدة لم يجد فيهـا نفطًا، وقد أعلم بأنه قد اكتشف نفطًا أكثر من أي شخص آخر فـي تـاريخ هـذه الصناعة. لم يكن يعرف الكويت أو الشرق الأوسط في حد ذاته، إلا أنه يتمتع بذكاء

فطري يمكنه من تشخيص الخبير الحقيقي في المنطقة عندما يراه. وكان بيل وايت فورد، رئيس الشركة ذو وزن ٣٠٠ باوند يعرف بأنه أشد الرؤساء وأكثرهم حيوية ومغامرة وأكثر المديرين التنفيذيين كفاءة في ميدان العمل النفطي في الصناعة الأمريكية بشكل عام. وكان دافيد بروكتر رئيس مجلس الإدارة من نمط رجل القبيلة الحكيم، الذي كان حينه قد تجاوز مرحلة شبابه، وكان يطلب مشورتنا ويقدر خبرتنا ويعتمد علينا في كل صغيرة وكبيرة.

وهناك بالطبع الشركة نفسها. عندما كنا نقرأ عن شركة الخليج قبل أن نذهب إلى بتسبرغ في أول زيارة إليها، كانت أصولها تصل إلى ٧٢٢مليون دولار. إلا أن هذا الرقم ورد في منشور صدر في ١٩٤٦ وخلال أول إيجاز قدم إلينا عنها علمنا أنهم قد رفعوا أصولها لتصل إلى ثلاثة بلايين دولار ونصف أو أكبر بخمسة أضعاف عما كانت عليه قبل أحد عشر عامًا بينما ازدادت العوائد السنوية لها إلى أكثر من ستة أضعاف. وما هو جدير بالأهمية، علمنا أن ثلثي عائدات شركة الخليج تأتي من أعمالها في الخارج من خلال النفط المستخرج من الكويت وهو ميدان ممتلكاتها الرئيسة، حيث يكلفها البرميل أقل من عشرة سنتات وتبيعه بدولار وخمسة وثمانين سنتًا. إنهم أبناء عمومة ريفيون حقا. وحتى أنا الذي لا أمتلك أية عقلية تجارية، يمكنني أن ألاحظ أن بروكتر ووايت فورد ورودس هم شخصيات أكبر من كونها مدراء لمخزن أدوات خردة في قرية. وقد خطر لي أنهم ولكونهم رجال أعمال من الطراز الأول ويدركون أهمية المعلومات التي ليست لديهم، فإنهم سيقدرون بطريقة خاصة شركة كوبلاند وايكلبرغر كما قررنا أن ندعو أنفسنا.

وفي الآخر، راقنا هذا العمل فبدلا من الاهتمام ببلدان وقضايا متعددة كما لو عملنا على سبيل المثال مع شركة موبيل حيث تنتشر مشاريعها في عدد من البلدان، انحصر اهتمامنا في شركة الخليج ببلد شرق أوسطي واحد هو الكويت حيث تملك الشركة نصف أسهم شركة نفط الكويت وتمتلك شركة برتش بتروليوم النصف الآخر. وعملنا هو ليس مراقبة الكويت نفسها بل أن نبقي أعيننا مفتوحة على جميع

التطورات في الشرق الأوسط التي قد تؤثر على مصالح شركة نفط الكويت- كما هو مثلا القلق الدائم للأسرة الحاكمة الكويتية بسبب التقلبات السياسية في العراق ومصر اللتين يفكر زعماؤهما بصياغة مشاريع يقدمون فيها الخبرات بينما تقدم الكويت المال.

وعند النظر إلى الفترة ما بين ١٩٥٧- ١٩٦٠. أستطيع أن أرى حتى من هذه المسافة البعيدة أنه لا أحد سواء في ذلك الوقت أو لاحقا قد أدى عملا رائعا بالغ الدقة كما فعلنا أنا وايك. ومنذ ذلك الوقت، عملت مع جميع الشركات السبع الكبرى باستثناء شركة تكساس وبرتش بتروليوم ومع ثلاث من الشركات النفطية المستقلة البارزة، وقد استحققت كل فلس دفعوه لي. كانوا كلهم سعداء بعملنا.

وهكذا هبطنا في بيروت منتصف تموز ١٩٥٧ ونزلنا في محلات إقامة مريحة وفخمة وبدأنا العمل في جناح من المكاتب مقابل شركة تابلاين وهي الشركة التي كانت تدير خط أنبوب النفط من الظهران في السعودية إلى صيدا بلبنان لصالح شركة النفط العربية الأمريكية (ارامكو) التي يمتلكها الأربعة الكبار موبيل، وستاندرد أوف نيوجيرسي وتكساس وستاندرد أوف كاليفورنيا. وبفضل زميلنا القديم من المخابرات المركزية جيم انكلتون بدأنا نقيم حفلات. وفي غضون ستة أشهر، أصبح يعرف عنا بأننا نقدم أفضل الحفلات.

إن الحفلات التي يمولها زميلنا انكلتون تحتاج إلى شيء من التوضيح. تلاحظون أن جيم انكلتون هو الشخص الوحيد في الاجهزة الاستخبارية في لندن وواشنطن الذي كان واثقا من أن كيم فيلبي عميل للمخابرات السوفيتية. حتى إنه أخبر فيلبي بذلك، عند الغداء في مطعم بجورج تاون إلا أن فيلبي ضحك وقال له: "سوف لن تجد من يصدقك". ولكن ودون ضحك أخبرني جيم بأن علي ولو لمرة واحدة أن اترك طبيعتي الواثقة بالآخرين وانضم إلى المجموعة الصغيرة من ضباط المخابرات المركزية الذين يعتقدون بأن احتمال كون فيلبي عميلا للمخابرات السوفيتية هو على الأقل احتمال قائم. قال لي إنني إذا ما راقبته (لقد انتقل فيلبي إلى

بيروت قبل عدة أشهر من وصولي أنا وايك)، فإنه سيتحمل جميع التكاليف التي تكون بالطبع على شكل مصاريف ضيافة، طالما أن علي أن أؤدي عملي في مكافحة التجسس تحت غطاء علاقات اجتماعية .

لم نمكث سوى أسبوع أو أسبوعين، وقبل أن يكون لدينا الوقت الكافي لإبداء أي اهتمام بكيم فيلبي، حتى قام بزيارتي. دعونا إلى العشاء عددا من الأصدقاء من أيام عملي في دمشق بضمنهم مراسل النيويورك تايمز سام بوب برور وزوجته ألينور، حتى وصل فيلبي دون دعوة برفقتهما. أحببت فيلبي منذ أن التقيت به في ١٩٤٢ عندما كان ضمن معلمي سلاح الـ (M16) عندما جاء إلى الولايات المتحدة للمساعدة في تدريب مجندي مكتب الخدمات الاستراتيجية، وقد التقيت به كثيرا في واشنطن على الصعيدين المهني والاجتماعي عندما كان مديراً لمحطة جهاز المخابرات السرية في زمن قضية بيرغس وماكلين. ولأن لوراين (زوجة المؤلف) كانت مختصة بالآثار، فقد أثار فيلبي اهتمامها بسبب والده، سنت جون فيلبي الكبير الذي تزوج من امرأة بدوية في العربية السعودية لهذا عندما ظهر عند عتبة دارنا مع أسرة برور، رحبنا به بحرارة. ومنذ ذلك الوقت وبوجود مخصصات الضيافة من المخابرات المركزية، بقينا ندعوه باستمرار. وفي إحدى الليالي أقمنا مائدة عشاء (بوفيه) لأربعين شخصا كنا متأكدين أن فيلبي سيكون واحدا منهم، وبعدها أرسلنا الفاتورة لجيم انكلتون.

لقد استحققت ما دفعه جيم اليّ. على سبيل المثال، خططت مع مسؤول رفيع من المكتب الثاني اللبناني، سبق أن أقمت علاقة صداقة معه لأغراض استخبارية عامة، لإخضاع فيلبي لمراقبة ثابتة دورية ومن ثم تزويدي بأية معلومات ذات أهمية عنه، وما زودني به يشير إلى أن فيلبي ظل يمارس مهنته القديمة. وكعادته، فقد كان يتملص من مراقبيه دائما. وقد شاهده عملاء المكتب الثاني من حين لآخر في أحياء غريبة من بيروت كالحي الآرمني في بداية الطريق إلى دمشق حيث علمنا بعدها أنه يحتفظ بشقة في الطابق العلوي يرسل منها برقيات "الضياء

الأسود"(*) إلى موظف الشيفرة التابع للمخابرات السـوفيتية والـذي يـرى هـذه الإشارات من خلال إحدى آلاف النوافذ أمام مرمى بصره.

وفي الآخر، علمت عن علاقته السرية بزوجة سام، الينور واستنتجت أن كـل أعمال التسلل الخفي هي بسبب هذه العلاقة. وعندما تزوج فيلبي وأليتور ، أخبرت انكلتون أنني أقدر مصاريف الضيافة (وكنت في ذلك الوقت في غير حاجـة إلـى إعانة مالية)، وان الزوجين فيلبي هما ضيفان عزيزان، إلا أنني أعتقد أن ملاحظتي له كانت مجرد مضيعة للوقت. وقد طلب مني الاحتفاظ بها، وظل الزوجان فيلبـي يترددان كضيوف دائمين على منزل كوبلاند. وفي عطل نهاية الأسبوع يركبـون قارب كوبلاند، لحين ما هرب كيم إلى الاتحاد السوفيتي في كانون الثـاني ١٩٦٣. وقد فعلنا أنا ولوراين كل ما نستطيعه لمساعدة أصدقائنا فـي جهـاز المخـابرات السرية في جمع المعلومات الاستخباراتية عما كان ينوي فعله خلال فترة إقامته في بيروت. وبمساعدة جين وديك باركر من السفارة الأمريكية، قيدنا حركـة أليتـور، لحين ما ظهر زوجها في موسكو وأرسل بطلبها.

سأقص عليكم عمل شركة كوبلاند وايكلبرغر مع شركة نفط الخلـيج، ومـا اعتبرناه أحداث في الشرق الأوسط قد تؤثر على الكويت وتثير قلق أسرتها الحاكمة. ومن الأمور المفرحة، أنها كانت من نوع الأحداث التي كنا مسـتعدين لمراقبتهـا، وهي عبارة عن الآثار العرضية للعبة القرن التي كانت على وشك أن تبدأ مع كيم روزفلت في جانب وجمال عبد الناصر في الجانب الآخر. علي أن أؤكد أنه بالرغم من أنني كنت أطلع المخابرات المركزية بصورة تامة ودائمة عن علاقاتي الجيـدة الجارية مع ناصر وبعض أعضاء حكومته، إلا أنني لا أستطع معرفة مـا تفعلـه حكومتنا لمقاومة ناصر أكثر مما أعرفه مما ينشر علنا أو ما أسمعه مـن خـلال أحاديثي مع زملائي السابقين من المخابرات المركزية الذين اختاروا أن ينقلوا إلي

(*) هي أشعة تحت الحمراء أو فوق البنفسجية يمكن استخدامها بدلاً مـن الإضـاءة العاديـة أو التصوير أثناء الليل . (المترجم).

بعض المعلومات رغم علمهم بأني أعتقد بأن العمليات ضد ناصر هي خطأ كبير. وقد أبقيت على نحو خاص مدير محطة المخابرات المركزية في بيروت خلال الأزمة اللبنانية في ١٩٥٨ على اطلاع تام باتصالاتي مع المصريين. إلا أنني لم أكن أشعر بأني ملزم بالإبلاغ عن أي شيء أعرفه عن المصريين قد يكون مفيدا لعمليات الوكالة المناوئة لناصر. وقد اتهمني أصدقائي المصريون بأني ألعب لعبة مزدوجة، إلا أنني لم أكن كذلك. ولغرض التوثيق أقول إن المستلم الوحيد لجميع تقارير كوب- ايك (على اسم عنواننا البرقي، حيث أخذنا نسمي جميع المواد الصادرة من مكتب كوبلاند وايكلبرغر بهذا الاسم) هو كيم روزفلت، وكنت في وضع أعرف فيه أنه قد تعامل معها بتكتم شديد. وعندما استقال كيم بعد سنة من الوكالة ليصبح نائب رئيس مؤسسة نفط الجنوب (ويكون مرة أخرى ولأسباب عملية رئيسنا)، استأنف علاقاته الودية مع ناصر، لا للوقوف بجانبه في صراعه المتواصل مع الحكومة الأمريكية بل لتقديم المشورة له كصديق حول كيف يمكنه وقف طريق انحداره.

على أية حال، كان يجب علي أن أبتعد عن أصدقائي في المخابرات المركزية، إلا أن شعوري بالحنين يمنعني من ذلك. فقد كنا في بيروت نكسب مالاً وفيرًا وسريعًا ونعيش كالمهاجرين الأمريكيين الأثرياء (بيوت أنيقة ، والكثير من الخدم ،.. الخ)، ونعاشر مجتمع رجال الأعمال المترفين في بيروت، مع ذلك فإني افتقد أصدقائي القدامى وجذبتني محطة المخابرات المركزية كفراشة إلى اللهب . وما جعل الأمور أسوأ، وعندما وصلت الحركة المناوئة لناصر إلى درجة الغليان، توسع الفريق التابع لرئيس محطة بيروت ليشمل العديد من الأصدقاء القدامى من المحطات الميدانية في الشرق الأوسط وواشنطن، بما في ذلك بعض من الشباب الأذكياء. من هيئة النشاط السياسي السابقة التي قد تركتها مؤخرا.

وما جعل الأمور أسوأ أيضا (وأعني هنا أسوأ بمفهوم زيادة الحنين)، الخصومات ما بين الوحدات المختصة المختلفة، لأجد نفسي أقوم بدور الأب

الراعي لأستمع إلى شكاواهم المختلفة- ودون الحاجة إلى القول، إنهـا تضـمنت معلومات عما يجري في عالم العمليات السرية والمؤامرات التي ليس لـي شـأن بمعرفتها. الاستثناء الوحيد من ذلك هو رئيس المحطة نفسه الذي هو عادة صـديق طيب إلا أنه في مثل هذه الظروف كان خصما سريع الغضب. ولغرض بيان نيتي الطيبة، اعتدت على زيارته باستمرار لأقابله كل بضعة أيام وأخبره كيف أن عليـه أن يدير محطته. قد تعتقدون أنه يقدر لي ذلك، ولكن الحقيقة كلا. كان يخبرنـي أن علي أن اهتم بعملي الخاص ثم يرسل بعدها برقية شكوى إلى ديك هيلمز يرجو منه بإلحاح أن يبعدني عن طريقه. إلا أنه يتلقى بعدها برقية من الأخوين دالاس يطلبون منه "التنسـيق مع كوبلاند وايكلبرغر لمعرفة رؤيتهم للموقف"، ثم يستشيط غضبا- يا للمسكين. لم يكن يفهم أبدًا أنني كنت حقا أريد مساعدته.

لقد أحجمت عن ذكر الأسماء عند روايتي لكل هذه الذكريات. إلا أنه طالما أن مدير المحطة هذا متوفي فذكر اسمه لا يثير الاستياء. إنه غصـن الزغبـي وهـو أمريكي من أصل لبناني يتحدث لغتين ويبلغ وزنه (٣٠٠) باون، وهو رجل لطيف من كل النواحي وخبير في ميدان عمله من الطراز الأول. كان عدوه الحقيقي ليس أنا بل صديق قديم آخر من المخابرات المركزية أستطيع أن أذكر اسمه طالما قـد ذكره هو في كتاب له عن المخابرات المركزية وأصدقائه القدامى. وهو لايزال حيا ومفعمًا بالنشاط رغم أنه عاجز عن مزاولة مهنته. كانت قصته قصة حزينة، فقـد استنزفت قواه المشروبات الكحولية والبطالة المزمنة ومشاعر المرارة التي لايزال يحس بها إزاء أصدقائه القدامى، كان الزغبي أحدهم. قال مباشـرة بعـد أن زود بوثيقة تؤيد سلامته الصحية من قبل المحللـين النفسـانيين التـابعين للمخـابرات المركزية: " إن كوني غير مصاب بالبارانويا، لا يعني أن الأوغاد سوف يتركونني وشأني".

إنني أتحدث عن ويلبور ايفلاند (بيل)، الذي تقفز بخصوصه عبـارة "أسـوأ أعدائنا" إلى الذهن. لقد التقينا أنا وايك به لأول مرة في القاهرة في تشرين الثـاني

١٩٥٤ عندما زارنا هو وأحد العقداء من البنتاغون يدعى آل جيــرارد، ليوضــحا لناصر أن عدوه الحقيقي، الاتحاد السوفيتي وليس إسرائيل. تختلف ذكرياتنا عمــا قاله الاثنان لناصر، إلا أننا نتفق إزاء الانطباع الأول الذي خلفه آل وبيــل لــدينا. فعندما ترجلا من الطائرة في مطار القاهرة، لم نخطئ في تمييز آل جيرارد، فقــد كان عقيدا عسكريا نموذجيا، إلا أننا دهشنا لمرأى شبح يتبعه على بعــد خطــوتين وهو يرتدي بنطالاً مخططًا ومعطفًا رصاصيًا على طراز معاطف أوكسفورد التي يلبسها المرء في المراسيم الجنائزية الدبلوماسية مع قبعة هامبورغية كقبعات رعاة البقر، ومحفظة جلدية رقيقة. قال ايك: "يا للمسيح، إنه يرتدي ملابس تنكرية!"

اتضح أن هذا الشبح هو بيل ايفلاند، وقد أحببته من أول نظــرة، إلا أن ايــك ليس كذلك. ترك بيل انطباعا جيدا لدي لأنه في غضون بضع دقائق مــن حــديث جانبي هامس معه، بين لي أنه جاء فقط من أجل الرحلة، وأن "فوستر" قد أرسله مع العقيد جيرارد كمرافق من نوع ما لضمان أن "تبدو الرسالة إلى ناصــر واقعيــة". كانت مفردة "واقعي" في تلك الأيام مفردة مشوشة المعنى، لا تفيد في تحقيق الغاية المرجوة لمن يسمعها. أن ذكره لاسم فوستر باسمه هــذا (فبالإضــافة إلــى كــيم روزفلت، كان بيل هو الشخص الوحيد في المخابرات المركزية الذي يــذكر دالاس باسمه المسيحي) قد جعلني أنظر إلى بيل على أنه أحمق.

كانت ردود فعل باقي أعضاء محطة المخابرات مماثلة لردود فعل أيك. وبعد اجتماع مستعجل مع كادر المحطة (كنت الشخص الوحيد من خــارج المخــابرات المركزية حينها رغم أن ايك كان لايزال ضمن صفوفها)، وقد اتخذ القــرار بــأن نعود إلى خدعة المخابرات المركزية التي كنا نستخدمها مع الزوار الذين نريدهم أن يشعروا كأنهم جزء منها، رغم أنهم ليسوا كذلك. والخدعة هي ألا نبلغهم بأي شيء وما هو أكثر من ذلك أن نحافظ على طابع من السرية البالغة. وهكــذا زود بيــل بمعلومات مضللة، ولكونه رجلا أحمق، فقد استوعب ما يناسبه وأهمل الباقي. أنــه الشخص الذي أريده حقا.

وخلال الفترة الفاصلة بين لقائنا ببيل في القاهرة، ووصـــوله إلـــى بيـــروت لمساعدة أو إحباط عمل الزغبي حسب الظروف اليومية، فقد جعل من نفسه موضع اهتمام كيم روزفلت بسبب علاقته بالبريطانيين عندما كنا نحن وهـــم نتنـــاور كـــل بطريقته المختلفة من أجل قضية قناة السويس. التقى بيل بنظرائنا من المخـــابرات السرية في لندن، ونتيجة أوامر كيم أحيانا ومحض فطرته أحيانا أخرى، فقد زودهم "بالكثير من اللاشيء"، بينما يدرك في الوقت نفسه أنهم يفعلون نفس الأمر معنـــا. وكما قال كيم عن بيل في حينه: "من المفيد جدا لنا أن يعرف هو نصف الحكايـــة أفضل مما يمكن أن يعرفها كلها". وعند وصوله بيروت في نيسان أو أيار ١٩٥٧، كان سجله يشير إلى أنه شخص مبتذل من الطراز الأول بحيث أنه يستطيع أن يذكر اسم فوستر بثقة عالية بحيث يتصور المحيطون به أنه كان والوزير دالاس يلعبـــان الغولف كل عطلة نهاية أسبوع. وباختصار قد أضاف طرازا جديدا من الناس إلـــى منظومتنا الاستخبارية، وكفضولي أقول إنني أقدره حتى لو لم يكن الزغبي كذلك.

لا أتذكر التفاصيل، ولا أعتقد أنها يمكن أن تخدم أي غرض فيما لو سردتها، إلا أن العملية التي كان يتخاصم من اجلها بيل والزغبي جديرة بالسرد، كون شكل الأمور المعروفة عن عالم الدبلوماسيين والجواسيس وضباط المخابرات مناقض لما يجري على أرض الواقع، مع ذلك كانت هذه الأمور هي المادة التي دارت حولهـــا حكايات فضائح المخابرات المركزية والمسلسلات التليفزيونية المثيرة.

كانت العملية، التي تعتبر واحدة من العمليات العديدة التـــي تنفـــذها الوكالـــة لمقارعة النفوذ الذي كسبه ناصر نتيجة مبدأ ايزنهاور، تنطـــوي علـــى التلاعـــب بالانتخابات اللبنانية ١٩٥٧- أو بالأحرى التلاعب بالتلاعب الحاصل فيهـــا حيـــث سبق أن تلاعب المصريون والسوريون فيها. وكان من مصلحتنا ومصلحة اللبنانيين "والعالم الحر" أن تكون الانتخابات نزيهة إلى حد ما. ولأسباب فاتتني في حينهـــا، ولاشك أنها ستظل غائبة عني فيما لو أتعبت نفسي في البحث عنها، فقد كان لكـــل من "فوستر" والزغبي ودونالد هيث السفير الأمريكي ثلاثة مرشـــحين متنافســـين،

وكلهم بصورة أو بأخرى رجال طيبون، إلا أن كل واحد منهم عرضة لشكل مختلف من أشكال المغريات.

أدى بيل ايفلاند عملا بارعا ليس فقط في تحييد مساعي السفير هيث لنقض ما تسعى إليه أوامر الأخوين دالاس التي تجاهلت السفارة، بل وفي محاولات خداع الشخصيات المهمة القادمة من واشنطن في فترات مختلفة لتوثيق عمل المخابرات المركزية وما يقوم به كادر السفارة الاعتيادي والموظفون غير الرسميين لتفعيل مبدأ ايزنهاور. فرغم معاركه المستمرة مع كل من محطة المخابرات المركزية في بيروت والمسؤولين الإداريين في واشنطن وذلك لصرفياته العالية (كان بيل يحب أن يعيش مترفا)، إلا أنه ظل على وفاق مع الن و"فوستر"، وظل يعلب دورا رئيسا في أوركسترا كيم روزفلت المناوئة لناصر. لا أزال أنظر إلى فترة ١٩٥٧-١٩٦٠ على أنها عصر ايفلاند في السياسة العربية-الأمريكية.

وخلال السنوات اللاحقة لتأسيس شركة كوبلاند وايك، ظل ناصر يحرز النصر في معاركه، بينما كانت المخابرات المركزية ووزارة الخارجية تخسرها جميعا، إلا أنهما ظلتا تواصلان مساعيهما نحو إحراز النصر النهائي، النصر على ناصر، أي إن لم نقل نصرا على القوى المناوئة لإسرائيل والقوى القومية المناوئة لأمريكا، كما كان الوزير دالاس يصر على تسمية "الشيوعية الدولية" بهذا الاسم. كان ما تلا اللعبة في الملعب الرئيس يشبه فض نزاع بين طفلين حول من الذي بدأ المعركة أولاً، حيث يقول كل منهما: "لقد بدأ المعركة عندما ردّ هو عليّ". ادعى ناصر أن سعيه للحصول على الأسلحة من السوفيت عام ١٩٥٥ كان فقط "رد فعل" من جانبه على رفضنا تزويده بما يحتاجه في الوقت الذي كان فيه الإسرائيليون يطيرون بارتفاعات واطئة في سماء القاهرة بطائراتهم المقاتلة ويهشمون زجاج نوافذ الفنادق. وكنا ندعي أن الحركة الأولى في اللعبة هي صفقة ناصر للأسلحة مع السوفيت وان سحبنا لإعانتنا لبناء السد العالي (التي أعلنت في بيان صحفي واعتبرها ناصر شكلا من أشكال الإهانة)، هي "رد فعلنا". وقد تطورت الأمور من

هذه النقطة: تأميم قناة السويس والهجوم الانكلو- فرنسي- إسرائيلي على مصر، ثم إعلان مبدأ ايزنهاور.

ورغم أن مبدأ ايزنهاور يكشف عن نقص في خبرتنا بالمنطقة، إلا أن بعضا منا كان يعتقد بإمكانية استخدامه كغطاء لعدد من الخطوات اللاحقة للأمور التي سويت مع ناصر بعد معارضتنا للهجوم الانكلو- فرنسي- إسرائيلي على مصر. غير أنه لم يتم ذلك، فقد اعترف الوزير دالاس أنه منحاز سرا منذ البداية إلى البريطانيين، إلا أنه قد التزم الصمت بسبب المعارضة التي أبداها الرئيس ايزنهاور للهجوم عندما كان يلقي خطابا في مكان ناء. ثم بعد ذلك أوقفت وزارة الخارجية بشكل صريح صادرات القمح والمعونة المالية إلى مصر في الوقت الذي كان فيه ناصر يصارع مشاكل تسوية الفوضى التي أعقبت أزمة السويس- وهو أمر استغله ناصر جيدا لمصلحته في حملة الدعاية التي رافقت أعماله السرية في مختلف الدول العربية. فقد حاول تنفيذ انقلابين في الأردن وفشل، وحاولت المخابرات المركزية تنفيذ انقلابين أيضا في سوريا وفشلت- إلا أن الفرق هو أن ناصر قد توصل إلى تسوية مع الملك حسين، حيث اتفق الاثنان على تسوية مؤقتة، بينما واصلنا نحن محاولاتنا مع السوريين، حتى أصبح في الآخر من المتعذر إرجاع الأمور لحالتها الطبيعية. في الوقت نفسه كانت الحكومة الأمريكية تزود علنا الحكومات العربية الصديقة بالمعونة العسكرية، بينما يستجيب السوفيت بتزويد الحكومات غير الصديقة لنا، إن لم تكن صديقة لهم بالضرورة، بالمعونة العسكرية. وقد فهم خبراء المخابرات المركزية المختصون بالاتحاد السوفيتي هذه النقطة حتى ولو لم يفهمها الأخوان دالاس. فبالنسبة لهم إذا كانت هناك حكومة معينة مناوئة لأمريكا، فهي إذن شيوعية.

أشعر بالأسف إذ لا تتوفر لدي نسخ من جميع التقارير التي أرسلتها إلى بتسبيرغ خلال هذه الفترة وبعضها قد ترجمناه إلى العربية لإرساله إلى أصدقائنا في الأسرة الحاكمة الكويتية، حيث كنا قد كتبناه خلال السنة الأولى من عملنا. مع ذلك

فإني أتذكر أن مدراعنا في بتسبيرغ قد شعروا بالارتياح من الطريقة التي جعلنا فيها الأسرة الحاكمة الكويتية تشعر بخوف يكفي، لمنعها من القيام بمزيد من المشاحنات حول تقسيم عوائد النفط. كان عملنا كما نراه ليس أن نخبر مدراعنا في بتسبرغ والأسرة الحاكمة الكويتية بما ينبغي عليهم القلق بشأنه، بل ما هو الشيء الذي لا ينبغي عليهم القلق بشأنه وهي موازنة جميلة. لقد استحققنا أجورنا بتقديمنا المشورة للكويتيين من خلال المدراء التنفيذيين لشركة الخليج الذين يساعدون شركة نفط الكويت وذلك بأنهم سيبقون في مواقعهم ويجنون أموالا ضخمة (مليون دولار في اليوم في ذلك الوقت)، إذا ما ارتفعوا فوق النزاعات الجارية، وبتقديمنا المشورة إلى بتسبيرغ بأن عليهم ألا يقلقوا مما يقرأونه في صحافتهم. إلا أننا تعلمنا شيئا آخر حول مهنة تقديم المشورة.

أخبرنا بيل وايت فورد، رئيس شركة الخليج، بأن علينا ألا نسوغ الراتب الذي نتقاضاه عن طريق كتابة التقارير عن كل ما نراه. فقد قال : "ليس لدينا نحن هنا المزيد من الوقت لتمضيته في القراءة". مع ذلك وبعد اجتماع لمجلس الإدارة، أشار لنا سكرتيره إلى حقيقة أنه بعد مضي شهر، دفعته خطاباتنا التي نذكر فيها "لاشيء جدير يستحق الكتابة"، إلى أن يسأل رالف رودس المسؤول الذي نرتبط به في الشركة، "عن ماذا ندفع لهؤلاء الرجال؟"، بعدها بدأنا قاعدتنا القديمة في المخابرات المركزية (اعتقد انكم تحزرونها) إلا وهي : "أن نخبرهم بلا شيء، المزيد من اللاشيء مع نكهة من السرية البالغة"- باستثناء أنه من المناسب أن نكون "تعليميين" أو حتى "مثيرين للتسلية".

وبفضل ايك ومواهبه الأدبية التي طورها بالكتابة إلى بعض المجلات المغمورة وأحيانا إلى صحيفة النيويوركر، كتبنا تقارير إلى بتسبيرغ جعلتهم يحسون بالبيئة الشرق أوسطية التي تأتي معظم أموالهم منها.

فعلنا نفس الأمر مع شركة الخطوط الجوية والبنك المتعاقـدين معنـا، وفـي غضون عام بدأنا نحصل على زبائن جدد، وفي الآخر كسبنا ما مجموعـه سـبعة زبائن. بعد ذلك استقال كيم من وكالة المخابرات المركزية ليصبح نائب مدير شركة الخليج، حيث كلف بإدارة العلاقات الحكومية وتم تخصيص مكتب فخـم لـه فـي واشنطن. كتب لنا خطابا بدأه بالعبارة التالية: "هذا أصعب خطاب أكتبه في حياتي" ثم أخذ يعتذر بإيجاز عن خطوته هذه، إلا أنه أكد على أن وجوده كمسـؤول فـي مؤسسة الخليج سيكون لصالحنا جميعا. وبعبارة حازمة، وجه بأنه من الآن فصاعدا علينا أن نرسل تقاريرنا ليس إلى رالف رودس بل إليه. وقد فعلنا ذلك، وكان هـو يستحق ما يكسبه من مبالغ ضخمة، منذ أمد بعيد، إلا أن رالف رودس كان يـرى أننا لا نستحق ما نكسبه أي رغم أن شركة الخليج قد واصلت دفعها لأجورنا إلا أنه كان يجهل ما كنا نرسله إلى مكتب كيم في واشنطن.

إن ترك كيم العمل في الوكالة ليصبح نائب مدير شركة الخليج قد أحدث تغييرا كبيرا في حياتنا أنا وايكلبرغر. فطالما كان يعمل بمكتب في واشنطن يليـق بأحـد ملوك المال النفطيين، فقد استطاع كيم أن يحافظ على علاقاتـه الاجتماعيـة مـع مسؤولي المخابرات المركزية الكبار الذين يمكنه بسهولة الاتصال بهـم هاتفيـا أو اللقاء بهم في نادي المتروبوليتان. وبموافقتنا المتحمسـة، تـولى مسـؤولية إدارة علاقاتنا مع شركة الخليج ومع الوكالة عن طريق ترتيب وجدته مناسبا إلا أن ايـك وجده مجرد ترتيب مفيد. بدأ ايك ينظر إلى كيم على أنه الحجاب الواقي الذي يمكنه الاختباء وراءه كي يشبع رغباته بالتكاسل. وعندما بدأت الشكوك تساوره حول نفسه وانشغاله بمشاكل منتصف العمر والحاجة إلى الانغماس بالملذات الحسية في عمـر الأربعين، علمت أن النهاية قد دنت. بعد ذلك وفي كانون الأول ١٩٥٩ أنهت شركة الخليج عقدها مع شركة كوبلاند وايكلبرغر، وبينما واصلت أنا العمل مـع بـاقي الزبائن، طلق ايك زوجته ورحل إلى باريس ليستأنف علاقة حب رومانسـية مـع شاعرة فرنسية سبق أن التقى بها خلال الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الثانيـة.

ولم تستخدم شركة الخليج كيم- أيك مرة أخرى، إلا أنني بقيت أرسل التقارير إلى شركة الخليج عبر مكتب كيم في واشنطن. وفي الوقت نفسه واصلت العمل مع الزبائن الخمسة أو الستة الآخرين. وقد مكنني هذا العمل من تجنب مشاكل السيولة المالية والكف عن التظاهر بعلاقاتي الطيبة مع أصدقائي القدامي في لانكلي(*)، رغم أن كيم كان يشير عند تعبيره لتقاريري بأنها قد وردته من مصدر مطلع "على نحو استثنائي".

ومنذ ١٩٦٠ ولغاية موت ناصر ١٩٧٠، ظل اعتباري الكبير لدى شركة الخليج وزبائني الآخرين والمخابرات المركزية وكيم ونفسي، ينبع من علاقتي المستمرة مع أصدقائي في مصر. ففي زحمة مشاكل ١٩٥٨ في لبنان، أرسل زكريا أحد أرفع ضباطه إلى بيروت لإبقاء الاتصال مستمرا معي ومع السفير المصري عبد الحميد غالب، بينما انشغل الزغبي و"مقراته الإقليمية" بتشكيل فريق من المختصين بإخراج الأفلام والدعاية والصوت وصيادلة الطب النفسي ومجموعة من ضباط المتابعة الذين يتحدثون العربية والكردية والأرمنية وباقي اللغات التي تتكلم بها المنطقة. وبينما استمر قادتنا الحكوميون بالتظاهر، وإلقاء اللوم في مشاكل العالم على "الشيوعية الدولية" الخ، واصل خبراؤنا توجيه نقدهم والمحافظة على شكل من التوازن بين الجانبين فيما يعتبر حربا زائفة. ودون الحاجة إلى القول، فقد رفعت تقارير إلى مراكز القيادة حول دعوات الغداء التي أقامها الزغبي وأعضاء فريقه البارزين مع السفير المصري والضابط الذي أرسله زكريا وأنا في منزل فوزي الحص في لب الأحداث في لبنان خلال صيف ١٩٥٨، وذلك ببرقيات دورية روتينية تم التأكيد فيها بأن لا يجري تداول هذه التقارير في المستويات الأعلى من ضباط المكتب.

لهذا كانت المستويات العاملة في الحكومة الأمريكية، تسبح كسمكة أسفل مياه البحر بينما تهيج العواصف فوقه ونخسر معركة بعد أخرى، إلا أنها تستمتع بالنصر

(*) حيث مقر المخابرات المركزية في ولاية فرجينيا. (المترجم)

في الآخر. ظل "فريقي المصري"، كما كان الزغبي يسمي منجـزي المتواضـع، يعمل خلال فترة تأسيس وانهيار الاتحاد مع سوريا المسمى "الجمهوريـة العربيـة المتحدة" وتورط ناصر في اليمن، وانقلاباته الفاشلة في عمان. كما عـانى بـنفس الطريقة "فريق دالاس" من عدد من النكسات التي بدأت بالإطاحة بالحكومة الموالية للغرب في العراق وانتهت بفرض ناصر الحصار على ميناء العقبة وإجبار قـوات الأمم المتحدة على الانسحاب من سيناء. كان ناصر يهاجم دعم الحكومة الأمريكية لإسرائيل وإصرار دالاس على الاهتمام "بالشيوعية الدولية" بينما عليـه الاهتمـام بالقومية المحلية. ونحن الأمريكيين كنا نهاجم اندفاع ناصـر المتسـارع وقضـمه باستمرار لأكبر مما يستطيع هضمه.

وفي بتسبيرغ وجدت الناس، أقل اهتماما بمتى وكيف يتم تنفيذ الانقلابات مـن اهتمامهم بكيفية التعايش مع محيط سياسي غير مرغوب فيه أو مع محاولة فاشـلة للمخابرات المركزية لتغيير هذا المحيط. وفي حديث، ألقيته على مجموعـة مـن المدراء التنفيذيين في شركة الخليج الذين دعاهم رالف رودس، وجدت أن الخشـية من الشيوعية الدولية والقومية المحلية المناوئة للأمريكيين أقل من الخشية مما قـد تفعله إدارة ايزنهاور في معالجة الأمور.

كنت على طول الخط، اضمر مطمح المخابرات المركزية للإجابة عـن هـذا السؤال: كيف يمكننا أن "تهندس" البيئة السياسية في الشرق الأوسط مما قـد يغيـر تماما أولويات العرب والإسرائيليين بحيث تخفف رغباتهم المشتركة فـي الرفـاه الاقتصادي من كراهيتهم المتبادلة وتهديء صراعهم من نقطة الغليان إلى مجـرد خلاف غير مؤذ؟

أشعر بالخجل الآن عندما أنظر إلى التفكير الساذج والبسيط الذي يدعم إيماني بهذه الفكرة (أو بالأحرى، إيماننا بهذه الفكرة، طالما يشترك معي بها صديقي مـن المخابرات الإسرائيلية الموساد)، إلا أن أحداث ١٩٦٦ و١٩٦٧ قد زادت من حـدة خلافهم. فقد كان عام ١٩٦٧، وسيتذكر قرائي المهتمين بالتاريخ، هو عام الحـرب

العربية الإسرائيلية التي غيرت اللعبة والقواعد، ولكن ليست بالطريقة التي كانت تدور في ذهني. وقد لفتت نظري إلى حليف محتمل لم أفكر فيه في السابق إلا وهو الأسرة الملكية في العربية السعودية. ولغاية هذا الوقت لم يكن لدي أي زبون يهتم أكثر من مجرد اهتمام عام في العربية السعودية، وكل ما كنت أعرفه عن الأسرة الملكية هو ما تعلمته من ضباط الزغبي الذين تنافسوا مع ناصر في محاولة كسبها.

من وجهة نظر شركات النفط، فإنهم يفضلون أن تعزل شبه الجزيرة العربية بالكامل مع أسرتها الحاكمة عن الصراع، وهو هدف يتم تحقيقه من خلال جعلهم يشعرون برغد العيش الذي وفرته لهم ممالكهم النفطية. وفي حديث لي مع رالف رودس، وصفت له تشابك وتماثل مصالح جميع ما تسمى بالأسر الملكية في شبه الجزيرة العربية وكيف أن عليهم أن يناوروا مع الجانبين في الصراع المصري- الأمريكي أو أن يبقوا بمعزل عنه. وقد اقتنع وكان من الصعب أكثر إقناعه بحاجتي لزيادة مخصصات المعيشة والإقامة، إلا أنه وبمعونة كيم، تمكنت من ذلك. وقبل كل شيء، لا يستطيع المرء أن يؤثر بأهداف من الطراز الذي أضعه في ذهني دون تنظيم دعوات ترفع الكلفة معهم- وعلي أن أعترف أنني قد وضعت في دعواتي كل أشكال المتع الحسية، إلا أنني لم أكن أتصور أن انغماسهم بها يصل إلى هذا الحد.

لقد فتحت الحرب العربية الإسرائيلية في ١٩٦٧ والأحداث التي قادت إليها والنتائج التي أعقبتها، أبوابا أفضل أن أشرحها بصيغة السرد خشية أن تتصوروا بأني سيئ من الطراز الأول. نعم إنني مؤمن أرسطوطاليسي بفلسفة السعادة(*) (كما دعاني مرة ايك)، إلا أنني كشخص فاسد (كما دعتني ابنتي خلال دراستها في كلية فاسار) فأقول . كلا.

(*) هي فلسفة تقيم القيمة الأخلاقية لأي عمل في ضوء قدرته على تحقيق السعادة الشخصية. (المترجم)

الفصل الحادي والعشرون

عدنان خاشقجي والطريق السريع

جاء "تغير الحظ" كما أخذت أسميه، في بداية أيار ١٩٦٦، عندما حط أمريكي أنيق من أصل سوري يدعى روبرت شاهين في مطار واشنطن الوطني بطائرة مستأجرة، بينما كان ينتظره حشد من الرجال المساعدين الإداريين في مظلة الانتظار وهم على أهبة الاستعداد للانطلاق بالعمل حسب "خطة شاهين" كما ستشرح إليهم بعد قليل. فخلال الأيام القليلة القادمة سيعملون كفريق عمل واحد بناء على أوامره، وسيكون من واجبهم تأمين أن تتم الزيارة المرتقبة لإحدى الشخصيات التي يدعوها "بالشيخ أو الزعيم" إلى واشنطن بصورة طبيعية. (لم يكن الشيخ ، مهما كان، يحب مثل هؤلاء الإداريين بحيث أنه لا يود أن يعرف حتى بوجودهم).

كان يرافق الرجل مرافقون من الانكلو- سكون (WASP) يرتدون (بدلات رصاصية على طراز بدلات اوكسفورد، وقمصاناً بيضاء مع ياقات ذات أزرار وأربطة متناسقة مع البدلة)، بحيث أن المشاهد العابر يرى في لباسهم زيا موحدا، وقد أدوا واجبهم الأول وهو مرافقة شاهين إلى باب سيارة كاديلاك طويلة (مجهزة بالهاتف والتليفزيون والمشرب)، وأركبوه داخلها. بعد ذلك صعدوا قافلة من سيارات الفورد والشيفروليت والبلايموث التي تبعت السيارة الأولى في رتل نحو فندق (هاي ادامز)، على مرمى حجر شمال البيت الأبيض.

وهناك، تمت الإجراءات بطريقة معاكسة. فقد قفز أصغر فرد بالمجموعة وهو مساعد شاهين الشخصي، من سيارته الخاصة وفتح باب الكاديلاك لرئيسه وانطلق خلفه على بعد خطوتين منه بينما كان يتجه نحو المصعد، ومن ثم إلى جناح كبير في طابق الشخصيات المهمة (الخامس). وهناك جلس شاهين خلف مكتب ضخم

ليستخدم في نفس اللحظة جهازي هاتف منصوبين قبل يوم من قبل أحد مســـاعديه. لقد كان يعشق الهواتف.

قام فنيو مكتب التحقيقات الفيدرالي بزرع لاقطات في المبنى في غضون أقــل من ساعة من اتصالي بهم من نيويورك التي كنت فيها قبل مغادرتي إلى واشــنطن في اليوم التالي. كانوا يحبون هذه اللعبة ويلعبونها من وقت لآخر مــع مجموعــة الحماية الخاصة بشاهين في كل من واشنطن ونيويورك. فهم قد يزرعون اللاقطات وقد يجد الاختصاصيون التابعون لشاهين بعضها . وفي المرة القادمـــة، قــد يقــام استعراض جوال مثل هذا في واشنطن ويقوم فنيو مكتب التحقيقات الفيدرالي بزرع لاقطات كانوا يقصدون أن يجدها رجال شاهين، بينما تبقى اللاقطات الأخـــرى - المخفية بإحكام لم يعثر عليها أحدهم. إلا أنه قد يجدها رجال شاهين بعد ذلك، وفي المرة الأخرى التي يجري فيها الاستعراض، قد تتم زراعـــة ثلاثـــة أنـــواع مـــن اللاقطات.

استعداداً لهذه الرحلة الخاصة، قام رجال مكتب التحقيقات الفيـــدرالي بوضـــع لاقطاتهم داخل أجهزة الهواتف باساليب نصب متطورة يمكنها أن تتفادى الكشـــف حتى لو قامت به شركة الهواتف نفسها. جرى ذلك في إحدى زيـــارات شـــاهين إذ كان (جي ادغار هوفر) يريد معرفة كل شيء ليس نتيجة حبـــه للاســـتطلاع عـــن شخصية الشيخ، فحسب بل لأنه كان يشك بكون ضباط المخابرات المكلفين بإبلاغه بكل شيء، لا يقومون بواجباتهم بصورة صحيحة. وقبل كل شيء كانت تعني "حلقة الوصل السعودية" شيئا معينا له يختلف عما تعنيه إلى الأدميرال وليم رابورن مدير المخابرات المركزية.

وحالما انتهت المقدمات الإدارية (وهي تقابل في هذه الاستعراضات، ما يجري في الكواليس قبل أن ترفع الستارة عن فرقة موسيقية شعبية في شارع بـــرودوي)، تكون الخطوة التالية هي ما يسميه بيروقراطيو واشنطن في ذلـــك الوقـــت ١٩٦٦ "بالتنسيق الأوركسترالي" الذي يهيئ عناصر العرض لضمان أن يكـــون الجمهـــور

بحالة ذهنية مستعدة لتقبل الأداء. وهذه أيضا مهمة بوب شاهين ، فهو رجل معد لها سواء من حيث الخبرة أم الشخصية. كان مزيجا دقيقا من الجلافة والسحر فهو يستطيع أن يتغير من السوء المحض إلى المداهنة المكيافيلية بسرعة التيار المتناوب في جهاز كهربائي أو بنفس السرعة المحسوبة التي يقدم بها رجال الشرطة معاملة طيبة أو حسنة مع سجين عنيد حسب الحالة التي بين أيديهم.

توفر "دراسة الهدف" التي تجريها المخابرات المركزية للمرافق التي يستخدمها، مجالا واسعا لتجنيد العملاء من قباطنة اليخوت المترفة التي تجوب المحيطات، وطيارين لأسطول كامل من الطائرات، وطباخين ورؤساء خدم في أحد عشر محل إقامة لديه (في باريس وكان وكينيا وجزر الكناري ومدريد وروما وجدة والرياض وبيروت ومونت كارلو ونيويورك) وأفراد من أسرة الشيخ وممثلين لملوك وأمراء ورؤساء دول ووزراء في مجلس الوزراء ومؤسسات صناعية كبيرة، وخليط من المتزلفين الذين يبحثون عن صدقات إحسان أو يطلبون مشاريع عمل. وكل هؤلاء متخوفون من سطوة وثروة الشيخ بحيث أنهم يبدون بعيدين عن المتناول بالنسبة لموظفي الوكالة إلا أن هناك شيئا خاصا بهذه العروض، ربما يجعلهم قابلين للارتشاء. كان شاهين يثق بهم بصورة مطلقة، إلا أنه لم يكن يعرف أنه والشيخ نفسيهما على "قائمة العملاء المحتملين".

ولنترك شخصيته الكهربائية جانبًا، فإن مقدرة بوب العظيمة والفريدة، هي في ردمه الهوة بين الدقة والحرص الأمريكي وعرف وعادات ذلك الجزء من العالم الذي تعتبر فيه ساعات اليد مجرد رمز للمكانة الاجتماعية بدلا من أن تكون وسيلة لضمان دقة المواعيد. على سبيل المثال، تعتبر "خطة شاهين" لزيارة الشيخ إلى واشنطن في حزيران ١٩٦٦ هي إلى حد كبير الاهتمام بوضع جدول للقاءات ولتكون إطار عمل يكيف الشيخ برنامج حياته الغريب معه، وبعد ذلك يتم ابتكار وسائل تحول دون شعور الأمريكيين بالغضب أو الإحباط أكثر من اللازم نتيجة عدم دعم "عملية تخفيف التوتر".

ومن المعتاد أنه من وقت وصول الموكب إلى مدينة معينة، والذي قـد تمتـد زيارته من يوم لأسبوع فان الذين سيشاهدهم الشيخ يشعرون بقلق شديد. بعد ذلـك يحييهم بابتسامة وضيافة كريمة، فيكونون طوع إرادته. ومنذ المرة الأولـى التـي التقيت بها شاهين وشيخه في ١٩٦٦، استخدم هذا الأسلوب بطريقة فاعلة مع سلسلة من الشخصيات المهمة ابتداء من فرانك سيناترا(*) إلى هنري كيسنجر.

وصلنا الآن إلى زيارة ١٩٦٦ إلى واشنطن، حيث سيتضـح اسـتخدام هـذا الأسلوب بصورة واضحة. الشخصية الرئيسة في "الشبكة" أو على الأقل في برنامج عملها، هو الأدميرال وليم رابورن(**)، مدير المخابرات المركزية وهو خبير فـي مجال "أساليب المراجعة وتقييم البرامج"، والذي أصبح مديرا للوكالة قبل عام. فـي الأسبوع الأول من حزيران ١٩٦٦، جرى "التنسيق الأوركسترالي"، وحان الوقـت لرفع الستارة. كانت واشنطن متلهفة، إلا أنه لا أحد يعرف السبب. كان من المقرر أن يصل الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية في ١٠ حزيران، إلا أنه قلما تنسجم علنية هذه الاستعراضات مع البروتوكول السعودي.

ولمصلحة القراء الذين يعيشون في عالم منعزل خلال العشرين سنة الماضية، أستطيع الآن أن أكشف اسم شيخ بوب شاهين. إنه رجل الأعمال السعودي عـدنان محمد خاشقجي. حتى ذلك الوقت كان في طريقه لأن يعرف بكونه "أغنى رجل في العالم"، رغم أن اسمه في واشنطن لايزال لا يمثل أكثر من مضارب جشـع فـي أوساط المقاولين، ومحسن متزلف للطبقات العليا ومقدم خدمات استشارية سـريعة الربح تستهدف حماية القادمين الجدد الأثرياء من فخاخ واشنطن الشهيرة. ورغـم

(*) فرانك سيناترا أو فرانسيس ألبرت سيناترا (١٢-١٢-١٩١٧/ ١٤-٥-١٩٩٨) مطرب شعبي وممثل سينمائي ولد في هبوكن في نيوجيرسي بالولايات المتحدة الأمريكية، وكان مـن رواد السينما الأوائل وقد حاز على جائزتي أوسكار عام ١٩٤٥ و١٩٥٣. (المترجم)

(**) وليم فرانسيس رابورن (١٩٠٥-١٩٩٠) مدير المخابرات المركزية من ٢٨ نيسان ١٩٦٥ إلى ٣٠ حزيران ١٩٦٦. (المترجم)

حقيقة أن صورته لم تظهر بعد على غلاف مجلة التايم، إلا أن أفراد هذا السلك الأذكياء قد حددوا بأنه مليونير محدث نعمة غير مستقر اجتماعيا ويمكن تملقه لدعم هذه أو تلك القضية الجديرة بالاهتمام. وفي وقت زيارة الملك فيصل، أشار بوب شاهين بشكل صحيح، إلى إمكانية أن يمثل خاشقجي مثل هذا الشخص (أي أجنبي فاحش الثراء يعتبر عبقرية مالية داخل بلاده، إلا أنه في نظر واشنطن مغفل يملك مالاً أكثر مما يملك من عقل) رغم أنه لا يقفز قبل أن يرى موضع قدمه. ألمح شاهين أنه لغرض معرفة الثروات المالية الكبيرة لخاشقجي، فإن الأمر يتطلب أكثر من مجرد تودد ومجاملة اعتيادية.

كانت لدي في ذلك الوقت أسباب أهتم بها أكثر من اهتمامي بالثروات المالية لخاشقجي. كان هذا هو العام العاشر منذ تركي العمل في المخابرات المركزية، وتعلمت الأخيرة أن تنهض بأعبائها بدوني. حتى أن زبائني بدأوا "يفكرون بطريقة سلبية"، كما قال ذلك احد شركائي الصغار. وأخذت المشاكل تتراكم بين تشاد والسودان. رفض أحد الزبائن الذين كانوا ينقبون عن النفط في المنطقة أن يتفهم لماذا يجب عليهم الاهتمام بهذه الأحداث. وظلت البلدان العربية منشغلة بمعضلتها القديمة وهي فيما إذا كان عليهم أن يتحدوا لشن "حرب مقدسة" ضد إسرائيل، أو أن يواصلوا مقاتلة بعضهم البعض. وكانت لدي خطة لضمان أن يختاروا الخيار الأخير، إلا أنه لا المخابرات المركزية ولا زبائني كانوا يتمتعون بخيال كاف لتصور الاحتمالات. علاوة على ذلك، ركب صديقي جمال عبد الناصر، رئيس مصر، الموجة التي ستقدم بالتأكيد للإسرائيليين في غضون عدة أشهر فرصة طالما انتظرتها لتدميره وتدمير ما يدعوه بجيشه. إلا أن انتباه كل من الحكومة الأمريكية وزبائني منصرف تماما إلى مشاكل بريطانيا في روديسيا والمشاكل الأخرى في أفريقيا بحيث أنه لا يمكنهم أن يشغلوا أنفسهم بغيرها. لم أكن خبيثا لكي أتمنى أن تحصل كارثة كبيرة لتعيد لهم وعيهم وتجعلهم يعربون عن شيء من التقدير لخدماتي، إلا أن هذه الفكرة خطرت بالفعل على بالي.

في هذه الفترة قدم عدنان خاشقجي، "الذي أعطاه أحد ضباط العمليات التابعين للمخابرات المركزية اسما مشفرا هو "ديناستي أو الأسرة الحاكمة"، تقريــرا بـــالغ السرية يشير إلى حتمية حصول حرب مصرية- إسرائيلية، يكون فيها المصريون هم الخاسرين. ويوصي التقرير أن يتبنى السعوديون في الحال موقفــا إزاء بـــاقي البلدان العربية يمكن أن يبرر لها فيما بعد ترفعها عن المشاحنات وعواقبها. كل هذا جاء في سياق تقرير عام كتبه خاشقجي نفسه بالعربية ورئيس أركانه بوب شاهين بالإنكليزية، والذي عبر عن حقيقة أن العربية السعودية قد أصبحت مصدراً حيويــا للطاقة أكثر بكثير مما يدركه العالم. وفي نفس الوقت أصبحت أكبر مركز حســاس للدفاعات الغربية، الاقتصادية منها والعسكرية. لم تفلح النسخة المهربة من التقرير والتي وصلت وزارتي الخارجية والدفاع في أن تترك أي أثر، إلا أنها خلقت نوعا من القلق داخل المخابرات المركزية، الذي جرى تخفيفه بواسطة الخطاب المرفــق معها من قبل رئيس محطة المخابرات المركزية الجديد في جدة الذي يــؤمن بــأن "الانتهازية التجارية" وليست "الوطنية المحضة" هي الدافع وراء هذا التقرير.

لم تكن مثل هذه التفاصيل ذات أهمية بالنسبة لي، إلا أن اهتمامي الأكبر كــان بالوصول الوشيك لعدنان خاشقجي إلى واشنطن برفقة الملك فيصل. مــن الممكــن على الأقل تصور أن أهدافه والزخم القادم به، مهما كانت الدوافع التي تقف وراءها تنسجم مع أهدافي، وتنقذني من النهاية التي كانت في ذلك الوقت تهدد جميع ضباط المخابرات المركزية السابقين الذين يعتقدون أنهم يستطيعون أن ينــدفعوا بالعمــل لوحدهم دون المباركة المستمرة من لدن أولئك الذين تركوهم خلفهم. لهذا قــررت البحث عنه.

في الصباح الذي عدت فيه إلى واشنطن من نيويورك، أخذت سيارة الليموزين الخاصة بالفندق وانطلقت إلى مقر المخابرات المركزية في لانكلي بفرجينيا حيــث سمح لي بالمرور أمام الحراس الأمنيين ثم إلى داخل المبنى بفضل مكالمة هاتفيــة إلى المدير الأدميرال رابورن. كان رابورن "الأحمر" ضابط بحرية ذكيًــا ولطيفًــا

يعتبر خبيرا في الصواريخ الموجهة إلا أن الشؤون الدولية وباقي اهتمامات الأجهزة الاستخبارية خارج ميدان اختصاصه. وفي الوقت الذي أصبحت فيه منبوذا من معظم أعضاء الهيئات العليا في الوكالة، جعلت نفسي ضيفا مرحبا به في مكتب الأدميرال وذلك لإثباتي له أنني من ذلك الطراز من الأشخاص الذين يمكنه أن يطرح عليهم بأمان أسئلة لا يتجرأ أن يطرحها على أعضاء هيئة أركانه. كان ذكيا عندما يتحدث عن الصواريخ الموجهة (وقد كان مشروع صاروخ بولاري Polaris من بنات أفكاره)، إلا أنه كان جاهلا عندما يصل الحديث إلى اهتمامات وكالة المخابرات.

وفي أحد اجتماعات هيئة أركانه، عبر عن دهشته لتقرير كان يوصي بعدة طرق يمكن للمخابرات المركزية فيها أن تستغل الصراع الصيني-السوفيتي حيث لم يكن يعلم بوجود هذا الصراع. وعندما سأل فيما إذا كان هناك أي "دليل مادي" يثبت ذلك، ضجت القاعة بالضحك، وقرر في ذلك الوقت والمكان بألا يسأل من الآن فصاعداً أسئلة قد تبدو غبية للمتزلفين الخبراء الذين يكنون رغبة أكيدة في أخذ منصبه. كان السؤال الذي طرحه علي خلال هذه الزيارة الخاصة هو: "من هو عدنان خاشقجي، وماذا يريد؟".

يبدو أن هذا السؤال هو الذي أدخلني إلى لانكلي. كان عدنان خلال ١٩٦٦ معروفا من قبل مكتب نائب المدير لشؤون التخطيط، ذلك الجزء من الوكالة الذي يتعامل مع العمليات السرية، إلا أنه بالنسبة لباقي المديريات والهيئات العليا في المؤسسة، فانه مجرد الكاتب الغامض لما يسمى بتقارير (ديناستي)، ولم يكن يعرف باسمه الحقيقي. كانت هذه التقارير، التي تعطي أهمية استراتيجية إلى شبه الجزيرة العربية والخليج العربي، تنم عن اطلاع واسع وإبداع كبير وبصيرة نافذة بحيث كان المحللون في وحدة التحليل والبحث يشكون بأنها قد كتبت من قبل عبقرية معينة خلف الكواليس في إحدى شركات النفط الكبرى وأخذت طريقها إلى الوكالة عن طريق المخابرات السعودية المشكلة حديثا لتقدم على أنها عمل المخابرات نفسها.

والحقيقة، أن هذه التقارير من عمل عدنان خاشقجي نفسه، أعدها بمساعدة طاقم المحامين والاقتصاديين والعلماء السياسيين التابعين له الذي بز المخابرات في الحجم والكفاءة. وهكذا خلق سؤال الأدميرال شعورا لديّ بان يكون اسم خاشقجي قد اخذ يظهر إلى السطح بصورة بارزة.

إلا أنه من جانب آخر ربما يكون سؤاله مجرد فضول عن زيارة عدنان المرتقبة إلى واشنطن والتي لها صلة كما هو في الواقع بالزيارة الرسمية للملك فيصل. وقد سمعت في مكان ما أنه بصدد عقد صفقات تجارية مع بعض أثرياء تكساس. وكان رابورن الأحمر من تكساس. وكذلك الرئيس جونسن، لهذا ربما يكون الرئيس نفسه هو الذي طلب ذلك من رابورن- مباشرة ودون المرور بالقنوات الاعتيادية. نتيجة فضول أحد أصدقائه من أثرياء تكساس لمعرفة عدنان، أخبرت الأدميرال بمعلوماتي القليلة عنه، إلا أنني أضفت إليها استنتاجاتي التي توصلت إليها عبر سنين من مراقبة خاشقجي. أعجب الأدميرال بما قدمته، وطلب من سكرتيرته الاتصال بقسم الأرشيف وإبلاغهم بموافقته على السماح لي بتصفح الأضابير، وقال: "عندما تنتهي أريدك أن تعطيني إيجازًا خاصًا".

كان أول عمل لي في قسم الأرشيف هو استدراج رئيس القسم ليفشي لي بأنه قد جرت توًا عملية مراجعة شاملة لملفات خاشقجي من قبل أحد ضباط المخابرات الكبار والنشطاء والأكفاء، الذي علمت أنه جرى إغراؤه لترك الوكالة والعمل لدى مجموعة مالية في نيويورك تدفع له على الأقل ضعف ما كان يتقاضاه كموظف مدني. لم أكن أعرف هذا الضابط جيدا، إلا أنني سمعت أنه لا يفوت مثل هذه الفرص. ومن السهل تخمين طبيعة مصلحته من خاشقحي. وعندما كنت أمضي الصباح جالسا في مكتبي أحتسي القهوة وأقرأ الملفات التي جلبها الي مساعد رئيس القسم، حاولت أن أنظر إلى المعلومات كضابط تحقيق، وأتصور كيف يمكنه أن يقدمها إلى رابورن الأحمر عندما يحين الوقت لربط المواد التي كتبها (ديناستي) مع الزيارة المرتقبة لفيصل.

تشير بطاقة المعلومات الخاصة بـ"خاشقجي، عدنان- أم" إلى أنه "رجل أعمال سعودي شاب، مؤيد متحمس للأمريكيين، يعمل كوكيل للعديد من المصنعين الأمريكيين". إلا أنه "يعتقد أن كل مبيعاته تعود لاستراتيجية ناجحة ابتكرها هو وصديقه الحميم وزير الدفاع السعوي سمو الأمير سلطان". وقد أشارت الإضبارة نفسها إلى أنه من مواليد ٢٥ تموز ١٩٣٥، وابن لطبيب الملك، الدكتور محمد خالد خاشقجي، وقد شعر والده بألم كبير لرؤية ابنه يختلط مع أبناء وأبناء أخ الملك المفضلين. ومن الواضح أن عدنان قد عاش وسط الأسرة الحاكمة السعودية، وعلى وفق تقرير موجز عن شخصيته كتبها مدير محطة المخابرات المركزية في الرياض، يقول أنه من طراز الأشخاص الذين يعرفون أن يستفيدوا جيدا من وجودهم وسط الأسرة الملكية.

ويشير ما مدون في سجل أعماله التجارية في ذلك الوقت إلى إنجازات مثيرة للإعجاب. كانت الحكومة السعودية في ذلك الوقت تعطي أي طالب سعودي يدرس في الخارج ألف دولار- أو بحدود ذلك لشراء سيارة. وعندما كان عدنان طالبا في جامعة شيكاغو، بكاليفورنيا، أخذ مبلغ سيارته واستثمره. وقد بحث عن بعض شركات الأعمال الأمريكية التي ترغب ببيع منتجاتها في الدول المصدرة للنفط في الشرق الأوسط، وقدم نفسه إليها على أنه خبير ثنائي اللغة في احتياجات العربية السعودية وأنه يرتبط بعلاقة جيدة مع الأسرة الملكية. سمع مدراء المبيعات في الشركات الأمريكية ما يكفي عن الرخاء النفطي ما جعلهم يدركون أن هناك فائضا كبيرا من الأموال في تلك المنطقة، إلا أنهم يجهلون على نحو خطير دولاً كالعربية السعودية والكويت ودول الخليج.. الخ، والكثير منهم يجهلون الطبيعة الثقافية للمنطقة- كان عدنان يقوم بالدور نفسه الذي أديته أنا باستثناء أن الأمر مقلوب. فقد كان عربيا يفهم الأمريكيين، بينما كنت أنا أمريكيًا أفهم العرب. كانت هذه النقطة وحدها كافية لتحويل اهتمامي إلى اهتمام جدي به، خاصة أنه قد صنع ثروة أكثر مما صنعت.

إلا أن معظم المواد الواردة في ملف "خاشقجي، عدنان. أم" كانت تتسم بالنبرة الازدرائية من حيث أسلوبها ومحتواها. كان هناك تقرير "قصير عن سيرته الذاتية يبدو أن كاتبه هو الذي وضع فقراته في بطاقة الفهرست ثم هناك عدد من المذكرات ذات الصفحة الواحدة ثم قصاصات من الصحف التي يظهر فيها عـــدنان "الداهيـــة البارع" و"صانع الصفقات"، والشخص الذي "يفتح الأبواب" ثم يأخذ نسبته عن عملية انتقال المال من يد إلى يد أخرى دون أن يتحمل أية مسؤولية عن النتائج. كانـــت المادة الأكثر إثارة هي التقرير الثاقب البصيرة الذي كتبه موريس درابر عندما كان سكرتيرا ثالثا ونائبا للقنصل في السفارة الأمريكية بالرياض في أواسط الخمسينيات وكان عدنان قد بدأ لتوه مسيرة عمله التجاري ،

وأخمن أن ما جعل شخصا أو أكثر من المخـــابرات المركزيـــة أن يركـــزوا اهتمامهم عليه، هو ما دعاه درابر في تحليله باصطلاح "الواقعية الأصيلة" ويعنـــي فيه أن عدنان يقبل بصورة فريدة من نوعها بين العرب، بالشـــراكة الأمريكيـــة- الإسرائيلية على أنها شيء محتوم بحيث إنه من غيـــر المجـــدي معارضـــة هـــذه الشراكة، ويدرك أنه إذا لم تجد العربية السعودية طريقة للتعايش معها، فسوف لـــن تكون هناك شراكة سعودية – أمريكية من اللازم أن تبقى حية.

لهذا ماذا كانت تفعل هذه الشخصية المتألقة في واشنطن؟ هل أنه جاء ليعبـــد الطريق أمام الملك فيصل، وإذا كان كذلك، لماذا عدنان؟ لماذا ليس السفير السعودي أو أي فرد آخر من ذوي التعليم الأمريكي من الحاشية الملكية؟ ولماذا هذا الاهتمام من جانب المخابرات المركزية (تدقيق الملفات من قبل مسؤول رفيـــع المســـتوى، وملازمة ضابط القضية في المخابرات المركزية لبوب شاهين بينما كان ينظم محل إقامة خاشقجي الخاص في فندق هاي ادامز) إذا كان مدير المخـــابرات المركزيـــة نفسه لا يعلم شيئا عنه؟ من المؤكد أن هذا المدعو (ديناستي) لا يعتبـــر شخصـــية اعتيادية يمكن متابعتها على المستوى الأوسط في الوكالة، وحتى لو كان كذلك، من الممكن أن يتضمن جدول الأعمال اليومي لمدير المخابرات تذكيرا بحضور هـــذه

الشخصية إلى واشنطن. إلا أن هذا لم يكن. لقد بدأت هذه الأفكار تتكون لدي خلال زيارتي إلى المدير نفسه.

وقد اخترت الطريق المباشر. واتضح أن الجواب في غاية البساطة، لا أعرف لماذا لم أفكر فيه. كان عدنان خاشقجي يقوم بمهمة تجنيد!! والرجل الذي قرأت سيرته في ملفات قسم الأرشيف هو عنزة يهوذا الاسخريوطي(*). فخاشقجي رجل أعمال ناجح وتاجر بارع، إلا أنه يعوزه التنظيم وتجرفه صفقاته بعيدا، بحيث إنه يعجز عن متابعتها وعن توفير الراحة لنفسه، وكذلك لا يستطيع أن يشعر بالاطمئنان في تحديده للمشاريع الجديدة واتخاذ القرارات الصائبة حول مدى نجاحها. كان يحتاج إلى "وكالة مخابرات مركزية شخصية"، إلى فريق من الرجال والنساء رفيعي المستوى الذين أثبتوا كفاءتهم وحرصهم على "استطلاع الطريق"، كما قال هو عندما التقيت به في الآخر، ويتمتعون بتفكير واسع وموضوعي يؤهلهم لفهم ما يشاهدونه. أين يمكن أن يجد مثل هؤلاء في مكان غير المخابرات المركزية؟

"الطريق المباشر" الذي اخترته هو بوب شاهين، الذي زودني بخلاصة حية عنه ضابط المخابرات المركزية الذي يتابعه. إلا أن شاهين قد سبقني، فقبل أن أتصل به، اتصل بي.

تلقيت مكالمة منه يطلب مني حضور غداء مع خاشقجي في الساعة الثانية بعد الظهر من اليوم التالي أو بالأحرى أبلغني أن الموعد الذي لم أطلبه قد تم تحديده على أن يكون في غداء اليوم التالي. كان على المائدة ثورنتن التكساسي رئيس مجلس إدارة شركة صناعات ليتون، وكاليه ليفنغستون مدير فرع ويستركس التابع لشركة ليتون، وهاري كيرن الذي يصدر رسالة إخبارية رصينة لشركات النفط تعرف باسم "التقارير الخارجية"، والجنرال مالكولم ويبر من وزارة الدفاع، وجيم كرجفيلد، رئيس قسم العلاقات التجارية في وكالة المخابرات المركزية.

(*) يهوذا الاسخريوطي هو الذي وشى بالسيد المسيح وأدت وشايته إلى صلبه. (المترجم)

ابتدأ الحديث في دعوة الغداء بكلمة لعدنان أسال بها لعـــاب ضـــيوفه وذلـــك بإلقائه بعض التلميحات إلى حجم المبالغ الضخمة التي سينفقها السـعوديون علـــى المشاريع العسكرية خلال السنوات القليلة القادمة. بعد ذلك سأل الأسئلة المعتادة عن دعم الحكومة الأمريكية لإسرائيل. ولدت الأسئلة تلك الإجابات التي يمكن توقعهـــا من رجال أعمال أمريكيين كبار ويريدون ترك الانطباع المناسب لدى هذا السعودي الذي ربما يكون له دور في حصولهم على حصة من نزيف المال هذا الذي ذكره. بعد ذلك فاجأهم عدنان وقال : رغم أن الملك فيصل لا يمكنه الاعتراف بذلك علنا، إلا أنه ليست لديه مشاعر معينة إزاء إسرائيل. على أية حال، لا توجد لديـــه هـــذه المشاعر التي يمكن أن تدفعه لاتخاذ إجراء معـــين. وإن هـــذا المـــال الـــذي بـــدأ السعوديون يكدسونه في خزائنهم بشكل عوائد نفطية سينفق على مشاريع ســـتمكنهم من أن "يعيشوا ويتركوا الآخرين يعيشون". أعترف أن بعض المال السعودي سوف يدفع إلى السوريين ومجاميع المقاومة الفلسطينية، ولكن هذا فقط بنفس الطريقة التي يدفع بها أصحاب المتاجر "أموالا للحماية" في المناطق التي تكـــون فيهـــا حمايـــة الشرطة غير كافية، إلا أن هذا الدعم يمكن أن يتوقف إذا ما توافرت حماية الشرطة.

لهذا فإن اهتمام الملك فيصل الحالي، كما أفصح عـــدنان، هـــو فـــي "حمايـــة الشرطة". وهو اهتمام يشاركه فيه عدنان. لقد ساعد الأخير صديقه الأمير سلطان، وزير الدفاع السعودي في وضـع "نظام دفاعي" لضمان أن تكون "أهم بقعـــة أرض في العالم" مصدر معظم تجهيزات الطاقة لأوروبا الغربية، آمنة من أي هجوم مـــن أي اتجاه. لا يريد السعوديون مجرد شراء أسلحة ولا يريد عدنان أن يصبح "تاجر أسلحة دوليًا". إن السعوديين سوف يشترون الأسلحة كمقاول يشتري مواد بناء ليبني بيتًا". وباختصار، سيكون كل ما يفعله السعوديون بأموالهم من الآن مبنيًا على وفق خطط مدروسة جيدًا.

هناك فقرة أخرى ذكرها عدنان خلال المأدبة، التي يبدو أنني الوحيد الذي نظر إليها بجدية- على أية حال لم يرد أي ذكر لها في المذكرة التي كتبها جيم كرجفيلد إلى المخابرات المركزية. فقد أكد لنا أن كل ما قاله يدخل ضمن الإطـــار الفكـــري

الذي يدور في ذهن الملك فيصل وأنه قد تحدث بها بالتفصيل كون حديثه مع الرئيس جونسون قد يكون مقيدا بالشكليات الرسمية. مع ذلك فإنه تحدث في هذه الفقرة نيابة عن نفسه. قال إنه وأبناء بلده لديهم ثقة تامة بأننا نحن الأمريكيين سنصل طبيعيا إلى القمة، مهما تكن أخطاؤنا، وإننا على صواب في النظر إلى الشؤون الدولية من حيث أن الدول الأخرى يجب أن تكيف مواقفها معنا لا أن نكيف مواقفنا معهم. إلا أن هناك خطرًا يلوح أمامنا ألا وهو احتمال سقوطنا.

قال : لا تنس أن العرب هم ليسوا أعداء إسرائيل الوحيدين، انظر إلى الشارع وسترى المتطرفين المسلمين. إنني مسلم وأعرف ذلك. أستطيع أن أحس به". واستمر يقول إن الثورة الإسلامية في طريقها للاندلاع وهي قد تثير ملايين الناس الميالين إلى العنف الذين هم نائمون حاليا وليست لهم أهمية سياسية، وزعماء هذه الثورة سيكونون أشخاصًا لا يمكن شراؤهم برزم الإعانات الاعتيادية. واختتم حديثه قائلا إن السعوديين في طريقهم إلى الثورة ولهذا فإنهم مستعدون للتعاون مع أي جهد أمريكي لمنع نشوبها. ومع هذا التفكير في ذهنه، أمر شركته Triad أن توظف مجموعة بحثية في كاليفورنيا لتضع مخططا "لمشروع مارشال" شرق أوسطي يبدأ من ليبيا ويمتد إلى إيران وتدخل إسرائيل من ضمنه ويتم تمويله من الممالك النفطية.

بدأت زيارة الملك فيصل إلى الولايات المتحدة التي استمرت من ٢٠ إلى ٣٠ حزيران ١٩٦٦، رسميا باجتماع مع الرئيس جونسون حيث قال فيه الرئيس : "قامت العربية السعودية تحت قيادة جلالتكم الرشيدة بخطوات عظيمة إلى الأمام- كالطرق والأشغال العامة والخدمات الصحية ومدارس جديدة، وفرص تعليم إضافية، وأشياء أخرى عديدة. وهذه دلالة بيّنة على جهودكم الفاعلة في مجال التنمية". أجاب الملك: "يا أنت مجنون يا أنا مجنون".(*) والتي تعني تقريبا حسب

(*) أوردها المؤلف هكذا ولكن بحروف لاتينية. (المترجم)

قول مترجمه الرسمي، "نعم، نحن نعتقد أيضا أن بلادكم عظيمة". وقد استمرت باقي أيام الزيارة على نفس المستوى الرفيع، بعد ذلك انتقل الوفد الملكي إلى نيويورك حيث تجاهل حاكم الولاية لندسي، الملك. إلا أنه دعي إلى مائدة غداء أعدها عدنان خاشقجي، وحضرها عشرون من الصناعيين الأمريكيين البارزين وكان هذا هو أفضل فقرة في الزيارة التي استمرت عشرة أيام. وبسبب تحدثه من خلال مترجم، لم يكن الملك واضحا تماما كما كان عدنان قبل يومين في واشنطن، أو أن يوضح شيئا معينا بصورة كافية ومباشرة. إلا أنه قال ما يريده، وفي الوقت الذي دارت فيه السكائر والقهوة، يمكن القول أن طبقة رجال الأعمال الأمريكيين أخذت تستعد لتوجيه نشاطها صوب العربية السعودية وباقي البلدان المنتجة للنفط في الشرق الأوسط. لم أكن حاضرا هناك. إلا أنه بعد يوم تلقيت مكالمات من قبل اثنين من زبائني وابلغوني بمدى تأثرهم بالموضوع، وأنهم يأملون أن أبقى على اتصال بهذه الشخصية حتى لو كان مجرد تاجر أسلحة عادي من الطراز القديم ويحاول أن يظهر بمظهر رجل دولة.

لا أحتاج إلى أي إلحاح. بل حتى إنني كنت أكثر رغبة عندما أعطاني بوب شاهين في اليوم التالي بطاقة سفر بالطائرة إلى القاهرة عن طريق باريس حيث عوض بها عن البطاقة التي يفترض أن يعطيني إياها ضابط القضية في المخابرات المركزية في اليوم التالي. راجعت المخابرات المركزية لتدقيق كون التغيير لا اعتراض عليه. بعد ذلك هيأت أموري للسفر إلى باريس بعد أيام قليلة. كانت الكلمات الوحيدة التي قالها لي ضابط القضية خلال الإيجاز: "لا تتحدث، أصغ فقط. وعندما تصل إلى القاهرة، لا تذكر لقاءاتك مع خاشقجي. إذا ما أراد أصدقاؤك المصريون معرفة أسباب توقفك في باريس. قل لهم إن لديك صديقة هناك". (وأقول هنا للتوثيق إن هذا كان قبل شهر واحد من عيد ميلادي الثالث والخمسين إنها صديقة حقا!!).

غادر عدنان باريس مع الملك فيصل في ٢٩ أو ٣٠ حزيران، وصلت أنا هناك بعد أيام قليلة لتستقبلني في المطار إحدى سياراته المرسيدس وتأخذني إلى فندق جورج الخامس (منتجعي القديم المفضل)، حيث حجز لي بوب شاهين جناحا واسعا مزينا بالزهور المرسلة من مكتب خاشقجي وبالفواكه المرسلة من قبل مارسيل، الذي يبدو أنه لايزال هو المدير. وبعد قيلولة طويلة بعد الظهر وحمام، أقلتني سيارة خاشقجي إلى نادي راسبوتين، وهو ناد ليلي يملكه روسي أبيض في شارع فرعي بجانب شارع الشانزليزيه حيث أجريت أول لقاء لي وجها لوجه مع عدنان. وأرجو من القراء الذين يقرأون مقالات صحيفة (الصنداي) حول طراز حياة عدنان المترفة أن يعذروني لأني سوف امتنع عن ذكر التفاصيل وأقول فقط إن هذا الاجتماع، الذي لم يتم مناقشة أي مشاريع تجارية فيه، قد أرسى أسس علاقة بين (مايلز وعدنان) استمرت أكثر من عشرين عاما من العمل التجاري والحفلات وكل نشاط سياسي من صنف خاص.

جاءت الحفلات والمشاريع التجارية في السنوات اللاحقة بينما بدأنا في النشاط السياسي صباح اليوم التالي عندما زرت عدنان في مكاتبه المؤثثة حديثا في جادة ماتكنن، وكان يرافقني فتى عصبي المزاج يرتدي نظارات سميكة من محطة باريس وبعد أن تركنا ننتظر لمدة ساعة تقريبا. ظهر عدنان في ملابس حريرية وتفوح منه عطور دلّكه بها للتوّ مدلّك يوناني ومدلّكة سويدية. كان يبدو كنسخة عادية من الممثل الذي مثل شخصيته بعد سنوات في فيلم القرصان، باستثناء أنه هنا يشيع جو رجل ذي سلطان بخلاف ما ظهر في قصة هوليود الرومانسية. قلت لنفسي أنه يعرض الآن المظاهر الخاصة من الحياة المزدوجة التي اختارها لنفسه.

وقد كرر عدنان ما قاله في واشنطن حول وجهات نظر الحكومة الأمريكية بخصوص الشرق الأوسط، كما يفهمها، وأهميتها لاقتصاد العالم الحر برمته. وقد تركت أحاديث غير رسمية مع بعض المسؤولين الحكوميين الأمريكيين غير المعلومين انطباعا لدى عدنان بأن الحكومة الأمريكية لا تهتم بالوضع كما ينبغي.

وقد توصل إلى استنتاج بأن العربية السعودية ونفطها ستكون هدفًا مغريًا لا يمكـــن مقاومته بالنسبة لبعض الدول العدوة. وستكون أي واحدة منها أو جميعها مســـتعدة لانتهاز أية فرصة. وسرعان ما تقدم الفرصة نفسها، قال عـــدنان : "لقــد وضـــع صديقك ناصر نفسه في زاوية حرجة". فماذا تعتقد؟

كان علي أن أوافق. فلأسباب يعرفها ناصر جيدا، فقد أنهى هو بقصد سلســـلة نجاحاته بقيامه بإجراء معين كان عليه أن يدرسه قبل أن يقوم به. إن اللوم في هذا الإجراء يجب أن يلقى، ويؤلمني قول ذلك، على صديقي العزيز زكريا محيي الدين، وهو أكبر مسؤول يعمل بضمير حي في مصر، رغم أنه، وآسف لقول ذلك، لاعب غير مبال. قبل سنة من لقائي بعدنان في باريس، أقنع زكريا وبـــاقي الملازمـــين ناصرًا أن عليه أن يواجه الحقيقة وهي أن (٨٠٪) من الخبز الذي تستهلكه المراكز الحضرية في مصر يأتي من الحنطة الأمريكية، وأن ما مجموعـــه ١٠٠ مليـــون دولار من العملة الصعبة التي تحتاجها مصر لبرنامجها التنموي يمكن أن تاتي فقط من مؤسسات مالية تكون فيها الولايات المتحدة المساهم الرئيس. لهذا وفي تشـــرين الأول ١٩٦٥، عين ناصر، زكريا رئيسًا للوزراء. ووضع زكريا برنامجا أطلـــق عليه "مصر أولاً"، أعلن فيه أنه إذا كان على مصر أن تتولى زمام القيادة في العالم العربي أو التجمع الأفرو آسيوي أو أي كان، فإنها يجب أن تبدأ ذلك من خـــلال أن تكون هي القدوة. يجب أن تكون لديها حكومة أكثر كفاءة، أو يجب أن تستفيد أكثر من ثرواتها الاقتصادية، وأن تقدم الكثير لشعبها. وفي أولى خطواته، اعترف زكريا علنا أن مصر في ضائقة اقتصادية، ووضع إجراءات تقشفية صارمة- وقد فوجئ ناصر لأنه رأى أن شعبية الحكومة قد ازدادت بعد هذه الإجراءات. أقنع ناصر بأن يتوصل إلى اتفاق مع الملك فيصل حول اليمن وأن يسحب القوات المصرية من تلك البلاد. وعلى صعيد العلاقات الدولية، اتخذ سلسلة من الإجراءات الغاية منها تسوية جميع مشاكل مصر مع جيرانها حتى المشاكل الصغيرة منها. وكما قلت فيما بعـــد: "لن تكون إجراءاته مختلفة فيما لو راجعها ودققها على وفق قائمة إجراءات تضعها السفارة الأمريكية".

ولكن ما الذي حصل؟ قام السفير الأمريكي وهو رجل وسيم وخفيف الوزن يدعى لوسيوس باتل بزيارة مجاملة إلى زكريا عندما تولى لأول مرة منصب رئيس الوزراء، ثم قام بزيارة أو زيارتين أخريين له في ظروف رسمية لا يمكنه فيها سوى تبادل الأحاديث الاعتيادية. في نفس الوقت، أجرى مسؤولون كبار من السفارة الأمريكية نقاشات مستفيضة حول الشؤون الدولية كفيتنام واليمن والسياسات الأفريقية والآسيوية وغيرها، مع ممثلي الرئاسة ووزارة الخارجية المصرية، وبذلك فندوا فكرة أن الولايات المتحدة مهتمة بمصر لمجرد أنها مصر، وأعادوا تشكيل قناعة ناصر بأن واشنطن تهتم بمصر بقدر ما يكون فيه تأثير مصر في الشؤون الدولية، أخبرت عدنان: "لقد تم تذكير ناصر أن العجلات التي تصرّ أكثر هي التي تحصل على الشحم".

أوضحت له أن العربية السعودية قد أدت دورها في استغلال "ضعف زكريا": فبعد أن سحبت مصر قواتها من اليمن، وبدأت تبدي عجزها وعدم رغبتها في المقاومة، عمل الملك فيصل باقتراح وكالة المخابرات المركزية في السعي لبذل الجهود لتشكيل تحالف إسلامي "لوقف الشيوعية" (وبالطبع لوقف ناصر)، وكانت النتيجة المتوقعة أن ناصر قد أعاد القوات المصرية إلى اليمن وأعاد فتح النزاع. لم يكن هذا خبرا مثيرا بالنسبة إلى عدنان لأنه سبق أن أشار على الملك بعدم الموافقة على هذا "المثال الخاص" من التعاون مع المخابرات المركزية. وهو يعرف أفضل مني ما هي الخطوات التي يحتمل أن يتخذها ناصر منذ هذا الوقت وصعودًا. تلقينا عدنان وأنا بشكل منفصل زيارات من أصدقائنا الشخصيين في المخابرات المركزية لأداء خدمة خاصة لهم. وبصفتنا "مواطنين يتمتعون بخبرة مناسبة" (وهي عبارة تستخدمها المخابرات المركزية كثيرا للإشارة إلى صنف خاص مهم من المصادر الاستخبارية)، علينا أن نعقد لقاءات رسمية ولكن سرية لتبادل الآراء حول الأزمات البارزة في الشرق الأوسط ونتوصل إلى مقترحات يود البيروقراطيون التافهون أن يكونوا هم أصحابها ولكن ليس باستطاعتهم.

التقينا أنا وعدنان وجهًا لوجه. قال "دعنا نحتفظ بهدوئنا"، وعلينا أن نحضـــر تقييما أوليا للموقف الحالي لأنه عندما يكون مكتوبا، فانه سيفتح شهيتهم لأي شـــيء آخر يمكن أن نقوله. ستعتمد الفترة الزمنية والفوائد التي يمكن أن نجنيها من هـــذا التعاون في المستقبل على قوة هذه الشهية والقدرة على مقاومتها.

وقال: "إذا لم يكن باستطاعتنا تغيير القواعد، فعلينا أن نغير اللعبة.. ما رأيـــك بالتسابق لخير الجميع؟" كانت فلسفته الخاصة، كما أوضحها لي قبل ليلة عندما كنا في نادي راسبوتين الليلي عندما كانت الساعة متأخرة وأصبح الحديث حميمًا هـــي: "عندما يكسب عدنان ، يكسب الجميع". كانت هذه هي وجهة نظره التي أراد بها أن يواجه الأمريكيون والسعوديون العالم معًا.

قلت له عندما ودعته: "عدنان: ماذا تريد أنت حقا؟"

ابتسم وقال: فقط أجمع المال وأستمتع به، وأرضى عن نفسي.

- "وماذا يستدعي لكي ترضى عن نفسك؟"

- " هذا السؤال هو الذي أتمنى أن نجيب عنه معا"

إن النوايا الطيبة لعدنان تذكرني بشيء قاله أحد أصـــدقائي مـــن المخـــابرات الإسرائيلية قبل شهر فقط وهو "عندما يريد شخصان أو فئتان أو أمّتان الشيء ذاته، بينما يستطيع واحد منهما الحصول عليه، فإن الصراع سيكون محتما". هذا شـــيء من الحكمة كان على عدنان أن يتعلمه.

الفصل الثاني والعشرون

نقطة اللاعودة لناصر

وصلت إلى القاهرة قادما من باريس حيث وجدت برنامج زكريا "مصر أولاً" لم يمت بعد ولكن يحتضر، وعلى وشك أن يقتل معه أكبر قصة مثيرة رأيتها في حياتي السابقة واللاحقة. في آخر جهد لزكريا لدفع رئيسه لتبني برنامج "مصر أولاً"، طلب من رجل الدولة ورجل المال الأمريكي الشهير "الشريف بوب" اندرسن أن يختار جماعة من أصحاب الملايين الأمريكيين الذين يعتبرون أصدقاء شخصيين للرئيس جونسن ويستقدمهم لمصر. لنر ماذا كان يريد أن يفعل؟ كان يأمل من خلالهم إثارة اهتمام الرئيس جونسون في "العجلة التي تحاول التوقف عن صريرها"، كما قال ذلك فيما بعد اندرسن إلى الرئيس جونسون. قبلت الفكرة، وفي الربع الأول من ١٩٦٧ اصطحب محمد حبيب الموظف في السفارة المصرية في واشنطن عددا من أثرياء تكساس إلى مصر حيث التقوا بناصر وافتتنوا به وأخذوا انطباعا جيدا عن الاقتصاد المصري نقلوه إلى الرئيس جونسون. كانت الزيارة ناجحة، ولكن من أجل أن يستمر هذا الانطباع الحسن، على زكريا أن يخفض أعداد الجيش وان يسرح الموظفين الحكوميين الفائضين، وان يعيد الصناعات المؤممة إلى أيد كفؤة من القطاع الخاص. ولغاية هذا الوقت كان الشعب المصري قد تقبل الإجراءات التقشفية على أنها واجبهم الوطني ولكن بعد زيارة مجموعة حبيب-اندرسن، بدأ زكريا وكأنه يطلب من الشعب تضحيات أكثر من اللازم مقابل زيادة المعونة الأمريكية لمصر.

وهكذا أصبح لدى موظفي السفارة الأمريكية شيء يمكنهم الاهتمام به: وهو استياء الجماهير المتفاقم" وكانت النتيجة أنه لم يكن هناك في واشنطن تأييد واسع

لبرامج زكريا المؤيدة لأمريكا فحسب، بل وتعاطف أيضا، يمكن للإسرائيليين، كما نعرف أن يتعاملوا مع الأعداء إلا أنهم لا يحبون المنافسة. ومنذ اللحظة التـي رأوا فيها المشاعر المؤيدة لزكريا في واشنطن، حكم على حكومة ناصر بالفشل.

حصلت بعدها سلسلة من الأحداث تناولها الكتّاب بطـرق مختلفـة بـاختلاف مشاربهم. لا يحتاج الناس حاليا إلى كتابة المزيد عنها. ولكن وبهدف فهـم سلسـلة الوقائع اللاحقة للعبة تعتبر الرواية التي قبلتها المخابرات المركزية هـي الأكثـر أهمية. عندما تنظر إلى تاريخ هذه الوقائع، نرى أن الإسرائيليين قد تفوقـوا علـى اللاعب الكبير جمال عبد الناصر تفوقا كاسحا حيث استدرجوه إلى فخ بعد آخـر، وهزموه هزيمة منكرة بعد دخوله هذه الفخاخ. مع ذلك، حظـي نتيجـة التجربـة المروعة التي مر بها بشعبية أكبر من السابق وتحولت الهزيمة إلى نصر مـؤزر- ولكنه نصر يخدم أهدافهم أكثر مما يخدم أهدافه.

تبدأ الحكاية التي جرى تبسيطها كثيرا فـي دورات التـدريب التـي تقيمهـا المخابرات المركزية، بخطأ زكريا. يبدو أن الخطوة الأولى كانت تقريـرا سـربه الإسرائيليون إلى السفير المصري في بروكسل يتناول تصريحا أعلنــه المنـدوب الأمريكي في أحد اجتماعات حلف الناتو. وحسبما ورد في هـذا التقريـر أعلـن المندوب أن محاولات حكومته "للعمل مع العرب" في وضع خطـط للـدفاع عـن الشرق الأوسط قد وصلت حدها، ملقيا اللوم في "الفشل في التعاون" على تخريـب ناصر لها، والدعاية المضادة للأمريكيين التي تنطلق عبر راديو القاهرة، وصـداقة مصر الآخذة في التطور مع الاتحاد السوفيتي، واختتم التقرير بالتأكيـد علـى أن الولايات المتحدة بدأت تضع خططا في الدفاع عن مصالحها في الشـرق الأوسـط مستندة على تركيا وإسرائيل.

تلا ذلك قيام إسرائيل بعدد من الغارات الحدودية على وفق قاعـدة "اضـرب واهرب" داخل سوريا والأردن، يدعي الإسرائيليون أنها تأتي "كرد عقابي" علـى

الغارات الفلسطينية داخل إسرائيل. وبما أنه ليس هناك ما يؤكد وجـود نشـاطات فلسطينية غير اعتيادية في هذا الوقت، رأى ناصر أن سلوك إسرائيل هذا ما هو إلا جزء من مخطط تشكيل محور إسرائيلي-تركي. (لا تسألوني أن أوضح التـرابط. كل ما أعرفه، كما أوضحه لي حسن التهامي في ذلك الوقت، أنه رأى مثـل هـذا الترابط أقنعني أن ناصر أيضا قد رأى مثل ذلك). وفي الآخر، عندما دمرت غارة إسرائيلية قرية سورية بكاملها هي قرية سامو، ادعى الإسرائيليون علنا أن هـدف الغارة هو ليس مجرد العقاب بل تدمير قاعدة يقوم السوريون ببنائها لشن هجمـات تخريبية وفدائية شاملة داخل إسرائيل ويديرها الجيش السوري النظامي. وبعد هجوم مماثل على قرية سورية أخرى، تحدث رئيس الوزراء الإسرائيلي، إشكول، فـذكر بأن الأسطول السادس الأمريكي يقف على مقربة من إسرائيل في البحر المتوسـط استعدادا للتدخل في الصراع لمؤازرة إسرائيل إذا ما قرر السوريون أن الوقت قـد حان لشن حرب حاسمة ضدهم. (وسرعان ما وقع السوريون في الفـخ وأعلنـوا بوسائل مختلفة نعم أن الوقت قد حان لمثل هذه الحرب).

كان هناك تصعيد إثر آخر مصحوب ببرنامج متقن من التضليل الـذي كـان باتجاهين: أولاً دفع ناصر للاعتقاد أن هناك هجوما إسرائيليا شاملا وشـيكا علـى سوريا، وهو يهدف إلى بيان أن مصر عاجزة عن الدفاع عن سوريا. وجعل العالم يرى الأمور بطريقة مغايرة، أي أن يرى أن ناصر يستعد لمهاجمة إسرائيل. ثم بعد ذلك جاءت أكبر خطوة ماكرة، فمن خلال برقيات عسكرية لاسلكية مشـفرة كـان الإسرائيليون يعرفون أن السوفيت يسترقونها ويفكون شفرتها، نقـل الإسـرائيليون انطباعا بأنهم يخادعون فقط. بعد ذلك، نصح السوفيت ناصر، كمـا كـان يـدرك الإسرائيليون جيدا أنهم سيفعلون ذلك، إنه يستطيع أن يقدم باطمئنان عرضا مثيـرا للقوة يثبت فيه مرة أخرى لأنصاره العرب أنه بطلهم وحاميهم.

وفي حالة من التشوش الشديد (وأظن أن ناصر كان يرى نفسه فيها منتصراً)، قرر أن أرخص وأسهل "عرض للقوة" يمكن أن يقدمه هو أن يطلب سحب قـوات

الأمم المتحدة من الحدود المصرية الإسرائيلية على البحر الأحمر لتحل محلها قوات مصرية. لتحقيق هذا، كان يكفي تقديم الطلب، إلا أنه ولدهشة الجميع بمـــن فـــيهم ناصر، رحب الأمين العام للأمم المتحدة يوثانت بذلك. وهكذا شعر ناصر أنه ملزم بالسير قدما في قراره وأنه لا يستطيع أن يتنازل عنه دون فقدان ماء وجهه، لهـــذا سار قدما في الخطوة الوحيدة التي اتخذها وأغلق مضـــايق تيـــران. وبهـــذا منـــع الإسرائيليين من الوصول إلى مينائهم الوحيد ايلات. وما جعل الأمور أكثر سوءا، أن هذه الإجراءات قد حظيت باستحسان باقي الدول العربية خاصة سوريا وشـــعر ناصر أنه مضطر لإلقاء ذلك النوع من الخطابات التي يلقيها أي زعيم عربي يمر بمثل هذه الظروف. تضمن خطابه عبارات مثل: "إننا الآن مســـتعدون لمواجهـــة إسرائيل.." "إننا الآن مستعدون لحل القضية الفلسطينية مرة واحدة وإلـــى الأبـــد.." "سوف نختار نحن الزمان والمكان وسوف لن نتركها للإسرائيليين ليختاروا.." كانت عباراته تتسم بالاندفاع الذي أصيب به الجمهور العربي وكذلك أصيب به الزعماء الإسرائيليون الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الفرصة.

وبالنسبة إلى ما حدث لاحقا سأتحدث من خلال تجربتي الشخصية. فقبل يومين من انتهاز الإسرائيليين لهذه الفرصة التي قدمت إليهم بطبق من فضة، أخبر وزير الخارجية المصري الموظف في السفارة الأمريكية ريتشارد باركر أن ناصر يعني بالضبط ما قاله، وأن حكومتنا ستفعل خيرًا لو بحثت عن وسائل "لتهدئة الموقـــف". وفي صباح اليوم التالي، قمت بزيارة زكريا محيي الدين وأنا فـــي طريقـــي إلـــى بيروت لأسمع نفس الكلمات إلا أنني أبلغت أن الجو فـــي الليـــل كـــان مشـــحونا بالبرقيات المتبادلة بين القاهرة وواشنطن وكانت نتيجتها أن الولايات المتحدة ستبذل جهودا حثيثة لإحلال السلام، وأن زكريا، نائب الرئيس والشخص الثاني في مصر سيلتقي بنائب الرئيس همفري في بارجة أمريكية في البحـــر المتوســـط. وهنـــاك سيتوصل الاثنان إلى اتفاق معين، أي اتفاق ، يمكن أن يجعل مصر تذعن للـــرأي

العام العالمي، ولغرض المحافظة على السلام، تسحب قواتها من المنطقة الحاجزة. بعد ذلك يدعو ناصر بسماحة صدر قوات الأمم المتحدة لتعود إلى مواقعها.

قال زكريا: "سيكون الأمر بهذه الصورة".

قلت له : "زكريا يفترض أنني في الظهيرة أستقل الطائرة إلى بيروت، إلا أن رحلة إلى لندن ستغادر في نفس الوقت- وبعد سماعي لما قلته فإنني سأستقل الرحلة الأخيرة. سأرحل إلى أبعد ما أستطيع عن الشرق الأوسط. سيكون الإسرائيليون حمقى لو لم يستغلوا الفرصة التي قدمها إليهم ناصر. لقد كانوا ينتظرونها منذ سنين وهم يعرفون أنهم سوف لن يحصلوا على مثلها مطلقا. وقد فعلت كما قلت. وبينما كان زكريا يحزم حقائبه على أمل لقاء نائب الرئيس همفري. ضرب الإسرائيليون ضربتهم. ويالها من ضربة ! لقد ضربوا مصر وسوريا والأردن في نفس الوقت، ودمروا القوات الجوية لهذه الدول، وقتلوا آلافاً من جنودها (بينما خسروا هم أقل من سبعمائة قتيل) واستولوا على أجزاء من أراضيها لاتزال حتى الآن بأيديهم (باستثناء سيناء التي استعيدت فيما بعد بموجب اتفاقية مع خليفة ناصر، أنور السادات).

وانتهى ناصر، أليس كذلك؟ الجواب كلا، ففي مساء يوم ٩ حزيران وبعد يوم من قبول ناصر وقف إطلاق النار، ذهب إلى راديو القاهرة، وألقى خطاب اعتراف بمسؤوليته عما جرى. جعل البلاد برمتها تنتحب وأعلن استقالته. ودون أن يناقش ذلك مسبقا مع أي من وزرائه، أعلن أن زكريا محيي الدين هو الرئيس الجديد. لم أصل إلى القاهرة إلا في اليوم التالي، إلا أنه قد قيل لي إنه عندما كان الخطاب يدوي في مكبرات الصوت، توقفت جميع السيارات في المدينة، وتسمر جميع المشاة على جانبي الطريق، وخرست الموسيقى الشعبية التي كانت تصدح في المقاهي، وباستثناء مكبرات الصوت، فإنك تستطيع أن تسمع صوت الإبرة. وعندما انتهى الخطاب، فتحت أبواب جهنم، فأخذت أبواق السيارات تنعق، والناس الواقفون في صفوف على الباصات ينتحبون ويرددون عاليا "جمال، جمال"، وأخذ الناس الذين

كانوا يسيرون على الأرصفة فرادى وجماعات يتجمعون ليشكلوا زحاماً بل وحشوداً غفيرة.

أخبرني حسن التهامي، الذي كان في هذا الوقت في منزل ناصر مع زكريا وآخرين، عندما اقلني من المطار أن المشهد هناك أشبه بالهرج الذي يمكن أن أتخيله في محلات بيع الحيوانات الأليفة من وقت لآخر. لم يخبر ناصر في ذلك الوقت أي صديق أو رفيق، ولا حتى عبد الحكيم عامر أو هيكل، ماذا كان ينوي أن يقول في خطابه، رغم الترتيبات المحكمة التي تم إجراؤها لنصب مكبرات الصوت وضبط حركة حشود الجماهير. وبعد ساعات عندما حاول مسؤول حكومي كان يراقب من بعيد كزكريا أن يشق طريقة عبر الزحام أمام منزل ناصر تمزقت ملابسه قبل أن يصل. وطيلة هذا اليوم واليوم الذي تلاه، تدفقت البرقيات من جميع أنحاء العالم العربي تحث ناصر على البقاء في الحكم "والثأر لهذا اليوم". وبرضا كل من العرب وإسرائيل (التي كانت تريد ناصر العدو وليس زكريا المعتدل)، قبل ناصر "إرادة الشعب".

كان هذا بالنسبة لي درسا لا ينسى، وقد توصلت إلى الفكرة العامة له من خلال التقارير الصحفية والإذاعية التي حصلت عليها في لندن. فبعد وصولي إلى القاهرة في ١٠ حزيران، علمت من حسن أثناء مرافقته إياي من المطار أن أمتعتي قد جرى نقلها من شقتي على نهر النيل الصغير إلى جناح في الطابق العاشر من فندق هيلتون، وهو مكان جميل أمضيت فيه السنتين اللاحقتين. أمضيت اليومين التاليين أتحدث مع بعض الأصدقاء المصريين الذين أستطيع الوصول إليهم (ليس زكريا من ضمنهم مع الآسف، حيث كان مختفيا خشية تقلب الحظوظ ويتم العثور عليه وتنصيبه رئيسا للجمهورية)، والأصدقاء الآخرين الباقين في السفارة والعديد من رجال الصحافة البريطانيين والأمريكيين الذين كانوا يزدحمون في حانة فندق هيلتون. أمضيت يومين في كتابة تقرير لبعض زبائني ثم طرت إلى باريس للقاء عدنان ثم إلى واشنطن حيث علمت أن أصدقائي في المخابرات المركزية قد تابعوا

الأحداث منذ البداية ، إلا أنهم كانوا يرون أفضل مني أن "إشارات زكريا المؤيدة للأمريكيين" لم تؤخذ على محمل الجد من قبل وزارة الخارجية والبيت الأبيض. بل ربما أنهم قد خططوا لإخراج هذه السلسلة من الأحداث إذ كانوا يرون أن زكريا "لا يلعب لعبا نظيفا" كما أخبرني أحدهم بذلك.

وبعد أسبوعين عدت إلى القاهرة، حيث وجدت أن أصدقائي المصريين قد وعوا الدرس جيدا أيضا، واعتكف عبد الحكيم عامر رئيس أركان الجيش المصري وصديق ناصر المقرب في منزله يلعق جراحه ويدخن الحشيش، واستقال زكريا مرة أخرى من منصبه كرئيس للوزراء ليعود إلى مزرعته في المحلة الكبرى يجني المانجو، وحل هيكل محل عامر كصديق لناصر وموضع ثقته. ومنذ ذلك الوقت، ظل وضع هيكل كوسيط ومصلح للعلاقات بين ناصر وما تبقى من أعضاء في السفارة الأمريكية- حيث قطعت العلاقات الدبلوماسية وتحولت إلى شعبة رعاية المصالح الأمريكية في السفارة السويسرية- ومنذ ذلك الوقت كانت جميع زياراتي إلى ناصر تتم برفقة هيكل، حيث تركني مرافقي الاعتيادي حسن التهامي، مؤقتا. خلال لقائنا الأول بعد الحرب، استقبلني ناصر بحرارة، خاصة عندما قلت إنني أعتقد أنه من الممكن لمصر أن تواصل علاقاتها القائمة على المصالح المشتركة مع الغرب وذلك عن طريق إقامة علاقات جيدة مع مؤسسات الأعمال الأمريكية غير السياسية والعملية، في الوقت الذي يمكنه أن يختار أية طريقة يعتقد أنها ضرورية للتعامل مع ما يعتبره "مصالح سياسية أمريكية".

ودون أن يوضح كيف وأين ومتى ، قال إنه قد سمع لتوه نفس هذه الكلمات من صديقنا المشترك "الشريف بوب" اندرسن. قلت له نعم إنني سمعت نفس هذه الكلمات من رجل أعمال سعودي (أقصد به عدنان خاشقجي) الذي كان يعتقد أن إقامة علاقات خلف الكواليس قائمة على المصالح المشتركة، هو أمر ممكن. كانت حصيلة هذا الاجتماع مراجعة شاملة لعملي الاستشاري. ففي اليوم التالي، التقيت بجيم فاندربيك رئيس فرع مصر من شركة انديانا للنفط القياسي، وعينني

مستشارا وفق اتفاق تدفع لي بموجبه الشركة أجرًا ممتازًا وأجور الإقامة في فندق هيلتون النيل. بعد ذلك ذهبت إلى بيروت وتعاقدت مع عدة شركات منها مصنع ومصمم معروف محليًا للحواسيب والآلات المكتبية، وشركة مقاولات كبرى، وشركة تطور وتبيع المعدات الالكترونية المتقدمة. ووعدتهم جميعا بمعاملة خاصة في مصر وبوضع عدنان في ذهني، في السعودية أيضا.

يمكنني أن أقطع وعودا أكبر من ذلك. تلقى عملي في كتابة التقارير إلى الزبائن دفعه قوية إلى الأمام، وذلك ليس من خلال تنبئي بحرب الأيام الستة فحسب، كما أصبحت تسمى فيما بعد، بل وبنتيجتها أيضا، والآثار التي ستتركها على مصالحهم المختلفة. ونتيجة ذلك إذا ما قبلوا العواقب وأصبحوا مستعدين لإشاعة الأمل والنوايا الطيبة عند زيارتهم القاهرة بعدما ينتهي كل شيء. والحقيقة أنني قد استفدت من هذه الدفعة القوية في التعجيل بمحاولتي التي بدأتها لتأسيس "مخابرات مركزية خاصة" وذلك باستخدام اتفاقات سرية مع شخصيات ذكية سياسيا من الشركات العميلة لي. كانت الخطوط العريضة لخدماتي هي الآتي:

١- في حالة كل زبون على انفراد، ستكون الغاية هي تزويد المكتب الرئيس بالمعلومات المطلوبة لاتخاذ قرارات صائبة حول فيما إذا كان بإمكانه الاستمرار في العمل أم لا من حيث تحقيقه للأرباح وسلامة موظفيه، في البلدان التي توجد استثمارات له فيها.

٢- في جميع الحالات، يمكننا الحصول على المعلومات في بلد معين (وليس حول بلد معين) باستخدام وسائل تعتبر علنية وصريحة.

٣- سيكون مصدرنا الرئيس للمعلومات (وليس مجرد معلومات خام، أو أقاويل أو إشاعات.. الخ)، الآراء والتقديرات المدروسة لأعضاء الشركة. فنحن نقابل على نحو منظم جميع موظفي الشركات العميلة الذين نعتقد أنهم على اطلاع وقادرون على تفسير الأحداث المحلية في ضوء الثقافة السائدة.

٤- وفي الآخر، أقنعت زبائني الكبار (خاصة، الشركات النفطية)، بان يعينوا في مكاتبهم المختصة بالعلاقات الحكومية أفرادا يتحدثون لغتين ويكونون قادرين على انتزاع المعلومات ذات الطبيعة العامة من الشرطة والأجهزة الأمنية، والذين لابد لهم أن يبقوا على علاقة طيبة معها لهذا الغرض- جاءت أهمية عملي من حقيقة أنني أستلم المعلومات من جميع مكاتب العلاقات الحكومية، ثم احللها، وبعدها أعيدها بتقارير منفصلة متفقة مع حاجات كل زبون على انفراد.

٥- وبمرور الزمن، أصبح عملي الذي يغطي كل المنطقة معروفا بصورة عامة (لم أغلفه بأي طابع من السرية). فقد أخذت مكاتب العلاقات الحكومية ومكاتبي في كل من بيروت والقاهرة تستقبل كل أصناف تجار الإشاعات وبائعي المعلومات، ومحامي القضايا الخاصة، وهواة المؤامرات- وفيهم بالطبع نسبة معينة من مثيري الفتن المتواطئين مع السفارات (سفارتنا من ضمنها) ومع السلطات المحلية. لقد اتبعنا القاعدة القديمة للمحلل الاستخباري وهي: لا تستفسر عما يقال، بل استفسر لماذا يقال. ربما تكون كل هذه "مادة خام من مستوى رديء"، إلا أن حصيلة الحقائق، وأنصاف الحقائق والكذب من اجل خدمة الذات تجتمع لتشكل ألغازًا متشابكة معقدة تكون أساسًا لفهمنا.

إنني مدين بنجاحي الذي حققته إلى التسامح في النقاش وإلى مهارة معينة في مساعدة زبائني في تكييف وضعهم على ضوئه عن طريق عزل أنفسهم عن سياسات حكومتنا في الوقت الذي لا يتبرأون منها. يجب أن يكون المستشار السياسي بارعا في فهم وقياس مدى صدق المشاعر المناوئة للأمريكيين. في نفس الوقت يقاوم إغراء التعاطف معها. وعليكم أن تتذكروا أن الكراهية التي يشعر بها الكثير من الأجانب ضدنا قد تكون حقيقية، إلا أنهم مع ذلك يتبنون موضاتنا ويشاهدون أفلامنا ويستمعون إلى موسيقانا، ويعجبون بنا سرا كمنتصرين. أن الأمريكي الذي يصبح "مواطنا محليا" إلى درجة قيامه بانتقاد حكومته، لا يستفيد سوى أن يجعل من نفسه أحمق. إن الأفراد ذوي الثقافات الأخرى يحبون الأمريكيين الذين يحبونهم ،

إلا أنهم لا يثقون مطلقا بمن ينزل إلى (أو يحاول الارتفاع إلى) مســتواهم . وقــد ذهب اركي روزفلت، الذي كان أستاذا في التوافق مع الشعوب ذات الثقافة الأخرى، بعيدا جدا إلى حد التحدث بلهجة عربية بغيضة لمراعاة هذه القاعدة.

في الفترة التي أعقبت حرب الأيام الستة بدأت أرى كيف أن المعرفة المطلوبة لتنفيذ عمليات نشاط سياسي سري ناجح تعتبر أمرا ضروريا في مجال واسع مــن النشاطات التي تقوم بها حكومة معينة إزاء حكومة أخرى خارج النطاق الاعتيادي لفن الحكم والدبلوماسية التقليدية. منذ أواخر الستينات وحتى "آخــر" تقاعــد لــي، اشتركت في حوالي عشرة أو أكثر منها. لقد جعلت عدة حكومات تنفذ اتفاقيات مع زبائني سبق أن نقضتها، وقمت من خلال مفاوضات مهمة بحل أزمات ناتجة عــن سوء فهم سياسي (أو في بعض الحالات عن فهم صحيح)، إلى درجة أنني كنــت أتابع أخطاء الحكومة الأمريكية على الصعيد الدولي (في معظم الأحوال بموافقــة ضمنية بل وحتى بمساعدة سرية من قبل المخابرات المركزية)، من أجــل وضــع صيغة تمكن الشركات العميلة لي من الحصول على عقود مربحــة أو الاســتمرار بأعمالهم وفق عقود سبق أن وقعوها. كان عدنان مصدر فائدة عظيمة بالنسبة لي. لقد جلب بشكل غير مقصود أحيانا وعادة على نقيض نواياه الحقيقية الكثيــر مــن الأموال إلى خزائن كوبلاند. ففي الكثير من البلدان بما فيها زائير وليبيــا وإيــران وإندونيسيا وأنغولا والسودان والباكستان كان يهيئ لنا فرصا للاغتناء بعد أن تصل الأمور إلى مرحلة بعيدة عما مخطط له. أي أننا كنا نتعاون- وعادة ما يكون أحدنا فقط هو الذي يدرك قيام هذا التعاون.

خلال السنوات اللاحقة لحرب ١٩٦٧، كنت أرى عدنان فقــط فــي ظــروف اجتماعية مخملية يصعب أن تقود إلى أحاديث جدية- مثل كــان ومونــت كــارلو وباريس وبيروت- إلا أنه كانت لدينا أحاديث كافية من هذا النوع سبق أن ذكــرت عدة فقرات منها تساعدني في تتبع نشاطاته. بعد ذلك وفــي بدايــة عــام ١٩٧٠، مررت بسلسلة من التجارب أعادتني إلى الاتصال به ثانية. على ســبيل المثــال،

قررت شركة المقاولات التي كانت إحدى زبائني التوقف عن دفع أجري الشـــهري وتعويضي عن ذلك بدفع نسبة مئوية من قيمة العقود التي ساعدتهم في الحصـــول عليها. في البداية عرضوا علي مشروعا في الكويت هو في الحقيقة عرض فاشل، متصورين أنني يمكن أن أنقذه من الفشل وذلك بوضعه بإطار سياسي". ما هو شكل الإطار السياسي الذي يدور في أذهانهم؟ لاشيء تركوا الأمر لـــي لأبتكـــر شـــيئا مناسبا، طالما أن هذا الشيء يفترض أن يكون هو مجال تخصصي. إذا ما أفلحـــت فإنهم سيدفعون لي (٢٪) من القيمة الإجمالية للعقد.

كانوا لا يعرفون في ذلك الوقت مبلغ القيمة الإجمالية طالما أن اتفاقنا يشير إلى أنه حالما يتم الحصول على عقد "مشروع" المقاولات، فإن العقد الأول سيقود حتما إلى العقود الأخرى، وان علينا أن نعيد التفاوض حول النسبة المئوية عندما تظهـــر العقود الأخرى. كان ممثلو الشركة يرون أنه من الأفضل لهم أن يحصـــلوا علـــى مشروع عمل صغير نسبيا طالما أنه يخلق فرصا مفعمة بالتفاؤل حول الحصـــول على عقود أخرى فيما بعد. وبشكل مؤقت، كان مبلغ المشروع الذي ينبغي أن أعيد التفاوض بشأن النسبة المئوية هو مليوني دولار، وتبلغ نسبته ٢٪ منه عشرين ألف دولار.

وهكذا ذهبت إلى الكويت وعدت بعد أن توصلت إلى اتفاقية مبدأية على عقـــد بقيمة مائة مليون دولار، اكسبني مليوني دولار. علاوة على ذلك، عنـــدما ذهـــب محامو الشركة إلى الكويت لإنهاء التفاصيل، لم تكن هناك أية مساومات مطلقـــا، لهذا لا يستطيعون الادعاء بأنني لم أنجز المشروع وأنني لا أستحق كل العمولة.

ولكن لنكن أكثر عقلانية. لا يستطيع أي فرد أن يكسب مليـــوني دولار فـــي غضون عمل أسبوع واحد ، ليس شخصا مثلي على أية حال . أدركت ذلك حتى لو لم تفعل الشركة شيئا. لهذا بعد أن عاد المحامون من الكويت بالأنباء السارة، التقيت بهم في باريس مع مديريهم التنفيذيين الذين جاءوا من كاليفورنيا للاحتفال بالصفقة،

وبعد مفاوضات لأقل من ساعة، اتفقت معهم على أن يدفعوا لي مائة وعشرين ألف دولار مع أجور استشارية بمبلغ عشرين ألف دولار سنويا طيلة مدة العقد البالغــة أربع سنوات، حيث حصلت على مبلغ إجمالي قدره مائتــا ألــف دولار أي عشــر المبلغ المتفق عليه قانونا. هذا بالطبع إضافة إلى الشمبانيا والتربيتة على الظهر في ذلك الوقت مع الكثير من الاماني الطيبة للمستقبل. لم أتذمر وكنت سعيدا بالصفقة.

والآن دعونا نعود إلى عدنان. فبعد حرب ١٩٦٧ مباشرة وقع عقدا مع شركة لوكهيد تدفع له بموجبه ٢٪ كعمولة عن أي طائرة هيركليس تباع إلــى الحكومــة السعودية. ولكن لحصول عملية بيع تتلوها أخرى، أوضح عدنان لمــدراء شــركة لوكهيد أن الحكومة السعودية لا تجمع فقط مواد حديدية، بل إنهــا تبنــي "نظامــا دفاعيا"، يعتبر عدنان عنصرا مؤثرا في تصميمه. وهكذا تم رفع نسبته المئوية من ٢٪ إلى ١٥٪ وازدادت المبيعات من مائة مليون دولار إلى بليون دولار أو أكثــر، حيث وفرت لعدنان عمولة تبلغ أكثر من مائة مليون دولار.

ولكن لنكن أكثر عقلانية. لا أحد يستحق أن يكسب، كما ادعــى فيمــا بعــد السناتور جيرج مائة مليون دولار في رمية نرد واحدة. إلا أن عدنان تشبث بعمولته ونالها. إضافة إلى ذلك، وبعملية بيع مشابهة عقدها مع شركة نــورتروب افيشــن، منافسة لوكهيد، حصل على مائة مليون دولار أخرى، تلتها عمليات بيع لشــركات متعددة أخرى أكسبته عمولات تقدر بأربعين أو خمسين مليون دولار لكل صــفقة. وكما ترون، لم يكن عدنان ذكيا بما فيه الكفاية ليدرك أن عليــه أن يكــون "أكثــر عقلانية"، كما كنت أنا. عندما ناقشنا الصفقتين في حفلة عيد ميلاده في موناكو في ١٩٧٠، قهقه عاليا حول فائدة أن يكون المرء "أحمق قليلا" ، ونصحني بأن الوقت ليس متأخراً على توكيل محام. في حالته، وعندما ألمحت لوكهيد بأنها ســوف لــن تدفع له، أبلغهم بأنه سيذهب إلى أبعد مدى قانوني ليحصل على ما يستحقه وأنهم إذا ما اعترضوا سيجدون أنفسهم في لعبة "صراع الديكة" ضد خصــم مصــر علــى

الإفلاس، إلا أنني عندما أخذت بنصيحته وبحثت عن مشورة قانونية، لم أجد أي محام مقتنع جديا بقضيتي.

بعد ذلك وفي ١٩٧٤، عملت مع تاجر مصرفي لندني واستأجر لي شقة في واشنطن لمراقبة ما يجري من آثار في أعقاب فضيحة ووترغيت، لأرى فيما إذا كان بالإمكان تحديد اللحظة الدقيقة التي سيستقيل فيها نكسون كي يعرف متى يمكنه أن يشتري أو يبيع الذهب والدولار في الأسواق العالمية. وبعملية مماثلة لما قمت به في تقديم المشورة إلى شركة النفط العميلة لي حول فيما إذا كان سيتم فتح قناة السويس أم لا، قدمت إليه تخمينا دقيقا عن موعد تقديم الرئيس لبيانه الختامي بحيث جاء التخمين في نفس اليوم بالضبط، وقد دفع لي عميلي أجوري بسرور. وقد رفع ابني الأكبر، ثروة الأسرة بتحويله بعض المال الذي أعطيه له من الدولار إلى الباوند الاسترليني أو بالعكس لهذا أشار علي أن أبقى في الجناح الذي حجزته في برج واردمان من اجل مراقبة التطورات السياسية الرسمية التي قد توفر لنا فرصا مماثلة في المستقبل ودفع لي النفقات الأساسية لفتح مفكرة أدون فيها التطورات السياسية اليومية وأخرى لتدوين الارتفاع والهبوط في أسواق المال والذهب ومقارنتها كي يمكن له أو لي من استخلاص السبب والنتيجة.

بعد ذلك عقدت اتفاقية استشارية مع أحد زبائني السابقين من شركات النفط التي كانت تدفع لي مالاً يكفي لتغطية مصاريفي الإدارية. لهذا كنت على مقربة من مراكز صنع القرار عندما بدأ ضمير الأمة يستيقظ في إعقاب حرب فيتنام. لم يؤد انتهاء إدارة نيكسون إلى شيء سوى إثارة شهية ما يسمى "بالصحفيين المحققين" الذين أخذوا يعملون باتجاه المخابرات المركزية والشركات متعددة الجنسيات والأفراد والمجموعات المختلفة التي تتبنى مفهوم الوطنية بمعناه التقليدي. لم تستفد المخابرات السوفيتية، لأسباب معينة، من الشيوعية التقليدية كما كنت موجودة في أمريكا في الثلاثينات، كما استفادت من حركة المعادين لمناوأة الشيوعية الذين

يفضلون مغفلي اليمين ويكرهون القلة الذكية المتعلمة التي قد يأخذ الـرأي العـام بآرائها. وقد كان هؤلاء المعادون من صنف "الحمقى المفيدين" للمخابرات السوفيتية.

وقبل يوم من تسريحه، مر علي جيم انكلتون ليعرض رزمة مـن ترجمـات بعض وثائق الكرملين زوده بها عملاء الموساد. حتى لـو كـان هنـاك تحريـف إسرائيلي بالتزوير لبعض المراسلات المتبادلة بين موسكو وواشـنطن فـإن هـذه الوثائق أوضحت بطريقة مقنعة أن عمليات الهجوم التي يخطط لها السوفيت ليست لها أية علاقة مهما كانت بالدفاعات التي يخطط لها قادتنا العسكريون الكبار. قـال انكلتون إنه ناقش محتويات هذه الوثائق مع لاجئ سوفيتي قال إنه بعـد أن أخـذت حرب فيتنام تتحدر إلى الأسوأ، شخصت وحدة المخابرات السوفيتية التي يعمل بها المذكور الشعور الأمريكي بالذنب. وعلى وفق توصـية هـذه الوحـدة، قـررت المخابرات السوفيتية إلقاء كل ثقل ماكينتها في الحرب النفسية وراء الجهود لإشعالها ليس عن طريق ضخ مواد عبر قنواتها الدعائية بل باختلاق أحداث في كافة أنحاء العالم، من المؤكد أن العناصر اليسارية في وسائل إعلامنا ستلتقطها وتحرفها. وقد سمى اللاجئ بلدانا كتشيلي والفليبين وكوريا الجنوبية وزائير علـى أنهـا أهـداف خاصة، ليس لأنـها شريرة سواء في أعين السوفيت أو أعيننا، كما قـال، بـل لأن الأحداث التي سيتم اختلاقها ستشكل "صورة تليفزيونية مثيرة". فهي ستشد الانتباه وتروع الرأي العام الأمريكي وتكون خبرا لا يمكن أن تتغافل عنه وسائل الإعلام.

إلا أن المخابرات السوفيتية قد وجدت شؤونا داخل الولايات المتحـدة نفسـها يمكن استغلالها والاستفادة منها أكثر. ففي السبعينات، حتى المجاميع البسيطة التي تتبنى "قضية واحدة" كمناصري الإجهاض والمناوئين له، يمكن أن تكون ذات قيمة عالية للاستراتيجية السوفيتية طالما أنها تستنفد طاقاتها في حرب داخليـة، حيـث تضع كل جماعة قضيتها الخاصة فوق المصلحة الوطنية العامة. وتعتبر الأقليـات العرقية ذات أهمية خاصة فالأمريكيون اليونان يعارضون بشدة أي خطة دفاعية قد يضعها البنتاغون وتتضمن تعاونا مع الأتراك. والأمريكيون اليهود يقوضـون أي

تحسن في العلاقات الأمريكية العربية، والأمريكيون العرب يعارضـون أي خطـة لتأمين إمداداتنا من نفط الشرق الأوسط قد تتضمن تعاونا مع إسرائيل. إن مجموع هذه الضغوط مضافة إلى ما يعتبر مدمرا منها، يشكل تحديا لأمننا القـومي أكثـر تأثيرا مما يمكن للسوفيت أن يحققوه بأنفسهم. إن المخططين الاستراتيجيين السوفيت يريدون أمريكا بلدا يجب أن يحصل زعماؤه السياسيون ويحظوا بدعم ليس (٥١٪) من جمهور ناخبيهم المختلفين بل (٢٥٪) منقسمة إلى أجزاء، كل جـزء هـو ٢٪ زائدا ١٪ ينتظر اللحظة المناسبة التي يمكن أن تميل فيها الانتخابات لصالح الطرف الذي يدفع أكثر. إن ما يسر السوفيت هو أن ننشغل "بلعبتنا المحلية" التـي تتنـافس فيها المجموعات المختلفة من أجل مصالحها الخاصة بطريقة تنعكس على نشاطاتنا على المسرح الدولي. كان ذلك خلال الفترة التي أمضيتها في برج واردمان، أراقب بلادي كمحترف للمرة الأولى في غضون عشرين عاما، حيث بـدأت أرى قادتهـا مقيدين بشؤونهم المحلية ولا يستطيعون أن يتوصـلوا لوضـع "سياسـة خارجيـة استثنائية" يؤيدها الحزبان وتخدم رفاه الأمة بمجملها بصورة أفضل.

لا أريد من قرائي أن يتصوروا بأنني أمضيت وقتي في الجناح ببرج واردمان أفكر فقط بأمور جدية واجري محادثات جدية. ليس الأمر كـذلك، ففـي الشـؤون البسيطة العابثة، أعانتني وحرضتني على الإثم الجميلة فيرونيك رودمان، أمينة سر هنري كيسنجر السابقة. فعندما كانت تعمل لديه، وقعت في غرام صـديقه القـديم ومساعده بيتر رودمان، وعندما اقترب يوم زفافهما، بدا من غير المستحسن لهمـا العمل في نفس المكتب. لهذا جاءت للعمل معي. ولكونها جميلـة وذكيـة، دون أن أذكر خبرتها الاجتماعية، فإنها تهييء حفلاتي وتعالج مشاكلي وتساعدني أيضا في أعمالي الروتينية والتي تعتبر ذات أهمية بسبب اهتمامي بابني الأكبـر وعميلتـي شركة النفط وكانت إحداها متابعة الطرق المتعددة التـي تعمـل بهـا المخـابرات السوفيتية ضد مصالحنا.

ونتيجة لتفكيره بأنه سيترك هوليوود ويصبح وزيراً للخارجية، اقتـــرح ابنـــي الأكبر، مايلز الثالث، أنه وبهدف توسيع أفقـــه، فـــإن علـــي أن أحـــول مـــواهبي الاختصاصية لخدمة بلادي. قال لي إنني كخبير بارع عليّ أن أحدد ماذا ســـينجز الناشطون السياسيون في المخابرات السوفيتية إذا ما استخدموا أساليب المخــــابرات المركزية نفسها على المسرح السياسي الأمريكي. قال إنه لا يريد وجهـــات نظـــر ضباط المخابرات المحترفين، بل يريد رأيًا عن كيف يمكن أن يـــرى الأمريكيـــون العقلاء وسليمو التفكير وهو من ضمنهم، الأخطار. وهكذا ومن أجل إنجاز بحـــث بعنوان "طرق متعددة لتدمير أمريكا"، وجهت فيرونيك لمقابلة عدد من المـــواطنين، جميعهم من أنصار اليمين، لسماع آرائهم. كان ما كتبته وشكل إجماعا بينهم يعتبر أمرا مثيرا لسببين. الأول بيّن كيف أن بعضا من الأمريكيين المتنفذين يعتقدون أن ما نفعله لأنفسنا بأنفسنا هو بالضبط ما يود السوفيت أن يفعلوه بنا لو لم نسبقهم إليه. كذلك، زودنا بفهم مدهش للتفكير الذي جعل فيما بعد من رونالد ريغان أكثر رئيس شعبية في هذا القرن.

بالنسبة لي شخصيا، كان الدرس الأكثـــر تبصـــيرا لـــي هـــو أن اليمينـــين الأمريكيين، كنظرائهم البريطانيين يستندون في وجهات نظرهم المتشددة بصـــورة استثنائية على معرفة قليلة بصورة استثنائية أيضا. كنت دائمـــا أحســـب أن مـــن يرسمون لنا خطنا الأيديولوجي لا ينقسمون بـــين اليســـار واليمـــين أو "الحمـــائم" و"الصقور" كما هم ينقسمون بين النفعيين "البراغماتيين" الذين يؤمنون أن علينا قبل اتخاذ أي خطوة أن تكون لدينا فكرة واضحة عن العواقب المحتملة لهـــا، وبـــين المثاليين أو "اليوتوبيين" الذين يؤمنون أن علينا دائما أن نفعل "الشـــيء الصـــحيح" بغض النظر عن العواقب. إلا أنه من المسلم به بالنسبة لي أننا – نحن اليمينيين – النفعيون البراغماتيون على الدوام أو "المتحسبون للنتائج"، كمـــا اعتـــاد زملائـــي القدامى من شركة (BA&H) أن يقولوا– ويمكن أن تجد المثاليين اليوتوبيين بـــين أوساط اليساريين حصرا. لقد علمت أخيرا أن لدى مثقفي اليمين نفس نسبة الإيمان

بالمعرفة كنظرائهم في اليسار، بل وحتى إنهم أكثر مثالية، فهم يكيفون المعلومات مع الأفكار وليس العكس.

وبقدر ما كنت اتفق مع وجهات النظر الواردة في البحث الموسوم "طرق متعددة لتدمير أمريكا"، إلا أنني رأيت فيها ثمرة لرأي غير مدروس كان جميع أصدقائي السياسيين من اليمين لأسباب عديدة غير صحيحة، قد أعطوا أدوارًا لأنفسهم لا يمكنني أن أقبلها. على سبيل المثال كانوا يرون أنفسهم على أنهم يشكلون "حامية" تدافع عن أسلوب الحياة والمعتقدات (كما في مؤلف كوبر "حامية ضد إرادة الله"، باستثناء أن الأمر معكوس)، عندما تؤدي مفردة "الدفاع" حسب فهمي للغة الإنكليزية، نفس الغرض المخصص لها، أو مفردة "الوقاء" إذا ما أرادوا مفردة أدبية أكثر. وكلما استمعت أكثر لأشرطة التسجيل، سمعت أكثر صوت الكراهية في العهد القديم المناقض لقيم العهد الجديد التي أدمجتها في أسلوبي في الحياة للتعايش بسلام. كنت اشعر أن أي خطوات يمكن أن نتخذها على صعيد المسرح الدولي، مع إبقاء كلمات سفر التثنية- الإصحاحين السادس والسابع(*) في أذهاننا، فإنها ستؤدي بنا إلى الوقوع بمشاكل لا يمكن لأي بلد قوي كبلدنا أن يعالجها.

وبينما أنهي عملي الذي امتد لثماني سنوات في مراقبة إدارتي كارتر وريغان، جمع أبنائي وبعض رجالات المال المتخصصين بصناعة الأفلام أموالهم وقدموا مساهمات معفاة من الضرائب لعدد من المؤسسات الخيرية باسم ما يسمى "مركز الأخلاقيات والسياسة العامة"، إلى جماعة ترفع شعار "الأمريكي والأمريكيون أولاً"، وهي جماعة ضئيلة العدد تدين بالولاء لبلد واحد فقط هو الولايات المتحدة ، ولا تجزيء ولاءها بين الولايات المتحدة وأيرلندا أو اليونان أو إسرائيل. كانت آخر مساهماتهم هي تقديم حمل طائرة من الأغذية والأدوية إلى حملة بوب كلدوف

(*) يحث الإصحاحان السادس والسابع من سفر التثنية اليهود على طرد الشعوب الأخرى وإفنائها وعدم الرأفة بها. (المترجم)

المسماة "بانداير" أو ضمادة الجروح للشرق أفريقيين الجــوعى. وبمـــا أن أبنـــائي يقدمون المال أسهل مما يقدمون وقتهم قبلت أن أرافق التسليم، فبعد أن زرت مخيما للاجئين وجدت آلاف الناس ممددين على الأرض من الجوع، أجريت محادثات مـــع مسؤول حكومي رفيع حيث:

١- أشار إلى أبناء بلده الذي يتمددون على الأرض بأنهم "أفقيون"، وأولئك الـــذي يستطيعون الوقوف على أقدامهم ويطلقون النار بأنهم "عموديون".

٢- علق قائلا أن يقل عدد الأفارقة إلى ستة ملايين هي ليست فكرة سيئة.

٣- ذكر بتعليقات أخرى تفيد بان حكومته تكن تقديرا أكثر إلى السوفيت منه إلـــى الأمريكيين والأوربيين الغربيين لأن السوفيت يقدمون الأسلحة التي يستطيع بها "العموديون" أن يدعموا حكومة تعمل من اجل صالح جميع الناس"، بينما نحن الغربيين نقدم إليهم فقط الكعك الذي يطيل فقط ولا يشفي بأيـــة حـــال معانـــاة "الأفقيين" العديمي الجدوى. وقد رأيت أن عليّ أن أعيد التفكيـــر بالتضـــمينات التي وردت في العهد القديم حول "نحن- وهم".

الفصل الثالث والعشرون

رهائن السفارة الأمريكية وإيران غيت

قبل أن أختم هذا السرد المتشابك لقصة حياتي، علي أن أعرج على قضيتين سبق أن تدخلت فيهما خلال إدارتي الرئيسين كارتر وريغان. وسأتناولها لسببين: الأول، أني أود أن أسجل دوري البسيط فيها كي أدحض الإشارات العديدة المغلوطة التي ظهرت في بعض الوثائق الرسمية عني. والأكثر أهمية، فإني أقدم هنا أمثلة لتوضيح بعض الأمور التي لا أزال أعاني منها.

لقد أثار السبب الأول(*) نخبا رفعه الرئيس كارتر لشاه إيران عند عشاء أقامه الأخير في قصر نيافاران بطهران عشية السنة الجديدة ١٩٧٧. وتضمن الجملة الآتية: "إن قضية حقوق الإنسان، قضية يشترك بها بتفان شعبانا وقادة البلدين". وكما كان يعرف جميع الضيوف، لا يشترك البلدان بمثل هذا الشيء. فقبل أسبوع فقط، رفع السفير الأمريكي، الذي كان ضيفا في الاحتفال، تقرير السفارة إلى واشنطن يقول فيه أن الفساد في المستويات العليا للدولة خارج السيطرة، حتى أن الطبقة الوسطى في إيران أصبحت لا تطيق الشاه. وقد نصح وزير البلاط أمير عباس هويدا، الذي كان ضيفا أيضا، في نفس هذه الفترة الشاه بعدم شن حملة مضادة للفساد لأنها سوف تقابل بالسخرية سواء من الأشخاص الذين يتم التحقيق معهم (بعضهم كانوا ضمن الضيوف) أو من قبل الرأي العام.

وبخط متواز مع إدراك الجمهور الإيراني للفساد الحكومي، ومن المؤكد أن إحدى نتائجه ، هي النمو المطرد للإسلام الأصولي المعارض بطريقة عنيفة للشاه.

(*) جرت في الصفحات اللاحقة بعض التغييرات في نص الكتاب بناءً على طلب الحكومة الأمريكية لرفع بعض المواد التي لاتزال تسري عليها التعليمات الأمنية. (المؤلف)

وبتقرير مؤرخ في ٢٥ تموز ١٩٧٧، أبلغت السفارة واشنطن أن إيران قد أصيبت به حيث جاءها من البلدان المجاورة، وأنه قد أثار معظم سكان الأرياف من حالــة عدم الاكتراث التي كانت تجعلهم حتى ذلك الوقت غير فاعلين من الناحية السياسية. ففي وقت عملية اجاكس، لم يكن لهم أي دور في التفــاعلات السياســية، ويمكــن للاعبين السياسيين تجاهلهم. ولكن منذ منتصف تموز ١٩٧٧، أصبحت الجمــاهير تشكل عاملا مؤثرا في السياسة الإيرانية. وبوجود قيادة نشــيطة لهــم، يمكــن أن يصبحوا عاملا مهما لا يمكن للمخططين الاستراتيجيين إغفاله باطمئنان. ففي عــام ١٩٥٣، من السهولة بمكان، إقناع غوغاء الشوارع لاستبدال هتافهم مــن "المــوت للشاه ويعيش مصدق"، إلى "الموت لمصدق ويعيش الشاه"، ولكن مع وجود الإسلام كعامل محفز، فإن الأمر ليس بهذه السهولة. إذ يتطلب مراجعــة شــاملة وجذريــة لأساليب نشاطنا السياسي.

ذكر تقرير آخر للسفارة في نفس الفترة كيف أن الجنرال نعمــة الله ناصــري رئيس السافاك أو جهاز الأمن والمخابرات التابع للشاه، ينفذ أوامر الشاه في التعامل مع المشكلتين، الفساد الحكومي والاستحواذ السريع للإسلام الراديكالي على جــزء كبير من الشعب الإيراني. وبعد أن فسر الجنرال ناصري عبارة "حقوق الإنســان" بصورة فضفاضة أوسع مما يحمله الشاه أو الرئيس كارتر عنها في أذهانهم عندما تبادلوا الأنخاب عشية رأس السنة الجديدة، وضع ناصري برنامجا شاملا لكل البلاد لإلقاء القبض على جميع الإيرانيين "المسببين للمشاكل" المتأتية من الفساد الحكومي، وقمع جميع المظاهرات ذات الطبيعة الدينية. كان يعرف عموما فـــي كــل أنحــاء إيران، خاصة من قبل المراقبين الأجانب أن ناصري لا يفرق بين المشكلتين، فهو يرى أن كل هذه الضجة حول الفساد يثيرها المتشددون الدينيون.

لهذا ماذا سنستفيد من نخب الرئيس كارتر الصادق؟ لقد حذف البيان الصحفي للحكومة الإيرانية الجزء المتعلق بحقوق الإنسان، وأشار إلى أن الرئيس قد قال فقط "إن إيران هي واحة الاستقرار في أكثر بقاع العالم اضطرابا". وإن "لا بلد أقــرب

إلينا من إيران فيما يتعلق بأمننا المشترك". مع ذلك، فقد فهم أردشير زاهدي السفير الإيراني في واشنطن وصهر الشاه حديث الرئيس كارتر بشكل صحيح. لقد اعتبره دليلا إضافيا على ما لديه من أسباب تدفعه إلى الشك: بأن خبراء الحكومة الأمريكية المختصين بإيران على خلاف حاد فيما بينهم، كانت نتيجته ألا تصل إلى الرئيس أية "تقديرات موحدة للموقف". وبالنتيجة، كان أقوى واصلب مدافع عن حقوق الإنسان في العالم يقدم دعم حكومته المطلق إلى شاه إيران. ربما تكون هذه أخبارًا سارة، إن لم يكن ذلك بسبب حقيقة أن الرئيس كارتر يقدم هذا الدعم نتيجة جهله بالواقع، كما أخبر بذلك أردشير، كيم روزفلت عندما تناول الاثنان طعام الغداء معًا عندما عاد أردشير إلى واشنطن بعد انتهاء عطلة أعياد الميلاد.

على أية حال ، أخذ الشاه تصريح الرئيس كارتر بحسن نية ، ناسيا أنه لا السفارة الأمريكية في طهران ولا الصحافة الأمريكية تشارك رئيسهم سذاجته حول قضية حقوق الإنسان في إيران. في أواخر ١٩٧٧ قتل أحد أبناء آية الله الخميني في ظروف توحي أن السافاك ربما يكون هو الجاني. وفي منفاه في العراق أصدر آية الله تصريحا شديد اللهجة يتهم فيه الشاه رسميا بالجريمة، ورد الشاه منتشيا بتطمينات الرئيس كارتر أن الوقت قد حان "لتدمير آية الله". كان يمكنه أن يفعل ذلك بطريقة شن حملة دعائية ضده، يمكن أن تبدأ بالخطوة الأولى فيها بمقال في صحيفة طهران الواسعة الانتشار يتهم فيها آية الله بسلسلة من الجرائم تبدأ من اللواطة وتنتهي بالتعاون مع الشيوعيين.

نشر المقال في ٧ كانون الثاني ١٩٧٨، وأحدث اضطرابات في عموم إيران تلتها إجراءات قمعية شديدة من قبل الجيش والشرطة والسافاك. وقد بدأت من هنا مشاكل الشاه، وتورط بعمق فيها، وقد كانت سياسته تتراوح بين سجن السافاك لزعماء الثورة، وضرب باطن أقدامهم وقلع أظافرهم والأمر بإطلاقهم ليعودوا بعدها إلى الشوارع أكثر حنقا مما كانوا في السابق.

وفي الأشهر القليلة اللاحقة ، ناقش أردشير وكيم الوضع في إيران عدة مرات، بناء على تجربتهم المشتركة السابقة في ١٩٥٣ عندما كـــان أردشـــير الشخصـــية الرئيسية في عملية اجاكس بعد أن اختار الشاه والده الجنرال فضـــل الله زاهـــدي ليكون رئيسا للوزراء خلفا لمصدق. ظل أردشير يشكو إلى كـــيم بـــأن الحكومـــة الأمريكية تمطر الشاه في تلك الفترة بمشورات متناقضة يعوزها الخبرة المتخصصة التي أبداها كيم قبل خمسة وعشرين عاما، وبعد ذلك في أيار جاء مباشرة إلى كـــيم وطلب منه أن كان بإمكانه الذهاب إلى طهران للتحدث مع الشاه حول نموذج مكرر لما حصل في ١٩٥٣. لقد أضحى كيم أكبر بعشرين سنة مما كان، كمـــا أنـــه قـــد حصلت تغييرات جذرية على صعيد مسرح الأحداث سواء كان الدولي أم المحلي، إلا أن أردشير قد أقنع، إن لم يكن بأشياء أخرى، بأن طراز التفكير الذي يتمتع بـــه كيم ربما يكون مفيدا في حل تشابك لغط الكلام الذي أصيبت به حكومته.

وفي غضون الأسبوع الأول من حزيران، اجتمع كل من كيم وأردشير وأنـــا على مائدة غداء من الكافيار والفودكا في السفارة الإيرانية حيث استفسرنا عن مدى جدية مقترحه. هل أخبر الشاه بأنه طلب من كيم زيارة طهـــران؟ هـــل هنـــاك أي مقترح للقيام بعملية أخرى مماثلة لعملية اجاكس للتعامل مـــع الزعمـــاء الـــدينيين المؤيدين للخميني؟ وماذا قال الشاه، إن كان قد قال شيئا، للأمريكيين الآخرين عـــن احتمال التحاق كيم بطوفان الزائرين إلى طهران؟ والأكثر أهمية، ما السبب الداعي للاعتقاد بأن الشاه سيستقبل كيم ويستمع لمشورته ؟ وقد أكد لنا أردشير أن الشـــاه قد ذكر كل من كيم وعمليـــة اجاكس، إلا أنه اعترف أنه لم ترد إشارة عن دعـــوة كيم إلى طهران. على أية حال، لم يكن هذا محدداً بما يكفي لإقنـــاع كـــيم بتلبيـــة الدعوة.

مع ذلك، برزت خلال الاجتماع، بعض الأفكار الجديرة بالأهمية. أخبرني كيم في وقت سابق خلال الهاتف أنه بدأ يشعر أن الشاه قد فقد القـــدرة علـــى معالجـــة الموقف. ولكن عند الغداء لم يكن متشائما بل حذر فقط. فقبل موافقته على الـــذهاب

إلى طهران، أراد القيام بشيء من الاستطلاع. لهذا قال لأردشير: "إذا ما كان هناك أي شخص يمكن أن يقوم بعملية من هذا النوع الذي نتحدث عنه، فإن صديقنا هنا يمكن أن يقوم بها. وإذا ما درسنا الموقف وقال مايلز، لا يمكن القيام بمثل هذه العملية، حينها إذن لا يمكن القيام بها. واستمر يقول إنه لا يقترح أن أذهب أنا إلى طهران للتخطيط سواء لعملية "اجاكس أخرى" أو لأي نمط من الأنشطة السياسية السرية. ولكن ببساطة علينا دراسة جميع الاحتمالات، إذا كانت هناك أية احتمالات. ولدهشتنا، قبل أردشير فورا وقال بعد أن غمزني بطرف عينه إنه يعرف أن من طبيعتي الاستجابة للتحديات، خاصة إذا كانت تقع في ميدان خبرتي الواسعة. وعندما ينظر إلى أنني الآن أكبر بأكثر من عشرين عاما إبان عملية اجاكس، فمن غير المتصور ألا يكون لدي مخطط فعال للعمل.

وهكذا ذهبت- ولكني أتفهم بأن علي أن أتجنب تبادل البرقيات مع المخابرات المركزية والسفارة والمبعوثين المتعددين من الكونغرس أو البيت الأبيض الذين قد يزورون إيران. إنه أمر لا يصدق أن الحكومة الأمريكية، وحتى بوجود كارتر كرئيس، لم يكن لديها خطة معينة في ذهنها. وكانت لدينا أنا وكيم تجارب مريرة مع بعض المخادعين من خارج الحكومة الذين يتدخلون بوضع خطط خرقاء على أساس أن المخابرات المركزية ووزارة الخارجية لا تفعلان شيئا لأنهما لم تشتركا معهم في صياغة خططهم السرية. إن القصة الكاملة لرحلتي إلى طهران ليست بذات أهمية لهذا السرد التاريخي، ولكني سأقدم موجزا من رحلتي الأولى.

غادرت واشنطن متوجها إلى طهران في ٩ حزيران ١٩٧٨، ووصلت بعد يومين. وفي الطائرة جلست قبالة شاب من مكتب حقوق الإنسان وشؤون اللاجئين في وزارة الخارجية، لطيف ومتحدث بارع لم يسبق له أن خرج أبعد من نصف الكرة الغربي، ولا يعرف شيئا عن تاريخ ولغة وثقافة إيران أكثر مما تعلمه في كراسات منظمة العفو الدولية، وكل تاريخه الوظيفي قبل التحاقه بوزارة الخارجية هو عمل سنة مع حركة احتجاج للطلبة . مع ذلك يتمتع بحماس الشباب ، وكل

ما يريد عمله هو إبلاغ السفير وليم سليفان وهو دبلوماسي محنك ذو خبرة ثلاثـــين عاما، كيف أن عليه الذهاب وإرغام الشاه على معالجة سجله المشين فـــي ميـــدان حقوق الإنسان. وبعد تناول عدة وجبات طعام وشـــراب معًا، أصـــبحنا أصـــدقاء حميمين. أخبرته أنني عميل في المخابرات المركزية وأنني ذاهب إلـــى طهـــران كمبعوث خاص من الرئيس كارتر للتخطيط مـــع رؤســـاء المخـــابرات الإيرانيـــة (السافاك) حول موضوع القيام باستيلاء عسكري للسلطة في إيران. وأخبرته أنـــه سيتلو ذلك مذبحة منظمة لإعدام الشيوعيين والزعماء الدينيين المهمين علنا، كـــي يتمكن الشعب الإيراني بعدها من التمتع بحرية التعبير دون خشية من ترويع مـــن جانب المتطرفين سواء كانوا يمينيين أو يساريين.

وطالما أن الكتاب من أجل التوثيق، فعلي أن أقول إنني لست "رجل الأعمـــال الأمريكي الثري مجهول الاسم" الذي أخبر الشاه، كما ذكرت ذلك إحـــدى برقيـــات السفارة، أن "يبقى حيث هو، فقوة الدروع قادمة" والحقيقة هي أني لم ألتق الشـــاه مطلقاً ، فبعد لقائي مع رجال السافاك، قررت ألا أسعى للحصول على موعد. وبعد أن تركت أمتعتي في جناح بفندق هيلتون- طهران، ذهبت إلى دار فخمة تعتبر مقرا للسافاك ودارًا للضيافة لاستقبال ضباط المخابرات الإســـرائيلية الزائـــرين، حيـــث أمضيت في أحد الأيام عدة ساعات مع رئيس السافاك الجنرال نعمة الله ناصـــري وعدة ساعات أخرى في اليوم التالي مع نائبه الجنرال ناصر مقدم.

استقبلني الجنرال ناصري، الذي لم يسبق لي أن التقيته، بحرارة عندما قدمت نفسي بأني صديق ورفيق لكيم روزفلت وأعطيته كلمة السر التي قـــال كـــيم أنـــه سيقبلها كأوراق اعتماد لي. وقد وجدته أكثر حمقا مما قال كيم عنه، إلا أنه بعد أن اخبرني إلى المدى الذي يمكن أن يذهب إليه من اجل إنقاذ جلالته والإمبراطورية، أصبحت أؤمن أنه "شديد الولاء" كما وصفه لي كيم. والذي حصل، أنه تلقـــى بعـــد ذلك أمرا بإعفائه من منصبه كرئيس للسافاك ليصبح سفيرا في الباكستان وحل محله نائبه الجنرال مقدم. على أية حال، أمضيت فترة الصباح والغداء معـــه إذ أمتعنـــي

خلالها ببعض القصص الدموية عن كيف بإمكانه وضع حد للمظاهرات خلال أسبوع واحد لو أطلق الشاه يده.

الفقرة الوحيدة ذات القيمة الاستخبارية التي حصلت عليها هي اعترافه بأنه يعتقد أن الموقف سيكون خارج نطاق السيطرة، رغم اعتقاده أنه لايزال بالإمكان السيطرة عليه لو أن الشاه كف عن التردد و الاستماع "للأمريكيين"، ويصدر أوامر صريحة بالإجراءات الصارمة لفرض النظام. وقبل أسبوع واحد قال إن الشاه قد جرى تليين جانبه بمشورة من السفير الأمريكي وليم سليفان، ليطلق سراح بعض مثيري الشغب الذين سبق أن ألقت السافاك القبض عليهم، وذلك كوسيلة "لتخفيف التوتر". "ماذا نتوقع من هؤلاء الناس؟" هكذا سأل نعمة الله رافعا يديه بإيماءة شرقية علامة اليأس واستطرد: "هل هم سيركعون ويشكروننا أم أنهم سيدركون أننا الآن الطرف الخاسر وأننا نريد أن نحبب أنفسنا إليهم. هل من المعقول أنه يتوقع أن العديد من هؤلاء السجناء الذين ضربنا باطن أقدامهم وحلقنا رؤوسهم وقلعنا أظافرهم سيشعرون بالامتنان إلينا لإطلاقنا سراحهم؟ هل سيقبلون الأرض ويقولون: "نعم لم يكن الشاه إنسانا سيئا"، أم أنهم سيصعدون مطالبهم إلى المطالبة بالثأر؟ قال ناصري أن احتفالات المسلمين بمحرم ستبدأ بعد ستة أشهر، وإذا لم نتخذ الإجراءات الصارمة قبل عاشوراء، وهو اليوم الذي تملأ فيه مواكب آلاف المتدينيين الشوارع وهم يضربون أنفسهم بأدوات حادة، فإن الشاه سينتهي.

كانت لقاءاتي المهمة الوحيدة مع المسؤولين الاستخباريين الإيرانيين هي اللقاءات مع الجنرال مقدم ، رئيس السافاك الجديد، ومع ضابط الارتباط رفيع المستوى من المخابرات الإسرائيلية الذي أنزل في الدار التابعة للسافاك. أمضيت مع الاثنين صباحا نستعرض قوائم أسماء الأشخاص الذين يقبعون في السجن في ذلك الوقت وقوائم الذين يجب أن يرموا فيه ولكنهم لم يرموا لأن الشاه كان يخشى من أسرهم. وقد عرضوا أمامي أيضا الخرائط العسكرية للطرق في إيران مؤشر عليها بعض العلامات ذات العلاقة بالعمليات العسكرية ومخططات للسيطرة على

الجماهير، التي يبدو أنها نسخ محدثة من المخططات التـــي اســتخدمها كــيم فـــي ١٩٥٣. هل عرض كل هذه على ضابط الارتباط من المخابرات المركزية؟ قال : نعم، عندما ابتسم ضابط المخابرات الإسرائيلية ابتسامة عريضة، وأضاف: إلا أنه ضابط جديد لم يأت إلى إيران إلا قبل أسابيع قليلة. ولا يمتلك أية فكرة عن إيـــران أو الإيرانيين. علاوة على ذلك، أنه يتحدث بتلك الفارسية التي تعلمهـــا فـــي دورة سريعة قبل مجيئة إلى إيران، ولا يتحدث الفرنسية مطلقا . وبإنكليزية ركيكة، ناقش مع ناصري ومقدم جانبا واحدا من الأزمة الحالية وهو كيف يمكن إحبـــاط حركـــة مفاجئة ضد الشاه كتلك التي انتهت بقتل الملك والوصي ورئيس الـــوزراء نـــوري السعيد بغداد ١٩٥٣(*)، وكيف يمكن نقل الشاه خارج البلاد سلفا.

إن تأكيد احد موظفي السفارة بأنه ليس لدي الإذن للقيام بزيارة إلـــى الســـفير سليفان، هو أمر غير صحيح. صحيح أنني لم أكن أنوي زيارته، إلا أنه بعد لقاءاتي مع مسؤولي السافاك، رأيت أنه من اللازم أن أعلمه على الأقـــل بوجـــودي فـــي المدينة. لهذا ذهبت إلى السفارة، وبعد أن علمت أنه مشغول إلى حد لا يســـمح لـــه بمقابلتي، تركت له ملاحظة أعتذر فيها عن عدم طلبي لموعد مسبق، مضيفا أننـــي قد التقيت "ببعض الإيرانيين المثيرين للاهتمام" وأنني سأكون متواجدا فـــي فنـــدق انتركونتننتال إذا ما أحب أن أوجزه بلقاءاتي. ولم يتصل. كـــذلك لـــم أزر رئـــيس محطة المخابرات المركزية، فزيارات المجاملة لرؤساء المحطات من قبل الرفـــاق القدامى، لا تعتبر فقرة معتادة من بروتوكول وكافة المخابرات المركزية. مع ذلك، التقيته صدفة في رواق مبنى السفارة عندما كنت أهـــم بمغادرتهـــا وقـــد تبادلنـــا الابتسامات. كان هذا كل شيء. إلا أن هذا اللقاء بالصدفة قد قاد إلـــى لقـــاء غيـــر متوقع مع شخص آخر.

(*) الصحيح هو ١٤- تموز- ١٩٥٨ ، حيث قاد الضابط عبد الكريم قاسم وعبد السلام عـــارف انقلابا أطاح بالملكية وأقام نظاما جمهوريا. (المترجم)

إنها السيدة القطة، حيث الآن أكبر بخمس وعشرين سنة، إلا أنها لاتزال رشيقة وجميلة بشكل غريب حتى مع الملابس السوداء ودون أية مستحضرات تجميل، أنها تسر الناظر. وفي غضون ثوان قليلة، أصبح من الواضح أنها مطلعة على آخر تفاصيل الأقاويل عن الثورة، وهي الشخص الوحيد الذي يمكن أن يزودني بتفاصيل دقيقة عن الموقف المتدهور. تبادل رئيس محطة المخابرات المركزية، الذي فاتت إلى حد ما كفاءته وخياله نائب مدير المخابرات المركزية الأدميرال ستانسفيلد تيرنر (وإلا لكان صرفه من الخدمة أو نقله إلى الوطن لوظيفة مكتبية)، الحديث معها عن زيارتي إلى المدينة رغم أنها لم تعد ضمن قوائم رواتب المخابرات المركزية. أخبرتني كل شيء عن هذه الأحاديث عندما وجدتها بعد عودتي من زيارة السفارة الأمريكية، في جناحي في فندق هيلتون وتتصرف فيه وكأنه بيتها. فبعد أن خدم زوجها كموظف شيفرة ومأمور اتصالات اللاسلكي في السفارة لحوالي سبع أو ثمان سنوات، تم صرفه من الخدمة لبيعه سلعا تموينية في السوق السوداء الإيراني ليشترك بعدها بأعمال تهريب واسعة النطاق أصبح هو وكاتي "مواطنين محليين" ومن باب واسع، وأصبحا يمتلكان أحد تلك البيوت الواقعة في ضواحي المدينة التي تعتبر نموذجًا لمنازل الشخصيات الثرية السرية التي تحب أن تحيا بترف، إلا أنها تتجنب إعلان الحقيقة إلى الشرطة والسلطات الضريبية.

وبعد تبادل التحايا الودية، غادرنا الفندق من بوابة الخدمات وأخذتني إلى منزلها. كان يقع في شارع غير معبد بمنطقة فقيرة قرب محطة سكة الحديد وخلف سور طيني وكان من الداخل عبارة عن قصر شرقي أو قصر سلطان في قصص ألف ليلة وليلة. وفي هذا المنزل أمضيت الأربعة أيام التالية، حيث إنني لا شك قد وفرت أساساً للتقرير الذي أرسله أحد الحمقى من كادر السفارة الأمريكية إلى واشنطن عني زاعمًا أنني أمضيت معظم وقت "زيارتي الغامضة" في بيت دعارة. ودون أن يدري، أسدى إلي هذا الأحمق فضلا، لأنني لم أر بغايا ولكن صفوة مجتمع الجريمة الإيراني أو يمكن القول، المافيا الإيرانية. لقد أدخلت إلى منزلها

فرادى وجماعات من اثنين أو ثلاثة من زمر السـفاحين واللصـوص والمهـربين ومشعلي النيران والفتن ولك أن تسمي ما شـئت. وكـزملائهم مـن المجـرمين المنتعشين ماليا في أمريكا وبريطانيا، فهم يتمتعون بعقلية الرأسمالي اليميني لهـذا كانوا مؤيدين للشاه دون تحفظ. قالت كاثي: "إذا كنت تخطط لشيء ما، فإن هـؤلاء الرجال هم مدافعك الثقيلة".

وأخيرا علي أن أذكر الجولة التي رتبتها لي كاثي في طهران، وهي تكـرار للجولة التي نضمتها لي قبل عملية اجاكس ١٩٥٣. ومع نسخ الخرائط والمخططات التي زودني بها الجنرال مقدم، سرنا حول المدينة وقطعنا مسـافة طويلـة تكفـي بالنسبة لي لتحديد التحركات التي يمكن أن يقوم بها الجيش لمنع تجمع الجماهير في المواقع العديدة المعرضة للسقوط في دفاعات الشاه وتحديد الاتجاهات التي يمكن أن يحرك بها منظمو الحشود البشرية، هذه الحشود لتفادي محاولات حرفها. بل حتـى أنني فحصت الأماكن التي يمكن وضع قناصـين بهـا لرمـي إمـا الشـرطة أو المتظاهرين من اجل المزيد من التصعيد لغضبهم. وما هو جدير بالأهميـة أكثـر، عدت إلى المقهى الذي سبق أن أخذتني إليه السيدة القطة قبل خمس وعشرين سنة، ولكن هذه المرة مع ابنها الأكبر توم الذي كان أحد الثلاثة الذين رأيتهم آخر مـرة وهم يقطعون قطة المنزل إلى نصفين. ورغم كل التغييرات الجذرية حولـه، إلا أن المقهى لايزال في مكانه، حتى رواده يبدون أنفسهم، رغم أنهم من الجيل الثـاني. على أية حال، قادني الحديث معهم إلى هذا الاستنتاج البسيط: لقد تغير الموقف في إيران بشكل كبير ومفاجئ بحيث أن التدخل لابد أن يكون بمسـتوى لا يقبـل بـه الشعب الأمريكي، ولا يمكن لإدارة الرئيس كارتر إدارته حتى لو فعلنا. في ١٩٥٣ لم يكن لدينا ملالي لنتنازع معهم وثلاثة أرباع الشعب الإيراني غير مبال، وحيادي أو يخضع بسهولة للتأثيرات التي يمكن توجيهها إليه. علاوة علـى ذلـك، تحـول الطلاب هذه المرة إلى أشخاص عدوانيين، وكان لهم عوائـل. يمكـن أن تكسـب الحكومة فترة استراحة قصيرة عن طريق توجيه الجيش لقمع المتظاهرين، إلا أنه

بعدها سوف لن يكون هناك انتصار كما رأينا في ١٩٥٣. على هذه التوصية اتفق كل من أردشير وكيم، وكان ما كان.

خلال الفترة الفاصلة بين رحلتي إلى طهران، كان هناك ازدياد تدريجي في الارتباك والتردد في واشنطن. أصبح الموقف في إيران واضحا، إلا أن الرئيس كارتر ومستشار الأمن القومي زيغينو بريجنسكي ووزير الخارجية سايروس فانس، ظلوا يحاولون إيجاد الطرق والأساليب المناسبة. كانوا يستشيرون الأكاديميين كالبروفسور جيمس بيل والبروفسور دون ويلبور والبرفسور ريتشارد كوتام، الذين كانوا يعرفون إيران جيدا إلا أنهم يحملون انطباعات رومانسية عن الشعب الإيراني، ويستشيرون البراغماتيين الواقعيين مثل كاري سيك العضو في مجلس الأمن القومي، وضابط البحرية العملي السلوك والذي خدم في الخليج العربي ، إلا أنه لا أحد من هؤلاء يمكن أن أسميه "عملياتي" أو ذا علاقة بالعمليات العسكرية. وعلى سبيل المثال، تحدثوا مع ديك هيلمز الذي كان سفيرا في إيران بعد أن ترك المخابرات المركزية ومع كيم روزفلت الذي تم تجاهل الثلاثين صفحة التي كتبها بعد عملية اجاكس، إلا أنهم كما أخبروهما "أنهم يستطلعون آراءهم فقط". والحقيقة بينما كان كيم يعتقد أنه يقوم بتوضيح بعض النقاط، قال أحد المستشارين الصغار في البيت الأبيض، وهو شخص لم يسبق له أن زار إيران أو أي بلاد أخرى في الشرق الأوسط، إن الشاه لم يكن ليقع بمثل هذه المشكلة، لو لم تزرع عملية اجاكس بذرتها.

لم يستشرني أحد في البيت الأبيض أو وزارة الخارجية أو وكالة المخابرات المركزية، ولو استشارني أي منهم لكان ردي هو عبارة كروتشو ماركس "بأنه يرفض الانضمام لأي ناد يقبله عضوًا فيه" - رغم أنني أعرف بالكثير عن متطلبات العمليات العسكرية أكثر من أي من الخبراء الزائفين الذي يسمعهم البيت الأبيض، بمن فيهم أولئك الذين ألفوا في أعقاب ذلك كتبًا حول سقوط الشاه. إنني أعرف أقل من هنري بريشت وكارل كليمنيت وجاك مكلوس وتشارلس ناس من

وزارة الخارجية وكاري سبك من مجلس الأمن القومي والبروفسور بيـل ويلبـور وكوتام من خارج الحكومة الأمريكية، إلا أنني أفهم أفضل من هؤلاء الرجال كيف أغربل الأفكار المتناقضة لأصل إلى استنتاجات موثوقة. إلا أنه تحت قيادة جيمـي كارتر، فإن أي سياسة حتى التي وضعت واكتملت في السماء لا تأخذ طريقها إلـى التطبيق لسبب واحد هو أن مستشاريه تعوزهم الشجاعة للتصرف بطريقة عاقلـة. وطيلة شهري تشرين الثاني وكانون الأول مـن عـام ١٩٧٨، كانـت صـحيفتا النيويورك تايمز والواشنطن بوست تنشران مناظرة فـانس- بريجنسـكي، وكـان الكثير مما قالاه قد جاء حرفيا من مذكرات في غاية السرية. وعندما اقتربت لحظة الحقيقة، أدرك كل من في إيران ممن يستطيع قراءة الصحف أن الحكومة الأمريكية منقسمة إلى درجة كبيرة بحيث أنها لا تستطيع أن توقف مجرى الأحداث. لهذا فإن القرارات داخل إيران التي تهمنا هي المستندة على افتراض أن ما تفعله أو لا تفعله الحكومة الأمريكية هو أمر لا يستحق القلق بشأنه. كان أية الله يعلم أنه سوف لـن تكون هناك معارضة أمريكية، ويعلم الشاه أنه لا يمكن أن يحصل أي دعم أمريكي له. لهذا وبغض النظر عما يمكن أن يظهر من مشاورات البيـت الأبـيض، فـإن صحيفتي النيويورك تايمز والواشنطن بوست قد قررتا النتيجة في الحال. أو، لنكن أكثر إنصافا ودقة، أن أولئك الذين زودوا الصحيفتين بالتعليقات حول المناظرة هم من قرروا النتيجة، كما كان، محتملاً جدا، الغرض من وراء تسريب المعلومات في المرة الأولى.

كان الغرض من رحلتي الثانية إلى إيران، بعد أيام قليلة من هروب الشاه من البلاد وثلاثة أسابيع من العودة الظافرة لآية الله الخميني، هـو غـرض تجـاري خالص. لقد عملت لدى مصرف تجاري بارز في نيويورك وكان عملي هو معرفة إلى أين يتم سحب رؤوس الأموال، ووضع خطة لجعلها تصب في المصرف. كنت لا أزال أحتفظ باستنتاجي من الرحلة السابقة. ولا أستطيع أن أحمل نفسي على ترك كل المعلومات التي جمعتها بعناية. وحالما وصلت هناك، أخذ مني الأمر أقل مـن

أسبوع لتحديد طرق هروب رأسمال المسحوب بسبب الخوف والحصول على أسماء وعناوين الإيرانيين الأثرياء والمتنفذين الذين فروا من البلاد مؤخرا، لهذا أمضيت الأسبوع الثاني أبحث عن إشارات لاحتمال أن يكون هناك انعكاس للموقف في اللحظة الأخيرة. لم أجد أي إشارة. على العكس، وجدت السفارة البريطانية تتوقع الأسوأ، ليس فقط لإيران نفسها، بل للمواطنين البريطانيين في إيران، بينما أخذ أعضاء السفارة الأمريكية يتصورون أن آية الله الخميني ليس رجلا سيئا إلى هذا الحد وان لدينا الكثير من الأشياء المشتركة معه. وعندما عدت إلى واشنطن، أخبرت كيم أنني لا أرى أي أمل من وراء قيام أردشير بعد فترة قصيرة بتشكيل حكومة في المنفى.

وخلال الأشهر التالية، انتظرت الحكومة الأمريكية بفارغ الصبر أن تتحول ثورة إيران الدينية إلى شكل من أشكال الشعبية الديمقراطية التي يمكن أن نتعايش معها. إلا أن الذي جرى بعد ذلك أن الطلاب قاموا باحتلال السفارة الأمريكية وبذلك بدأت محنة الأربعة عشر شهرًا للأمريكيين الذين احتجزوا كرهائن. وبما أن معظم قرائي من العمر ما يسمح لهم بتذكر هذه القصة المخيبة للآمال في العلاقات الأمريكية-الإيرانية، فإنني سوف لن أرويها ثانية، ولكن أقول فقط إن إدارة كارتر قد فعلت كل ما يمكن فعله لإخراج الموقف إلى الجمهور وجعل الإيرانيين يدركون ضخامة التفوق الذي أحرزوه علينا وما كشفوه للعالم عن مدى عجزنا عن فعل أي شيء بهذا الخصوص. وبصورة مفاجئة، أخذ الخبراء الذين ساهموا كثيرا في تشويش البيت الأبيض حول الطرق والأساليب المناسبة يظهرون بانتظام في برامج حوارية تليفزيونية ويبينون كيف ستكون الأمور مختلفة لو أنه قد جرى اتباع نصائحهم. كان من يعرفون القليل عن إيران والعلاقات الإيرانية الأمريكية، هم أصحاب النفوذ الأقوى والآراء الثابتة، إلا أن هناك إجماعًا بين كل من يفهم العلاقات الأمريكية- الإيرانية على أن الرئيس كارتر قد تصرف تماماً لمصلحة الملالي، وأربك المسؤولين الإيرانيين المتنفذين القلائل الذين نعرفهم بأنهم يريدون

وضع حد لهذه الفوضى. ماذا كان هؤلاء الخبراء يريدون من الـــرئيس كـــارتر أن يفعل؟ حسنا، إن عليه أن يسكت. ثم بعد ذلك عليه أن يعين شخصًا كالنقيب سيلك مسؤولا عن قوة مهام، وأن يتركه يخطط ويدير عملية تحرير الرهائن بعيدا عـــن فانس وبريجنسكي أو أي شخص آخر يراقبه. لم أكن أعرف بالعملية فـــي حينهـــا، ولكن إليكم ما حصل.

في أحد الأيام، جلب جيم انكلتون، الذي كان يستمتع بفترة تقاعده بعد أن تـــم تسريحه من المخابرات المركزية معه إلى الغداء شابا من المخابرات الإســـرائيلية الذي أسرّنا بأن جهازهم قد حدد هوية نصف هؤلاء الطلبة على الأقل، حتى إلـــى درجة معرفة عناوين بيوتهم في طهران. ورغم أنه لم يزودني بالتفاصـــيل (لســـت بحاجة لها على أية حال)، إلا أنه أعطاني خلاصة عن نوع هؤلاء الفتيان. قال إن معظمهم مراهقون. هل كانوا شيوعيين أم متعصبين دينيا؟ كلا الاثنين- أو ولا أي منهم. إنهم أفراد حل بهم "السّعر" من نوع الهوس الجماهيري الذي يســـيطر علـــى الغوغاء من كل صنف ونوع من متفرجي ملاعب كرة القدم في الجامعـــات إلـــى مثيري الشغب في الشوارع. إن ما يقرر "جذوة نشاطهم"، كما يسميه هو، ويبقيـــه مشتعلا، هم مجموعة من عشرة إلى خمسة عشر شخصا أكبرهم سنًا ويحملون فكرًا إيديولوجيًا عقائديًا، ربما يكونون عملاء حقيقيين للمخابرات السوفيتية أو مرتزقـــة يحفزهم المال والأيديولوجية. كم عددهم؟ يتراوح عددهم بين ثمـــانين إلـــى مائـــة وعشرين، أي أن هناك منهم حوالي أربعين شخصًا يمضون الليل فـــي بيـــوتهم أو خارجها في المدينة. تشير ملاحظاته ضمنيًا وبصورة مقنعة أن من بين أولئك الذين يخرجون من مجمع السفارة، هناك عميل واحد على الأقل للمخابرات الإسرائيلية.

وبعد أيام من هذه المحادثة، تلقت فيرونيك مكالمة هاتفية من شاب فـــي وزارة الخارجية سبق أن خرجت معه عدة مرات. سألها إن كان بإمكانها أن تخبره أيـــن يجد ستيف ميد. كان هذا في بداية الأسبوع ومن المتوقع أن يزورني ستيف في برج واردمان في عطلة نهاية الأسبوع التالية، وقد أخبرته ذلك. فمن المؤمل أن يتم في

هذا الوقت أحد لقاءاتنا العائلية الدورية التي تضم عددًا من الزملاء القدامى من قسم النشاط السياسي في المخابرات المركزية مثل كيم وروزفلت، واركي ولكي، وجين وجوان مليغان، ومجموعة أخرى غيرهم. لماذا كان يود أن يرى ستيف؟ قال إنه لا يستطيع أن يخبرها على الهاتف، لهذا دعته إلى الغداء.

سبق أن قلت إنني في تلك الأيام لم أكن أخرج عن الحد المشروع للحصول على الأسرار من موظفي الحكومة الأمريكية، إلا أنني مع ذلك مستمع جيد وكان لدى هذا الشاب الكثير من المعلومات يريد أن يفضي بها دون أن يقلق من احتمال أن ينتهي بها المطاف إلى صحيفة الواشنطن بوست. ودون ذكر التفاصيل، قال لي أن رئيسه ومعلمه سايروس فانس على وشك الاستقالة من منصبه كوزير للخارجية لأنه لا يود أن يشترك بخطة "غير مسؤولة"، أقنع بها مستشار الأمن القومي زيغينو بريجنسكي، الرئيس. إذن لماذا أراد أن يرى ستيف والأصدقاء القدامى الآخرين من قسم الأعمال الجريئة؟ لقد أراد أن يسأل كيف يمكننا تحرير هؤلاء الرهائن إذا تمت إحالة العمل إلينا. ومن الواضح أنه يريد أن يسمعنا نقول بلساننا الخبير بهذه الشؤون، بأنه لا يمكن القيام بذلك.

حسنا، لقد فاجأته. قلت له نعم يمكن القيام بذلك، ولكن يجب أن يقوم بالعملية الإيرانيون (كالأكراد أو القاشغيز(*) أو ربما بعض العناصر من الجيش الإيراني)، ولكن ليس من قبل الأمريكيين. طلب مني إن كان بالإمكان التفكير بما قلته وأكتبه بعناية لأطرحه كمشروع جدي. قلت له أستطيع أن أفعل أفضل من ذلك. وعندما يصل ستيف والاخرون صباح السبت، سنناقش جميعا القضية وسأكتب وجهات نظرنا كفريق عمل واحد.

وهكذا، وفي صبيحة يوم السبت ٢٢ آذار، توصلنا أنا وستيف وكيم وبعض الأصدقاء القدامى من الوكالة الذين لا يسمح لي بكشف أسمائهم، إلى خطة قابلة

(*) القاشغيز: قبيلة إيرانية تقطن شيراز مشهورة بصناعة السجاد. (المترجم)

للتطبيق ولا تسبب أي حرج إلى الحكومة الأمريكية. وفيما يلـــي أهـــم ملامحهـــا الرئيسة بعد تبسيطها لأغراض الظروف الراهنة:

المجموعة العاملة: تكون الخطوة الأولى هي تحديد مجموعة أو أكثـــر داخـــل إيران لديها من الأسباب الكافية التي تجعلها تخشى من سيطرة آيـــة الله الخمينـــي. وكنا نعرف العديد منها (سواء كانت القبلية أو المهنية أو الدينية أو السياسية وحتى العسكرية). تستطيع أي من هذه المجاميع أو عدد متحد منها مـــن دخـــول مجمـــع السفارة وتحييد المقاومة، وإخراج الرهائن ونقلهم إلى نقطة تجمع خارج طهران.

التقرب: يمكن أن يتقرب عميل من المخابرات المركزية يتحـــدث الفارســـية ويفضل ألا يكون أمريكيًا من زعماء هذه المجموعات ويتم التوصل معه إلى خطة يمكن أن يقبلوها. ومن الطبيعي أن يكون الجزء الأساس من هذا اللقاء الأول هـــو الإغراء. ماذا تريد الجماعة من مكافأة؟ علينا أن نكون مستعدين لإعطائها لهم. ولا يكلفنا مهما أعطينا بقدر ما يكلفنا شن عملية أمريكية خالصة.

الطلاب المتعاونون: يكون الواجب الأول للمجموعة المختارة إجراء اتصـــال مع واحد أو أكثر من الطلاب مستفيدين من حقيقة أن حوالي أربعين منهم يمكن أن يكونوا في بيوتهم أو في خارجها ليلا. وكما أتذكر خطتنا. فقد كنا نحتاج إلى ثلاثة أو أربعة من العملاء الرئيسيين لنعتمد عليهم في صف الآخرين وإخـــراج القـــادة وصرف المتبقين.

التغطية والتضليل والتسميم: يجب أن تتم العملية تحت غطاء معين من البداية إلى النهاية، يجب أن تكون هناك طبقتان من التغطية وعدد لا يحصى مـــن خـــدع التضليل الهادفة لتوجيه أصابع الاتهام أو الإشارة في جميع الاتجاهـــات مـــا عـــدا الاتجاه الصحيح. حتى المهاجمون، يجب أن نجعلهم يعتقدون بأنهم يعملون لمصلحة الليبيين أو العراقيين أو لجماعة مسلحة منشقة أو حتـــى لعناصـــر مـــن الحكومـــة الإيرانية نفسها.

الجماهير: تظل أساليب حشد الجماهير والسيطرة عليها وقلب آرائها وتحييدها، المستخدمة من قبل المخابرات المركزية في تلك الأيام سرية. مع ذلك أستطيع القول إنه في زمني لم نكن نتعامل مع ما كنا نسميه (التملص من الجماهير) بعد أن تكون في الشوارع ولكن قبل أن تصل إلى المكان المقصود، أي عن طريق جمع قادة الجماهير ومثيري الشغب المحترفين في الصباح الباكر قبل أن تحتشد الجماهير ويتم استبدالهم بزعماء من قبلنا. وكذلك، ولحين ما تتوقف الجماهير بعد شيء من العرض الحكومي للأخلاق السامية ، فإن لدينا الوسائل الكيميائية التي تحيل الجماهير الغاضبة إلى جماهير سعيدة. (يشاع أن الهزليين من قسم الشرق الأقصى اعتادوا على رش بعض المواد بين أوساط ضيوفهم في حفلات جورج تاون).

الهجوم على الهدف: أولاً يجب "توهين" الهدف بمساعدة العملاء بين أوساط الطلبة- مثال ذلك عن طريق استخدام مخدر في الطعام أو الشراب. بعد ذلك يمكن إدخال رجال يبدون كالإيرانيين بأزياء جيش أو شرطة يدعون أنهم يريدون فقط نقل الرهائن إلى أماكن أكثر أمنا، وليس لتحريرهم. ولسبب نسيته الآن، رأينا أن الهجوم لابد أن يحصل في وقت النهار، وليس في الليل كما كنا نريد في البداية، حيث يجب أن تحصل عدة عمليات هجوم مضلل (تفجيرات وقتال مزيف.. الخ) قرب مدخل المجمع.

هجوم على الهجوم المضاد: بخلاف عمليات المخابرات المركزية السرية المعلنة التي نقرأ عنها في صحفنا حاليا، كانت عمليات النشاط السياسي المعقدة في المخابرات المركزية، تراعي المبدأ اللينيني القاضي بتركيز الاهتمام على إضعاف وتغيير اتجاه المعارضة أكثر من اهتمامنا بتقوية قدراتنا الذاتية. وبالنسبة لهذه العملية بالذات فإن هجومنا على الهجوم المضاد يجب أن يكون بشكل رئيس تخريبا إداريا حيث يجب فيه الدخول على الاتصالات الحكومة لإرسال وحدات الشرطة في مطاردات عقيمة وزرع بذور عدم الثقة والخلاف بين المتدينين.

ولأغراض الظروف الحالية، حذفت الأمور الأكثر تعقيدا في الخطة. على أية حال، فإن هذه الأمور تعتمد على العناصر الستة التالية: الاعتمـــاد علـــى القـــوى المحلية التي يتم تحفيزها محليا، والسرية المطلقة، والتفويض الكامـــل للمشـــرفين الميدانيين، وإخفاء جميع التحركات كي تبدو على أنها مجرد نقل للرهـــائن لمكـــان آخر بدلا من كونها إنقاذا لهم، والتخريب الإداري للقوى الأمنية والعسكرية المحلية وإجراء خاص يتضمن إعطاء العقاقير المقدمة من قبل وحـــدة صـــناعة الأدويـــة المؤثرة على العقل التابعة للمخابرات المركزية

وضعنا خطة أولية خلال فترة مأدبتنا يوم السبت، وأمضينا أنا وستيف وأحـــد أصدقائه القدامى من البنتاغون طيلة يوم الأحد نصوغها ونضعها في قالب لغـــوي مقبول. وفي صبيحة يوم الاثنين، جاء الشاب الذي يعمل في وزارة الخارجية وأخذ نسخة منها قائلا إن رئيس شعبته سيستخدمها كبديل لخطة معينة مقترحة من قبـــل الدكتور بريجنسكي يعارضها الوزير فانس- وأخذ صديق ستيف الذي يعمـــل فـــي البنتاغون نسخة منها في مساء اليوم السابق قائلا أنها خطة مناسبة أكثـــر مـــن أي شيء آخر رآه وانه سيحاول إقناع رؤسائه بها على أنها الخطة الوحيدة التي يمكن تطبيقها. ومن الطبيعي، إنني أرسلت نسخة منها إلى أحد الأصـــدقاء فـــي وحـــدة التخطيط بوكالة المخابرات، الذي لم يبد أي تعليق عليها لم نكن نعلم إلا فيما بعد أنه طلب من العديد من الأشخاص أو الجماعات، الحكومية منهـــا والأهليـــة أن تقـــدم مقترحاتها و"الخطوط العامة" التي تراها لوضع خطة متكاملة كتلك التـــي وضـــعها ضيوفي في عطلة نهاية الأسبوع.

وفي ٣ نيسان يوم الخميس، ظهر عند منزلي ممثل لمؤسسة وطنيـــة تمتلـــك صحفا عديدة قائلا إنه قد عرف بخطتي وإنه يرغب بنشرها في الأحد القادم بمائتي صفحة، وإحداها هي الواشنطن ستار. في البداية قلت له إنه مجنـــون ولكـــن بعـــد تفكير، خطر لي أنه يمكن أن يكون هناك تفسيرا واحد فقط عن معرفته بخطتنا. إذا كانت خطتنا ستبطق فعلا، فإن تسريب المعلومات لا يمكن أن يتم إلا مـــن خـــلال

عمل موظف ناقم وخائن للحكومة الأمريكية يريد تخريب العملية. ولكن طالما أن الخطة سوف لن يجري تنفيذها، فإن هدف مسرب المعلومات يمكن أن يكون فقط لإحراج الكسالى في الحكومة وخطر لي أيضا أن هذا الصحفي هو زميل قديم كان صديقا لالن دلاس وفرانك ويسنر وديك هيلمز وباقي الشخصيات الرفيعة في الوكالة وموضع ثقتهم ولا يمكن أن يكون طرفا في أي استخدام غير مسؤول لمعلومات مسربة تصدف في طريقه حتى لو كانت تتعلق بموضوع ساخن. كان حواره المقنع معي هو: أ، إنني لا أقترح عليك أن تكتب عما ستفعله الحكومة الأمريكية، بل فقط ما يمكن أن تفعله لو لم يكن هؤلاء الليبراليون الحمقى هم الذين يديرون حكومتنا".

قلت له: نعم، إلا أن علي أن أدقق الموضوع مع وكالة المخابرات، إنني عادة استخدم تقديراتي الخاصة في مثل هذه الأمور. ولكن من المؤكد أن هناك الكثير من الأفكار التي لا يمكنني ولا يجب علي أن أعرفها. إلا أن هذه ليست مخطوطة لكتاب أطلب الإذن منهم على نشرها، أنها مجموعة من المقترحات العملية لحل مشكلة معينة. هناك الكثير من المخططين الاستراتيجيين المؤهلين أكثر مني والتابعين للحكومة الأمريكية، محتارون بها في هذا الوقت. لهذا ما فعلته كان الآتي: في صباح يوم السبت التالي، أرسلت نسخة من الخطة إلى منزل مسؤول رفيع من المخابرات المركزية وأبلغته بأنها ستنشر في صحيفة الواشنطن ستار في اليوم التالي إذا لم يتصل بي أحد من المخابرات ليبلغني بعدم النشر. أرسلتها عن طريق مبعوث في العاشرة صباحا. بعد ذلك سألت المبعوث إن كان صديقي قد استلمها. قال نعم إنه وجد رجلا متوسط العمر تنطبق مواصفاته على المواصفات التي أعطيتها له، وكان يجز العشب في المنزل على العنوان الذي أعطيته له، وأن الرجل قد استلم الظرف دون أن يوقع على الاستلام. قال: ما هذا المستند؟ بعد ذلك ضحك ولم يبد أي حيرة لو كان لا يعرف ما أتحدث عنه. لهذا اتصلت بالصحفي لأعطيه موافقتي، وفي صباح اليوم التالي، كان القراء في أنحاء البلاد يقرأون نسخة

منقحة من خطتنا ومعها رسوم توضيحية على الصفحتين الأولى من قسم المقالات في صحيفة الصنداي- لقد كان حدثًا مثيرًا.

لكن لاشيء أكثر إثارة مما حصل في يوم الجمعة التالي عندما أذيعت الأخبار عن عملية إنقاذ، جرت محاولة لتدبيرها. لقد أبلغت بها من خلال مكالمة هاتفية في الصباح من قبل صديق ستيف الذي يعمل في البنتاغون، حيث قال إن تسعين شخصا من كتيبة الضياء الأزرق لمكافحة الإرهاب التابعة للجيش الأمريكي، والعديد من الربابنة والملاحين قد حلت بهم كارثة في الصحراء الإيرانية بينما كانوا يحتشدون للقيام بآخر مرحلة من التحرك إلى طهران حيث من المقرر أن يهاجموا السفارة الأمريكية في محاولة لتحرير الرهائن. فقد اصطدمت طائرة هليكوبتر بطائرة نقل، وقتلت ثمانية من أفراد الفريق محدثة فوضى في موقع التجمع، بينما تكدس باقي أفراد القوة الغازية في طائرات الهليكوبتر وفروا عائدين بسلام. ظلت الجثث خلفهم لتعثر عليها السلطات الإيرانية. من الواضح أنه قد حلت كارثة هائلة. أن أي شخص يعرف شيئا عن هذه الأمور يدرك حالا أنه لو كان هناك مائة أو حوالي ذلك من العسكريين "في الخنادق"، فإنه يجب أن يكون هناك ما لا يقل عن ألف لمساندتهم من الجيش والبحرية والقوة الجوية.

هناك فرق عشر ساعات في الوقت بين إيران وواشنطن، فقد وصلت الأخبار إلى شوارع طهران وأخذت الضجة التي يتوقعها كل من يعرف إيران، تتفاقم. فقد امسك مشاغبو الشوارع بأكياس الجثث التي تحتوي على بقايا الأجساد المتضخمة للعسكريين الأمريكيين ويلوحون بأجزاء منها أمام كاميرات التليفزيون. وكما هو متوقع، نقل "الطلاب" الرهائن" من مجمع السفارة إلى أماكن مختلفة في أنحاء المدينة، وأعلنوا بأنهم مستعدون للهجوم الأمريكي القادم عندما يحصل. (إن عملية نقل الرهائن هي نفسها التي خططنا بموجب خطتي لتدبيرها مع عملائنا السريين بالزي الإيراني).

أمضيت ساعة كاملة أرد على المتصلين هاتفيًا من جهات حكومية وأهلية، وأقسم لهم أغلظ الأيمان بأني لا أعرف شيئا عن الغارة ولو كنت أعرف لما كتبت أفكاري لبعض الصحف. بعد ذلك أمضيت اليوم في مقابلات إذاعية وتلفزيونية وفي صباح السبت التالي، دعيت إلى البنتاغون حيث أطلعني صديق ستيف وعقيد لم التق به من قبل على الخطة التي يفترض أن العملية قد استندت عليها. قالا إنهما لم يشتركا في وضعها ولم يعلما بها إلى أن تم استدعاؤهما إلى البنتاغون بعد ورود الأنباء عن فشلها، إلا أنهم وجهوا لممارسة صلاحياتهم للقيام بتحقيق شامل نيابة عن البنتاغون بالفشل الذريع الذي منيت به.

أمضيت الستة أسابيع التالية أبحث في خلفية العملية، وأقصد البحث في ذلك بصورة موضوعية وبعين خبير في "مثل هذه الأمور" وليس بطريقة فرق التحقيق التي إما أن تبحث عن أعذار أو تحاول النيل من المعارضين أو أن تسعى للحصول على نقاط أرجحية في الانتخابات القادمة. لم أستطع أن أعرف أي شيء عن العملية نفسها يمكن أن يقنعني بأنها عملية معقولة، رغم أنه علي أن أتفق في الآخر مع أصدقائي في المخابرات المركزية بأنها ليست سيئة التخطيط كما تذكر التقارير الصحفية. إلا أن الاستنتاج الذي توصلت إليه كان الآتي: إنها من حيث الجوهر والصفة، من نمط العمليات التي يمكن أن يتوقع أن تقوم بها الحكومة الأمريكية في ظل هذه الظروف المحددة، رغم أن تاريخ العمليات من هذا النوع يشير دائما إلى فشلها. إن العملية التي خططنا لها أنا وزملائي القدامى من المخابرات المركزية في عطلة نهاية الأسبوع في ٢٢ آذار، قابلة للتطبيق، وليس هناك شخص أقل من الرئيس كارتر لم يعترف فيما بعد بأنها قابلة للتطبيق. إلا أنها لم تحظ بمصادقة مجلس الأمن القومي الذي ناقش في (١١) نيسان الحجج المؤيدة والمعارضة للعملية التي جرت بالفعل .

ولم يكن لها أيضا أن تحظى بمصادقة أي مجلس آخر مماثل لمجلس الأمن القومي تحت ظل حكم أي رئيس للولايات المتحدة من كندي إلى ريغان، إن السؤال المهم المطروح هو : لماذا؟

ما العلة في حكومتنا المنتخبة ديمقراطيا التي تدفع رؤساءها لتفضيل نوع من العمليات.

القضية الثانية تبدأ في ١٩٨٢، عندما زار عدنان خاشقجي واشنطن للقاء بـــد ماكفرلين، مستشار الأمن القومي، لمناقشة بعض الأفكار حول إحلال الســـلام فـــي الشرق الأوسط. وقد سجل بوب شاهين، كما هي عادته (حتى في البيت الأبـــيض) سرا المحادثة بأحد أجهزة التسجيل المثبتة في حقيبة يدوية. وفي اليوم التالي، شغل بوب المسجل في شقة عدنان بمانهاتن، وناقشت الموضوع مع عدنان على مائـــدة الغداء. من الواضح أنه قد زود ماكفرلين بصورة جذابة عن نشاطاته خلال الأشهر الماضية، وأبهره بالأسماء التي فضل عدم كشفها. لقد تحدث مع كل زعيم أوربـــي وشرق أوسطي من كافة المناصب، وعلم أن لديهم أفكارًا تكمل أفكـــاره ويمكننـــي القول من نبرة صوت ماكفرلين إنه قد أعجب به.

وبعد أن استمعت إلى التسجيل، طلبت من عدنان إن كان بإمكاني أن أجـــري بعض التغييرات على خطته لتأخذ بالحسبان بعض التطورات في البيـــت الأبـــيض التي اعرفها ولا يعرفها هو، وقال حسنا. إلا أنه أضاف أن علي أن أتذكر أن مـــا كان يسعى إليه هو تزويد ماكفرلين بفكرة شاملة عن الموقف العـــام فـــي الشـــرق الأوسط بما يمكن من وضع أساس لمشروع كبير في طريقه إلى الظهور يتضـــمن فكرة أن يرعى الرئيس ريغان "خطة مارشال للشرق الأوســـط" كوســـيلة لإنهـــاء الصراع العربي- الإسرائيلي وحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين وإنهاء النزاع فـــي لبنان.

قمت بذلك العمل بصورة مستعجلة، بحيث لا يبدو كأفضل جهد لـــي لإنجـــاز قطعة أدبية، إلا أنه قدم أفكار عدنان بما يكفي من الدقة، وبلغة مناسبة لمتلقيها فـــي البيت الأبيض. وقد وضعها بوب بملف جميل تحت عنوان "خطة مارشال للشـــرق الأوسط"، وأرسلها إلى ماكفرلين مع نسخ منها إلى الملـــك فهـــد والملـــك حســـين والرئيس مبارك ورئيس الوزراء بيريس و(من خلال الملك حسين) إلـــى الـــرئيس العراقي صدام. وأخذت نسخة ووضعتها تحت رسالة تقديم مناسبة وأرســـلتها إلـــى مسؤولي في المخابرات المركزية.

خلال السنوات الأربع التالية، نمت الفكـرة سـريعا، وانتعشـت، وانتحلهـا المسؤولون الحكوميون، والمواطنون من خارج الحكومات الذين يبحثون عن فرص سريعة للنجاح. في نفس الوقت واصل عدنان محادثاته مع طرفي القضـية، مـع الجانب العربي بما فيه عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ومـع الجانـب الإسرائيلي الذي لا يشمل بيريس فقط بل أيضا دافيد كيمحي، الدبلوماسي الإسرائيلي البارع، وهو دبلوماسي سري وستراتيجي استخباري. كما أنني أيضا بقيت مشتركا في الموضوع. حتى إنني زرت دافيد في إسرائيل في مساع لتعزيز شكل من أشكال التعاون بين خاشقجي وكيمحي يمكن أن يجمع مواهب الطرفين بصيغة واحد زائـد واحد يساوي أكثر من اثنين .

وبعد أربع سنوات، وخلال أسبوع أمضيته مع عدنان على يخته، جرى إيقاظي من قيلولة بعد الظهر، ليبلغوني أن صديقي القديم من المخابرات الإيرانية السـافاك (مانوجي قربانيفار قد تسلل إلى ظهر اليخت وأنه وعدنان يريدان انضمامي إليهمـا في مكتبه. لقد حاز مانوجي على مكانة خاصة فـي قلـوب ضـباط المخـابرات المركزية السابقين لكونه أول إيراني في تاريخ الوكالة يفشل اختبارا لجهاز كشـف الكذب، وبذلك أثبت أنه يعرف حقا الفرق بين الكذبة والحقيقة. إذا كانت لديه أيـة أفكار عن آخر التطورات في إيران، فإنني أريد سماعها. وقد راودتنـي فكـرة أن لديه أيضا بعض الأفكار حول كيفية إمكان إعادة الأمور إلى نصابها هناك، وبعـد عدة ساعات من الحديث، اتضح أن لديه فعلا بعض الأفكار. سألني عدنان إن كان بالإمكان أن أوليها نفس الاهتمام الذي أوليته "لخطة مارشال الشرق الأوسط" قبـل أربع سنوات، قلت له سأكون مسرورا. بعد ذلك قال عدنان (وأريد هنا من قرائـي الذين سمعوا روايات أخرى عن قصة إيران غيت أن يبدو انتباها أكبر) إنه معجب بهذه الأفكار مثلي، إلا أنه يريد أن يقدم هذه الورقة الثانية إلى ماكفرلين بتوقيعه هو كملحق فقط لورقة "خطة مارشال". وبقدر تعلق الأمر به شخصيا، فقد كان مهتمـا بمشروع "مانوجي"، فقط إلى الحد الذي يرتبط فيه المشروع بخططه لإحلال سـلام شامل في الشرق الأوسط.

وهكذا عدت إلى أكسفورد، وكتبت الورقة بسرعة لتمثل نسخة غير مشذبة من أفكار مانوجي كما فهمتها، واتجهت بإحدى طائرات عدنان الصغيرة إلى جنيــف، حيث سيجري اللقاء القادم لنا نحن الثلاثة. ولكن خـــلال ســاعتي الطيــران، بــدأ يراودني بعض القلق، في البداية، انخدعت بما رأيته في أفكار مانوجي من عناصر لعملية نشـــاط سياسي تقليدية من النوع الذي افهمه جيدا. لقد أصبح الوقت متأخرا بما لا يسمح لإنجاز عملية اجاكس أخرى بنجاح (رغم إنني بقيت مقتنعا أنه يمكــن إنجاز عملية اجاكس أخرى لو كان قد تم تنفيذها قبل أن يستفحل مرض الخميني-مانيا)(*) ، إلا أنه يمكنني بسهولة أن أتصور القيام بعملية مـــن طـــراز عمليـــات المدرسة القديمة كتلك التي يمكن أن تنفذها بنجاح هيئة العمليات الخاصــــة التابعــــة لفرانك ويسنر. مع ذلك، كانت هناك مشكلة واحدة. يمكن أن تتضمن عملية نشـــاط سياسي كتلك التي يتطلبها الموقف الحالي في إيران التعامل مع مسؤولين إيــــرانيين هم ليسوا معادين فقط للولايات المتحدة بل بعيدون عن حدود فهم الأمريكيين الذين يضعون وينفذون السياسة الخارجية في ظل إدارة ريغان. وقد ظل هناك العدد القليل من ضباط المخابرات القدامى في وكالة المخابرات المركزية الــذين يســتطيعون المناورة بشكل ناجح داخل الأمم ذات الثقافة المختلفة، إلا أن بيل كيسي مدير الحملة الانتخابية لريغان الذي أصبح مديرا للمخابرات المركزية، قد نحاهم جانبا لمصلحة المهووسين بالعمليات شبه العسكرية كتلك التي تجري في أمريكا الوسطى.

ليتني أستطيع الادعاء بأنني قد عبرت عن هذه الهواجس عندما التقيت عدنان في جنيف، ولكني لا أستطيع. أن القلق الوحيد الذي عبرت عنه كان إلـــى عـــدنان نفسه، حيث هناك أسباب وجيهة تحتم عليه أن يلتزم بدوره "كرجل دولـــة ورجـــل أعمال دولي"، وتجنب أي تورط يمكن أن يمنحه لقب "تاجر سلاح دولي". عدت إلى أكسفورد تحت انطباع أنه قد وافق. قال بوضوح إنه من الآن فصـــاعدًا قـــد يقـــدم

(*) تعني مفردة مانيا الهوس أو الجنون، ويقصد المؤلف بعبارة الخميني-مانيا، الهـــوس الـــذي سببه الخميني للإدارة الأمريكية. (المترجم)

لمانوجي أي معونة معقولة في حدود إمكانياته، إلا أنه سيتجنب أي اشتراك بنفسه. وعندما عدت إلى دار الاستراحة في أكسفورد وجدت برقية مسجلة على جهاز الهاتف العائد لي من ضابط المخابرات المركزية السابق المتابع لعدنان في واشنطن يسألني "ماذا تفعل أنت وعدنان بحق الجحيم؟". إلا أنني لم أستنتج منه خلال ذلك الوقت، أن عدنان ومانوجي قد ذهبا في تخطيطهما أبعد مما أطلعاني عليه وكانت واشنطن تعرف كل شيء لا أعرفه. وجوابا على النداء الهاتفي، كتبت تقريرا عن لقائي معهما، وأضفت جملة أو جملتين بخصوص هواجسي وكتبت كل ما يدور في ذهني. كنت أعتقد أن هذا هو كل شيء. لم أكن قد سمعت عن "إيران غيت"، أو تورط عدنان بها، إلا بعد شهر عندما اتصل بي ناصر النشاشيبي من جنيف، ولفت انتباهي، بصوت يرتجف بالخوف والسخط الفلسطيني، إلى مجلة التايم التي تغطي خبرًا حول عدنان.

وبين ربيع ١٩٨٤ ووقت ظهور الأخبار حول "إيران غيت" في التايم وباقي الصحف الأخرى – تضاءلت حفلات عدنان. إضافة إلى ذلك، ومع انتشار إشاعات حول إفلاسه المفترض، فإنه كان يعتقد أن الاهتمام به قد أصبح قليلا. ولكن خلال اليوم الذي أعقب عيد الميلاد، اتصل بي ليقول إن الأوقات السعيدة قد عادت ثانية ويدعوني إلى ماربيلا لحضور الاحتفال المعتاد لعشية رأس السنة. ذهبت لأجد أنه لا توجد حفلة أو شخصيات ثرية بل أسرة عدنان المتضخمة وعدد من الشخصيات الملكية لتضفي طابعا مميزا للمناسبة. كذلك لم يكن الاستقبال المعتاد لمنتصف ليلة السنة الجديدة حسب ما جئت لأتوقعه. فبدلا من نفخ الأبواق ودق الأجراس، كان مستشار عدنان يترنم بصوت "أم م م" عندما دقت الساعة الثانية عشرة، ثم فترة صمت وقور تلتها جولة من التقبيل التي لا يقبل فيها الرجال السيدات فقط بل أيضا الرجال الآخرين. كان هدف عدنان الرئيس من إقامة الحفلة هو تبديد الإشاعات بأنه قد أفلس، إلا أنه كان أيضًا يريد إقامة نوع من المراجعة حول "قضية إيران غيت" معي ومع مانوجي، الذي كان هناك خلال حفلة نهاية الأسبوع مع زوجته الفاتنة

جيجي وأطفاله في عمر فوق العشر والذين يتحدثون الإنكليزية بلكنة أمريكية ملقنة لهم جيدا.

كان ترتيب محادثاتنا مثاليا يذكرنا بفندق جزر الهند الغربيـة الـذي كانـت تستخدمه المخابرات المركزية في زماني للتحقيق المتروي مع الهاربين السـوفيت. عقدنا عدة جلسات، لم يكن يشعر فيها عدنان أو مانوجي بالندم، بل كانوا يريـدون دراسة ما يمكن إنقاذه، إذا كان هناك شيئا يمكن إنقاذه، من العملية. ولم يكـن لأي منهما (وقد كنت واثقا ولا أزال من ذلك) مصلحة بجزء الصفقة المتعلق بالكونترا، إذا كان يعرفان شيئا عنها. إن مصلحة عدنان في القضية محددة بمدى ما يمكن أن تساهم في دعم خططه الشاملة لإحلال السلام في الشرق الأوسط، وكان مـانوجي يريد فقط متابعة التقدم الذي أحرزه في مفاوضاته مع أية الله رفسنجاني(*) النـاطق باسم البرلمان الإيراني. لقد دار إيضاحه الذي قدمه بالفرنسية والإنكليزيـة حـول النقاط التالية:

١- أن أية الله رفسنجاني هو الخليفة الأكيد للخميني العجوز الـذي يبلـغ حينهـا الثمانين من عمره وصحته سيئة.

٢- إنه الآن في طور خلق مركز قوة توفق وتـوازن بـين العناصـر السياسـية المختلفة في البلاد- أي خلق "ديمقراطية حقيقية" كما يسميها مانوجي بمعنى أن تكون النتيجة إقامة تمثيل حقيقي للقوى السياسية في البلاد وليس مجرد نتـاج "لانتخابات حرة ديمقراطية" لشعب لا يعرف ما يريد ويتبع فقط أي انتهـازي ذرب اللسان يأسر خيالهم (لقد أبدى مانوجي في هذه النقطـة معرفـة مثيـرة للإعجاب حول ما يمكن أن يشكل مركز قوة مؤثرًا في بلاد مثل إيران).

(*) لم يكن رفسنجاني آية الله بل حجة الإسلام في الدرجات العلمية لأئمة الشيعة الإمامية التـي تبدأ من حجة الإسلام والمسلمين ثم آية الله ثم آية الله العظمى وهي أعلى الدرجات العلميـة الدينية . (المترجم)

٣- أن فرصنا لزعزعة وقلب نظام رفسنجاني الذي سيخلف آية الله الخميني، ضئيلة، لهذا من الأفضل لنا مواجهة حقيقة أن الجمهورية الإسلامية قد جاءت لتبقى، وعلينا الاستفادة من ذلك بأقصى ما يمكن.

٤- على أية حال، ليس رفسنجاني رجلا سيئا إلى هذا الحد، فمن المهم بالنسبة لنا، أنه أفضل زعيم محتمل يلوح في الأفق لأنه يفهم أن مشاكل إيران الداخلية المستعصية لا يمكن حلها إلا باتباع سياسة خارجية تتضمن تسوية للخلافات مع الحكومة الأمريكية.

إلا أنه فيما يلي أفضل جزء مثير من المعلومات التي نقلها مانوجي وهو: أنه وآخرين (لم يذكر أسماءهم) قد أنشأوا مؤخرا الوسائل التي تكفل اطلاع رفسنجاني على مجريات العالم اليومية، وفي نفس الوقت "تعليمه" تدريجيا" الأساسيات اللازمة كي يفهم دلالة المواد العديدة التي تكتب له. وقد عرض مانوجي علي بعضًا من نماذج هذه التقارير المكتوبة بإنكليزية سليمة، إلا أنها مجزأة إلى عبارات وجمل بحيث يمكن ترجمتها إلى الفارسية. كانت تقارير ممتازة تضاهي من الناحية الواقعية والتحليلية ما يرد إلى الرئيس ريغان من مستشاره للأمن القومي. كانت تشبه إلى حد كبير تلك التقارير التي يعدها لنا عيسى صباغ لإعطائها إلى الرئيس ناصر بحيث إنني كنت أشك أن تكون للمخابرات المركزية يد فيها ، وهو شك لا أزال أضمره حتى الآن.

وفي الآخر، زودنا مانوجي بتقييم مفصل رأيته في ذلك الوقت مضحكًا عن زيارة ماكفرلين والعقيد أوليفرنورث إلى طهران لعقد صفقة مقايضة الأسلحة بالرهائن. إذا ما تحدثنا من البداية، فإنهما قد ذهبا في منتصف شهر رمضان، وهو شهر الصيام للمسلمين حيث يكون الإيرانيون فيه على غير عادتهم في الضيافة. ثانيا، لم يسمع المسؤولون الإيرانيون الذين استقبلوا الوفد أبدا بماكفرلين أو نورث، ولا تعني عناوينهم لهم شيئا، وهو الأمر الذي ازداد حجمه أكثر من قيمته الحقيقية بالوصول المبكر للطائرة وإبقاء الزائرين ينتظرون ويتململون بعصبية بينما كانت

لجنة الاستقبال الإيرانية متعطلة في الزحام المروري في الطريق إلى المطار. ثم بعد ذلك جاءت "المفاوضات"، إذا كان بالإمكان تسميتها بذلك فقد كان مانوجي يتخيل السيناريو الذي يجلس بموجبه ممثلو الجانبين على جانب واحد من المنضدة لحل المشاكل المشتركة، إلا أن ماكفرلين قاد المفاوضات من موضع الخصم الذي يشك بالإيرانيين دون أن يدرك أنهم يشكون به أيضا. كان مانوجي يدرك أن الخطوة الأولى هي بناء ثقة ومصداقية متبادلة، إلا أن كلمات ماكفرلين الأولى كانت "إننا سنقوم بهذا لكم إذا ما قمتم بذلك لنا"، مصراً على أنه إذا لم يقم الإيرانيون بالخطوة الأولى فإن المفاوضات ستقطع. كانت المعلومات التفصيلية التي حصلت عليها من قربانيفار مزينة بالطبع لصالح الإيرانيين إلا أن تقريرا حصلت عليه فيما بعد من صديق بريطاني تابع، الأمر كله كذبابة على الحائط دون أن يلحظه أحد، قد أكد تقريبا هذه المعلومات. قال إن الأمر يصلح كمادة لأحد الأفلام التي تخرجها ابنتي تحت عنوان "كيف لا تتعامل مع الشرقيين"- بينما كان هناك لسبب لا أستطيع سوى تخمينه، احد الضباط القدامى من المخابرات المركزية من أصحاب الخبرة ويتحدث اللغة الفارسية قد جاء معهم ولكن جلس بصمت خلف المفاوضين دون أن ينبس ببنت شفة.

لم أكتب ما دار في لقاءات ماربيلا لأي شخص في المخابرات المركزية- وبعد أسبوع من التفكير بما سمعته، ركبت طائرة إلى واشنطن وقدمت تقريرا شفويا لما دار إلى بعض الأشخاص الذين أبلغني أصدقائي في المخابرات المركزية بأنهم سيكونون من الآن مسؤولين عن هذا الموضوع بناء على أوامر الرئيس ريغان من اجل التوصل إلى حقيقة قضية إيران غيت. أخبرتهم بالضبط كل ما كتبته لكم في الصفحات السابقة. باستثناء أنني قد دعمت بأقوالي كلاً من عدنان ومانوجي على أساس أن لهما ثقافتهما الخاصة، وأنهما ليسا مواطنين أمريكيين ومدينين لنا بأي ولاء معين. وقلت نفس الأمر بخصوص دافيد كيمحي. وقلت إن الشكوى من أنه يعمل ضد المصالح الأمريكية، هي ليست شكوى غير واقعية فحسب، بل أنها أيضا شكوى غبية. فإسرائيل دولة ذات سيادة ولاعب على المسرح الدولي بحكم حقها

السيادي وليست تابعًا للولايات المتحدة. علينا أن نتوقع من مخططيها الاستراتيجيين أن يقوموا بخطوات لمصلحة إسرائيل، مهما كان تأثيرها على المصالح الأمريكية البحتة. رأى دافيد في "خطة مارشال" وملحقها حول إيران التي وضعها عدنان بأنها تمثل فرصا عديدة تتجاوز حدود الأهداف العامة للورقة وليست لها علاقة بالمصالح الأمريكية. على سبيل المثال، تضمنت الورقة عرضا للأساس المنطقي الذي يبرر شحن الأسلحة لإيران، وهو العمل الذي قاما به مؤخرا. كذلك وفرت الورقة فرصة لكسب تقدير الحكومة الأمريكية. فإذا ما قبل الأمريكيون بالخطة، فإن الإسرائيليين سيحولون صفقاتهم السرية المتنامية للأسلحة إلى وسيلة لمساعدة الحكومة الأمريكية لحل أحد أكبر مشاكلها الجيوبوليتية. ثالثا: أنها قد وفرت وسيلة أخرى لإطالة عمر مأزق الحرب العراقية الإيرانية، وبذلك يتم تخفيف الضغوط الشديدة على إسرائيل من محيطها العدائي. وأخيرا، يمكن أن تكسب إسرائيل زبونًا كبيرًا للأسلحة التي تشكل منتجاتها ثلث الصادرات المربحة.

لهذا فإني أرى قضية إيران غيت من خلال القليل من المعلومات التي أعرفها عنها (ولا أعرف شيئا عن جميع الترتيبات المالية الخادعة أو عن تحويل أرباح مبيعات السلاح إلى الكونترا) أن اللاعبين الإيرانيين والإسرائيليين قد قاموا بالخطوات التي كان يجب أن نتوقع منهم القيام بها عندما ابتكرنا خطواتنا الخاصة بنا. وهذا يوفر لي فرصة (كنت أعتقد أنني لا أصل إليها) لتقرير حقيقة مهمة في تسجيلي لهذه القضية وهي: "لا يمكنك أن تفوز بلعبة معينة، إذا لم تكن تعلم انك مشترك بها". كان فريقنا في الداخل يعتقد أننا نلعب لعبة معينة، بينما نحن نلعب في الحقيقة لعبة أخرى- وقد ضاعف فريقنا خطأه بإرساله شخصيات كبيرة بهراوات بدلاً من إرسال قليل من المفاوضين متعددي الثقافات ومعهم خناجر صغيرة لاستخدامها عند الحاجة.

وعندما أخذت في الآخر أكتب تقريرًا إلى أصدقائي في الحكومة الأمريكية، بدأته بالقول بأنه لاتزال هناك فرص ليست بالقليلة تتلألأ تحت رماد هذه القضية، ثم بدأت بذكرها كالتالي:

تم تنبيه الشخصيات المهمة في الحياة الإيرانية السياسية والدينية نحو إمكانيـــة إقامة علاقة مفيدة للطرفين مع الولايات المتحدة وكذلك نحو أخطار عدم إقامة مثل هذه العلاقة.

حتى إن آية الله الخميني، وفي الوقت الذي لم يغير وجهة نظره عن الولايات المتحدة بكونها "الشيطان الأكبر" قد بدأ يعترف أنه ربما تكون هناك بعض الفوائـــد لإيران من إقامة "تعاون محدود" مع الوكالات الاستخبارية الأمريكية فـــي مراقبـــة الحدود الإيرانية- السوفيتية.

وقد أصيب العراقيون والإيرانيون بالصدمة لإدراكهم أن إطالة أمد حـــربهم، مهما كانت نتيجتها النهائية، ستكون لها عواقب وخيمة عليهما.

وفي النهاية، اقتنعت أنه بترك هذه الاحتمالات المغريـــة، فـــإن إدارة ريغـــان ترتكب خطأ، وربما يكون مانوجي قربانيفار على حق عندما كان يقول متحدثا عن أبناء بلده: "إن وضعنا يشبه حالة مريض، تم فتح جسده لإجراء جراحة في القلب، إلا أن طبيبه قد فر من صالة العمليات، وظل هناك طبيب آخر ينتظـــر فـــي أحـــد أجنحة المستشفى مستعدا لتولي الأمر"- ويقصد به- السوفيت.

ولد هذا شعورا لدى البعض بأن الحكومة الأمريكية تتفق مع رعاة الإرهـــاب ومحتجزي الرهائن بينما تحث حلفاءنا الأوربيين للانضمام في تجـــريمهم. ولكـــن برؤية ذلك على أنه خلل في العملية يفقد العمليات السرية هدفها الأســـاس. تبتعـــد جميع الحكومات أحيانا سرا عن سياستها المعلنة عندما تكون هناك مصلحة معينـــة في ذلك، وتبقي هذا الابتعاد سرا وتحاول إنكاره بصورة جديرة بالتصديق، فبدلا من تعيين هواة على مستوى عال لمهمة معينة، كان يجب على الحكومة الأمريكيـــة أن تستخدم شخصيات محترفة قليلة الشأن سريعة الانتهاء ممن تفهم الإنذار الشائع: "إذا ما نجحت فلن تتلقى الثناء، وإذا ما فشلت ، فلم نسمع بك أبدا".

والحقيقة، أن الشكوى الوحيدة التي سمعتها في أجهزة المخابرات الأوربية هي حول الطريقة التي جرت بها العملية وليست العملية نفسها.

الفصل الرابع والعشرون

نظرية الكارثة المقابلة ومستعمرة النمل

في صباح يوم لندني بارد ماطر بعد أسبوع من قراري بكتابة هذا الكتاب، تلقيت مكالمة هاتفية من صديق طيب هو نائب الرئيس الذي تولى مسؤولية العمليات الأوربية في إحدى شركات النفط التي كانت زبونة لدي خلال فترة تقاعدي. وبصوت متوتر، قال إنه بحاجة "لمعروف شخصي كبير"، وطلب مني أن أقابله حالا في محل إقامته بلندن على بعد مسافة قليلة من الشارع الذي يقع فيه منزل أسرتنا في حي سنت جونزوود. ورغم أن الوقت كان قبل التاسعة صباحا، إلا أنني وجدت في مكتبه مديرا من الشركة في نيويورك ومحاميها في لندن ورجل صامت في متوسط عمره لم يعرفني به. كانت المشكلة التي أوضحها لي بعد أن أخذني إلى غرفة مقابلة على مرمى أسماعهم، هي اختفاء ابنته الكبرى ذات الخمسة وعشرين عاما كليمنتاين قبل ليلتين.

كانت الحقائق المتوافرة أمامنا بسيطة. ففي ليلة الأحد وخلال دعوة عشاء وموسيقى كالتي يقيمها "بوب" نائب رئيس الشركة لأكثر من عشرين من ضيوفه كل شهر، منحت الابنة الإذن لنفسها وارتدت ملابس ثقيلة ضد المطر والبرد، ودون أي توضيح تركت المنزل مع كلبها ذي الحجم الكبير عرفات. وحل منتصف الليل ولم تعد. مع العلم أن التأخر ليلا هو ليس من عادة كليمنتاين خاصة في أيام الأحد حيث عليها أن تذهب إلى العمل صباح اليوم التالي، وقد اخذ بوب وزوجته يقلقان. وبعد ذلك، وخلال محادثة هاتفية روتينية كان يجريها مع رئيس الشركة جون كل أحد عند منتصف الليل، ذكر له اختفاء كليمنتاين، ولدهشته، فقد لاحظ أن جون قد اهتم اهتماما غير طبيعي بالموضوع. فقد سأل عدة أسئلة محددة عن عادات كليم

الشخصية، وقال إذا لم تظهر عند التاسعة من صباح اليوم التالي، فإن على بوب أن يدعو ضابط أمن الشركة في مانهاتن، بغض النظر عن كون ذلك سـيكون عنـد الساعة الرابعة صباحا. وفي صباح اليوم التالي وعندما لم تظهر كليم، فعل بـوب كما طلب جون. وبعد ساعات قليلة استقل ضابط الأمن طائرة الشركة وجلس فـي الغرفة المقابلة مع المحامي البريطاني والرجل الكالح غير المعـروف ذي البدلـة الرصاصية.

إذن ما المطلوب مني؟ قال ضابط الأمن: "إيجاد الفتاة" لماذا أنا. ولماذا لـيس الشرطة؟ قال الرجل: "لا نريد الشرطة، وأريدك أن تأخذ قولي كما هو". حسنا، لم اخذ قوله كما هو. لقد طلب مني أن أقوم بمعـروف شخصـي يتطلـب مهـارات وعلاقات، وأنا في عمر فوق السبعين، قد كبرت عليها بسنين عديدة. فقبـل عشـر سنوات، كنت سأتولى تكليف الشركة دون سؤال، ولكن أن أؤدي معروفا شخصـيا وبعمري هذا، فإنني أريد معرفة كل التفاصيل. التفت إلى بوب حيث هـز كتفيـه إشارة إلى عدم معرفته للجواب. وقال: "انظر، أنا لا أعرف أكثر مما تعرف لمـاذا اعتبرت هذه القضية قضية الشركة بدلا من اعتبارها مشكلة عائلية، لهذا فإن جزءاً من المعروف الشخصي الذي اطلبه منك هو أن تنضم إلي فـي جهلـي بـالأمور وتساعدني فيما ينبغي القيام به للعثور على كليم. وإن الشركة ستدفع لك أجـورك مهما كانت قيمتها. ثم تحدث ضابط الأمن الذي اتضح أن اسمه جيري كاوالسـكي، (وهذا هو اسمه الحقيقي) وهو رجل لطيف، بطريقة تظهـره بأنـه أفضـل مـن الآخرين. حيث قال إنه التحق بالشركة قبل أسابيع فقط من معرفة مكتب التحقيقات الفيدرالي بقلق رؤسائه الجدد من الإرهاب الدولي بشكل عام ومن احتمال خطـف بعض المديرين التنفيذيين بالشركة بشكل خاص. وأضـاف: "لا يفتـرض بـي أن أخبرك بذلك. إلا أن لدى المكتب ملفا عن كليمنتاين. لقد رأيناها مؤخرا مع أشخاص غرباء". وقد خمنت في الحال أنه يقصد أعضاء في "لجنة نحو تفاهم انكلو-عربـي أكبر" **CAABM**، والتي حضرت كليمنتاين بعض اجتماعاتها.

إذن هذا هو الأمر. من الواضح أن هناك جانبًا أمنيًا حساسًا بالموضوع ولكن إلى جانب ذلك قرر كل من جون في نيويورك وبوب في لندن بأن العثور على كليمنتاين يتطلب إجراءات استثنائية بدلا من تحقيق اعتيادي للشرطة. ورغم تركي الوظيفة، فإن كتاباتي الجارية عن الإرهاب الدولي قد جعلتني الرجل المناسب لهذه المهمة. وكان بوب يعرف حتى لو لم يكن جون يعرف، أنه إذا كانت هناك حاجة لتدخل الشرطة البريطانية (السكوتلانديارد) فإنني أستطيع أن أذهب للأشخاص المناسبين هناك دون أن يكتشف بوب ذلك. وكان الأخير يعرف أنه إذا اكتشف ذلك، فإن قوانين الشركة لا تلزمني كما تلزمه وتلزم أي مستخدم آخر في الشركة يود الحفاظ على عمله.

لهذا تركت جانبا الأمر بأن أتجنب الشرطة. فقد جلب نداء هاتفي إلى مركز شرطة حي سنت جونزدود خلال دقائق صديقي ملازم الشرطة بات كمنغر الذي كان واجبه قد انتهى توا. وقد وافق على أن يبتعد قدر ما يستطيع عن إبلاغ رئيسه بالقضية، وبغباء انضممت أنا وبوب إلى كاوالسكي والضابط في إجراء بحث من بناية إلى أخرى في منطقة برمروس هيل، حيث كانت كليم عادة تتنزه مع كلبها بأمل أن نجد شخصا يكون قد رآها. وقد وجدنا بعض الأشخاص الذين رأوها تدخل المتنزه، إلا أنه لم يرها أحد تغادره وقد وجدنا كلبها جالسا بهدوء بوضع الانتظار خارج حانة في الزاوية الشمالية الشرقية من المنتزه. كانت الحانة، كما يبدو في هذا الوقت، هي نهاية البحث. لهذا عدنا إلى منزل بوب لنجمع أفكارنا.

لم يستغرق الأمر منا أكثر من بضع دقائق لننتزع من بوب الاعتراف الذي كان ينكره وهو أن كليم كانت تقابل ما يراه أهل نيويورك بأنهم أشخاص غرباء لطاف. وفي الوقت الذي كان يصر على أنها مجرد فتاة أمريكية عادية ليست لها أية مشاكل سياسية. اعترف بأن لها وجهات نظر عن الصراع العربي الإسرائيلي تولدت لديها خلال دراستها في لبنان وكان زملاؤها القدامى في المدرسة يسعون أحيانا للقائها وكان بعضهم من الفلسطينيين. وقال : إذا لم نحصل على أي مفتاح

للقضية في لبنان، حتى لو كان بعد لجوئنا إلى "الفـــرع الخـــاص" مـــن "الشـــرطة البريطانية" فعلي أن أذهب في الحال إلى نيويورك لأعرف من جون ماذا كان فـــي ذهنه عندما استثير بشدة خلال المكالمة الهاتفية في ليلة الأحد الماضي. وقال الرجل ذو البدلة الرصاصية متحدثا لأول مرة إنه بصـــفته مراقـــب حســـابات الشـــركة "للمشاريع الخاصة"، فانه مخول بدفع مصاريفي وأجور عالية لي بدل موافقتي على أداء هذه المهمة التي تعتبر أدنى من عمري ووضعي الاجتماعي.

ولكوني قد بدأت للتو في كتابة هذا الكتاب ودخلت في شأن الإرهاب الـــدولي كضابط سابق في المخابرات المركزية فقد رأيت في المعروف الذي أسديه لبـــوب فرصة عظيمة لا ينبغي تضييعها. لهذا أمضيت أسبوعا في لندن أزور أصدقائي في الشرطة البريطانية والاستخبارات البريطانية **MI5** وجهاز المخابرات الســـرية **SIS** والسفارة الأمريكية لأحصل على أحدث المعلومـــات عمـــا تفعلـــه المجموعـــات الفلسطينية في لبنان فيما يتعلق بموضوع الخطف أو التجنيد أو غســـيل الأمـــوال والعلاقات مع الجيش الجمهوري الايرلندي والمجموعات الإرهابية الأخرى أو غير ذلك. بعدها، ومع أكبر قدر ممكن من هذه المعلومات التي حشوت بها ذهنـــي فـــي أسبوع واحد، ذهبت أولاً إلى نيويورك ومن ثم إلى واشنطن. وفي نيويورك، وجدت أن تعليلهم لاختفاء كليمنتاين هو اعتباره قضية تستدعي فقط الوقاية والـــدفاع دون الإشارة إلى الفلسطينيين أو المجموعات الأخرى التي قد تحظى بتعـــاطف داخـــل البلدان المنتجة للنفط. وفي واشنطن، وجدت مكافحة الإرهاب قد أصبحت صـــناعة متنامية بمعونة بعض السياسيين الذين يستدعون شخصيات لامعـــة وكثيـــراً مـــن الخبراء الأدعياء الذين يبدأون بالتحليل والنقد القاسي. لم تزودني محادثـــاتي فـــي المدينتين بأية أدلة عن القضية، إلا أنها لفتت انتباهي إلى مضامينها وأطلعتني على الجو المفترض أن تحاول الحكومة الأمريكية فيه التعامل مع الإرهاب الدولي.

يمكنني أن أستمر في وصف الأمور الكثيرة المربكة من هذا القبيل، إلا أننـــي ولكون هذا الكتاب هو مجرد سيرة ذاتية، فسأكتفي من الآن بالتعليق فقط عن كيف

قادت تجربة كليمنتاين إلى مفهوم "الكارثة المقابلة" وهو فهمي الشخصي لنظرية الفاجعة كما يفهمها أبسط اللاعبين. إن التجربة الفريدة من النشاط الذي بدأ في منزل بوب بلندن في صباح خريفي بارد قد انشطرت إلى شطرين ثم إلى أربعة ثم ستة عشر وهكذا حتى كبرت ككرة الثلج لتغطي أجزاء من أوربا وأفريقيا والشرق الأوسط ليشترك فيها مائة أو أكثر من الدبلوماسيين ومحققي الشرطة ووكالات المخابرات ليكتشفوا مجاميع إرهابية وشبه إرهابية ومجاميع سياسية سرية لم تكن معروفة في السابق تتألف من عدة جنسيات وذات معتقدات دينية، رغم أنهم تجاهلوا كلية كليمنتاين المفقودة. وبالرغم من أنه تم العثور عليها في الآخر في مكان ما، ولكن عن طريق الصدفة فقط التي كانت عرضية في عملية البحث العام. نسي فريقنا اللندني الذي بدأ العملية بحيث إنني عندما حضرت أحد المؤتمرات في جنيف بعد عام، قدم عرض التحقيق الشامل للقضية أحد الأشخاص الذي كان رغم أنه أحد الزملاء القدامى، يجهل كيف بدأت. إن دراسة هذه القضية دفعتني إلى قلب نظرية الفاجعة رأسًا على عقب لأدعوها نظرية "الكارثة-المقابلة".

عثر كاوالسكي على الدليل الحقيقي في البحث عن كليمنتاين بطريقة توضح المرحلة التي قادتنا إليها هذه الحكاية. جاء ذلك نتيجة تزويله لرقم خاطئ بواسطة هاتفه الشخصي. حسنا إن الأمر لم يكن بهذه البساطة حيث قلب بالصدفة أرقام هاتف كان يسعى للاتصال به في حي هاميستيد، أو محتمل أكثر، عن طريق حصوله على رقم كان يعرفه في السابق وبرز فجأة من لا شعوره. فوجد نفسه على الخط مع منزل في شمال غرب لندن، كان يستخدم، كما كشف ذلك التحقيق اللاحق، كمحطة انتقال من قبل جماعة من المرتزقة الإرهابيين المدعومين من قبل ليبيا. وبما أن رقم الهاتف هذا غير مدرج في دليل الهواتف وكان يعرف فقط على نطاق ضيق من الشركاء الموثوقين، فقد اعتقد الشخص الذي رد على نداء كوالسكي، أن بإمكانه أن يتحدث بحرية، وقبل أن يدرك خطأه حصل كوالسكي منه على دلائل تشير إلى أنه يعرف بأمر "فتاة أمريكية مفقودة". أدت متابعته ومتابعة الشرطة

البريطانية السكوتلانديارد إلى توسع الأنشطة الذي وصفته، وهو الـذي أدى إلـى العثور على الفتاة المفقودة الذي يشبه العثور على قشة وسط طوفان أمطار.

إن فحوى الأمر هي أن هذا النداء، ولكونه كان بطريق الخطأ، يعتبر رمية في الظلام من المحتل أن تصيب هدفها بنسبة واحد إلى خمسة عشر مليونًا، وهي نسبة لا يمكن أن يأخذها أي مقامر محترف بجدية أكثر مما لو اختار رقما رابحـا فـي مسابقة يانصيب أيرلندية.

قال ابني ستيوارت الذي يعتبر عبقري الأسرة، معتبرًا الأمر كله بأنه مضحك جدًا، إن القضية هي مجرد "تزامن"، وهو التعبير السخيف الـذي أطلقتـه الفرقـة الموسيقية التي تدعى (البوليس) وأنتجت تسجيلا له. (قال ابني: سأطلب من مطرب الفرقة سننك أن يأتي ويقص عليك تفسير ذلك). إلا أن لدي فكرة أفضل. لقد رسمت الجهد التحقيقي برمته على شكل شجرة عائلة حيث الباعث أو الهدف الأصلي فـي الأسفل، وتتفرع الاستجابات أو المساعي للوصول إلى الهدف لتصبح بدورها أهدافًا تؤدي إلى المزيد من المساعي لأنتهي إلى مجموعة كبيرة من الفروع والأغصـان التي تعتبر لا معنى لها إلا أنها تعبر عن الهدف المشترك. وأكثر من ذلك، أنها تبين الكثير من البدايات الخاطئة والطرق المسدودة، وكلها تعكس هذا الهدف المشـترك وتشير إلى أن معظم الأشخاص المشتركين فيها قد فقدوا الرؤية للخطوة التالية لهم، وعاجلا أم آجلا إما أن ينحرفوا عرضيا في متابعة قضـايا ليسـت لهـا علاقـة بالموضوع وبرزت لهم في مجرى التحقيق أو قد يبدأون في ملاحقة أدلة لا لشيء إلا لمجرد الملاحقة. لقد رسمت على لوح شفاف كل الأنشطة التي حددت أن لهـا علاقة واضحة هادفة بالبحث الأساسي، بعد ذلك ركبتها على الشجرة مشيرا إلى كل شيء تم إنجازه وكل شيء لم ينجز بعد الهدف الأصلي. بعد ذلك درست الفـروع التي ظلت مكشوفة في أسـفل اللوحة لتحديد ما أطلقت عليه "بالنظام"، وأقصد بـه الطريقة التي يتوقع أن تتصرف بها أي جماعة من الناس سواء كانت لهـا علاقـة رسمية أو أن لها ثقافة مشتركة وأهدافًا أساسية، استجابة لأي تحد يمكـن إدراكـه.

يمكن أن تظهر مثل هذه الجماعة عند متابعة هدف معين أو قضية محددة بدقة، فهي سرعان ما تضع هذا الهدف بتصنيف أو تبويب معين، في الوقت الذي توسع فيه تفسيرها للقضية، بعد ذلك تأخذ أجزاء هذه الجماعة بالتعقب في جميع الاتجاهات ووفق رؤى مختلفة حول ما يدور حوله هذا الجهد، ولكن يبقى الهدف العام ثابتا.

من الجميل أن يصنفني زملائي مع ألبرت إنشتاين وجون فون نيومان ورينيه توم وجيمس بورك، إلا أنني بكل تواضع أعترف أنه بالشكل الأصلي الذي قدمت فيه نظريتي "الكارثة المقابلة" فإنه لا يوجد فيها شيء أكثر من توضيح عن علاقة العلم المجرد بالعلم التطبيقي في أي ميدان من ميادين الأنشطة التحقيقية. وأرجو أن ننظر إليها في ضوء الفصول السابقة حول مستويات اللعب وحول كيف أن أي لاعب فرد يضطرب داخليا بعوامل محركة ذاتية هي أشبه بالعوامل التي تكون الجسم البشري. بعد ذلك نطبقها على سلوك اللاعب على المسرح الدولي الذي يمثل اهتمامنا نحن الحكومة الأمريكية. وللمناقشة، لنأخذ مجلس الأمن القومي. فهو يتكون من الرئيس ونائبه ووزير الخارجية ووزير الدفاع، مع مستشاريه القانونيين ورئيس هيئة الأركان المشتركة ومدير المخابرات. من المفترض أن يجتمع مرة في الأسبوع لبحث "توحيد السياسات الداخلية والخارجية والعسكرية المتعلقة بالأمن القومي" كما حدد ذلك قانون الأمن القومي لعام ١٩٤٧. يفترض أن يقدم أسس هذه المداولات شخص له صفة مساعد الرئيس ولكن يعرف بصورة عامة بمستشار الأمن القومي. ومع هيئة أركانه المؤلفة من أربعين شخصا، يفترض أن يقوم بجمع المعلومات الواردة من البيت الأبيض والمخابرات المركزية والعديد من الوكالات الأخرى، ويصنفها إلى أوراق إيجازية توضح بالضبط في وقت معين ما هي الأخطار التي يتعرض لها الأمن القومي.

من الواجب أن يكون هذا الترتيب مطبقا بنجاح ولكن لغرض توضيح نظريتي "الكارثة المقابلة"، دعونا ندرس "أسوأ سيناريو محتمل" وهو إدارة الرئيس ريغان. من أجل تقديم المشورة للرئيس في مجال الشؤون الدولية، هناك وزير الخارجية

الذي رغم اعتباره رجلا ذا ذكاء عال وكفاءة مجربة، إلا أنه لا تعوزه التجربة في التعامل مع الحكومات والشخصيات الأجنبية فحسب، بل يعوزه بشكل جلي "الحس" بالثقافات الأخرى غير الأمريكية، ويميل إلى أن يصبح تأثراً عاطفيا عندما يواجـــه أناسا لا يقدرون أو يحترمون "القيم الأمريكية". كذلك يعتبـــر مـــدير المخـــابرات المركزية رجلا يتميز بالحكمة البالغة والكفاءة المجربة، إلا أنه أظهر هذه الصفات ليس بعمله في جمع وتحليل المعلومات بل في أدائه كمدير لحملـــة ريغـــان. وفـــي الآخر، هناك شخص واحد فقط من سلسلة مستشاري الأمن القومي قد خدم في هذا المنصب مدة طويلة واكتسب من الخبرة القدر الضئيل جدا عما يعنيه مفهوم الأمن القومي، وخبرة هذا الشخص (كما يعرف ذلك أقرب أصدقائه) تقع ضـــمن إطـــار معرفة قليلة هي أخطر من اللامعرفة.

وكما قلت، فإن تشكيلة الأمن القومي والمخابرات في ظل حكم الرئيس ريغان غير نموذجية. وكان السابقون أفضل، ويحتمل أن تكون التشكيلة الحالية في ظـــل الرئيس بوش (الأب) أفضل كثيرا. إلا أنه من طبيعة الأشـــياء أن الجهـــاز الـــذي يحصل على المعلومات ويعالجها، ويلخصها ويرسلها في بريد رئـــيس الولايـــات المتحدة، يخضع حتما لمؤثرات تفسده وبذلك يبتعد عن الكمال. إن رأيي الشخصـــي هو أنه إذا ما حاول لي اياكوكا أن يدير شركة كرايسلر استنادا علـــى المعلومـــات الفقيرة كالتي تصل إلى رئيس الولايات المتحدة بخصوص الشؤون الدوليـــة، فـــإن الشركة ستفلس في غضون عام.

إلا أن الولايات المتحدة سوف لن تفلس أو على الأقل يمكن القول إن فرصها في خسارة اللعبة الدولية اقل بكثير مما تشير إليه جملة المعلومات الموثوقة. وهـــذا يقودني إلى نظريتي في "الكارثة المقابلة"، وإلى ما كنا نســـميه فـــي المخـــابرات المركزية القديمة "بمستعمرة النمل". فبموجب رأي أصحاب نظرية الفاجعة، يمكـــن لحركة بسيطة لأجنحة فراشة أن تولد تيار هواء بسيطاً يمكن أن يغير بدرجة قليلة جدا اتجاه تيار هواء أقوى ويتضاعف الانحراف حتى يتشكل إعصارًا في المكـــان

الذي يفترض أن يحل فيه السلام والهدوء. يمكن أن يطلق معتوه من لاورسلوبوفيا النار على سياسي محلي معين لتبدأ سلسلة من الأحداث التي تقود إلى الحرب العالمية الثالثة. فمن أجل مسمار لحدوة حصان يمكن أن تضيع المملكة. إلا أنه بموجب نظريتي " الكارثة المقابلة " هناك تيار قوي تحت السطح، شكل من المعلومات الكثيرة ولكن لا يعرفون التصرف بها التي تنفذ إلى المستويات الوسطى من وزارة الخارجية والدفاع والمخابرات المركزية والبيت الأبيض حيث تجمع عناصر هذه المعلومات خلف هدف مشترك دون علمهم به أو حتى معرفة بعضهم البعض. وبالتكرار ودون ضجة يزيدون أهمية أشياء لرؤسائهم ويقللون من أهمية أخرى وبعد ذلك تظهر الأشياء المهمة بهدوء في الصفحات الخلفية لصحفنا. اعتاد البروفسور كرينكلاس، الخبير في وحدة المخابرات المضادة التي يعمل بها جيم انكلتون أن يخبرنا أن النملة المفردة بليدة الذهن، إلا أن مستعمرة النمل، كمستعمرة، تتمتع بذكاء مدهش يبدو أن هذا الأسلوب هو أسلوب "نملنا"، مجتمع ضباط الأركان السري التابع للحكومة الأمريكية الذي يبلغ من السرية بحيث إنه حتى أعضاؤه لا يعرفون بوجوده. إن نظرة فاحصة إلى الكوارث المحتملة المنزوع فتيلها والتي أصبح بالإمكان الكتابة عنها تبين أن كبار صناع القرار لدينا يتبعون السياسات التي نعرفها (مثال ذلك نحن لا نتفاوض مع الإرهابيين)، إلا أنهم في الآخر لا يقررون هم الاتجاه الذي يتخذونه.

سأضرب لكم مثلا. فبعد وقت قصير من اختطاف الإرهابيين للباخرة السياحية اليونانية، اكيل لارو، قرر المستشارون الكبار للرئيس ريغان أن أفضل خطوة مضادة ستكون قصف الراعي المفترض لعملية الاختطاف، حكومة معمر القذافي الليبية. وفعلنا ذلك. كان خطأ. وقد اعتبره الاختصاصيون في أجهزتنا الدبلوماسية والاستخبارية، رغم أن بعضهم لا يعترف بذلك، خطأ فادحًا في التقدير. بينما رحب الرئيس ريغان وجورج شولتز، وكاسبرو اينبرغر وبيل كيسي وآخرون في أعلى المستويات بحكومتنا بالغارة على ليبيا معتبرين إياها نصرًا عظيمًا وتبجحوا علنًا

كيف أنها أخرست القذافي وأحدثت توقفا مؤقتا علـى الأقـل للإرهـاب الـدولي. (وتذكرون القضية عندما أنكر وزير الخارجية أن يكون الهدف منها قتل القـذافي، رغم أنه كما أضاف بابتسامة ماكرة، لو كان قد قتل القذافي فيها، فسوف لن يحضر ممثل من الحكومة الأمريكية يبكي عليه في الجنازة).

قد تتصورون أن الحكومة الأمريكية كانت تتصرف في ذلك الوقت كما لو أنها قد حلت المشكلة. إذا كان مسؤولونا الكبار يصدقون تهنئتهم لأنفسهم، ألم يكن عليهم أن يستريحوا ويخفضوا الميزانية المخصصة للحماية من الإرهاب ويعيدوا زوجات موظفي الخدمة الخارجية إلى أزواجهن بعد أن أرجعن إلى الـبلاد مـن الأمـاكن المحددة بكونها عرضة للإرهاب؟ ولكن كلا، فقد زيدت إجراءات الحمايـة حـول منشآتنا الدبلوماسية في الخارج، وأعيدت الزوجات والأسر إلى البلاد من عشرة أو خمسة عشر موقعا آخر (بما في ذلك بعض المواقع غير المحتملة كموقع برشـلونة حيث تم وضع دبابتين من الجيش الأسباني خارج الموقع طيلـة السـنة التاليـة)، وزيدت أيضا ميزانية مكافحة الإرهاب لأكثر من ستة مليارات دولارات.

وخلال السنة التالية، تضاعف عدد محـاولات العمليـات الإرهابيـة، إلا أن معظمها قد قمعت في مهدها بفعل يقظة جهازنا الأمني واستبدال المستشارين الذين عينوا أنفسهم كمستشارين للبيت الأبيض حول شؤون الإرهـاب الـدولي بخبـراء حقيقيين. بعد غارتنا على ليبيا، سيطر ضباط الجيش الصغار المؤيدون للسـوفيت على القذافي، وأجروا إصلاحات على النشاط الإرهابي الذي ترعاه ليبيا كما اقترح ذلك المستشارون السوفيت. إلا أن ضباط المخابرات المركزية على مستوى العمل الميداني (النمل) قد رتبوا بهدوء عمليات اختراق لمراكز تجنيد وتدريب الإرهابيين التي كانت تتزايد في البلدان الأخرى غير ليبيا وأداروا عمليات جديدة أدت إلى أن يهاجم الإرهابيون بعضهم بعضا بدلا من مهاجمتنا. كل هذا تم بعلـم الشخصـيات الرفعية في حكومتنا بمن فيهم مدير المؤسسة المسؤولة عنها ولكنهم يتظاهرون بعدم

العلم. إلا أن ملاحظتي هي. بينما هم يقومون بهذا العمل، يبدو أنه حتى "النمل" يجهل حقيقة أن أفعاله تتناقض مع فكرة أن الغارة الجوية على ليبيا تمثل نصرا.

لهذا فإن لدي قناعة كبيرة بفاعلية حكومتنا ككل. وفي القدرات الداخلية التي تنقذها من نفسها، حتى لو كنت أحيانا أشك في قيادتها، ليس في القادة أنفسهم، وسيشعر الرئيسان ريغان وبوش بالراحة لسماع ذلك، ولكن في نظام القيادة في ظل أي ديمقراطية. وعلى وجه الخصوص، من ميزاتنا أننا نجعل حتى السياسة السيئة تحقق النجاح وذلك بإلقائنا لكل ثقلنا خلفها. لقد تعثرنا العديد من المرات في الماضي، إلا أن هناك إشارات تدل على أننا قد نخسر لأن ما مطلوب منا هو أن نجمع قوانا وقدرتنا لمقابلة القوى التي تسعى لتقويضها. علاوة على ذلك، هناك أسباب تدعو إلى الشك بأن قوانا قد تكون من النوع غير المناسب لمقابلة الأخطار الوشيكة، كما لو أنها قوى أسد أو فيل يتعرض لهجوم أسراب من النحل القاتل. يمكننا أن نخوض حربا مع قوة عظمى أخرى وربما ننتصر. إلا أننا حتى بمعونة الإسرائيليين- فإننا لا يمكن أن ندحر الإيرانيين أو العرب أو العالم الإسلامي أو العالم الثالث بأسره إذا ما انقلبوا ضدنا. لدينا الأسباب الكافية التي تجعلنا نعتقد أن الاستراتيجيين السوفيت يفهمون هذا جيدا، وستكون الحرب العالمية الثالثة التي يتصورونها وحدنا بأنفسنا مقابل قوى لا شكل لها من العالم الثالث وتكون روسيا السوفيتية ظاهريا بعيدة عنها. لهذا في الوقت الذي أظل فيه متفائلا حول احتمالات نصرنا، فيمكنني أن أفكر بوضع عدة طرق أرى أنها يمكن أن تحسن أداءنا. والحقيقة أن كتاب السيرة الذاتية هو ليس المكان المناسب لعرضها، وعلى أية حال، فإن معظمها قد ورد ضمنيا في سياق ما قلته في الكتاب. إلا أنني سأضيف شيئا إلى ميدان النشاط الذي أزعم أن لدي قدرا معينا من الخبرة فيه. فقد كنت متفوقا بشكل فريد في "النشاط السياسي السري" كما افهمه، وأحيانا أبعدت أخطارا جدية تهدد امن الولايات المتحدة وأحيانا أخرى مكنت فقط زبائني من الشركات من البقاء بطريقة تحقق أرباحا لها في أجزاء معينة من العالم كان يمكن أن تطرد منها. لم تشكل

نشاطاتي أبدا أي إحراج لزبائني أو لبلادي أو لنفسي. وطالما أن هذا الكتاب هـــو مجرد سيرة ذاتية، فليس من المعيب أن أضيف أنهم قد أعطوني أجورًا ومكافـــآت كافية لتجعل تقاعدي مريحا ولتوفر لي وقتا كافيا لكتابة هذه السيرة المسهبة.

إن أولئك الذين يقولون إنه يجب حظر النشاط السياسي السري، يريدون التخلي عن الحل دون دراسة المشكلة بشكل تام. أن الزعماء المهتمين بالنتائج الذين علينا أن نعتمد عليهم في الآخر، يبدأون مشاوراتهم من نهاية المشكلة. فهم قد يقررون أنه من الأفضل ترك المشاكل دون حل بدلا من المخاطرة بحلول قد تســبب مشـــاكل أكثر. ولكن إذا ما قرروا أن المشاكل هي من الخطورة بحيث يتوجب علينا حلهـــا، فإنهم سيدرسون السلسلة الكاملة للحلول المحتملة. وإذا ما وجدوا وسائل أكثر فاعلية واقل تكلفة ومخاطرة من النشاط السري، فمن المؤكد أن عليهم اللجوء إليها. ولكن إذا ما رأوا أنه لم تكن هناك من وسيلة أخرى، فإن عليهم أن يطلقوا تنهيدة حزينة. وبأسف بارد، يمنحون الإذن للنشاط السياسي السري. فالقضية لم تعد قضية "فيمـــا إذا" بل قضية "كيف؟".

الخاتمة

كانت السنوات المحصورة بين القضيتين الإيرانيتين من ١٩٧٨-١٩٨١، من وجهة نظري، من أكثر السنوات في حياتي التي شعرت بها بالرضا. أولاً، كانت هناك قضية العمر. فقد كانت سنوات أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات عظيمة. ولكن لا تسمع كلام أي عجوز يقول لك غير ذلك بأنه لو كانت لدي صحتك، فإن أواخر الستينات وبداية السبعينيات هي الأفضل. ففي المقام الأول تكون قد حققت في هذا العمر النجاح الذي سعيت من أجله ويمكنك أن تستمتع بأوقاتك. أو يمكنك كما أفعل أنا أن تفكر بماضيك وعيوبه لتفهم ما لم تكن تفهمه حينها ولترى ما هو الإخفاق الكارثي حينها. كذلك، عندما يصل عمرك الخامسة والستين، يفترض أن يكون لديك الكثير من المال، إذا كنت قد أدركت في شبابك "بأن المستقبل يعود إلى أولئك الذين خططوا له"، وتذكرت أن الماضي كان فيما مضى مستقبلا.

وكانت السنة من تموز ١٩٨٠ وحتى تموز ١٩٨١ عظيمة بشكل خاص. ففي ١٦ تموز ١٩٨٠ أقامت سينيثيا وفيرونيك وسوزان ومايو وأصدقاء آخرون حفلة كبيرة في منزل سينيثيا الجميل في فرجينيا احتفاء بعيد ميلادي السابع والستين، بعد ذلك، أمضيت المتبقي من الصيف أتجول في الجنوب أعد خطابات لمناصرة بوش للفوز بالرئاسة بعدها تحولت إلى مناصرة ريغان بعد أن خسر بوش ترشيح الجمهوريين. وعندما اقترب وقت الانتخابات، جمعت عددا من ضباط المخابرات السابقين لتشكيل شيء دعوناه "بعصبة بوش" لتاكيد أن جورج سيكون في الشؤون الدولية أفضل نائب للرئيس في التاريخ من حيث الخبرة. وعشية الانتخابات، أقمت حفلة كبرى بفندق واردمان حضرها جميع أصدقائي المقربين البريطانيين منهم والأمريكيين، وقد وافق ابني مايلز الثالث على ميزانية الصرف لستة أشهر أخرى، وحسنت مستلزمات معيشتي في فندق برج واردمان وأخذت الجناح الذي كانت

تشغله في السابق بيرلي ميستا "المضيفة العظيمة" صاحبة كتاب "ادعوني بالســـيدة"، وكذلك استخدمت امندا، وهي طباخة عظيمة يمكنها أن تهيئ عشاء بوفيه لأربعـــين شخصا بعد أن تشعرها بساعات قليلة فقط. وقد جاءت كارولين وجرمي ركـــي – برايس (كانت جيرمي كأحد أعضاء فرقة سالوين التي يتذكرها قرائي وكان يـــدير مطعم لي شومير في لندن)، من نيويورك لتعليمها فقط كيف تصنع الجمبلايا(*).

وفي شهر كانون الثاني التالي، جاءني شقيقي هنتر من برمنغهام، جالبًا معـــه الكثير من المؤيدين من الباما لجورج بوش وأقمنا أنا وأصدقائي من "عصبة بوش" مأدبة طعام في الضحى لجورج وبربارا بوش بمناسبة تسنمه المنصب. وفي المساء كانت مقاعدنا أنا وفيرونيك وبيتر رودمان وليلى ماو في المقدمة في حفلة التنصيب الرسمية. ومن كانون الثاني ولغاية آذار بقيت أتلقى مكالمات من زبائني القدامى من شركات النفط والخطوط الجوية والمصارف تعرض علي ضعف ما كنت أتقاضـــاه منهم مقابل التكهن بما يخبأ لهم في ظل الإدارة الجديدة.

وفي شباط، دخل صديقي ارنست لفيفر (أو الدكتور لفيفر كما كانت سكرتيرته تقول دائما عند إجابتها على الهاتف) في ورطة بتعيينه مساعدا لـــوزير الخارجيـــة لشؤون حقوق الإنسان بسبب معلومات مفتراة كشفها سلفه أيام كارتر، عدت سريعا بعد أسبوع إلى منزلي ببريطانيا لمساعدته في الحفاظ على عمله، ورد كل الشائعات المغرضة التي أشيعت عنه. وقد فشلنا، إلا أن مايلز الثالث دفع مبلغا آخـــر قـــدره (٢٥٠٠٠) باون استرليني كهبة لمساعدته في خط بداية جديـــدة لـــه مـــع مركـــز الأخلاقيات والسياسة العامة وقد حرص ارني على أن تكون المائدة التـــي أجلـــس عليها مع ثمانية ضيوف في حفل عشائه الكبير الثاني تكريمًا لوزير الدفاع كاسبر واينبرغر، كانت مائدة شرف. وبعد ذلك أحيا آرني ومركزه للأخلاقيات والسياســـة

(*) الجمبلايا هي عبارة عن خليط الأرز والأربيان والمحار والسلطعون ولحم الخنزير والدجاج وغير ذلك مع التوابل والخضراوات. (المترجم)

العامة شيئا أسماه "أمسية مع مايلز كوبلاند"، حيث دعا إليها حوالي ثلاثين شخصية شهيرة، وقد حظيت بالثناء لما قلته حول وضع العالم في ذلك الوقت.

في نفس الوقت، وبمساعدة فيرونيك، أقمت دعوات عشاء كبرى لبعض الشخصيات في إدارة ريغان، على سبيل المثال، دعوة للوكي روزفلت الذي عينه الرئيس الجديد رئيسا للتشريفات والسفير الأول في الجهاز الدبلوماسي الأمريكي. لا أتذكر ، لكني أعتقد أنني أقمت حفلة لبيتر عندما أصبح رئيسا لهيئة تخطيط السياسة في وزارة الخارجية، لقد كان هو وفيرونيك حاضرين دائما لتقديم المساعدة عندما أقيم حفلاتي، وكانت دعوته مجرد عذر لإقامة الحفلة. وكذلك بالطبع أقمت حفلة لبيتر وتينسكي عندما تم تكريم بعض الشخصيات، وحفلة أيضا لكريك كوبلي عندما دعوت عدة شخصيات يمكن لها أن تسمي نفسها بحق مخططين استراتيجيين. وبالمناسبة، يستحق كريك أن نذكره بشكل خاص لأنه برز كأحد المفكرين الاستراتيجيين البارزين القلائل في العالم الذي أدخل في تعريفه "للحرب" كل الملحقات التي تدخل في أي صراع كبير، بما في ذلك تلك التي تحقق الأهداف الاستراتيجية المطلوبة دون قتال حقيقي.

أقول كل ذلك لتوضيح أن الأيام الأولى من إدارة ريغان كانت فترة مؤثرة في حياتي، فترة لو لم اذكرها لكانت هذه السيرة ناقصة. ولكن السنوات السبع اللاحقة، وهي نهاية سيرتي في النشاط السياسي السري، فيمكنني أن أسميها "السنوات المهمة". وبينما أخذ الهواة من قليلي التجربة يحتلون المواقع المهمة في السياسة الخارجية في إدارة ريغان- كوزير الخارجية الذي كان مهندسًا صناعيًا ومفاوضًا نقابيًا، ووزير الدفاع الذي كان مديرا تنفيذيا لشركة مقاولات، ومدير المخابرات المركزية الذي كان مديرا لحملته الانتخابية، وكبير مستشاري مجلس الأمن القومي الذي كان محاميا من كاليفورنيا- أخذت الشركات الأمريكية ذات المصالح الممتدة إلى جميع أنحاء العالم، تعتمد أكثر وأكثر على سياساتها الخارجية الخاصة بها.

وأعتقد أن انخفاض الاهتمام الحكومي بالأحداث على صعيد المسرح الدولي كـان أحد الأسباب التي جعلتهم يصوتون لرونالد ريغان. والحقيقة، لقد سـمعنا تصـريح ادموند بيرك "أن الحكومة الأفضل هي الحكومة التي تحكم أقل" في أكثر من خطاب من الخطابات المؤيدة لريغان التي ألقاها بعضهم. وفي أحد الخطابات التي كتبهـا بيتر ويتونسكي للأثرياء الصناعيين الأقل تعليمًا، استشهد بقول هنري فورد الثاني: "في كل مرة تسعى الحكومة لتدبير شؤوننا، فان التكاليف تكون أكبر والنتائج تكون أسوأ مما لو عالجنا شؤوننا بأنفسنا وهي جملة اقتبسها من كتاب بنجامين كونستانت (دراسة عن النظام الدستوري" الذي كتبه في ١٨١٨ وقد حظي هذا الاقتباس بقـدر كبير من التكرار).

إلا أن أعداء الحكومة المسيطرة، بمن فيهم الرئيس ريغان نفسه، قد فاتتهم سمة ناشئة في الإدارة الجديدة. إن ما ينقص أعضاءها الهواة مـن المعرفـة والخبـرة يعوضونه في الحماسة، جزئيا على الأقل لأنهم يجهلون أهمية العمل الذي وجـدوا أنفسهم فيه فجأة. وقد أخذتنا الدهشة بسبب حشد لوبي من أعضاء الكونغرس الذين حلوا عليهم مدعين أنهم خبراء في جوانب عدة من الشؤون الخارجية. كان هـؤلاء الدخلاء على السياسة كما أسميناهم لا يعرفون شيئا عن تخصصاتهم إلا أن لـديهم الكثير من الكلام المتسق مع التصورات المسبقة لمعظم الشخصيات التـي عينهـا ريغان. كانوا يتمتعون ببراعة أعضاء اللوبي التي تمكنهم من إقناع هذا العضو أو ذلك من أعضاء الهيئة الرئاسية، وبعد ذلك يظهرون في برنامج حواري تليفزيوني تحت لقب "مستشار للبيت الأبيض". وقد ظهرت فجوة آخذة بالاتساع بشكل دائم بين هؤلاء الأشخاص و"مؤسساتهم" الآخذة بالانتشار ، وبيننا نحن الذين نحصل علـى أجور أعلى لتقديمنا المشورة حول القضايا الأمنية لشركات القطاع الخاص.

وفي نفس الوقت، استغل رجال الشرطة السابقون وعناصر مكتب التحقيقـات الفيدرالي والمخابرات المركزية السابقون كل ما يمكن استغلاله من ازدياد الحديث

عن "الإرهاب الدولي". فقد نصب عدد منهم منفردين أو مجتمعين أنفسهم "كمستشارين أمنيين" وأخذوا يعرضون خدماتهم للبيع، ويستكملونها ببيع معدات إلكترونية ثمينة للأمريكيين فاحشي الثراء الذين أخيفوا بدرجة تجعلهم يصدقون أنهم وأسرهم يشكلون أهدافاً مخصوصة للمختطفين. وفي عام ١٩٨٥، بلغت مبيعات الخدمات والمعدات الأمنية في الولايات المتحدة وحدها (من الدوائر التليفزيونية المغلقة والحرس والكلاب والأسيجة الإلكترونية وأنظمة الإنذار وغيرها) عشرين مليار دولار.

وبالنسبة لي، فحالما ثبتت إدارة ريغان نفسها في الحكم، اتخذت القرار بالعمل دون الاستعانة بخدماتي، وهي الحقيقة التي دفعت إدارة كارتر الثمن غاليا بسببها وفاتها الانتباه إليها. مع ذلك بقيت منشغلا بأعمالي لأن الشركات الأمريكية الكبرى العاملة على الصعيد الدولي قد بدأت تقلل من صفتها الأمريكية، لتدعو نفسها "بالشركات المتعددة الجنسيات" أو "عابرة القارات"، من أجل أن تحل نفسها عن الحكومة الأمريكية وسياساتها الخارجية ولتعتمد على قدراتها الأمنية والاستخبارية الخاصة.

وسرعان ما أخذنا نعيش في عالمين مختلفين. وقد رأى بعضنا من داخل ومن خارج الحكومة أن هذا حصل بعد أيام قليلة من التنصيب، عندما أعلن الرئيس الجديد أن الإرهابيين الذين يخرقون "قواعد السلوك الدولي" سيتلقون "عقابا صارما ومؤثرا. وبعد ذلك، بدأ بتشكيل عدة لجان مشتركة من أجل حشد قدرات الأمة في "حرب ضد الإرهاب"، حيث تتولى هذه اللجان إفهام الخارجية والدفاع والمخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي والجهاز السري في وزارة الخزانة بان "الحرب" ستكون من الآن وحتى إشعار آخر هي السياسة الخارجية السائدة لإدارته. وقد تم في وزارة الخارجية تشكيل "دائرة لمكافحة الإرهاب"، كان يرأسها السفير انتوني كونتن، وهو ضابط خدمة خارجية مختص ويتمتع بذكاء عال يمكنه من إدراك أنه لا هو ولا أي شخص آخر في الوزارة يعرف كثيرًا عن الموضوع.

ولكن سرعان ما تشكلت عدة لجان جديدة و"مجموعات عمل" هدفها تجسيد اهتمـــام الإدارة بالمشكلة بطريقة تجعلها قابلة للحل فعلا، مثل مركز مكافحة الإرهاب (فـــي المخابرات المركزية) وفريق إسناد الطوارئ (أيضا في المخـــابرات المركزيـــة)، وقيادة العمليات الخاصة المشتركة (في وزارة الدفاع) وقوات دلتا (تابعة للجــيش) ومجموعة العمل ضد الحوادث الإرهابية.

وقد نمت هذه بصورة طفيلية لتظهر بشكل خبراء أدعياء ليس لدى إلا القليــل جدا منهم أدنى علاقة بالإرهاب أو الإرهابيين أو الظروف التي صنعتهم. لتظهــر أيضا بعد ذلك مجموعة من "المراكز" بعضها يتخذ من الجامعات مقرا له بحثا عن أسباب التمويل المالي، وبعضها تعتبر أغطية لعمليــات الحــرب النفســية ضــد الفلسطينيين ومجموعات اللاجئين المعروفة برعايتها للعمليات الإرهابية وبعضــها من بنات أفكار خبراء في شأن واشنطن نفسها، أي متحدثين لبقين يتمتعون بــذكاء يمكنهم من معرفة الطريق إلى المال الحكومي عندما يرونه.

وخلال السنة الثانية أو الثالثة من إدارة ريغــان، كانــت واشــنطن مغمــورة بالمعلومات المضللة والخاطئة حول الإرهاب، والإرهــاب المــديني، والإرهــاب الدولي، و"إرهاب الدولة" وشيء يسمى "بالإرهاب المؤسساتي"، إلا أن حكاية هــذا الأمر كله هي التي تسر السوفيت. فقد انشغلت الحكومة الأمريكية بمعضلة تناســب أهداف موسكو اللينينية كما بدأت تتطور تحت غورباتشيف. ففي أدلة سهلة متوافرة أمام الحكومة الأمريكية دون حاجة للجوء إلى التجسس أوضح السوفيت بشكل قاطع أن تصورهم عن الحرب العالمية الثالثة هو أن توضع الولايات المتحدة بمجموعــة من المواقف تجعلها تشعر بأنها مضطرة للعب دور دولة قوية، ولكنها ستكون فــي الواقع وأمام أنظار العالم كله الذي يشاهدها عبر شاشات التلفــاز ســتكون دولــة عاجزة. بوجود إدارة ريغان بالحكم، ظهر صنف جديد مــن "الحمقــى المفيــدين" للسوفيت.

بينما كانت واشنطن الرسمية منهمكة بقضايا كالتعريفات، والاختصاصات، والأولويات، وأخرى مثل هل السوفيت وراء معظم الإرهاب الدولي إن لم نقل كله أم لا، كانت شركات النفط الدولية والخطوط الجوية والمصارف وشركات المقاولات الكبرى تعمل مع حكومات البلدان التي توجد فيها الأهداف الرئيسة للتخريب والاختطاف، والاعتداءات على الأفراد ومختلف أشكال الإرهاب. لم يعلن عملها إلى الجمهور لم يحض باهتمامهم، إلا أنه كان عملا مؤثرا. مع ذلك لم يكن مستقلا بالكامل عن الحكومة الأمريكية لأن لدينا التعاون غير المقصود السائد في مستعمرة النمل. وكذلك ورغم الخراب الذي ألحقه بها الأدميرال تيرنر في ظل إدارة كارتر، إلا أنه ظل للمخابرات المركزية دور أساسي من خلال خبرائها الميدانيين الأكفاء متعددي اللغات والخبراء الحقيقيين القلائل في الإرهاب التابعين للحكومة الأمريكية الذين يمكن القول إنهم "ظلوا على اتصال" مع هذه الشركات. على أية حال، منذ ذلك الوقت وحتى الآن، لم يختطف أي مستخدم، ولم تخرب أي منشآت مادية ولم تخطف أية طائرة من الشركات التي اعتمدت على مشورتي أو مشورة آخرين يقدمون نفس النوع من الخدمات.

وبينما اكتب هذا الفصل، يودع الرئيس ريغان واشنطن ، وينشغل الرئيس المنتخب جورج بوش مع فريقه الانتقالي الذي يساعده في التهيؤ للانتقال إلى البيت الأبيض بعد شهر من الآن، وأستمتع الآن بتصور امتلاك الرئيس بوش، لكونه لديه نظرة رجل أعمال إلى العالم، الذكاء المناسب لأن يترك الأمور الصحيحة كما هي. وأتمنى أن يعين في مناصب الشؤون الخارجية أشخاصًا ناجحين ومسؤولين لا يترددون عن القيام بالشيء الصحيح . وفي ميدان الشؤون الدولية، إن لم تكن بالضرورة في الشؤون المحلية أيضا، تبدو ملاحظة أدموند بروك بخصوص قيمة الحكومة التي تتناسب عكسيًا مع تدخلها مناسبة بشكل خاص.

لماذا أظل أحمل باستمرار هذا الشعور الخانق، خاصة أنه حتى بعـد أن قـرأ واستوعب الرئيس ومستشاروه ما قلته هنا، فقد ظل سلوك الولايات المتحـدة فـي قضايا الأمن القومي كما هو لو أني قد وفرت على نفسي الكلام؟ وطالما كان هـذا الكتاب عبارة عن سيرة ذاتية، فأشعر من الأفضل أن أختمها بجواب لسؤال السيرة الأخير وهو كيف أرى نفسي في هذا العالم البعيد عن المثالية الذي كنت أحلم بـه؟ قبل بضع سنوات سئلت من قبل شخصية رفيعة كانت صديقة لي، بأن أساعدها في كتابة عدة مئات من الكلمات كإسهام لها في ندوة عقدت بعنوان "هذا ما أؤمن بـه". ورغم أن هذه الشخصية قد سارت بحياتها على وفق مبادئ صارمة وخطوط عمل عامة (مثال ذلك النزاهة هي السياسة الأفضل عادة، ولكن تحصل حالات استثنائية) لم يكن يعرف هذا الشخص كيف يعبر لتوضيح هذا المعنى. لم أكن قـادرًا علـى مساعدته. وعندما ظهر حديثه في الآخر، فإنه قد تضمن أكثر من أربعـين قـولاً لشخصيات رفيعة بريطانية وأمريكية من فايكونت استور وحتى هارولد ستاسـن، ومن الواضح أن أيًا منها لم يقدم له أكثر من صورة تقريبية لما أثر به في مسـيرة الحياة. وقد حصل أنني لم أواجه مثل هذه الصعوبة ولكن ببساطة أني أرى الحيـاة لعبة.

لابد لي أن أقص عليكم قصة حول ابنتي ليني، عندما كان عمرهـا سـبع أو ثماني سنوات

تبدأ الوقائع الحقيقية للقضية عندما تدخل ليني قفص الطيور في منزلنا ببيروت لتجد أوسكار، ببغاءها الصغير ميتًا على أرضية القفص- وكما تعلمون كان ممدودًا على ظهره وساقاه الصغيرتان مرفوعتان إلى الأعلى، وعيناه زائغتان بالطريقة التي ترونها للحيوانات الميتة في أفلام الرسوم المتحركة. دخلـت إلـي لينـي بحالـة هستيرية. كانت تصرخ وتولول وتضرب رأسها في الأرض حتى أنني فكرت بأن أستدعي لها طبيبا لتهدئة أعصابها.

ولكن قد خطرت لي فكرة أفضل. سحبتها وأنا أجلس على أرجوحة في الشرفة، وبدأت بصوت هادئ أصور لها هذه المأساة في مشهد درامي. قلت لها: "انظري ليني، أنها ليست نهاية العالم، إن أمورا كهذه تحصل لنا، فالموت هو الحقيقة في هذه الحياة، سأخبرك بما سأفعله. سنطلب من هاكوب أن يحضر لنا تابوتا وستزينه أمك بالقماش الدمشقي المقصب وسندعو بيير ليصلي على أوسكار الصغير وسنضعه في التابوت. وبعد ذلك سندعو جميع أصدقائك وسنقيم مجلس عزاء ونوزع فيه المثلجات والألعاب وأكياس الحلويات للجميع . ثم بعد ذلك نضع أوسكار في أحد قوارب الألعاب الخاصة بك، وبينما نقف نحن على الساحل ننشد الأناشيد ونلوح له بالوداع، نطلق القارب في البحر المتوسط. وكما تعلمون، كانت مراسيم جنائزية "للفايكونغ"

وفي هذا الوقت أخذني الكلام، وبلعت ليني الطعم كله، لقد شددت انتباهها فعلا. إلا أنه صدر بعد ذلك هرج لطيف من القفص، وأخذ يعلو ويعلو. نهضنا أنا وليني ودخلنا لنجد أوسكار حيًا معافى وهو يحط على مجثمه ويفلي نفسه. وقفنا لثوان معدودة مشدوهين، ثم استدارت الي. وقالت: "دعنا نقتله".

هل ترون ما أريد قوله؟ إذا ما استطاع الناس أن يصوغوا الكارثة في قالب مسرحي، وإذا ما نظرتم إليها على إنها مجرد حكاية في لعبة الحياة، فإن أي كارثة تصبح يسيرة الوطأة. بل وبطريقة مقلوبة يمكن أن تكون مثيرة للمتعة. في آذار ١٩٨٦، حصل حادث مروري مروع لي ولبيتر رودمان، كسرت فيه أضلاع قليلة لبيتر لكونه اصغر مني ويتمتع ببنية جسمانية رياضية أفضل، بينما كسر كل عظم في جسدي وكان علي أن أمضي ستة أسابيع في المستشفى، ومعظمها بألم. إلا أنه وكما تعلمون فقد استمتعت بذلك. إنني جاد تمامًا فيما أقول. لم يكن هذا الحادث من نوع الحوادث الخيالية التي تشاهدها في التليفزيون أو تقرأ عنها في الصحف. وفي الحقيقة أن تمر بمثل هذا النوع من الحوادث يعتبر تجربة مثيرة. وقد أمضيت كل

الوقت ليس باختلاس النظر إلى الممرضات بل بالتفكير كيف يمكنني يوما مـــا أن أكتب هذه التجربة.

كنت أتحدث في كل الصفحات السابقة عن "الألعاب" و"خطط الألعاب"، وغير ذلك، حتى أصبتم لا شك بالإعياء من جرائها. إلا أنني فعلت ذلك أو ربما أفرطت، من أجل أن أصل إلى هذه النقطة المتعلقة بسيرة الحياة: لقد وجدت أنه إذا نظـــرت إلى الحياة على إنها "لعبة"- إنني أستخدم هذه المفردة كما يســـتخدمها المخططـــون السياسيون والعسكريون والماليون، وليس بمعناها التافه- فإنك ستكسب عدة مزايا. أولها يمكنك أن تتقبل أي حدث كما هو. فلا تفقدك رشدك الأحـــداث الســـعيدة، ولا تثبطك الأحداث الحزينة. وفي مقال كتبته مرة إلى مجلة ايكيومينيكـــل الفصـــلية، بعنوان: "هل هناك حياة بعد الموت؟" ، قلت إننا جميعا نولد، وجميعنا نموت، وبين هاتين المناسبتين نقوم بالعديد من الأشياء منها الخيرة ومنها الســـيئة ونحـــاول أن نحرف الميزان لصالح الخيرة. إلا أن ما هو مهم أننا نقوم بالأشياء التـــي تمتعنـــا، وتصبح حياتنا خيرة بدلا من أن تكون سيئة، اعتمادًا على مـــدى موازنتنـــا بـــين "المتعة" و"المعنى" من الحياة.

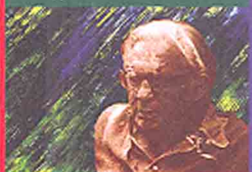
إذًا ما هو 'المعنى" من الحياة. على كل فرد أن يحدد ذلك لنفسه. وسأســـتعير بعض الكلمات من السير نورمان انكل، الذي كنت أتعلم على يديه لشهور في أواخر الثلاثينات حيث كان يعيش في نيويورك، وأقول: إن الأحكام التـــي تعتمـــد عليهـــا شخصية مجتمعنا صادرة بفعل قوى عاطفية أكثر منها عقلية، ويمكن أن تكون هذه الأحكام شريرة بشكل أعمى كما يمكن أن تكون أيضا خيرة. كان الســـير نورمـــان يصر على أن أي شخص يستطيع، بأدنى حد من التمرين، أن يسيطر على القـــوى اللاعقلانية التي توجد داخلنا. لقد نسيت النظام الذي اقترحه لفعل ذلك، إلا أن لـــدي نظامًا قد وضعته وأقترحه عليكم. إنني أقول إن مجرد إدراك أن "الحياة لعبة" هـــو سيطرة كافية.

تصر زوجتي أن القول بأن الحياة أو أي شيء آخر هو لعبة، تسطيح لها، إلا أن ما حملها على قول ذلك هو أن كلمة "لعبة" توحي لها فقط بتلك الألعاب المفتوحة للجميع التي كانت تلعبها عندما كانت بين العاشرة والعشرين في كنسية ويكهام. لقد شعرت بالغضب عندما خرجت من المستشفى ووصفت الأسابيع الستة التي أمضيتها هناك بأنها "تجربة مثيرة". لهذا ومن أجل القراء الذين توحي لهم كلمة "لعبة" بلعبة الكريكت والركبي، فعلي أن أؤكد بأن ما أكتبه هنا ألعاب "جديدة" بحيث إن الرياضياتي الشهير جون فون نيومان والاقتصادي المعروف أوسكار موكنشتيرن قد كتبا عنها في مؤلفهما الكبير "نظرية الألعاب والسلوك الاقتصادي"، وقد كتبت عنها في كتابي المنهجي الكبير لصالح المخابرات المركزية الموسوم "ألعاب غير حسابية لضابط المخابرات". إن وجهة النظر بأن "الحياة لعبة" التي أتبناها لا تسطح شيئًا، أنها فقط تجعل المرء يرى الأشياء بمنظرها الصحيح وإذا ما استعرت مفردات نيومان وموكنشتيرن فإنها "تضخم الفوائد" و"تقلل الخسائر". إنها أيضا تزودك بالمعايير التي تقرر بها ما هي الحدود العليا وما هي الدنيا لهذه الفوائد والخسائر.

فكر بالموضوع. إن التأمل فيه يجعلك إنسانا أفضل حتى لو لم تفهم النقطة الرئيسة الحقيقية التي كنت أركز عليها منذ الصفحة الأولى من هذا الكتاب.

* * * *

حياة
مايلز كوبلاند
الضابط في المخابرات المركزية الأمريكية
ودوره في مصر وسوريا ولبنان وإيران



ترجمة : صادق عبد علي الركابي
مكتبة مدبولي

مؤلف الكتاب مايلز كوبلاند من مؤسسى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، عمل مديرًا لمحطتها فى دمشق، وكان له دوره فى ثورة حسنى الزعيم ، وارتبط بعلاقات وطيدة مع بعض الشخصيات العربية إبان حكم الرئيس الزعيم جمال عبدالناصر ، كما كان له دور فى الإطاحة برئيس وزراء إيران الأسبق مصدق .

وحاول كارتر والسادات الإفراج عن الطيارين الرهائن فى إيران، لكنهما فشلا ومعهما كوبلاند، وهو كاتب بارع، وعقلية منظمة.

هذا الكتاب

هذا الكتاب هو سيرة حياة رجل عايش أهم أحداث منطقتنا ، وقد أسماه " اللاعب " ، لكن المترجم ارتأى تسميته " حياة مايلز كوبلاند ".

وفى هذا الكتاب يؤرخ المؤلف للفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية فى الوطن العربى والشرق الأوسط ، من خلال مذكراته الشخصية وملاحظاته الواعية ، فنتعرف على ظهور دول ، وأفول واختفاء وتوحيد دول ، وانقسام وبروز دول ، وقد شهدت المنطقة ظهور الكيان الصهيونى ، الذى اقتحم الشرق الأوسط فى هيئة عصابة محتلة لكافة الأراضى الفلسطينية العربية تحت شعار "من النيل للفرات " ، وحدد أمنه القومى بأكثر من مساحة ثلث الكرة الأرضية ، وفى المقابل، فقد شهدت المنطقة الثورات والانقلابات على الأنظمة السائدة، وانتعاش الشعور القومى لدى الأمة العربية.

الناشر